تاريخ الانشقاق
بين
الكنيستين
الشرقية والغربية

من القرن الأول إلى القرن الحادي عشر

تأليف

الأرشمندريتي جراسيموس مسرّة اللاذقي

رئيس كنيسة السوريين الأرثوذكس في الإسكندرية

أنطوان عاصي

في القرن السادس عشر ازداد الاهتمام بدراسة التاريخ البيزنطي والمصادر البيزنطية. إذ جرى وقتذاك في جهات عديدة بأوروبا، لا سيما ألمانيا وهولندا وإيطاليا، نشر مؤلفات كثيرة لمؤلفين في التاريخ البيزنطي، على الرغم من أن المؤلفات لم تكن بالغة الأهمية، إذ وقع الاختيار عليها عفواً واعتباطاً(١).

ولم تبدأ الدراسة الخالصة في فرنسا للتاريخ البيزنطي إلا أثناء القرن السابع عشر. ففي زمن لويس الرابع عشر، أضحى للدراسة البيزنطية مكانة ملحوظة، بفضل ما كان لفرنسا وسياستها من أهمية في أنحاء أوروبا. ففي أوائل هذا القرن ظهرت ترجمة فرنسية للنصائح التي بذلها الشماس أجابيتوس Agapetus للإمبراطور جستنيان(٢). وحوت مكتبة الكاردينال مازاران Mazarin، مؤلفات يونانية عديدة، وانتقلت هذه المجموعة بعد وفاته إلى مكتبة باريس (المكتبة الأهلية الحالية) وهي المكتبة التي أنشأها الملك فرانسوا الأول في القرن السادس عشر، وأضيف إلى المكتبة الملكية أيضاً ما كان لدى الوزير كولبير Colbert من مجموعة قيمة، ومن بينها عدد كبير من المخطوطات اليونانية، وأخذت مطبعة اللوفر تنشر سلسلة كبيرة للمؤرخين البيزنطيين. وأول كتاب تم نشره من هذه السلسلة كان كتاب John Cantacuzenus الذي صدر سنة ١٦٤٥. وفي سنة ١٧١١ تم نشر ٢٤ مجلداً من هذه المجموعة للمؤرخين البيزنطيين.

ومن أشهر الأساتذة الفرنسيين في القرن السابع عشر، دي كانج Du Cange (١٦١٠ ـ ١٦٨٨)، ولا زالت مؤلفاته عظيمة الأهمية حتى الوقت الحاضر. اشتهر دي كانج بأنه مؤرخ ولغوي وعالم آثار ودارس نقود، وشغوف بالفن، فضلاً عن عكوفه على العمل والدراسة، ومن أشهر مؤلفاته في التاريخ البيزنطي كتابه المعروف بتاريخ إمبراطورية القسطنطينية.

---

(١) Ostrogorowski: History of the Byzantine State, p.8.

(٢) Vasiliev: The Byzantine Empire, p.8.

وكتابه عن الأسرات البيزنطية، يتضمن تفاصيل وفيرة عن أنساب الأسرات البيزنطية؛ وكتابه عن القسطنطينية المسيحية، يشتمل على تفاصيل دقيقة عن خطط القسطنطينية حتى سنة ١٤٥٣. وأصدر دي كانج قبيل وفاته قاموسين أحدهما عن اللغة اليونانية، والآخر عن اللاتينية، في العصور الوسطى ولهذين المؤلفين أهمية كبيرة، لا سيما لما ورد فيهما من تعليقات قيمة. ومات دي كانج سنة ١٩٨٨، بعد أن بلغ من العمر ٧٨ سنة.

على أن معايير العلماء الأوروبيين عن العصور الوسطى لم تختلف إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر، فصار الأوروبيون ينظرون إلى العصور الوسطى نظرة مخالفة لما كان يجري قبل الثورة الفرنسية وحروب نابليون، فأضحى التاريخ البيزنطي مجالاً للدراسة الجديدة والبحث العلمي(١). فكتاب مونتسكيو عن الرومان(٢)، الذي ألفه سنة ١٧٣٤، أي في ظل الأفكار السائدة في القرن الثامن عشر، إنما يمثل وجهة نظر مؤلفي هذا العصر. فاعتبر مونتسكيو التاريخ صلة للتاريخ الروماني، وأخذ على حد تعبيره «منذ النصف الثاني من القرن السادس، يطلق على الإمبراطورية الرومانية، عبارة الإمبراطورية اليونانية (البيزنطية)». وقسا مونتسكيو في حكمه على هذه الإمبراطورية، وأشار إلى أن الإمبراطورية البيزنطية، بلغ من فداحة عيوبها ونقائصها، وسوء الأحوال الاجتماعية والدينية بها، وضعف قوتها الحربية، ما جعل من العسير إدراك سر بقاء هذه الدولة حتى منتصف القرن الخامس عشر. وترتب على أهمية هذا التساؤل عنده، أنه جعل الفصل الأخير من كتابه، شرحاً للعوامل التي أدت إلى إطالة عمر هذه الإمبراطورية. فأرجع هذه الأسباب إلى ما وقع بين المسلمين من الاضطراب والنزاع، وإلى اكتشاف النيران الإغريقية، وإلى ازدهار تجارة القسطنطينية، وإلى استقرار المتبربرين في إقليم الدانوب، فدرأوا عن الدولة ما تعرضت له من الاعتداء والهجوم(٣).

(١) Ibid, p. 7

(٢) Considerations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur decadence

(٣) Vasiliev: op. cit. p. 7

أما المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون Gibbon (١٧٤٧ ـ ١٧٩٤)، مؤلف كتاب تداعي الإمبراطورية الرومانية وسقوطها(١). فإنه ولد في ٢٧ إبريل سنة ١٧٣٧، وتلقى جانباً من تعليمه في وستمنستر، ثم على يد مؤدبين. وحصل في كلية مدلين Madalen بأكسفورد سنة ١٧٥٢ على شهادة إتمام الدراسة الثانوية التي تؤهله للالتحاق بالجامعة. ثم ارتحل إلى لوزان بسويسرا، فعكف على دراسة اللغة الفرنسية، والآداب اليونانية واللاتينية، وكتب التاريخ والفلسفة. وبلغ تأثير إقامة جيبون في سويسرة مدة طويلة، أنه اعتبرها وطنه الثاني. أشار إلى ذلك فيما بعد حين كتب «لم أعد إنجليزياً، ففي مستهل الشباب، منذ السادسة عشرة من عمري حتى الحادية والعشرين، غلب على آرائي، وعاداتي، وعواطفي، طابع أجنبي، إذ كان ينطمس كل ما يعلق بذهني عن انجلترا، وتضاءل استخدامي للغتي القومية، ولو أنه عُرض على مقدار معتدل من الثروة مقابل النفي المؤبد، لقبلت ذلك بكل ارتياح». وفي لوزان التقى بأشهر رجال العصر، ڤولتير الشاعر، المؤرخ، الفيلسوف.

أن الدراسات الجدية عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية لم تظهر إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر. ومن أشهر المؤرخين الذي أسهموا بقسط كبير في تقدم الدراسات البيزنطية، فنلاي Finlay. وتناول كتابه تاريخ بلاد اليونان منذ الفتح الروماني حتى سنة ١٨٦٤(٢) . وخلف فنلاي ترجمة ذاتية(٣) ألقت ضواءاً كبيراً على العوامل التي تأثر بها في كتابه. ولد فنلاي في انجلترا في سنة ١٧٩٩، وتلقى بها التعليم الابتدائي. ونظراً لأنه اختار المحاماة مهنة له في المستقبل، ارتحل إلى مدينة جوتنجن بألمانيا ليستكمل دراسته في القانون الروماني. وحين ذهب لوداع عمه، نصحه عمه بأن يكد ويجتهد في دراسة القانون الروماني، غير أنه أشار بأنه إنما يتوقع أن يزور

(١) The decline and Fall of the Roman Empire.

(٢) A History of Greace from the Conquest by the Romans to the Present Time (B.C. 146 – A. D. 1864).

(٣) أنظر هذه الترجمة في الجزء الأول من كتابه History of Greece, ed. H.F. Tozer. I.XXXIX. XLVI

ابن آخيه بلاد اليونان قبل عودته إلى انجلترا. وكأنما تنبأ العم بما قام به فنلاي فيما بعد من دراسة تاريخ بلاد اليونان.

شبت الثورة اليونانية وقتذاك، ولفتت إليها أنظار أوروبا بأسرها. وبدلاً من أن ينصرف فنلاي إلى دراسة القانون الروماني، عكف على دراسة تاريخ بلاد اليونان، فدرس اللغة اليونانية، وفي سنة ١٨٢٣ عزم على أن يزور بلاد اليونان حتى يتعرف إلى حياة أهلها. واجتمع باللورد بيرون أثناء إقامته في بلاد اليونان ١٨٢٣، ١٨٢٤. ثم عاد إلى بلاد اليونان، واشترك في حملة غوردون التي توجهت لرفع الحصار عن أثينا(١).

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، لفت نظر المهتمين بدراسة التاريخ البزنطي، مؤلفات، بابا ريجوپولو Paparrigopoulo الأستاذ بجامعة أثينا، إذ ألف كتاباً بالفرنسية عن الحضارة اليونانية(٢). وإمتاز هذا المؤرخ بأنه نظر إلى التاريخ من زاوية القومية البحتة، فرد كل ظواهر التاريخ الهامة إلى أصل يوناني. ولم تكن السيطرة الرومانية على اليونانيين، في نظره إلا أمراً طارئاً. ووجه باباريجوپولو اهتمامه إلى دراسة عصر الأباطرة اللايقونيين في القرن الثامن الميلادي. ولم ينظر المؤلف إلى حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة من ناحية مظهرها الديني، بل باعتبارها محاولة ترتب عليها إصلاح اجتماعي أصيل، صدر من صميم أعماق الروح الهلينية، ويعتبر هذا الإصلاح بالغ الأثر في المجتمع البيزنطي. ولذا أعقب عصر اللايقونيين مرحلة من التاريخ، تعتبر رد فعل لما سبق. فالتزم أباطرة البيت المقدوني باتباع سياسة مخالفة لسياسة اللايقونيين، ترمي إلى المحافظة على الأوضاع القديمة(٣).

ومن أشهر العلماء الألمان المهتمين بدراسة التاريخ البيزنطي كارل هوپف C. Hopf (١٨٣٢ ـ ١٨٧٣)، ومن أهم كتبه المتعلقة بالتاريخ

(١) Vasiliev, op. cit pp. 14 – 15 Ostroforowski p. 7.

(٢) Histoire de la Civilisation Hellenique. Paris 1878.

(٣) Vasiliev: op. cit. p. 18.

البيزنطي، كتابه عن تاريخ بلاد اليونان، منذ بداية العصور الوسطى حتى العصر الحديث(١). جعل هوپف الجانب الأكبر من هذا الكتاب لمعالجة فترة حكم الفرنج في الشرق، فهو أول من أورد دراسة مستفيضة لتاريخ هذه السيطرة، لا فحسب في المواطن الهامة ببلاد اليونان، بل أيضاً في جزائر بحر إيجه. واعتمد في دراسته على مخطوطات لم تكن وقتذاك قد نشرت، ومن ثم يعتبر ما كتبه عن هذه المرحلة من التاريخ من المصادر الأصلية.

وألف هوپف عن هذه الحقبة من التاريخ، مقالات وكتباً، صارت بعد واته مصدراً كبير الفائدة للمؤرخين.

ويعتبر بيوري (١٨٦١ ـ ١٩٢٧)، من أعظم المشتغلين بالدراسات البيزنطية. كان أستاذاً بجامعة كمبردج: ألف ثلاثة مجلدات في التاريخ العام للإمبراطورية البيزنطية، تتناول التاريخ البيزنطي من سنة ٣٦٥ حتى سنة ٨٦٧، نشر المجلدين الأولين سنة ١٨٨٩ بعنوان:

History of the later Roman Empire from Arcadius to Irene

وانتهى في هذين المجلدين إلى سنة ٨٠٠، أي إلى زمن تتويج شارلمان إمبراطوراً، روما، على يد البابا ليو الثالث.

أما الكتاب الثالث، فإن بيوري نشره سنة ١٩١٢ بعنوان:

History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Bassil.

وتناول فيه الحوادث من سنة ٨٠٢ حتى سنة ٨٦٧، وأعاد بيوري سنة ١٩٢٣ نشر المجلدين الأولين؛ غير أنه وقف فيهما عند نهاية الحكم جستنيان (سنة ٥٦٥) بعد أن أضاف اليهما زيادات ومادة جديدة.

ويرمي بيوري في كتبه إلى تأييد فركة أن الإمبراطورية الرومانية، ظلت قائمة منذ القرن الأول الميلادي إلى القرن الخامس عشر. والدليل على استمرار الإمبراطورية، أن سلسلة الأباطرة لم تنقطع، منذ أغسطس قيصر،

(١) Geschichte Griseschland von Beginne des Mittelallers bisani die neure Zeit ظهر في ١٨٦٧، ١٨٦٨

حتى قنسطنطين باليوغوس آخر أباطرة الرومان. على أن هذه الحقيقة أحاط بها الغموض والاضطراب بما لجأ إليه بيوري، من إطلاق لفظة «بيزنطي» أو «يوناني» على الإمبراطورية في مراحلها التاريخية المتأخرة. على أن المؤرخين الذين استخدموا عبارة «الإمبراطورية البيزنطية»، يختلفون في التاريخ الذي ينبغي أن ينتهي عنده استعمال عبارة «الإمبراطورية الرومانية»، ويبدأ فيه استخدام عبارة «الإمبراطورية البيزنطية». فهم تارة يجعلون الحد الفاصل، تأسيس القسطنطينية على يد قنسطنطين الكبير، وتارة يتخذون سنة ٣٩٥، أي السنة التي توفى فيها تيودوسيوس الكبير، بداية لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وتارة يعتبرون عصر جستنيان الحد الفاصل بين المرحلتين الرومانية والبيزنطية؛ وتارة يجعلون عصر ليو الايسوري بداية التاريخ البيزنطي. ولكل مؤرخ مذهبه في ذلك، ولا يستطيع أن يتهم الآخرين بالخطأ، لأن كل هذه التقسيمات ليست إلا تقسيمات تحكيمية. فالإمبراطورية الرومانية، عند بيوري، لم تنته إلا سنة ١٤٥٣، ولا يؤثر في هذه الحقيقة عبارات الإمبراطورية البيزنطية، أو اليونانية، أو الرومانية، أو الرومانية اليونانية، ومع ذلك فإن بيوري يشير إلى أنه كيفما كان الأمر، فإن مرحلة جديدة من التاريخ، يصح أن يطلق عليها التاريخ البيزنطي، قد بدأت منذ زمن قنسطنطين الكبير، ويرى أن في التاريخ من المراحل البارزة يؤدي ما تجمع فيها من اتجاهات وآثار الماضي إلى تغيير محسوس فيتحول العالم إلى مرحلة جديدة. وفي تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ظهرت هذه المرحلة البارزة، أوائل القرن الرابع الميلادي، إذ أن عهد قنسطنطين الكبير، يعتبر بداية عصر يفوق في الخبرة والتجارب عصر أغسطس قيصر، مؤسس الإمبراطورية الرومانية(١).

ولهذه الأسباب، جعل بيوري للطبعة الأولى من الكتابين اللذين يعالجان الفترة السابقة على سنة ٨٠٠ م، عنوان The later Roman Empire. إذ حدث سنة ٨٠٠ أن توج شارلمان في روما إمبراطوراً. ومنذ هذا التاريخ، نستطيع

أن نميز بين إمبراطوريتين: الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية، ويترتب على ذلك أن عبارة «الإمبراطورية الرومانية الشرقية» لم تعد تتفق مع التقسيم الذي سبق الإشارة إليه. وما يتردد من الإشارات الى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطورية الرومانية الغربية، في القرن الخامس الميلادي، وإلى سقوط الإمبراطورية الغربية سنة ٤٦٧، إنما يؤدي إلى الخلط والاضطراب، وليست هذه العبارات دقيقة المعنى. لأن الإمبراطورية الرومانية كانت في القرن الخامس الميلادي، إمبراطورية متحدة غير مجزأة، على الرغم من وجود أكثر من إمبراطور: فإذا جرى الحديث عن إمبراطوريتين في القرن الخامس، فإن ذلك يخالف الدستور الإمبراطوري، الذي يعتبر الإمبراطورية موحدة.

وتاريخ بيوري يستوجب الاهتمام، إذ حرص على معالجة تاريخ الشطر الشرقي من الإمبراطورية حتى سنة ٨٠٠، ولم يغفل ما جرى في الشطر الغربي من الحوادث، وهذا يتفق بطبيعة الحال مع فكرة وحدة الإمبزاطورية الرومانية. ولم يقتصر بيوري على معالجة التاريخ السياسي، بل أفرد فصولاً لمعالجة موضوعات الإدارة والأدب والحياة الاجتماعية والجغرافيا والفنون. فالفصلان الأول والثاني من الطبعة الثانية لكتابه History of the Later RomanEmpire جعلهما لدراسة الدستور والملكية والنظام الإداري. واعتمد بيوري على ما كتب في التاريخ البيزنطي من مصادر ومراجع روسية وبلغارية، وبفضل درايته وإتقانه للغة الروسية واللغات السلافية(الصقلبية)(١).

ومن مجموعة كمبردج للعصور الوسطى Cambridge Mediaeval History تاريخ شامل للدولة البيزنطية، فضلاً عن المصادر والمراجع الوافية في هذا الموضوع واشترك في كتابة هذه المجموعة أعلام المؤرخين من سائر بلاد العالم، تولى كل منهم كتابة الفصول المرتبطة بدراسته واختصاصه العلمي. وفي الجزء الأول من هذه المجموعة فصول عن التاريخ

(١) Baynes: A Bibliography of the Works of J.B. Bury. Cambridge, 1929.

البيزنطي منذ زمن قنسطنطين الكبير حتى وفاة الإمبراطور أنستاسيوس سنة ٥١٨. وتناول الجزء الثاني دراسة الدولة منذ زمن جستنيان حتى عصر مناهضي عبادة الصور المقدسة. أما الجزء الرابع فعالج البيزنطي منذ سنة ٧١٧ حتى سنة ١٤٥٣. وتناول أيضاً دراسة ما يرتبط بالدولة البيزنطية من الدول والشعوب المجاورة أمثال الصقالبة والأرمن، والمسلمين والمغول، والشعوب البلقانية. وهذه المجموعة جرى إصدارها باشراف بيوري، وتقوم الأستاذة Hussey الآن بإعادة نشر الجزء الرابع من هذه المجموعة.

ويعتبر قازيلييف من أشهر المؤرخين المشتغلين بالدراسات البيزنطية(١) وكتابه عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، جرت ترجمته إلى لغات عديدة. والطبعة الإنجليزية الأخيرة ظهرت سنة ١٩٥٢ في أمريكا ـ في ماديسون (ويسكنسن). ويتناول هذا الكتاب دراسة تاريخ الدولة البيزنطية منذ القرن الرابع الميلادي حتى سقوطها سنة ١٤٥٣. ولقازيلييق كتاب يقع في ثلاثة مجلدات عن علاقة العرب بالروم Byzance et les Arabes ترجمه إلى الفرنسية الأستاذان جريجورا وكانار، ونقل الدكتور محمد عبد الهادي شعيره الجزء الأول إلى اللغة العربية بعنوان العرب والروم. ولقازيلييف مقالات عديدة في التاريخ البيزنطي، نشرها في مجلات عديدة ولا سيما مجلة Byzantion التي تختص بالدراسات البيزنطية.

أما كتاب الحضارة البيزنطية الذي ألفه رونسيمان وصدر سنة ١٩٣٣ فاشتمل الفصل الأول منه على إنشاء مدينة القسطنطينية. وفي الفصول التالية مجمل للتاريخ السياسي والنظم الرومانية: الدستور، والإدارة، والديانة، والجيش، والأسطول، والدبلوماسية البيزنطية، والتجارة، وحياة المدن، والتعليم والأدب والفن. ثم جعل رونسيمان فصلاً عن علاقة بيزنطة بالعالم الخارجي.

ومن الكتب الهامة في التاريخ البيزنطي كتاب Le monde Orientale الذي ألفه ديل ومارسيه Diehl & Marçais وظهر سنة ١٢٩٣٦ في مجموعة التاريخ

(١) History of the Byzantine Empire

العام الذي يشرف على نشرها جلوتز Glotz وتناول كتاب دراسة العالم الإسلامي وعلاقته بالدولة البيزنطية (٢٩٥ ـ ١٠٨١)، وعالج أيضاً التاريخ البيزنطي من النواحي السياسية والاقتصادية والتشريعية والحضارية. واشتمل هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع القيمة.

واشترك ديل مع جروسيه وآخرين في تأليف كتاب بعنوان شرق أوروبا L. Europe Orientale، صدر سنة ١٩٤٥، وتناول دراسة التاريخ البيزنطي من ١٠٨١ إلى ١٤٥٣ م واهتم بتاريخ البلغار والصرب والأتراك العثمانيين والبنادقة والجنوبيين، ومملكة قبرص، وأرمينيا، والممتلكات اللاتينية في بحر الأرخبيل، ويعتبر من أهم الكتب وأعظمها قيمة.

ومنذ سنة ١٩٤٠ استقر العالم الروسي أوستروجوروسكي Ostrogorowski في بلغراذ، فأصدر بالألمانية كتابه المعروف بتاريخ الدولة البيزنطية(١). ويعتبر الكتاب من الطراز الأول في الدراسات البيزنطية. عالج دراسة تاريخ الدولة البيزنطية حتى سقوطها ١٤٥٣ م. أشار باختصار إلى تاريخ الإمبراطورية في الفترة بين ٣٢٤ حتى ٦١٠، وما يلي ذلك، راعى فيه التفصيل، واهتم بالمصادر والمراجع، واعتنى بما أورده من الحواشي، وأولى أوستروجورسكي اهتماماً خاصاً بالناحية السياسية، وما تأثرت به الدولة البيزنطية من التغييرات السياسية التي حدثت في داخل البلاد وخارجها. وتكتمل هذه الدراسة بما نشره أرستروجوروسكي في تاريخ كمبردج الاقتصادي، الجزء الأول، عن الأحوال الزراعية في الدولة البيزنطية(٢).

وظهر في ١٩٤٧ ـ ١٩٥٠ مؤلف بريير Loris Bréhier عن العالم البيزنطي في ثلاثة أجزاء. Le monde Byzantin

(١) History of the Byzantine State.

ترجمه بهذا العنوان الأستاذة Hussey، جرى نشره سنة ١٩٥٦.

(٢) Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages, (Cambridge Economic History of Europe from the Decline of the Roman Empire Vol. 1.)

I – Vie et mort de Byzance.

II – Les institutions de l'Empire Byzantin.

III – La Civilisation Byzantine.

وهذه الكتب الثلاثة امتازت بدقة الدراسة، وللكتاب الأخير منها أهمية خاصة، لما انفرد به في معالجة الحضارة البيزنطية، إذ عرض صورة جلية لحياة المجتمع البيزنطي على اختلاف طبقاته.

أما المرجع الذي لا غنى عنه في دراسة مصادر التاريخ البيزنطي فهو الكتاب الذي صنفه كارل كرمباخر[1] Karle Krumbacher الأستاذ السابق بجامعة ميونخ، وصدرت منه الطبعة الثانية سنة ١٨٩٧. اشتمل هذا الكتاب على مادة وفيرة تدل على سعة علم المؤلف وصبره ومثابرته. ولما اشتهر به كرمباخر من الإلمام باللغات الصقلبية والروسية، واستخدام ما ورد بهذه اللغات من المصادر الأصلية. على أن هذا الكتاب بالغ الأهمية للمتخصص في الدراسات البيزنطية.

وتعتبر مجلة الدراسات البيزنطية Byzantiniscbe zeischrift أول مجلة اهتمت بالدراسات البيزنطية، ظهرت لأول مرة في ألمانيا سنة ١٨٩٢ واشتملت على مقالات عديدة في التاريخ البيزنطي، فضلاً عما ورد بها من نقد وعرض كل الكتب المتعلقة بهذا التاريخ، وما ظهر من المؤلفات التي تتناول الدراسة البيزنطية. وأنشأ هذه المجلة كرمباخر، وصدر منها حتى سنة ١٩١٤ نحو ١٢ مجلداً. وظهر في سنة ١٩٠٩ فهرس لما في المجلدات الاثنتي عشرة الأولى من موضوعات ومقالات. ثم توقف صدور هذه المجلة أثناء الحرب العالمية الأولى، حتى إذا انتهت الحرب عادت إلى الظهور. ويشرف على تحريرها فرانز دولجر Dolger.

وتقرر في المؤتمر الدولي الخامس للعلوم التاريخية المنعقد في بروكسل

(١) Oeschichte der Byzantinischen literature von Justinien bis Zum Ende des Oströmischen Reiches.

(٢ ـ الدولة البيزنطية)

١٩٢٣، إصدار مجلة للدراسات البيزنطية. وفي أول مؤتمر دولي للمهتمين بالدراسات البيزنطية، الذي انعقد في بوخارست ١٩٢٤، ثم وضع الخطط المؤدية لإصدار هذه المجلة. وفي سنة ١٩٢٥ ظهر أول عدد من هذه المجلة التي اتخذت اسم Byzantion، بإشراف جراندور وجريجوار ولا زالت هذه المجلة تصدر في بروكسل (بلچيكا).

وازداد الاهتمام بدراسة ما يتعلق بالتاريخ البيزنطي من البرديات ومن أشهر المهتمين بهذه الناحية أيدريس بل[2] وباتاي Bataille.

(١) Bell: The Decay of Civilisation. Journal of Egyptian Archaeology, X. (1924).

قال القديس بولس الرسول

«واسألكم ايها الاخوة ان تلاحظوا الذين يُحدثون الشقاق والشكوك خلافاً للتعليم الذي تعلمتموهُ وأعرضوا عنهم. فإن امثال اولئك لا يخدمون ربنّا يسوع المسيح بلْ بُطونهم. وبعذوبة الكلام والدُّعْاءِ بالبركات يخدعون قلوب السُّلماء. فإنَّ طاعتكم قد اشتهرت عند الجميع وانا فرِحٌ بكم. غير اني أُحبُّ ان تكونوا حكماءَ في الخير وبُسطاءَ في الشر. والهُ السلام يسحق الشيطان تحت اقدامكم سريعاً».

قال القديس يوحنا الذهبيُّ الفم

«إنَّ الذي يشقُّ كنيسة الله يعمل عملاً افظع من عمل الذي ينُكرُ الايمان. لان الذي ينُكر الايمان يُهلك نفساً واحدةً فقط. اعني نفسهُ. واما الذي يشقُّ الكنيسة فيُهلك نفوساً كثيرة. ولهذا السبب خطيئتهُ اعظم من خطيئة الكافر»

وقال ايضاً

«لا شيءَ يستطيع ان يشقَّ الكنيسة مثل حب الرئاسة. ولا شيء يُغضبُ الله اكثر من انشقاق الكنيسة. وسبب ذلك حبُّ الرئاسة».

١ ـ البطاركة والقياصرة والباباوات الى مجمع ليون

نبدأ من تاريخ الانشقاق بحادث استرجاع القسطنطينية الى قبضة الروم في عهد القيصر ميخائيل باليولوغُس بعد ان استولى عليها اللاتين مدة ستين سنةً. وكان على كرسي مملكتها هذا القيصر نفسهُ وعلى كرسي بطريركيتها ارسانيوس افطوريانوس وعلى كرسي اسقفية رومية البابا أُوربانوس الرابع وذلك في سنة ١٢٦١. ان مركز القيصر ميخائيل كان حرجاً اولاً من جهة الشعب الذي اخذ يكرههُ. ثانياً من جهة البطريرك وصي يوحنا الملك الشرعي القاصر وثالثاً من جهة البابا الذي حرم الجنَويين حلفاءهُ ومن جهة الافرنج بوجه الاجمال. وان الحال دعت من جراءِ ذلك الى ان تتبادل بينه وبين البابا والبطريرك وبين كنيستي الشرق والغرب علاقاتٌ مهمة. اما تفضيل ذلك فهو كما يأتي:

لما توفي قيصر الروم الشرعي ثيودُورُس ذُوكالاسكارِس سنة ١٢٥٩ اقام البطريرك ارسانيوس ووزيرُهُ موزالُن اوصياء على ابنه القاصر يوحنا لاسكارِس. ولكن موزالُن قُتل بعد تسعة ايام لوفاة ثيودورُس بمكيدة من القائد ميخائيل باليولوغُس. فبقي البطريرك وحدُه وصيًّا على القياصرة وخلا الجو لميخائيل ان يدوس حقوق القيصر الشرعي القاصر ويسلب المملكة منه. فبعد فتح القسطنطينية وتخليصها من سلطة الافرنج قلع عيني القيصر القاصر ظلماً وعدوانًا ونفاه ونفى اخوته ايضاً. فلما رأى البطريرك ارسانيوس هذا العمل الشنيع اشمأَزَّ منه واصدر حرماً ضده. وكذلك الشعب نفر منهُ لأنهُ كان يعتبرهُ غير شرعيٍّ على كرسي المملكة على أن ميخائيل قد غلط غلطاً سياسياً ايضاً ازعج المملكة بسببهِ وهو انهُ بدلاً من ان يوجه عنايتهُ الى

اصلاح داخلية المملكة اقام على محالفة الجنَويين التي لم يستفِد منها سوى الخسائر وعقد محالفةً اخرى مع البندقيين سنة ١٢٦٨ منحهم فيها اعفاءً تامًّا من رسوم كل تجارةٍ بريةٍ وبحرية ومركزاً مستقلاً لهم في القسطنطينية نفسها واعترف بسلطتهم على كل جزائر بحر الروم وغيرها على شرط مساعدتهم لهُ حين الاقتضاء. ولما كان البابا قد حرم الجَنويين ظنًّا منهُ بانهم ساعدوا القيصر على استرجاع القسطنطينية كان القيصر قلقاً من معاداة البابا وشعوبهِ لهُ ومحاذراً اياهم وهكذا كان مركزهُ من كل جهةٍ حَرِجاً.

وقد زادت على هذه الارتباكات ارتباكاتٌ غيرها ومحذوراتٌ كان ميخائيل يحسب لها كل ساعةٍ الف حساب وهي من جهة بلدوين قيصر اللاتين الذي طردهُ الروم من القسطنطينية. فانهُ لجأَ الى ايطاليا وخطب ابنة الملك كارلوس لابنهِ فيليب آملاً بالحصول على مساعدتهِ في استرجاع القسطنطينية ووعدهُ ان يمهرها بمقاطعتَي اخائيا وبلاد المورة. ووعدهُ ايضاً بانهُ اذا مات هو ابنه بلا وارثٍ فتكون مملكة القسطنطينية ملكاً حلالاً لبيت كارلوس. فقبل الملك كارلوس الاتفاق ووعدهُ بالمساعدة بكل نشاط.

ثُم ان بلدوين لجأ ايضاً إلى البابا أربانوس الرابع وطلب منه المساعدة فلم يلبث البابا ان دعا كل ملوك اوربا دعوةً حارةً ليشهروا السلاح ضد القيصر ميخائيل باليولوغُس. فلما علم ميخائيل بهذه الاستعدادت المنصوبة ضدُّهُ اخذ يتزلف الى البابا ويظهر لهُ المودة والخضوع ويعامل رسلَهُ بكل لينٍ ويرسل اليه الرسل ويكثر لهُ الهدايا والتمليق وكانت غايتهُ الحقيقية من هذه السياسة استمالة البابا الى جانبهِ ليرد عنهُ هجمات الشعوب الغربية مع ان الغاية الظاهرية كانت الغيرة على ضم الكنائس. واذ بلغَهُ ان البابا حرم الجنَويين حلفاءَهُ اغتنم فرصةً يظهر فيها هذا الميل فكتب الى البابا يقول «اني لمستغربٌ حرمكم الجَنويين لانهم عقدوا معي محالفةً وكيف وانتم الاول في الدرجة بين الاساقفة تفضّلون اهراق الدم على السلام بين شعوبٍ مسيحيةٍ مثل الجنَويين واليونان ... ولكنَ بما اننا لا نستطيع ان نصلح ما مضى علينا ان نتلافى المستقبل. فانتم بصفتكم اباً لنا عليكم ان تسبقونا في هذا العمل. ومع ذلك انا قبلكم اطلب السلام من دون ان اقول

الآن شيئاً لا في العقائد ولا في الطقوس لان الاتفاق على هذه الامور سهلٌ متى كان السلام». فلما اخذ البابا هذا الخطاب امتلأَ فرحاً وسروراً وبادر الجواب الى القيصر شاكراً اللّه لأنهُ ارى القيصر طريق الحق وموضحاً لهُ الفرح الذي خامرهُ على اثر رسالتهِ ومطالبهِ السلمية. ولكنهُ اكّد لهُ ان دمتهُ لا تطاوعهُ ان يسمح لأحدٍ من امراءِ اللاتين وملوكهم بمساعدةٍ للروم ما لم يخضعوا للكرسي الروماني.

وفي سنة ١٢٦٣ ارسل البابا أُربانوس الرابع نفسهُ الى القيصر اربعة من الإخوة الفرنسسكانيين ليتم بينهُ وبينهم الاتحاد في الايمان. وفي سنة ١٢٦٤ توفي وقام بعدهُ البابا اكليمس الرابع وكان اكليمس أرمل وكان له ابنتان وولدٌ واحدٌ ذكر. وقد عُرف في التاريخ بانهُ كان يُعطي اولادُه واقاربُهُ من اموال الكنيسة اكثر من الباباوات الذين سبقوهُ. فكرر القيصر الكتابة اليه وارسل اعتراف ايمانهِ ليطلع عليه. واذ كان هذا الاعتراف بعيداً عن البِدَع البابوية وقريباً من العقائد الارثوذكسية استاءَ البابا منهُ ورفضهُ وقال ان فيه ضلالاتٍ كثيرةً. ومن ثمَّ كتب هو (اي البابا) اعتراف ايمانٍ غيرهُ وارسلهُ سنة ١٢٦٧ الى القيصر ليمضي عليهِ هو والبطريرك وسائر رجال الكنيسة للشرقية واتباع مملكتهِ جميعهم. وكان هذا الاعتراف شاملاً كل اعتقادات كنيسة رومية وبِدَعها واحدةً واحدة. وعلى الخصوص عقيدتها برئاسة البابا على الكنيسة كلها حيث قال بصريح العبارة «ان اسقف رومية نظراً للسلطة اللائقة بالرئاسة المعطاة لهُ من اللّه لهُ الحق ان يحكم في كل خلافٍ او خصام يَقوم على العقائد الدينية او غيرها ويقررها وان رتبة الكنائس البطريركية صادرة من الكنيسة الرومانية وحدها وان المجامع ايضاً لا حاجة اليها بالكلية ووجودها وعقدها اهانة محضة. لأنه من انعقادها يمكن ان تخرج النتيجة ان الكنيسة الرومانية ليست قادرةً وحدها ان تجد الحقيقة وتظهرها» هذا ما قالهُ البابا اكليمس الرابع وهو لا ريب كلامٌ حقٌّ لا يختلف عاقلان في صحته. فانهُ متى كان البابا صاحب السلطان المطلق، لم تعد حاجةٌ الى المجمع ومتى اعتُبر المجمع ضرورياً لم يعُد البابا سيداً مطلقاً. ولكن التاريخ من بدئهِ الى الآن يشهد بضرورة المجامع. فينتج عن ذلك ان

البابا ليس السيد المطلَق كما يدعي لهُ الباباويون بل هو اسقف ذو رئاسة على دائرته مثل كل بطريرك في كرسيه. وهذا البرهانُ عقليٌّ لا مراءَ في صحتهِ وهو من بابا مستبدٍّ اكثر من غيرهِ أراد ان ينفي المجامع ليؤيد استبداده فلم يفلح لان المجامع عُقدت قبلهُ وبعدهُ. وفي مدتهِ ايضاً فناقض نفسهُ بنفسهِ وانتصرت الحقيقة عليه. ثم انهُ ختم تلك الرسالة الى ميخائيل بقولهِ «اننا لا نقصد ان نضع هذا الايمان تحت مناقشات جديدة. ولذا نرسلها اليكم مع رسلنا المختارين بسيطةً وبلا براهين اما انتم فيمكنكم ان ترسلوا الينا معهم بعضاً من نخبة علمائكم ونعدكم باننا اذا وجدنا حاجةً نجمع مجمعاً يصدّق على الاتحاد» ولكن هذه المخابرة ايضاً ما أثمرت شيئاً بل اوضحت ان البابا نفسهُ الذي قال في اواسط رسالتهِ بعدم الحاجة الى المجامع ختمها بوعدهِ ان يعقد مجمعاً. اما القيصر ميخائيل فلم يكن قادراً ان ينتبه الى مثل هذه المطاليب الضخمة.

هذا ما كان من جهة رومية. اما من جهة البطريرك أرسانيوس وصي القيصر الشرعي المظلوم فقد تظاهر القيصر ميخائيل بانهُ غير مستاءٍ من حرمهِ اياهُ. وبعد ذلك اخذ يرجوهُ ان يحلهُ منهُ وكان يتذلّل امامهُ وينحني لهُ كاشفاً رأسهُ ليحلهُ ولكن البطريرك كان يكرر توبيخهُ على ما ارتكبهُ من الظلم خصوصاً بعد ان حارب مسيحيي ايبيرُس وترك جهات الشرق تئنُّ تحت نير الأغراب. فاذ لم يستفد القيصر من رجائه حلاًّ اضمر الشر للبطريرك وبمناسبة بعض شكاوي طفيفة قُدمت لهُ على البطريرك عقد مجمعاً حضرهُ نيقولاوس بطريرك الاسكندرية وافثيميوس بطريرك انطاكية ودعا اليه البطريرك للمحاكمة. غير ان البطريرك لم يحضر بل اعترض على المجمع بأَوجه يطول شرحها هنا وكذلك المجمع لم يرَ وجهاً للحكم عليه ولعزلهِ سوى عدم حضورهِ. فعزلهُ القيصر لهذه العلة بحكم مجمعٍ ونفاهُ الى جزيرة بريكونيسُس في ايار سنة ١٢٦٧ حيث توفي نحو سنة ١٢٧٥ وسيم بعدهُ جرمانوس الثالث اللازيّ الوطن مطران ادرنة بطريركاً في ٥ حزيران سنة ١٢٦٧. وكان هذا البطريرك صديقاً حميماً للقيصر غير انه لم يُقِم على كرسيهِ اكثر من ثلاثة أشهر لأن الشعب كان يعيرهُ ويلومهُ بانهُ رقي كرسيًّا

أُنزل عنهُ صاحبهُ الشرعي ظلماً فاستعفى من تلقاءِ نفسه في ١٤ ايلول سنة ١٢٦٧ واقام في القسطنطينية لوحدهِ. وفي ٢٨ كانون الاول انتُخب بطريركاً يوسف الاول رئيس دير جبل غاليسيون وكان قبلاً كاهناً متزوجاً ولهُ بنتٌ وبعد وفاة زوجتهِ ذهب الى الدير المذكور واقام فيه وكان على جانب قليل من المعارف لكنهُ كان رجلاً تقيًّا كثير الحلم رحوماً للفقراء وشيخاً وقوراً وزاهداً متقشفاً وهو كان معلم ذمة القيصر وقد سيم بطريركاً في ١ كانون الاول سنة ١٢٦٨ ففي اول قداسٍ بعد شرطنتهِ تقدم القيصر اليهِ امام ابواب الهيكل المقدس وقال علناً انهُ خطئَ خطيئتين عظيمتين احداهما حنثهُ باليمين الذي اقسمهُ بان لا يغتصب كرسي المملكة والأخرى قلعهُ عيني ابن الملك. ثم طلب الصفح عنهما وانكبَّ على وجههِ لينال الحل. فوقف البطريرك اولاً وقرأ عليه صلاةً كتوبةً ثم تبعه رؤَساءُ الكهنة وقرأُوا عليهِ صلاة الحل كلٌّ لوحدهِ بعد الآخر. وهكذا خرج القيصر خارج الهيكل فرحاً ومسروراً بالحل الذي نالهُ. غير ان الرأي العام كان مشمئزاً من هذا الحل وخصوصاً الرهبان واحزاب البطريرك ارسانيوس فانهم كانوا يعتبرون البطريرك معتدياً على صاحب الكرسي وكانوا لا يعترفون لا به ولا بالقيصر. هكذا كانت الاحوال في القسطنطينية حين وصلت مطالب البابا اكليمس التي لم يسعَ القيصر الاَّ الأعراض عنها ولو بحس الظاهر.

على ان المملكة كانت تتهددها اخطار كثيرة في هذه المدة. فمن جهة غار عليها البلغار وكان ميخائيل منهمكاً بردهم عنها. ومن جهة أُخرى كان بلدوين القيصر اللاتيني السابق قد اتحد مع كارلوس ملك صقلية واستعدَّ لمحاربته واسترجاع القسطنطينية منهُ. فارسل القيصر سفارةً سنة ١٢٦٧ الى لويس ملك فرنسا مؤلفةً من يوحنا بيكُّس حافظ اوراق الكنيسة العظمى ومن قسطنطين ميليتينيوتي رئيس شمامسة الاكليرُس الملوكي ليقنعاه ان يمنع اخاهُ كارلوس عن اشهار السلاح على الروم. وكذلك ارسل سفارةً الى البابا لهذه الغاية عينها ولكن السفارة لم تفُدهُ لأن البابا مات سنة ١٢٦٨ وبعد مدة توفي لويس ايضاً وتعذرت اقامة بابا آخر يخلف اكليمس لخلافٍ بين الكرادلة دام مدة ثلاث سنوات فيها كرسي رومية بلا بابا يرأَسهُ.

وهذا الحادث نقطة انتقاد للشرقيين على كنيسة رومية لا حاجة الى التطويل في وصفها اذ قد تقدمت جملة انتقادات مثلها. وبعد تلك المنازعات الطويلة انتُخب البابا غريغوريوس العاشر وقد كان رئيس شمامسة في فلسطين مقيماً في عكا حيث جاءَ مع اردارد ابن ملك انكليترا وكان اسمه قبلاً ثيوبلد فدعي من عكا وسيم بابا سنة ١٢٧١ وبعد سيامتهِ ارسل اليهِ القيصر ميخائيل رسلاً نيكيفوريتسي وآلنوباردا واعطاهما رسائل اليهِ مبيناً فيها رغبتهُ باتحاد الكنائس وآملاً منهُ المساعدة الأدبية كما طلب من سلفهِ. غير ان رسلهُ احتملوا في ايطاليا مشقات واهاناتٍ كثيرة بدعوى انهم خائنون للاّتين واخيراً وضعوا تحت القصاصا على ان البابا اذ كان عالماً بأحوال الشرق اخذ يسعى من حين ارتقائه كرسي البابوية في ان يؤلّف حملةً صليبيةً قويةً يُخضِع بها كل الكنائس لكرسيهِ ويخلص المسيحيين من كل سلطة غريبة عن سلطتهِ فعقد النية على جمع مجمعٍ مسكونيٍّ يتمم بهِ مقاصدهُ وصمَّم على ان يُجبر القيصر وشعوبهُ بكل الوجوه على الرضوخ لاومراهِ ولو بالقوة. واذا كان واقفاً على احوال القسطنطينية وعلى آراء القيصر ومقاصدهِ قاوم اول كل شيءٍ مساعيهُ ضد كارلوس عند البنادقة واستمالهم الى الانسلاخ عن مخالفة ميخائيل ثم كتب الى كل ملوك اوربا ان يكونوا على اهبة الحرب ودعاهم جميعاً هم وجميع رؤساءِ كهنة بلادهم الى حضور المجمع المنوي عقدهُ في مدينة ليون في السنة القادمة وارسل الى القيصر ميخائيل سفراءَ ايارونيموس دي آسكِلِه وريَموند بيرِنكاريوس وبونوغراتي دي سانكتوجواني وبوناونتوردي مونزيلاً وغيرهم ومعهم رسائل شديدة اللهجة يحثهُ بها على وجوب الحضور الى المجمع لاتحاد الكنائس اذ يقول «انهُ اذا كان يرغب الاتحاد فلا وقت للحصول عليهِ افضل من وقت وجودهِ هو على كرسي البابوية. فيجب عليهِ ان يحضر بلا تعلُّل الى المجمع القادم عقدهُ اما شخصيًّا او بارسال نوابٍ وان يعترف امام الجمع اعتراف الايمان الذي ارسلهُ اليهِ رؤَساءُ كهنة رومية اسلافهُ ويوقع عليه بلا مباحثة وهكذا يحصل على صداقة اللاتين ومساعدتهم في كل حاجةٍ».

هكذا «بدأت المخابرات بين الشرق والغرب في موضوع إتحاد

الكنائس. والذي يتأمل في هذهِ المخابرات من مبادئها يرى انها ستنتهي بلا نتيجة. لأن القيصر لم يكن قاصداً من الاتحاد سوى ملافاة الحرب المتهددة اياهُ من جهات الغرب ولذا اخذ يتساهل في كل امرٍ يريدهُ البابا ليصل الى مقصدهِ مع علمهِ بالاهانات التي نالت رسلهُ قبلاً في الغرب ومنه. ثم اخذ يحتال على البطريرك ورؤَساءِ الكهنة ليؤَمّنوا على قولهِ ورأيهِ. فكان يوضح لهم فضل السلام بين الكنائس وينصحهم ليقبلوهُ على اية كيفية كانت ولكنهم كانوا يسمعونهُ ويسكتون لا عن استحسان لآرائهِ بل عن اسفٍ داخليٍّ لأنهم كانوا عالمين بان البابا لا ينوي سوى اخضاع كل الكنائس والاستبداد بها وان كنائس الشرق لا يمكنها ان تخضع لسلطان الاحبار والرومانيين الذين كانت منزلتهم في الشرق منزلة التجار وارباب الحرَف بل تبقى مخافظةً على اسقلالها وسلطتها التي ارتدتها منذ القديم حلةً لا تُسلَب منها. فكانوا يلاطفون سفراءَ البابا وسيتقبلونهم بكل بشاشةٍ وانسٍ تاركين الامور تجري مجراها.

ومن جملة ما حصل من هذا القبيل ان القيصر ميخائيل دعا في احد الايام الى مجلسهِ البطريرك ونخبة الاكليرُس واخذ يجتهد في اقناعهم تارةً بالوعد وتارةً بالوعيد على قبول الاتحاد موضحاً لهم فائدتهُ وباذلاً جهدهُ في ان يبرهن لهم انهُ عملٌ لا يخالف اجراآت الكنيسة ولا اعمال السياسة. وكان يقدم لهم امثالاً من علاقات القياصرة السابقين مع الباباوات مثل القيصر يوحنا باطاجي ومن رؤَساءِ الكهنة معاصريهِ الذي لم ينعتوا اللاتين بوصف الهراطقة بل جل ما كانوا يطلبونهُ منهم ان يحذفوا من دستور الايمان زيادة «والابن» التي اضافوها بلا مسوّغٍ ولم يكونوا يتجنبون الاشتراك معهم في الخدَم حين كان اللاتين يقبلون الطقوس الشرقية. ومن جملة ما كان يقولهُ لهم قولهُ «بماذا يخالف القوانينَ مَن يذكر البابا في الصلوات ما دامت العادة تسمح لهُ ان يذكر كل الجمع الآخر الحاضر في خدمة القداس مع انهم ليسوا باباوات؟ ثم ان خطأَ الذين يسمونهُ اخاً واولاً اقل من ذلك بكثير. لأن الغني الوارد في الانجيل ايضاً سمَّى ابرهيم اباً له مع انهُ كان بعيداً عنهُ كل البعد. على اننا وان قلبنا باستئناف القضايا الى رومية فمن منا

يعبر البحر الى هناك ليُحاكم امام محكمة بعيدة كل هذا البُعد؟» هذه كانت اقتراحات القيصر ميخائيل وهي كما يرى القارئ اقتراحات لا يُقصَد بها الاتحاد الصحيح المبني على التعليم المسيحي المستقيم بل انما كان يقصد بها إخضاع الكنائس الشرقية لاستبدادا البابا وهذا ليس اتحاداً بل استعباد.

اما البطريرك فلما سمع هذا الكلام لبث ساكتاً وكان ينظر الى يوحنا بيكُّس حافظ اوراق الكنيسة العظمَى لأنهُ كان من خيرة علماءِ عصرهِ كأنهُ يومئ اليه بطرفٍ خفيّ ليجيب على كلام القيصر. ولكن يوحنا لم يفُه بكلمة لا سلباً ولا ايجاباً اما لأنهُ كان خائفاً غضب القيصر او لأنه كان عالماً بالعلوم الخارجية فقط على قول بعضهم واما العقائد المسيحية فلم يكن متضلعاً فيها فلما رآهُ البطريرك على هذه الحال امرهُ امراً قطعياً ان يقول رأيَهُ في امر اللاتين واضعاً اياهُ تحت الحرم ان لم يقل ما يعتقد. حينئذٍ اجاب بيكُّس وقال: ان العذاب الابدي مخيفٌ له اكثر من القصاص الوقتي. ثم اوضح ما يراهُ في الموضوع فقال: انهُ يوجد كثيرون يُسمَّون هراطقة ولكننا اذا فحصنا دواخلهم لا نجد فيهم ولا هرطوقياً واحداً. ويوجد آخرون هم في الحقيقة هراطقة في ضميرهم من دون ان يكون اسم الهرطقة مُطلقاً عليهم ومن هؤُلاءِ اللاتين او الرومانيون. فلما سمع القيصر هذا الكلام غضب وحل الجلسة وسجن بيكُّس ثم دعا قسطنطين ميليتينيوتي المذكور قبلاً وجرجي القبرصي وامرهما ان يؤلفا صكًّا دفاعيًا عن مذهب اللاتين فألّفا الصك المسمَّى «طومُس» فارسلهُ الى البطريرك وطلب منهُ ان يقدم من كل بدٍّ جواباً عليهِ لا يستند الاَّ على الكتاب المقدس. غير ان البطريرك وكل مجمعهِ رفض الطومُس الملوكي المذكور بحضور إفلوجيا شقيقة القيصر ولم يقبلهُ. ثم كُتب صكٌّ ارثوذكسيٌّ بقلم العالمين ايوب الياسيتي وجيورجيوس باشيميرِس معروفٌ بالانديطومُس (اي نقيض الطومُس) وفيه حُكِم على قضية الزيادة في دستور الايمان وعلى ذكر اسم البابا حكماً مبنيًّا على شهاداتٍ قوية فلما رأى القيصر ان مساعيهُ كلها ذهبت ادراج الرياح نوى ان يستميل اليهِ يوحنا بيكُّس المسجون فارسل اليهِ وهو في السجن جملة شهادات من كتب آباءِ الكنيسة وعلمائها يظهر للمطلع عليها لأول

وهلة انها تؤَيد دعوى اللاتين. فطلب بيكُّس ان تُعطَى لهُ الكتب التي أُخذت منها تلك الشهادات ليقابلها فسمح لهُ القيصر بها وأخرجهُ من السجن واخذ يلاطفهُ الى ان قال بيكُّس بعد اطلاعهِ ومراجعته الشهادات المذكورة: ان الفرق بين الكنيستين ليس عظيماً بقدر ما كان يُظَن وان الاتحاد ممكن اذا كان اللاتين يحذفون الزيادة من الدستور وان كلا الكنيستين تستطيعان ان تتفقا على صورة التعليم القديمة وهي: ان الروح القدس ينبثق من الآب بالابن قال نيكيفورُس غريغوراس المؤَرخ «ان هذا الرجل الذي كان واقفاً للاتين كسيفٍ ذي حدين قد رجع على اعقابهِ الى الوراءِ وشدَّ الى جهةٍ واحدة ليجعل لهُ الظفر» فلما اشتهر امر بيكُّس بانحيازهِ الى رأي القيصر والبابا اما عن وعدٍ كما قال بعضهم او عن خوفٍ ووعيد كما قال غيرهم او عن كلا الامرين او عن قلة علمٍ في المسائل الدينية كما قال باشيمرِس المؤَرخ اعرض ايوب الياسيتي الى البطريرك ان يكتب الى جميع المسيحيين منشوراً يوضح رأيهُ في هذا الاتحاد. فاصدر البطريرك وكثيرون من الاساقفة هذا المنشور الى جميع المؤمنين واكدوا فيهِ انهُ لا البطريرك ولا الاساقفة الموقعين معهُ يوافقون على اتحادٍ يخالف الايمان ولا ينطبق على تعليم الكنيسة المسلَّم من الآباءِ.

على ان القيصر لم يكتفِ باغواءِ بيكُّس وحدهُ بل لما رأَى البطريرك الشيخ غير موافق لهُ على مقاصدهِ انقلب الى اضطهادٍ عظيم ضد الارثوذكسيين. فترك البطريرك وشأنهُ اما لأنهُ لم يجسر ان يمد يداً اليهِ او لأنهُ كان يأمل ان يستميله الى رأيهِ وكان يوقرهُ لأنهُ حلهُ من الحرم على ما قال البطريرك الاورشليمي دوسيثاوس وهو الارجح ولكي يظهر لمعتمدي البابا مقدار اخلاصهِ الى رويمة اخذ يضطهد الشعب الارثوذكسي فعذَّب بعضاً ونفى بعضاً وسلب املاك بعضٍ لأن كل سكان المدينة تقريباً كانوا مقاومين لهذا الاتحاد الثقيل نيرهُ. ثم ادعى بان المدينة كلها كانت ملكهُ لأنهُ هو فتحها واخذها من الافرنج وان السكان مديونون لهُ باجرة بيوتها ومخازنها عن عشر سنين ونيف وشرع في تحصيل هذهِ الأجور منهم ولذا اضطر كثيرون منهم ان يتركوا المدينة ويهاجروا الى البلاد التي لم تكن

تحت سلطته وقام اضطرابٌ عظيمٌ في كل ناحية وتألفت احزابٌ كثيرةٌ في الابرشيات بعضها سُمي يوسفيًّا نسبةً الى البطريرك يوصف وبعضها ارسانيًّا نسبة الى ارسانيوس وانضاف الى كلٍّ من هذه الأحزاب جمعٌ كثيرٌ من الرعاع الجياع كما هي العادة في مثل هذه الظروف فازدادت الخطوب.

وكان القيصر قد قد كتب الى البابا يخبرهُ انهُ عازمٌ عزماً قطعيًّا على ارسال نوابٍ عنهُ الى المجمع المنوي عقدهُ لاجراء الاتحاد وان الروم ميالون الى المسالة على حسب رأيه. فانتخب سفارةً ألّفها من البطريرك السابق جرومانوس المستعفي من ثاوفانس مطران نيقيه وبعض الاتباع من الاكليرُس وارسل معهم من العوام اللوغوثيت الكبير جاورجيوس الاكروبوليتي والبستياريوس الاول بانارتوس والترجمان الاول بيريوتي وغيرهم من الاتباع وارسل ايضاً معهم هدايا ثمينةً جدًّا للبابا والكرادلة. فسافروا ومعهم معتمدو البابا على سفينتين ركب احداهما رجال الكنيسة ومعهم جاورجيوس الاكروبوليتي وفي الاخرى ركب رجال القيصر وحاشيتهم ومعهم الهدايا.

وفي هذه الاثناء اخذ القيصر يقنع البطريرك يوسف ان ينسحب موقتاً من دار البطريركية ويقيم في دير محافظاً على وظيفته والقابه وسائر حقوقه وامتيازاته وذكر اسمه في الكنائس ووعده بانه اذا لم يوافق نوابهُ على الاتحاد يوجع الى كرسيه وان وافقوا فحينئذٍ يستعفي ان لم يقبل الموافقة. فاقتنع البطريرك مراعاةً للسلام وتنحّى في الدير المسمّى «بريفلبْتُس» (واليوم اسمهُ صولوموناستير) او دير الماء.

على ان اجراآت القيصر هذه لم تكن بلا مقاوم. فان حزباً كبيراً في القسطنطينية مؤلفاً من رجال متنوعين وفي مقدمتهم كثيرون من الاساقفة والاكليرُس كانوا يضعون العقبات في سبيل اماني القيصر. فرأى القيصر ان يبذل وسعهُ في استمالة هذا الحزب ايضاً الى غايته ومن ثمَّ احال عليهم يوحنا بيكُّس ليقنعهم ولكنهُ لم يستفد شيئاً. فدعاهم الى جلسة عندهُ واخذ يلومهم على عدم خضوعهم لسلطته وخصوصاً على رشقهم اياهُ باللعنة على قوله ثم شرع بطلاقة لسانه وحسن اساليبه يقول لهم انهُ لا لغرضٍ آخر يطلب الاتحاد الاّ لملافاة الحروب الهائلة وشفقةً على دماء الروم المزمعة ان تُهرق

وان الكنيسة ستبقى على ما هي بلا احداث شيءٍ فيها مهما كان زهيداً. وعلى هذه الصفة كان يقنعهم ان يقبلوا ثلاثة امور فقال لهم «ان ما يُطلَب منا قبولهُ ثلاثة امور وهي: رئاسة البابا وحفظ حق الاستئناف لهُ وذكر اسمه. وكل واحدٍ من هذه الأمور اذا تأملها احد تأملاً مدققاً يَرهُ بحكم الضرورة امراً فارغاً. فانه متى يا ترى يأتي البابا الى هنا ويتقدم على الآخرين؟ او متى يجول في فكر احدٍ من الذين لهم قضايا ان يقطع كل هذا البحر ويعبر كل هذه اللجة ليحصل على ما يظن انهُ يفوز به؟ واما ذكر البابا في كنيستنا العُظمَى عندما يكون البطريرك خادماً القداس فماذا يضرُّ او يخلف الاستقامة؟ فكم وكم اظهر اباؤنا من مثل هذا التساهل السياسي لأجل الصلح؟... هكذا السياسة هي شيءٌ عجيبٌ جدًّا. فاننا اذا خرجنا نحن ايضاً بحسن سياستنا من الخطر الذي يتهددنا فلا يُحسَب علينا ذلك خطأً بل ينضم الينا ويقبل معنا ذوو المعارف السامية ايضاً... وعلى انكم تفعلون خلاف ذلك انتم. فانكم تخاصمون بعضكم بعضاً وترشقوننا باللعنات كأننا نريد على زعمكم ان نبتعد عن العوائد القديمة ونغيرها ونستبد لها بعوائد اللاتين. فليقُل كل واحدٍ منكم الآن رأيهُ ناظراً الى صالح الكنيسة العام».

فلما سمع الاساقفة هذا الكلام اجابوا جواباً واحداً بانهُ ولا واحد منهم رشق القيصر بلعنةٍ وقالوا انهم مستعدون ان يقبلوا القصاص المدني اذا اثبت احدٌ عليهم جريمةً مثل هذه. ثم قالوا ايضاً انهم لا يتسطيعون ان يقرروا قراراً قانونياً بدون البطريرك. وانهُ اذا كانت المملكة في خطرٍ من الأعداء فلا يمكنهم ان يساعدوها بغير الصلوات والابتهالات الى الرب. فلما سمع القيصر هذا الجواب اخذ كل واحدٍ على حدة وكان يسألهُ لوحده سرًّا عن رأيه الشخصي في الموضوع فبعضهم رفضوا القضايا الثلاثة المطلوبة من القيصر وبعضهم قبلوا تقدُّم البابا والاستئناف اليه على امل ان قبول هاتين القضيتين لا يتعدى القول. ولكن ذكر البابا في الكنيسة لم يقبلهُ احد منهم لكي لا يشتركوا مع الذين غيَّروا دستور الايمان ويشاركوهم. اما الايكونومُس الكبير ثيوذُورُس اكسيفيليتُس فوقع على قدمي القيصر وكان يتضرع اليه ان لا يطلب ملافاة حرب بعيدة خارجية مجهولة الخطر باثارة

حربٍ قريبة داخلية اكيدة الخطر وقال لهُ اننا ولو سالمنا نحن فمستحيل ان الجميع يتسامحون.

فلما رأى ميخائيل انهُ لا يستطيع شيئاً بالقول عزم ان يستعمل الصرامة ويجبرهم على قبول الاتحاد فطلب ان يعطوه صكًّا ممضياً منهم يصرّحون بهِ انهم خاضعون لسلطتهِ المدنية. ثم شرع في سلب موجوداتهم بصفة عصاةٍ عليهِ وطردهم من بيوتهم لأنها من املاك الملّة واعدَّ سفناً وقوارب ليرسلهم عليها الى مناف وسجونٍ متنوعة. فلما صادف الاكليرُس هذه المعاملة القاسية اخذوا يتضرعون اليهِ ان يتأنّى الى ان يرجع السفراء من رومية على الأقل. غير ان القيصر اصرَّ على عزمهِ واصدر امراً بان كل من يتمنع عن الامضاء على الاتحاد بقبول القضايا الثلاث يُعتبر مجرماً ضد المملكة ولكي يريح ضمائرهم من جهة الايمان صرَّح بانهُ لا يسمح ولا بزيادة حرفٍ واحدٍ او نقطة واحدة على دستور الايمان وايَّد تصريحهُ هذا باقسامٍ عظيمة ولعناتٍ رهيبة وأكَّد انهُ لا يطلب منهم سوى قبول القضايا السابق ذكرها قبولاً ظاهريًّا بالقول فقط من باب التساهل السياسي. وعلى اثر ذلك كثيرون من ذوي القلوب الضعيفة امضوا على طلبهِ. اما الثابتون على التعاليم القديمة والآراء الابوية فأُرسلوا الى المنافي ومن جملتهم ايوب الياسيتي والخطيب هولوفولُس وعشرة معهما فأنهُ نفاهم الى نيقية بعد ان جلدهم بطُحل (جمع طحال) الخرفان واذاقهم مرَّ الاهانات.

٢ ـ مجمع ليون

فلما اقلعت السفينتان بالسفراءِ والهدايا من القسطنطينية ووجهتها رومية كما ذكرنا قبلاً وصلتا الى جهات ميلايا هبَّت عليها ريحٌ شديدةٌ قام البحر لها وقعد وعظمت امواجهُ حتى اسفر النوءُ عن غرق احداهما بمن فيها من الركاب وهي التي كانت فيها الهدايا فلم ينجُ منها احدٌ قط. واما سفينة البطريرك جرمانوس فبالجهد خلصت من الخطر. فلما وصل الذين عليها الى رومية قابلوا البابا غريغوريوس واظهروا لهُ خضوعهم وبشّروه

بخضوع الكنيسة الشرقية ايضاً على ما تصوروا وسلّموهُ تحارير القيصر. وكان القيصر في تحريرهِ الى البابا يسميه «بابا جميع المسيحيين وبطريركاً مسكونيًّا» ويؤكد لهُ بقَسَم قبول اعتراف الايمان الذي كان ارسلهُ الى القسطنطينية سلفهُ البابا اكليمس الرابع. ومع انه كان يعترف في تحريرهِ برئاسة البابا كتب اليه في ما يلي ذلك في الرسالة عينها يرجوهُ ان يسمح للكنيسة الشرقية بان تحفظ الدستور بدون الزيادة وتحافظ على طقوسها وعوائدها التي حفظتها الى الآن والتي لا تخالف الترتيبات المجمعية القديمة وتسليم الكنيسة. وقد فوَّض الى نوابهِ في هذه الرسالة ان يقوموا مقامهُ في ما يلزم. ثم ان السفراءَ قدموا للبابا كتاباً آخر عن لسان بعض الاساقفة لم تذكر فيهِ اسماؤُهم وانما ذكرت اسماءُ مراكزهم فقط كقولهِ مثلاً «مطران افسُس واكسرخوس كل اسيا مع الاكليرُس الذي عندي» من دون ان يُعرَف اسم هذا الاسقف. ومثلهُ الباقون. وكان هذا الكتاب مشتملاً على خمسة وثلاثين امضاء على هذه الصفة تعترف فيهِ بان البابا رئيس كهنةٍ عظيم وممتاز على الكرسي الرسولي فقط وتشهد على مساعي القيصر في اتحاد الكنيسة رغماً عن اصرار بعض من اصحابها وتخبرهُ بان البطريرك خلافاً للرجاوات التي قُدمت لهُ من الجميع لم يرضَ ان يغير رأيهُ ولهذا السبب قد انسحب من الكرسي الى ديرٍ منتظراً رجوع السفراءِ ليقدم الوقار الواجب للسيدة الرومانية. فلما وقف البابا على هذه الافادات سرَّ سروراً عظيماً واحتفى برسل القيصر احتفاءً جزيلاً ثم جاءَ معهم الى المجمع في مدينة ليون فبلغوها في ٢٤ حزيران سنة ١٢٧٤ واستقبلوا فيها استقبالاً شائقاً من الاساقفة الغربيين. وفي ٢٩ حزيران عيد الرسولين بطرس وبولس خدم البابا نفسهُ قداساً احتفالياً جدًّا قرئ فيه الانجيل باليونانية واللاتينية وكذلك دستور الايمان قُرئ باللغتين مع الزيادة «والابن» ورتل رسل القيصر في وقت الخدمة ابياتاً منظومة مدحاً وتمليقاً للبابا على ما ورى رواة الغرب. قال المؤرخ الغربي فلوري «ان هذا العمل (ان كان صحيحاً) يجلو لنا عن هؤلاءِ السفراءِ هوى الغرَض الذي كان يدفعهم الى تلك الدناءة كلها» على ان بعض مؤرخي الشرق المتأخرين ينكرون حضور احدٍ من اليونانيين في هذا المجمع الليوني مستندين على ان هذه الرواية وردت في

تواريخ اللاتين ولم يذكرها مؤرخو الروم القدماءُ ومستندين ايضاً على ان جاورجيوس الاكروبوليتي لوغوثيت القيصر قد ترك لنا مؤلفات ضد اللاتين لم تزل موجودة. ولكننا لا ندخل نحن في هذا البحث الآن بل نفرض رواية الغربيين صحيحةً اختصاراً لطول الجدال ونعتبر عدم ايرادها من مؤرخي الروم دليلاً على عدم اهميتها عندهم لأن هؤلاءِ السفراء لم يكونوا نواباً عن الكنيسة الشرقية كلها بل عن انفسهم والقيصر فقط وكانوا مدفوعين بحكم الاضطرار من قوة القيصر الى هذا السفر وهذا الاجتماع ضد ضميرهم حتى ان الاكروبوليتي اظهر نفسهُ اعظم مفيدٍ للاتين راى من واجباته ان يكتب بعد ذلك ضد تعاليم اللاتين وعقائدهم ليكفِّر ما ارتكبهُ ضد الذمة والاستقامة. هذا وان لمؤرخي الغرب عادةً برهنًا عليها مراراً والتاريخ كل يوم يقدم برهاناً جديداً عليها وهي انهم يحبون ان ينسبوا الى بطاركة الشرق واساقفتهِ اعمالاً هم براءٌ منها ولا أثر لها في غير مخيلة رواتها ليسندوا اليها حقوقاً للبابا ولو انها لا تفيدهُ. ولا ريب في ان ما يروونهُ هنا عن البطريرك السابق جرمانوس ومن معهُ كان من هذا القبيل ولا يفيد البابوية شيئاً لأن كل اعمال هذا البطريرك الغير الشرعي مهما وكيفما كانت انما كانت شخصية ولا علاقة لها بالكنيسة الشرقية وهيئتها القانونية وبطاركتها الشرعيين الاربعة.

اما المجمع فكان قد بدأ جلساتهِ من ٧ أيار بعد ان فرغ صبرهُ من انتظار الروم ولم يحضروا وكان قد عقد ثلاث جلسات ولكن بعد حضور رسل القيصر عُقدت جلسةٌ حافلة في ٦ تموز برئاسة البابا غريغوريوس نفسهِ وهي الجلسة الرابعة وكان قد دُعي الى هذه الجلسة بطلبٍ من البابا توما الاكويني ويوحنا بوناونتورا اعظم علماء اللاهوت في كنيسة الغرب. غير ان توما توفي وهو على الطريق مسموماً من كارلوس على ما يقال وكذلك بوناونتورا توفي ايضاً قبل نهاية المجمع. وكان توما الاكويني قد كتب ضد العقائد الارثوذكسية مأموراً من البابا اكليمس الرابع والآن دُعي الى المجمع ليقنع بواسع علمهِ السفراءَ اليونانيين في صحة العقائد اللاتينية. فيتضح من هذا ان محور البحث انما كان العقائد اللاتينية وانهُ لم يكن خلافٌ في العقائد الارثوذكسية لا قبل ولا بعد. على ان امر اقناع سفراءِ

القيصر لم يكن محتاجاً الى فطاحل العلماء بل كان اسهل من كل سهل. لأن غرضهم في اتمام مشيئة مرسلهم بلا ادنى معاكسة كان لهم اقوى من كل حجةٍ وبرهان ليقبلوا بلا صعوبةٍ آراءَ البابا ويعترفون بايمان كنيستهِ بلا مقاومة.

وفي هذه الاثناء حضر سفراءُ من بلاد التَتر الى البابا لمهامٍ خصوصية. فأرسل البابا اساقفة وكرادلة اسقبلوهم كما استقبلوا رسل القيصر المسيحي تماماً. وكان يقابلهم في جلساته الخصوصية مع الاساقفة ويذاكرهم امامهم في اشغال المجمع حتى ان المؤرخ العربي فلوري ندَّد بعمل البابا هذا وخلطهِ الامور الدينية بالمصالح المدنية ثم لما معقد المجمع دعاهم الى حضورهِ وهم من الامم لا علاقة لهم بمجمعٍ عامٍّ دينيٍّ ولا غاية من حضورهم سوى ان يُروا مجد البابا العالي ...

فلما عُقدت الجلسة اوضح البابا سبب عقدها وقال ان اليونانيين قد خضعوا بارادتهم للكنيسة الرومانية من دون ان يطلبوا شيئاً زمنيًّا. ثم قال «فاننا كتبنا الى قيصرهم نسألهُ ما اذا كان يريد الخضوع لنا وهو ارسل الينا سفراءَ ليوافقونا على ذلك. فبرحمة الله قد رفض هذا الملك كل جدال وقبل طوع ارادتهِ رئاستنا واعتراف ايماننا. اما سفراؤُهُ فحضروا امامنا ليوضّحوا موافقة مُرسلهم وقبولهُ». فيرى القارئُ ان مدار الكلام هنا ايضاً انما كان القيصر وحدهُ ولا دخل للكنيسة الشرقية البتة. هذا هو كلام البابا غريغوريوس نفسهِ. وقد ورد في اعمال هذه الجلسة ان آباءَ المجمع لما سمعوا البابا يقول ان القيصر لا يطلب شيئاً زمنيًّا ارتابوا ولم يصدقوا حقيقة هذا القول ثم قُرئَت تحارير القيصر والاساقفة التي سبق ذكرها وبعد تلاوتها قام اللوغوثيت جاورجيوس واقسم عن القيصر انهُ يرفض الانشقاق ويقبل اعتراف كنيسة رومية مقرًّا باوليتها ووعد بانهُ لا ينفصل عنها مطلقاً. اما البابا فوقف وكشف رأسهُ وبكى ورتل الترتيلة «نسبحك يا الله» وبعد ذلك جلس واوضح باقوالٍ وجيزة فرحهُ باتحاد الكنيسة. وفي الجلسة الخامسة قام البطريرك المعزول جرمانوس مطران نيقية ووقفا في نصف الكنيسة واعاد جرمانوس قراءة دستور الايمان باللغة اليونانية مما لفظهُ البابا

باللاتينية حتى انهُ وصل الى الفقرة التي فيها الزيادة واعادها مرتين. فكان عملهُ هذا مخالفاً لطلب القيصر ولوعده الأساقفة الشرقيين بقَسَمٍ انه لا يمسُّ الدستور. اما المجمع فسمح للكنيسة الشرقية كرماً منهُ (!!!) بان تحافظ على طقوسها وعوائدها وتستعمل الدستور خالياً من الزيادة. هذه رواية مؤرّخي اللاتين التي ينكرها مؤرخو الشرق نرويها على علاتها. وهي لا تمسُّ الكنيسة بزلّةٍ سواءٌ كانت صادقةً او غير صادقة كما تقدم القول (١).

وفي نهاية الجلسة اراد البابا ان يستوفي مجدهُ فأمر بأن تُقرأ في المجمع تحارير خان التتر ضمن الكنيسة فكان المجمع مسيحيًّا وامميّاً في وقتٍ واحد. وهنا منتهى الغرابة على ما قال مؤرخو الغرب انفسهم(٢). ثم انّ البابا حلَّ المجمع واخذ يسعى في اصلاح ذات البين بين القيصر وملوك الغرب. ولكن على غير فائدة(٣).

---

(١) راجع دوسيثاوس ٩: ٢: ٤ فانهُ يقول «ان رسل القيصر ميخائيل جرمانوس ومن معهُ ذهبوا الى رومية لقبول القضايا الثلاث فقط وهي تقدُّم البابا وذكر اسمه. وحق الاستئناف اليه وانهم لم يقبلوا الزيادة في الدستور ولا وافقوا على التعليم بالانبثاق من الآب والابن مطلقاً.

(٢) فلوري ٨٦: ٤٤

(٣) ومن جملة تحديدات هذا المجمع كان تنظيم كونكلابو الكرادلة اي مجتمعهم وتحديد كيفية الاجتماع فانهم كانوا يجتمعون قبلاً لانتخاب البابا اينما شاؤُوا ومتى ارادوا. ولكن القانون الآن حصر لاجتماعهم في مكانٍ معلومٍ مقفولٍ من كل جهاته لا يدخلهُ احد غير الخادم الخصوصي للحاجات الضرورية. فبعد وفاة البابا يقفل عليهم هناك مدة عشرة ايام لا يخرجون فيها. وفي اثنائها هم مجبورون ان ينتخبوا بابا للكرسي فان لم يتم الانتخاب في الايام الثلاثة الاولى يمنع عنهم الاكل في الأيام التي بعدها ولا يعطى لهم سوى الخبز والخمر والماء ويناول لهم من النافذة غير ان هذا القانون لم يُرَاعَ دائماً. ففي انتخاب البابا اينوشنسيوس الخامس جروا عليه. ولكنهم رجعوا وداسوهُ الى ايام البابا بونيفاتيوس الثامن سنة ١٢٩٤ ثم صدَّق عليهِ بونيفاتيوس واخذ يُراعَى فيما بعد ذلك.

٣ ـ في ما جرى بعد المجمع الى نهاية القرن

بعد انحلال عقد المجمع رجع سفراءُ القيصر الى القسطنطينية ومعهم نوابٌ رومانيون. فلما وصلوا اليها واخبروا عما اجروهُ في ليون لم يتمالك الشعب الارثوذكسي عن المظاهرة ضد القيصر واعماله. فكان ينادي علانيةً «الآن آن الجهاد والشهادة الآن آن الاكاليل المجيدة بالاستشهاد» اما البطريرك يوسف فاستعفى استعفاءً قطعيًّا من الكرسي في شهر ايار سنة ١٢٧٥ واقام في دير رئيس الملائكة على بوغاز القسطنطينية. ثم نُفي الى قلعة شيلي على البحر الاسود ودُعي بدلاً منهُ الى كرسي البطريركية يوحنا بيكسُّس نصير البابوية السابق ذكرهُ. فانتُخب في ٢٦ ايار وسيم في ٢ حزيران من تلك السنة وكان احد العنصرة. على ان القيصر كان يسعى بكل وجهٍ لتأييد رأيهِ ونوال غايتهِ واقناع الشعب على اقتفاءِ اثرهِ. فقبل رجوع سفرائهِ كان قد اقام في قصرهِ قداساً احتفاليًّا في ١٦ كانون الثاني عيد سلسلة بطرس الرسول خدمهُ نيقولاوس مطران خلكيدون تحت صبغة الاتحاد البابوي. فقُرِئَ الرسائل والانجيل باليونانية واللاتينية وذُكر البابا من الشماس بلقب «الحبر الأقصى للسّدة الرسولية والبابا المسكوني» غير ان مثل هذه الأعمال لم تقوَ على افكار الشعب الارثوذكسي لأنهُ كان بوجه الاجمال يعتبر هذا العمل عصياناً وخروجاً عن جادة التعليم المستقيم ومرموقاً عن الارثوذكسية حتى ان افولجيا شقيقة القيصر نفسها كانت على خلافٍ معهُ في هذا الموضوع. ومثلها نيكيفورُس حاكم ايبيرُس واخوه يوحنا دوق باترا الجديدة وابنهُ البكر اندرونيكوس ولي عهده ولكنهُ لم يتظاهر بذلك امام ابيهِ. اما الذين انضافوا الى رأي القيصر ويوحنا فكانوا قليلين جدًّا والاكثرون لم يوافقوهما ولا ارادوا ان يخدموا القداس مع نواب البابا. بل لما سمعوا الشماس ينادي في الديبتخا بذكر البابا ويقول «غريغوريوس البابا ورئيس الكهنة الاقصى والعام الخ» ضجُّوا في وسط الكنيسة وكانوا يصرخون بعضهم لبعض «اتركوهم لا تمسُّوهم ولا تقربوا منهم بل ابعدوا عنهم (يعني عن انصار البابا). هكذا كانت القلوب مشامخةً من الاتحاد. فلما رأى القيصر ان الكلام اللّين لا يأتي بنتيجة عقد النية على اجبار

الارثوذكسيين على الاتحاد وساعدهُ البطريرك ولكنهما عبثاً اجهدا انفسهما لأن المملكة كلها امتلأت هيجاناً مدنياً ودينياً على اثر صدور حرمٍ من البطريرك ضد الذين لا يقبلون رأيهُ حتى ان بعض الاهالي اشهروا السلاح وتظاهروا بالعصيان ولم يعودوا يرضون ان يسموا اللاتين مسيحيين بل بدلاً من ان يقولوا «هذا رومي وهذا لاتيني» اخذوا يقولون «هذا مسيحي وهذا لاتيني» كأنَّ اللاتيني ليس مسيحياً وبذلك تمت نبوَّة ثيودورُس اكسيفيلينُس للقيصر كما سبق القول. ولكن القيصر بدلاً من ان يلين ازداد قساوةً فأخذ يضبط املاك الارثوذكسيين ويسجن بَعضهم وينفي بعضهم ويقلع اعين بعضهم ويجلد بعضهم ويقطع ايدي بعضهم الى غير ذلك من اساليب العذاب ضد كل واحد ايًّا كان بلا استثناءٍ ولو انهُ من اقربائهِ واخوتهِ حتى انهُ نفى اخته افلوجيا وقلع اعين اخويه مانوئيل واسحق واوصل الأذى الى كل جهةٍ من الجهات ولم يعفُ ولا عن اديرة جبل آثوس المقدس عينها. ولم ينحصر هذا الهيجان في طبقةٍ او قسمٍ من الامَّة بل تناول الجميع على السواءِ من اعاظم القوم الى ادنى طبقاتهم فكان الاكليرُس والرهبان والشعب من فلاحين وسكان مدن وتجار وصنّاع واولاد ونساءٍ يتذاكرون ويتجادلون في قضية انبثاق الروح القدس. وكانت الشتائم والانذارات تتوارد على البطريرك بيكُس مثل المطر وتغمرهُ كل وقت مثل السيل. اما هو فلكي لا يزيد الهيجان اضطر ان يلازم الصمت وقتاً طويلاً. غير ان كثرة الشتائم والاهانات والقذف والطعن اجبرتهُ بعد ذلك ان يحتج عن نفسهِ فلم تكن حجتهُ سوى زيتٍ على لهبٍ. ومع انهُ كان مسموع الكلمة عند القيصر وكثيراً ما خلَّص بنفوذهِ أُناساً مظلومين كان احياناً يُردُّ خائباً ويكون رجاؤُهُ سبباً لزيادة شقاء من يتوسط لهم ولهذا السبب اضطر مرةً ان يرمي للقيصر عصا الرعاية ويذهب الى دير ومرةً ان يلومهُ علناً في الكنيسة ولا يرضى ان يعطيهُ قطعة «البروتي» حسب العادة ما لم يطلق المظلوم. ومرةً ان يستشهد الله ضدهُ الى غير ذلك حتى انهُ اخيراً ترك البطريركية تماماً ولجأَ الى دير «الكلية الطهارة» (بناخْرَنضُس).

على ان اجراءات القيصر هذه كلها ضد ارثوذكسية الكنيسة لم تكن ناشئةً عن اقتناع بصحة عقائد اللاتين بل عن طمعٍ بنفوذ البابا على

كارلوس ليردعهُ عن محاربتهِ التي كان يحسب لها الف حسابٍ كما قلنا. ولكنهُ لم يستفد من هذه السياسة شيئاً. لأن البابا غريغوريوس العاشر لم تكن علاقاتهُ مع كارلوس سلميةً. فانهُ لما رقي كرسي البابوية اخذ يجتهد في اضعاف قوة كارلوس التي كانت تزداد من يومٍ الى يوم وعلى الخصوص حين سمع انهُ فاز على اخيهِ لويس وعمل في صقلية وفلورَنسا اعمالاً لا محل لذكرها هنا وانهُ اشترى لنفسه حقوق اللاتين على مملكة الشرق. فصار يمكنهُ ان يتهدد رومية خلافاً للوعد الذي وعد بهِ سلفهُ. فلامَهُ ودَعاهُ الى مجمع ليون. ولكن كارلوس لم يلبِّ الدعوة فصادق البابا رودُلف ملك جرمانيا واعترف لهُ بالملك وساعدهُ في استرجاع حقوق مملكتهِ على لونكوبَرديا ضد كارلوس. ولكنهُ لم يعش طويلاً بل توفي سنة ١٢٧٦ وقام بعدهُ البابا اينوشنسيوس الخامس وهو اول بابا من طغمة الدومينيكيين. وبعد ستة اشهر مات فخلفهُ البابا ادريانوس الخامس. وبعد اربعين يوماً مات فخلفهُ البابا يوحنا العشرون (اوال ٢١ اوال ٢٢) رجلٌ بسيط القلب وضعيف العقل كما شهد المؤَرخون وبعد مدة قليلة مات فخلفهُ نيقولاوس الثالث سنة ١٢٧٧ وكان رجلاً مهمًّا شجاعاً وجسوراً يقتحم الامور اقتحاماً ولا يرضي منها بالقليل وقد كان على سياسة البابا غريغوريوس في مقاومة كارلوس وصداقة رودُلف حتى اضطر كارلوس ان يعترف بحقوق رودُلف كلها ويستعفي من حقوقهِ على توسكيا. ولم يكتفِ نيقولاوس بهذا بل اتفق سرًّا مع اهالي صقلية وحرضهم على العصيان على كارلوس فاتفقوا مع بطرس ملك آراغونيا زوج قسطنديا ابنة منفريد عدو الباباوات ومع القيصر ميخائيل ففلحت هذه المكيدة تحت برقع مطالبة بطرس بحقوق زوجتهِ على كرسي مملكة صقلية كما سبق القول فصدَّق لهُ البابا على أحقية طلبهِ ومدَّهُ ميخائيل بالمال ليقاتل كارلوس عدوهُ. فأرسل بطرس اسطولاً وبحضورهِ اتفق ان رجلاً افرنسيًّا تجاسر ان يهين بنتاً من الصقليين خارج المدينة حيث كان احتفالٌ بصلاة المساءِ ثالث يوم عيد الفصح سنة ١٢٨٢ فقام الصقليون وذبحوا كل الفرنساويين وكل حامية كارلوس وهم يبانون ٨٠٠٠ فرنساوي. وهذه المكيدة هي المعروفة بمذبحة صلاة المساء الصقلية وهكذا انتقلت الجزيرة الى ملك بطرس الآراغوني. على ان ما استطاعهُ البابا لمصلحة ملك

جرمانيا ضد كارلوس لم يقدر عليهِ لمصلحة القيصر ميخائيل فخابت اماني القيصر وضعفت حماستهُ القديمة على الاتحاد هذا ما كان في القسطنطينية.

اما في رومية فان الجميع فهموا ان الاتحاد الذي عقدهُ القيصر مع البابا وكنيسته انما كان هذياناً محضاً وعليهِ ارسل البابا نيقولاوس سنة ٢٧٩ سفارةً زوَّدها بتعليماتٍ سريةٍ لاتمام غرضهِ واوصاها «بان لا يكون سلام الكنائس بالأقوال وحدها بل ان يوضحوا (الروم) بالفعل انهم يعترفون هم ايضاً ايمان اولئك (اللاتين) وهكذا يتممون الاتحاد وان يقرأوا امامهم دستور الايمان مع الزيادة اللاتينية وان يعطي كلٌّ من القيصر والاساقفة وسائر الاكليرس تعهداً جديداً خصوصيًّا ممضيًّا بيدهِ ومثبتاً بقَسَمٍ انهُ يبقى على ايمانهِ طبقاً لصك غريغوريوس العاشر وان يدور سفراؤُهُ كل المملكة الشرقية ويسمعوا يمين كل واحد من اكليرُسها على حدةٍ بانهُ يوافق الكنيسة البابوية في عقائدها وفي عاداتها وطقوسها ايضاً بلا تغيير شيءٍ حتى ولا حرف واحد. وقد اعترف هذا البابا بأن هذا القَسَم بدعةٌ مخالفةٌ لعادات الكنيسة الشرقية ولكنهُ مع ذلك قال ايضاً «بأن كل عادةٍ تخالف الحقوق العالية حقوق كنيسة رومية يجب ان تُلغَى بلا بدٍّ وان الاتحاد في الايمان لا يمكن ان يكون صحيحاً بلا وحدة الطقوس والعادات الكنائسية»، ثم انهُ اوصى سفراءَهُ كيف يجب ان يسلكوا ليجعلوا القيصر ان يرغب ويطلب كردينالاً يلازمه دوماً بصفة نائبٍ عن البابا ومديرٍ للمصالح الكنائسية. فقال لهم في جملة ما قال أليس يا ترى افضل لنا ان ندخل في هذا الموضوع لا بصفة طالبين بل بصفة مستفهمين؟ فنسأل اليونان هل بقي في ذاكرتهم او يوجد في اعمال مجامعهم كيف كان سفراءُ السدة الرسولية يُستقبلون عندهم واي حقوق كانت لهم. فان كان جواب القيصر موافقاً للمرغوب فاطلبوهُ منهُ خطًّا. وان لم يكن كذلك اوضحوا لهُ ما هو محفوظٌ عند اللاتين مما يتعلق بالكرادلة النواب. ولا تقولوا ذلك دفعةً واحدةً لكي لا تجعلوهُ ان يخاف بل بالعكس اجتهدوا بان تستأنسوهُ بالتدريج وتقنعوهُ بأن نائباً واحداً عندهُ يقوم مقامنا يكون نافعاً لهُ لا في المصالح الكنائسية فقط بل في الامور السياسية ايضاً.

فلما بلغ القيصر قدوم سفارة من رومية وعلم غايتها تكدَّر جدًّا واخذ يشعر بان المسألة لم تعُد مسألة فرقٍ في الطقوس ولا مسألة كلامٍ بسيطٍ بل هي مسألة خضوعٍ فعليٍّ تامٍّ لاستبداد رومية. وعرف ان هؤلاءِ السفراءَ سيلقونهُ في مشاكل جديدة بهذه المطالب ويسلبون راحة المملكة ولكنهُ لم يستطِع ان يرجع في ما تعب عليهِ الى الآن فافتكر ان يخدع الطرفين الارثوذكسيين ونواب البابا. ومن ثَمَّ ارجع البطريرك يوحنا بيكُّس الى الكرسي وجمع الاساقفة واعيان المملكة واكَّد لهم انهُ لا يسمح ولا بأدنى تغيير في دستور الايمان وفي طقوس الكنيسة وانهُ عازمٌ على اشهار الحرب ضد كارلوس لأنهُ تعدَّى عليهِ واخذ نابولي. وكان يرجوهم بتشديدٍ ان يلاطفوا سفراءَ البابا بعد وصولهم. فلما وصل السفراءُ اوضح لهم ايضاً مساعيهُ في سبيل الاتحاد ولكي يؤكد لهم ان السلْم الذي عُقِد لم يكن هذياناً وخداعاً بل حقيقةً ارسلهم الى السجن حيث شاهدوا كثيرين من اقربائهِ انفسهم مقيَّدين بالسلاسل لأنهم لم يرضوا بالاتحاد. ولأجل زيادة التأكيد ايضاً امر القيصر فكُتب كتابٌ تمليقيٌّ الى البابا ذيَّلهُ بتواقيع مزوَّرة عن لسان بعض الاساقفة وفي جملتها تواقيع اساقفة ذوي ابرشيات لا وجود لها ولا لهم في غير الوهم. وكانت كل تلك الامضاءات مكتوبةً بخط يدٍ واحدةٍ. قال احد الظرفاء «ان سفراءَ البابا لو كانوا نبهاء لعلموا من كثرة المسجونين ان الاتحاد غير ممكن على الصورة التي يريدونها».

وفي سنة ١٢٨٠ توفي البابا نيقولاوس الثالث فخلفهُ البابا مرتينوس الرابع بعد مشاحناتٍ طويلة على انتخابهِ. وكان فرنساوي الجنس مثل كارلوس وصديقاً حميماً لهُ وعدوًّا الدَّ للجرمانيين ولكنهُ لم يقوَ على ملافاة الاضرار التي اخابت كارلوس في صقلية من مساعي البابا نيقولاوس.

فلما رقي البابا مرتينوس كرسي رومية ارسل القيصر سفراءَ من قبلهِ لاون مطران هرقليه وثيوفانس مطران نيقيه ليقدموا تهانئَهُ اليهِ سنة ١٢٨١. ولكن مرتينوس كان كما قلنا صديقاً لكارلوس ملك نابولي فرنساويًّا مثلهُ. فطرد سفراءَ ميخائيل ورفض تهانئه بكل ازدارءٍ واحتقار ورشقه ايضاً بالحرم لأنه لم يعمل الاتحاد عن إخلاصٍ بل رياءٍ ووصفهُ بصفة رئيس هرطقةٍ ومنع

كل الملوك بلا استثناء عن مشاركتهِ في عملٍ ايًّا كان. فلما علم ميخائيل بذلك تكدر جدًّا وغضب حتى انه لما رأى الشماس في الخدمة عازماً على ذكر البابا انتهرهُ ومنعهُ وقال متهكماً «اني قد انتفعت من محبة حضراتهم نفعاً حسناً حتى اني حاربت اقربائي في سبيل رضاهم. واما هم فلا يعرفون لي جميلاً بل يحرمونني». على ان القيصر مع كل هذه الاسباب لم ينثنِ عن الاتحاد الذي عملهُ ولا الغاهُ رسميًّا بل ظلَّ يعذب مقاوميه ويعميهم ويقطع ألسنتهم الى ساعة موتهِ. كل ذلك والايام تشهد ان اعمالهُ هذه انما كانت جنوناً محضاً وان المصلحة العامة وسلامة المملكة لا تقوم بتضحية الدين والشعوب. على ان الحوادث نفسها قد شهدت ايضاً بان ميخائيل لم يكن محتاجاً الى مساعدة البابا ليحفظ مملكتهُ كما يتضح مما يأتي. فان البابا مرتينوس اوعز ان كارلوس ان يرسل جيشاً ضد القيصر ويحارب مقاطعات مملكتهِ. فأرسل في اواخر سنة ١٢٨٠ وكيلهُ القائد هوكو سولّي ومعهُ ٨٠٠٠ رجل ليفتحوا تِسالونيك. فلاقاهم جيش ميخائيل وهم على الطريق وكسرهم سنة ١٢٨١ كسرةً هائلة وأَسر اميرهم هوكو وكثيرين غيرهُ وهكذا بينما كانت عساكر كارلوس معروضة في شوارع القسطنطينية كعادة الأسراء كانت عمارتهُ ايضاً في صقلية محطَّمة كما سبق القول بعد ان ذُبحت رجالهُ في مذبحة صلاة المساء فلم يكن على الشرق خطرٌ منه كما توهم ميخائيل.

وفي ١١ كانون الاول سنة ١٢٨٢ مات القيصر ميخائيل. فخلفهُ ابنهُ اندرونيكوس الثاني. ونظراً لبغض الشعب لأبيهِ لم يتجاسر ان يحتفل بدفنهِ اقل احتفال بل بالعكس فان الشعب لم يسمح له ان يتوَّج ملكاً الا بعد انْ صعد على المنبر في كنيسة آجيا صوفيا وصرَّح للجميع بانهُ يرذل مبادئَ والدهِ ويرفض اعمالهُ ويعتبرهُ مشاقًّا. قال المؤرخ غريغوراس «انه ليس لم يعمل لأبيه الدفن الاعتيادي للملوك فقط بل انه لم يُعمل لهُ ولا ما يُعمَل عادةً للفلاَّح او للدَّباغ ايضاً سوى انه امر بعضاً ان يحملوهُ ليلاً ويأخذوهُ بعيداً عن جهة المعسكر ويطرحوهُ على وجه الارض ويكوّموا عليه تراباً كثيراً لكي لا تشق الوحوش جثةً ملوكية» هذا ما ربحهُ ميخائيل من صداقة البابا اعني انه مات محروقاً منهم ومرذولاً من شعبهِ ومنشقًّا عن كنيستهِ ومهاناً من

ابنهِ جزاءَ ظلمه وجورهِ حتى على اخوتهِ واولادهِ اكراماً لـلاتين. على ان اندرونيكوس كان كما قلنا مستقبحاً اعمال ابيهِ غير قادرٍ على منعها وهو حيٌّ. فلما مات ابوهُ ورقي هو كرسي القيصرية اخذ يجتهد في اصلاح ما افسدهُ والدهُ فكتب اوامر الى كل المملكة يبشر فيها باصلاح الاحوال الكنائسية ويأمر برجوع المنفيين والإفراج عن المسجونين. وفي ٢٥ كانون الأول سنة ١٢٨٢ انزل البطريرك يوحنا بيكُّس عن كرسي البطريركية فأقام في دير بَناخْرَنضس ووضع له قوَّةً عسكريةً تحميهِ من هيجان الشعب وارجع البطريرك يوسف الشيخ الارثوذكسي. غير ان الشيخوخة كانت قد انهكت قواهُ فلم يعُد يستطيع ان يعمل عملاً. ففي اوائل سنة ١٢٨٣ عقد مجمعٌ لم يمكنهُ ان يحضرهُ نظراً لضعفهِ. ولكن اثناسيوس بطريرك الاسكندرية واللوغوثيت الكبير وجاورجيوس القبرصي كانوا فيهِ. وقد حكم هذا المجمع بالقصاص على جميع الذين اشتركوا مع ميخائيل في اتحاده مع البابا ومحاولة اخضاع الكنيسة لهُ اكليروساً كانوا او عاميين. فقاصص رؤساءَ الكهنة وسائر رجال الدين منهم بالتوقُّف عن الخدمة مدة ثلاثة اشهر وفرض على العوام قصاصاتٍ متنوعةً على حسب درجة خطإ كل واحد. وقد حكم ايضاً على القيصر ميخائيل المتوفَّى بانهُ لا يستحق ان تُعمَل لَه جنائيز كعادة الارثوذكسيين لخروجهِ عن تعليم الكنيسة وامضت زوجته ثيودوره هذا الحكم. ثم انهم شرعوا في تكريس كل الكنائس وكل الاواني الكنائسية والمذابح المقدسة من اوضار ذلك الاتحاد. ولما لم يكُن هذا كلهُ كافئاً دُعي يوحنا بيكُّس الى المجمع وسُئِل عن اعتراف ايمانه. فاعترف بخطإهِ السابق واقرَّ بذنبهِ وطلب السماح من البطريرك يوسف لتعديهِ على كرسيهِ وهو حيٌّ بعد وكتب بخطهِ على امضائهِ اعتراف ايمانهِ وهذا نصُّه:

«بما انني في مدة السياسة التي ارتكبتها شططاً لمصلحة الكنائس على ما كنتُ ازعم حتى اجمع الجميع الى هذا الصلح قد فرط مني اني تكلمتُ وكتبتُ في العقائد الكنائسية اقوالاً وجد فيها ما كان مخالفاً للعقائد الشريفة الالهية وخطأً. ونظراً الى ما فيها من الاغلاط قد اشتبه بها المجمع الشريف المقدس مثل قولي بان علة الوجود للروح القدس هي الآب والابن ... وبان

الروح القدس ينبثق من الآب بالابن ومن ثمَّ القول بعلتين للروح ومنهُ يُفهم لهُ مبدئان احدهما قريبٌ والآخر بعيد ... وايضاً القول بان الآب والابن هما علّة واحدة للروح لهُ الوجود منهما كمن مبدإٍ واحدٍ وعلةٍ واحدة. هذه الأقوال كلها وكل قولٍ غيرها يؤدي الى مثل هذا الشرود عن صحة العقيدة ارفضها امام الله وامام ملائكتهِ الرهيبين وايضاً امام المجمع المقدس الشريف وانقضها وابعد عنها من داخل نفسي بلا غش وبدون ان اكتم غير ما اقولهُ لأنها تؤدي الى هلاك النفس النهائي. ثم اني اعترف بقلبي وفمي واعتقد بالثالوث القدوس الاله الواحد كما تعترف منذ القديم الكنيسة المقدسة الجامعة أعني ان الآب ليس لهُ الوجود من غيره ولا من نفسهِ بل لا بدءَ لهُ ولا علة. واما ابن الله الوحيد فلهُ الوجود من الآب بالولودة وعلتهُ الآب. واما الروح القدس فاني اعترف واؤمن ان وجودهُ من الاله الآب بالانبثاق وان الآب علة الابن والروح بحسب اقوال المعلمين الشريفة فيما ان القول بالانبثاق بالابن لا يعني به ان الابن علة الروح او انهُ (بائقٌ) مع الآب نظراً الى وحدة الابن والآب كما زعم بعضهم عن شططٍ وغرابةِ رأي انهما معاً علةٌ واحدةٌ ومبدأٌ واحدٌ بالروح ... اما الذين لا يعتقدون هكذا فاحكم عليهم جميعاً بانهم لا شراكة لهم في ايمان المسيحيين الارثوذكسي بل هم مرفوضون منهُ وبعيدون عنهُ. هذا هو صك اعتراف ايماني بهِ اعترف للجميع وأُشهد عليَّ واصرّح جهاراً اني مقيم على الايمان القديم المستقيم واني متمسكٌ كل التمسُّك بعقائد وتعاليم الانجيل والرسائل والآباء».

وبعد ان كتب هذا الصك وقرأهُ على المجمع وامضاهُ بخط يدهِ امام الهيئة كلها سمح لهُ القيصر ان يقيم في بُرصَه فأقام هناك. ولكنهُ عاد فيما بعد الى غيهِ وشرع يدافع عن آرائهِ القديمة قولاً وكتابةً. ثم ان البطريرك الاسكندري اثناسيوس وافق على قرار المجمع وعلى قطع الذين شرطنهم بيكسُس وساعدوهُ على افكارهِ ويظهر ان ثيوذوسيوس بطريرك انطاكية لم يكن بريئاً من تبعة بيكسُس فقبل ان يُدعى الى المحاكمة كتب استعفاءهُ وارسلهُ الى انطاكية. فخلفهُ فيها البطريرك ارسانيوس الذي من دير القديس سمعان. ولكنهُ عُزل لأنهُ ذهب الى الكنيسة مع أمير الارمن في كيليكيا. فانقسم

الكيليكيون والانطاكيون على انتخاب خلفهِ وكان الكيليكيون يريدون ديونيسيوس مطران مدينة بومبيوس والانطاكيون يطلبون كيرلُّس مطران صور. اخراً اتفقوا على انتخاب ديونيسيوس فصار بطريركاً. فلما رجع البطريرك يوسف الى الكرسي قام ضدَّهُ حزب البطريرك المتوفَّى ارسانيوس يدَّعي بأنهُ غير شرعي لأنهُ رقي الكرسي ورئيسهُ الشرعي ارسانيوس حيٌّ بعد. فقام حزبٌ ليوسف ضد هذا الحزب ونقض دعواهُ بقولهِ ان البطريرك يوسف شرعي لأن ارسانيوس عُزل من المجمع قبل ان يرتقيهُ يوسف. وقامت لكل واحدٍ من هذين الحزبين احزاب في اكثر اقسام المملكة وكان كلٌّ من القسمين يقاوم الآخر ويحرمهُ وكلاهما معاً كانا ضد الاتحاد البابوي. فلما رأى البطريرك يوسف هذه الحالة نصحهم ان يتفقوا ومعما كان عليه من المرض باشر سياحةً رسوليةً الى حدود افسُس كان يزور فيها الأديرة ويحرض الرهبان على المسالمة ورفع الشقاق. ثم رجع الى القسطنطينية واستعفى من الكرسي وبعد ايام قليلةٍ توفي في شهر اذار من السنة عينها. وقد عيَّنت لهُ الكنيسة الارثوذكسية عيداً سنوياً في ٣٠ تشرين الأول.

على ان القيصر رأى ان يزيل الشقاق من بين الارسنيين واليوسفيين قبل انتخاب بطريرك جديد. ولكنهُ نظراً لوداعته وحبهِ السلام كان يجاري كل فئة على ضعفها الى ان يحصل على المرام. فالارسيثيون نظراً لنفورهم من اليوسفيين طلبوا كنيسةً لوحدهم يصلون فيها واذ لم يجدوا كنيسةً طاهرةً من مخالطة اليوسفيين اعطاهم القيصر كنيسة جميع القديسين وقد كانت جميلةً جدًّا وغنيةً ومقفولةً من سنين كثيرة. اما هم فبدلاً من ان يلينوا ويكفُّوا عن المشاق طمعوا فطلبوا منهُ ان يُحكَم بينهم وبين اخصامهم بواسطة عجيبة من الله. ولكن القيصر اعرض عن طلبهم وعقد النية على ان ينتخب بطريركاً. ولكي لا يهيج سخطهم رأى ان لا يعقد مجمعاً رسميًّا من الاساقفة لأن الارسنيين كانوا يكرهونهم فأخذ آراءهم كل واحدٍ على حدة وتمَّ القرار على انتخاب جاورجيوس القبرصي بطريركاً. وكان هذا الرجل بسيطاً من افضل علماء عصرهِ مقيماً في القصر الملوكي. ولأجل شرطنته لم يكلَّف احدٌ من اكليرُس العاصمة بل كُلِّفَ اسقفان وُجِدا بوجه الصدفة

هناك لم يسبق لهما اشتراك في الشقاقات الحاصلة كلها ولم يقبلا مع البابا شركةً وهما اسقف كوزيلي واسقف دِرْبي. فشرطنا اولاً راهباً اسمهُ جرمانوس مطراناً على كرسي هرقليه (١). وبعد ذلك شرطن الثلاثة معاً البطريرك في ١١ نيسان من السنة عينها يوم احد الشعانين وسُمِّي غريغورس الثاني. غير ان الارسنيين لم يرضوا ان يشتركوا معهُ. فافتكر القيصر ان يتمم ارادتهم بتحكيم الله ليفصل بينهم وبين اخصامهم. فأمر ان يُصنَع دستٌ كبير من فضة. ثم امرهم ان يجتمعوا في ادرميت (بجوار القسطنطينية) واجتمع ايضاً من اخصامهم جمعٌ كثير وبعد مشاحنات طويلة قر القرار بحضور القيصر يوم السبت العظيم المقدس ان تكتب كل فئة من الفئتين حقوقها على صكٍّ ويوضع الصكان في الدست الفضي وتوقد فيه نارٌ قويةٌ فالذي لا يحترق صكهُ يكون صاحب الحق وان احترق الصكان يتسالم الحزبان ويرتفع الشقاق. وعند الامتحان احترق الصكان وتسالم الحزبان وتصالحا واعترف الارسينيون بالبطريرك ورجعوا الى الكنيسة وحضر القيصر بنفسه وقدم وجوههم ومعتبريهم للبطريرك. ولكن لم يمضِ عليهم يومٌ او يومان الاَّ وعاودوا الى الهيجان ثانيةً فقابلهم القيصر بما فُطر عليهِ من الدعة واللطف ولأجل رضاهم طلبوا منهُ اعادة جثة ارسانيوس الى القسطنطينية بالاحتفال اللائق. فقبل القيصر اقتراحهم وامر باحضار الجثة من منفاها وعند وصولها الى القسطنطينية خرج هو والبطريرك والاكليرُس ووجوه الشعب واستقبلوها بترنيمات وتراتيل وبخور واحضروها الى كنيسة اجيا صوفيا ووضعوها ضمن الكنيسة في صندوق خصوصيّ مختوم. وبعد ذلك بمدةٍ طلبت ثيودوره ابنة افلوجيا اخت القيصر ميخائيل ان تنقل الجثة الى دير القديس اندراوس الذي كانت جددتهُ هي فنُقلت. ولكن الارسينيين وجدوا بذلك سبباً لاعادة

(١) قبل ان تصير القسطنطينية كرسيًّا بطريركياً في القرن الرابع كانت قسماً من ابرشية مطران هرقلية اسمها بيزانديون خاضعةً لهُ فلما صارت كرسيًّا مستقلاً حُفظ الحق لمطران هرقليه ان يسلّم عكاز رعايتها بيدهِ للبطاركة حين سيامتهم. ولم تزل هذه العادة مرعيةً الى يومنا هذا. فوجود مطران هرقليه في شرطونية البطاركة ضروريٌّ لا بدَّ منهُ.

الهيجان ولأجل مسالمتهم امر القيصر سنة ١٣١٢ على عهد البطريرك نيفُن ان يُجاب طلبهم اولاً باعادة الجثة الى الكنيسة وثانياً بمقاصة الذين تظاهروا ضد ارسينيوس فحُكم على الاكليريين منهم بالتوقيف عن الخدمة اربعين يوماً وعلى العوام ببعض الصوم والصلاة ثم صعد البطريرك الى المنبر وهو لابس حلة رئاسة الكهنوت كاملةً ولفظ خطاباً بالنيابة عن ارسانيوس فحواه مسامحة جميع الشعب عن كل ما فرط وهكذا كف الشقاق بحكمة هذا القيصر وحسن سياستهِ.

وكأَن هذا الاضطراب والشقاق لم يكفِ لازعاج القيصر والمملكة والكنيسة حتى ظهرت حركاتٌ غيرهُ من يوحنا بيكُّس السالف الذكر. فانهُ ما وصل الى برصه الاَّ وعاد الى حالهِ الاول يكتب ويعلّم بما تاب عنهُ واقسم على عدم الرجوع اليه. اما دفعهُ الى ذلك فهو ان نيوفيطُس مطران بُرصَه فرض على الذين كانوا من حزب اتحاد ميخائيل اياماً معلومة يصومون فيها عن اكل اللحم. فلما رأى ذلك يوحنا بيكُّس استاءَ ورجع ينادي ويقول بانهُ مستعدٌّ ان يدافع عن هذا الاتحاد ببراهين قوية وحجج دامغة زعم انها تقوى على كل برهان وطلب عقد مجمعٍ لفحص تعليمهِ. فعقد مجمع سنة ١٢٨٤ برئاسة البطريرك غريغوريوس وبحضور اثناسيوس بطريرك الاسكندرية ودُعي للحضور اليه فحضر. وفعلاً انهُ كان يدافع بكل قوتهِ عن تلك الآراءِ مستعملاً في المواربة والمحاولة الجدلية براعةً وفي الكلام فصاحةً لم تسبق لغيرهِ حتى انهُ كما قال غريغوراس (١) «لو لم يقاومهُ البطريرك غريغوريوس واللوغوثيت الكبير موزالُن بغنَى حكمتهم وبالآيات المنتخبة من الكتب المقدسة ولو لم يوقفوا التيار الشديد الذي كان يندفق من لسانه الرجس الظفر الكذب وفاز على الحقيقة ولامتازت الوقاحة وتغلبت على الفضيلة». فلما ظهر رياءُ بيكُّس وكذبهُ وخداعهُ بعد الصك الذي اعطاهُ تعهُّداً على نفسهِ والتوبة التي سبق وقدمها اصدر المجمع حكمهُ عليهِ بالقطع كليًّا من

(١) ٦: ٣ (٢) هذا القرار تجدهُ في تاريخ ملاتيوس جزء ٣ صفحة ١٦١ ــ ١٧٣ وهو في قرن ١٣ فصل ٣١.

الكهنوت هو والاثنين اللذين كانا يعلمان مثلهُ وكتب قراراً مطوَّلاً معروفاً بالطومُس يقسَم الى ستة اقسام: اولاً اسباب ظهور البدع المذكورة. ثانياً اعتراف الايمان الارثوذكسي. ثالثاً إعتراف ايمان بيكُّس الذي اعطاهُ للمجمع بعد ندامتهِ. رابعاً سبب انعقاد هذا المجمع. خامساً احد عشر فصلاً يُشرح فيها تعليم بيكُّس واتباعهِ ويُرشق هذا للتعليم بالحرم. وسادساً نصائح للارثوذكسيين وتهديدات ضد تابعي تعليم الهراطقة وتليها الامضاءات.

ففي نص القسم الاول اوضح المجمع ان سبب ظهور البدعة الغَرَض الزمني الذي ظهر تحت برقع حب السلام وتحت اللعنات والاقسام التي اقسمها اصحاب الاتحاد بان لا يغيروا التعليم الارثوذكسي واوضح كيف حنثوا باقسامهم وقاموا يقولون بالانبثاق من الابن الى ان قال «فتجاسروا ان يقولوا بان الروح ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب وان الوحيد علةٌ له مثل الآب والوحيد. ومن هنا بدأ الاضطراب وأُشهرت الحرب العظيمة ضد الكنيسة ... وقد نُقِل هذا الاعتقاد الى هنا بمثابة وباءٍ قتَّال ولبث مدةً وساعده على قوَّة الانتشار يوحنا بيكُّس الذي قبلهُ وعني بهِ كأنهُ حقل ذو ثمر وسقاه من سيول الشر والاثم ... وهذه هي السنة الثامنة لهذا الشر ... الاَّ ان الله رحمنا ونظر الينا واقام لنا ملكاً يظهر انهُ لا يعيش الاَّ ليعمل ما يريدهُ الله» ثم انه يقول كيف تلافى القيصر امتداد الشر في الكنيسة وحصَّنها من الاعتداءِ حتى لا يستطيع احد ان يزعجها. وبعدهُ ينتقل الى القسم الثاني وهو اعتراف الايمان الارثوذكسي وهذا ندرجه حرفيًّا قال:

اما نحن فاننا نعترف باللسان كما نؤْمن بالقلب ونؤْمن كما تعلمنا من الاصل ومن الآباء. وقد تعلمنا ان نؤْمن بالهٍ واحدٍ آبٍ ضابط الكل خالق السماءِ والآرض كل ما يُرَى وما لا يُرَى. فهو غير مبدوءٍ ولا معلولٍ ولا مولودٍ وبدءٌ في الطبيعة وعلةٌ للابن والروح. ونؤْمن ايضاً بابنهِ الوحيد المولود منه بلا زمان ولا سيلانٍ مساوياً لهُ في الجوهر وان بهِ كان كل شيءٍ. ونؤْمن ايضاً بالروح القدس المنبثق من الآب نفسهِ والمسجود له مع الآب والابن بما أنه معادل لهما في الأزلية والعرش ومساوٍ في الجوهر. والمجد

وخالق الخليقة معهما. ونؤْمن بان أحد هذا الثالوث الفائق الجوهر وعنصر الحياة الكلمة الوحيد نزل من السماوات لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراءِ وتأنس اعني انهُ صار انساناً كاملاً وهو لم يزل الهاً من دون ان يتغير شيءٌ من الجوهر الالهي او يتحول بمشاركة الجسد بل انهُ اتخذ الانسان بلا تغيرٍ وكابد بهِ الآلام والصلب وهو حرٌّ من كل الم بحسب الجوهر الالهي وانهُ في اليوم الثالث قام من الاموات وصعد الى السماوات وجلس عن ميامن الله الآب. ونؤْمن في الله والتقليدات الالهية بحسب تعاليم الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية. وتعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. وننتظر قيامة الموتى وحياة الدهر الآتي. ثم اننا نعترف بان اقنوم الكلمة المتأنس واحد ونؤمن به نفسه انهُ واحدٌ وننادي بالمسيح انهُ ذو طبيعتين بعد التأنُّس عالمين انهُ بعد التأنُّس قد حفظ(١) للطبيعة ما هي منهُ وبهِ وعليهِ. ومن ثم نعتقد بفعلينَ للمسيح نفسهِ ومشيئتين بحيث ان كل طبيعة حفظت ارادتها الخاصة وفعلها الخاص. ثم اننا نسجد سجوداً نسبيًّا لا عباديًّا للايقونات الالهية الموقرة ايقونات المسيح نفسهِ ووالدة الاله الكلية النقاوة وجميع القديسين مقدمين لاصولها الاكرام الذي نظهرهُ امامها. اما الذين يعتقدون غير هذا الاعتقاد فنبعدهم لأنهم يرون آراءً غريبة. ونرفض ايضاً الصلح (الاتحاد) الذي تمَّ من عهدٍ قريب لأنهُ سبب لنا العداوة لله. لأنَّه تحت برقع حسن السياسة قسم الكنيسة وبددها اذ طغاها بحماقة الذين كانوا يجتهدون في ان يرفعوا مجد انفسهم لا مجد الله وبزيغانهم الواضح جعلوها ان تنحرف عن استقامة الرأي وتعليم الآباءِ الصحيح وتهوي الى جرف الرأي

(١) كلمة «قد حفظ» اصلها هنا في اليونانية «سوزُندا» اي «إذ خلَّص» ولكن معنى الخلاص في مثل هذه الاحوال الحفظ او البقاء وعليه قول الرسول «اما هو فسيخلص ولكن هكذا كما بنار» فقولهُ سيخلص لا يعني به الخلاص من جهنم بواسطة النار كما اراد اخوتنا الغربيون ان يفهموا وابتدعوا تعليمهم بالمطهر بل معناهُ البقاء والخلود وعدم الفناء اي «انه سيدوم خالداً باقياً ولكن لا في الحياة بل في النار الأبدية». وهذا هو تعليم الرسول بولس الذي لم يخطر على بالهِ مطهر ولا نار مطهرة وسيجيءُ هذا الموضوع في ما بعد.

الوخيم والتجديف. فنرفض اقوالهُ المخطرة (اي اقوال بيكُس) التي قالها في انبثاق الروح القدس. لاننا تعلمنا من الاله الكلمة نفسهِ ان الروح الكلي قدسهُ منبثق من الآب وعليهِ نعترف بان وجودهُ من الآب. وهو (اي الآب) علةٌ لهُ في الوجود بحسب الجوهر كما هو ذاتهُ بكليتهِ حقيقةً. ونعلم ان الابن من الآب ونؤمن ان الآب علةٌ ومبدأٌ طبيعيٌّ لهُ ولهُ الروح من الآب ذو جوهر مساوٍ وطبيعةٍ معادلةٍ لهُ وهو مع ذلك ليس علةً للروح لا وحده ولا مع الآب. وان وجود الروح القدس لم يكن بالابن ولا من الابن كما فهم واعتقد الذين ألقوا بانفسهم في الهلاك وابتعدوا من الله. ثم يذكر المجمع شرور الذين قاموا ضد تعليم الكنيسة والمتاعب التي سببوها لها عن جنونٍ محضٍ وهَوَسٍ في مقدمتهم يوحنا بيكُس وكيف تظاهر بالرجوع الى استقامة الرأي وكتب تعهُّداً على نفسهِ كما رأينا ويثبت صورة ذاك التعهُّد بالحرف ثم يحكي رجوع هذا المارق الى الهرطقة ويقول ان الشيطان الذي خرج منه قبلاً رجع اليهِ ومعهُ لجيونٌ من جنسهِ فوجدهُ مستعداً لقبولهِ. واخيراً رشقهُ بالقطع هو والاثنين الآخرين قسطنطين الميليتيني وجرجي الميطوشيتي للأسباب السابق ذكرها.

وفي هذا المجمع قُرِئَ تحرير ورد من رهبنات الجبل المقدس الى القيصر اندرونيكوس ضد بيكُس وبدعة الانبثاق وفيهِ يقولون ان كل ما يخرج عن التسليم الكنائسي وتعليم الآباء المغبوطين وتحديداتهم من الاعمال التي عملت او ستُعمل هو محروم. وان اللاتين قد شاركوا اليهود والارمن واليعاقبة والنساطرة واصحاب المشيئة الواحدة وغيرهم في بدَعهم. وان الذين يشتركون مع اللاتين لا يُسامَحون ولا يستحقون شركةً. ثم يسألون كيف يستطيع البابا ان يكون اولاً وهو هرطوقيٌّ؟ فان اعتبارهُ هكذا انما هو قبولٌ تامٌّ لهُ وليس سياسةً مع ان البابا في الحال الحاضرة لم يعد اهلاً ولا لأدنى الرتَبْ.

على ان بيكُس قد استند في بدعتهِ على عبارة القديس يوحنا الدمشقي حيث يقول «ان الروح القدس قوة الآب المظهرة سر اللاهوت ينبثق من الآب بالابن» وفسَّر معنى (الباء) بمعنى (من). ولكن المجمع اوضح المعنى

الحقيقي المقصود من هذه العبارة. وهي ان القول بالانبثاق من الابن يعني بهِ ايضاح علة وجود الروح بمعزلٍ عن الزمان وهذه العلة هي الآب وحدهُ فقط واما القول بالانبثاق من الآب بالابن يُعنى بهِ ظهور الروح ومنحهُ النعَم للناس بواسطة الابن في زمانٍ كما قال الاب الدمشقي نفسهُ «انه القوة المظهرة الاسرار» والمانحة المواهب. وهذا ظاهرٌ من قولهِ هو نفسهُ اي يوحنا الدمشقي ما نصُّهُ «يجب ان نعلم اننا لا نقول بان الآب من احدٍ بل نقول انهُ آب الابن. ولا نقول ان الابن علةٌ ولا آبٌ. ولكن نقول انهُ من الآب وابن الآب. واما الروح القدس فنقول انهُ من الآب ونسميهِ روح الآب ولا نقول بان الروح من الابن ولكنا نسميهِ روح الابن. لأن الرسول الالهي سماهُ روح المسيح. ونعترف بانهُ يظهر ويُمنح لنا بالابن. لانهُ قال نفخ فيهم وقال خذوا الروح القدس. كما ان الشعاع والضوء من الشمس. لأن الشمس ينبوع الشعاع والضوء. وانما يصل الينا الضوء بالشعاع وهو الذي ينيرنا ... اما الروح القدس فهو روح الآب لانهُ منبثقٌ من الآب وهو روح الابن لا لأنهُ منهُ بل لأنهُ به منبثقٌ من الآب. لأن الآب وحدهُ علةٌ لهُ» وفي محلٍ آخر يقول «ان موضوع عبادتنا هو آبٌ غيرُ مولودٍ والدُ ابن لأنهُ ليس من احدٍ. وابنٌ ولدُ آبٍ بما انه مولودٌ منهُ. وروحُ قدسٍ لله الآب بما انهُ منبثقٌ منهُ وهو يُسمَّى روح الابن لأنهُ بهِ ظهر ووصل للخليقة ولكنهُ ليس حاصلاً منهُ على الوجود.

هذا وبعد صدور الحكم على يوحنا بيكُس ارسلهُ القيصر الى دير كوزميديون ثم نفاه الى قلعة القديس غريغوريوس في بيثينيا حيث مات سنة ١٢٩٨ وهو مصرٌّ على عنادهِ وضلالهِ.

وفي هذه الأثناء سافر اثناسيوس بطريرك الاسكندرية من القسطنطينية ليرجع الى كرسيهِ فمرَّ بجزيرة بيوتيا وضاف الارثوذكسيين الذين فيها وكانت هذه الجزيرة من جزائر الارخبيل التي اخذها كارلوس من سلطة الروم فلما علم اللاتين الذين فيها بالبطريرك تجمهروا عليهِ وامسكوهُ واعرضوا عليهِ احد امرين اما ان يقبل بتعاليم رومية واما ان يحرقوهُ. فأجابهم هو ان مثل هذا الموضوع لا يقدر ان يجاوب عليهِ الاَّ في مجمعٍ قانونيٍّ ولا مجمع عندهم فلا يقبل منهم تعليماً. فوضعوهُ في كنيسة الارثوذكسيين

وباشروا حرقها. ولكن بعض التجار منهم ذوي العلاقات التجارية مع الاسكندرية خافوا انتقام الاسكندريين فأنقذوه من الحرق وهرَّبوه الى ثيبه عاصمة الجزيرة. فامسكه حاكم الجزيرة اللاتيني وسجنهُ وطلب فكاكهُ الفي درهم. غير انهُ (اي الحاكم) مرض وبصلوات البطريرك شفي فأطلقه من السجن وهكذا نجا من شر تلك الضيافة.

وفي سنة ١٢٨٩ تنازل البطريرك القسطنطيني غريغوريوس القبرسي عن كرسيهِ لأسبابٍ اهمها كثرة القلاقل التي اثارها عليهِ حسَّادهُ من اخصائهِ انفسهم واقام في دير وفي سنة ١٢٩٠ انتقل وخلفهُ اثناسيوس الراهب وكان رجلاً بسيطاً اعتنق منذ حداثته العيشة الديرية ولكنهُ كان مشهوراً بالتقوى والفضيلة وقد سيمَ بطريركاً في ١٤ تشرين الأول ١٢٨٩ ونظراً لتعوُّدهِ على صرامة العيشة الرهبانية وتشديدهِ على الشعب والاكليرُس لاستئصال كل ضعفٍ لا ينطبق على الواجبات الدينية صار الجميع ينفرون منهُ ويبغضونهُ فلم يمكث طويلاً على كرسي البطريركية بل اضطر ان يستعفي في السنة الرابعة من انتدابه (١٦ تشرين الاول ١٢٩٤) ويرجع الى منسكهِ بعيداً عن القلاقل العالمية. وقد خلفهُ على الكرسي في اوائل سنة ١٢٩٤ البطريرك يوحنا الثاني عشر وكان قبلاً هذا البطريرك متزوجاً وابا عائلة ولكنهُ بعد وفاة زوجتهِ ترهب وصار رئيس دير ومعلم ذمة القيصر وكان رجلاً بسيطاً غير متعمقٍ في العلوم ولكن ذا مناقب فاضلة محباً للسلام مبغضاً للقلاقل وذا تقوى وفضيلة وقد اقام على الكرسي الى سنة ١٣٠٣ ثم استعفى لما كان يرى من ازدراء البعض بهِ على بساطته واقام في دير ومنهُ ذهب الى وطنهِ (سوزو بولي) حيث توفي . بعد وفاتهِ دُعي الى الكرسي ثانيةً البطريرك المستعفي اثناسيوس الأول واقام على الكرسي ثماني سنوات كما سنرى فيما بعد.

اما في الغرب ففي سنة ١٢٨٥ توفي البابا مرتينوس فخلفهُ البابا اونوريوس الرابع وبعد وفاته خلفهُ البابا نيقولاوس الرابع الفرنسيسكاني وهو اول بابا قام من هذه الطغمة وقد عزل في مدتهِ جميع الكرادلة وابدلهم بفرنسيسكانيين وفي سنة ١٢٩١ توفي فقام النزاع بين الكرادلة على انتخاب

خلف لهُ وقد اشتد هذا النزاع وطالت مدتهُ حتى مضت سنتان ودخلت الثالثة وكرسي رومية الرسولي بلا بابا والكنيسة الرومانية بلا رئيسٍ او رأسٍ على ما يقولون. اخيراً قرروا انتخاب راهبٍ ناسك اسمهُ بطرس ابرُوتُس وساموهُ بابا فسُمِّي كلستينوس الخامس. وكان هذا البابا من افضل واتقى رجال عصرهِ وقد حضر شرطونيتهُ مئتا الف نفسٍ على ما قال المؤرخ ابلاتينا نقلاً عن الذين حضروها. ولكنهُ لم يحفل لهذا المجد كلهِ بل حالما رقي الكرسي الروماني اراد ان يردَّ مجلس رومية الى التواضع المسيحي القديم فأمر الكرادلة ان لا يركبوا خيلاً ولا بغالاً بل حميراً جرياً على مثال يسوع المسيح كما كان هو نفسهُ يفعل ايضاً اعني انهُ لا يركب الا حميراً. غير ان الكرادلة كرهوهُ وحاولوا خلعهُ ولكنهم لم يقدموا عليهِ رأساً. وكان بينهم واحدٌ اسمهُ بنيدكتوس كردينال غائيتان (اوكاجيتان) مشهوداً لهُ بالتفنن في ابواب المكر والاحتيال واذا كان هذا البابا بسيط القلب جدًّا ارسل اليهِ رجلاً يناديهِ ليلاً وهو نائمٌ كأنهُ صوتٌ من السماءِ ويقول لهُ: «انك اذا اردت خلاص نفسك فاستعفِ من رئاسة الكهنوت». فلما سمع البابا هذا الصوت اراد ان يطيعهُ ولكنهُ خاف من ان استعفاءهُ يجعلهُ تحت مسؤولية امام الله. فباح للكرادلة بما كان يضاربهُ من الافكار. فاجتمع الكرادلة للنظر في هذا الأمر وبسعي الغائيتانيّ وذويهِ. صدر قرارٌ بان البابا مأذونٌ من الآن فصاعداً ان يستعفي من وظيفتهِ متى اراد (فأين العصمة بعد هذا القرار والاذن من المجمع للبابا) وعلى ذلك استعفى كلستينوس بعد ان اقام على الكرسي مدةً لم تزِد عن الخمسة الاشهر (١). وخلفه الغائيتانيّ نفسهُ سنة ١٢٩٤ فسُمِّي يونيفاتيوس الثامن. وكان من اول اعماله التضييق على سلفهِ البابا المستعفي. فانه نظراً لما كان عليهِ هذا الرجل من بساطة القلب وقداسة العيشة كان عالماً بشدة تعلق الشعب بهِ فخاف ان تقوم الرعية وتطلب راعيها الصالح وترجعهُ قوةً واقتداراً وتنزله عن الكرسي شر إنزال وعليه فبينما كان كِلستينوس سائراً الى محل نسكهِ في البرية منعهُ البابا بونيفاتيوس

(١) ملاتيوس ١٣: ١٥: ٧

واستحضرهُ اليهِ وسجنهُ. قال المؤرخ ابلاتينا الغربي الباباوي «وكيفما كانت الحال فالأمر واضح ان بونيفانيوس كان رجلاً عقوقاً من فطرتهِ ومستوفياً الكمال في درجات الخبث والاحتيال. فانهُ بسبب محبتهِ للمجد خدع الرجل القديس الى ان اجبرهُ على ترك رئاستهِ ولما اشتهى ان يعيش في البراري ضبطهُ في حصن فُوْمُن حيث غصبهُ على الموت قبل اوانهِ من حزن نفسهِ في الشهر الخامس من السنة الاولى لرئاسة كهنوتهِ. ولذا فان الكردينالين بطرس ويعقوب دي كولُوْمنا ... كتبا في رسائلهما الى الملوك والأمراء عن كبرياءِ بونيفاتيوس وارسلا منشوراً الى جملة ابرشيات اكّدا فيه ان البابا الحقيقي القانوني انما هو كِلستينوس لابونيفاتيوس كما يتضح في تاريخ سني هنري الستيرُني»(١)..

وكان في رومية عائلة قوية ذات نفوذ واقتدار اسمها عائلة كولّونآ. فهذه العائلة صرّحت بان استعفاء البابا كِلسينوس ليس قانونيًّا واوشكت ان تهيج الشعب ضد البابا الجديد ولكن البابا تغلب عليها وطردها من رومية فصار ميدان العمل فسيحاً امامهُ ليسلك بلا معارضٍ ويستبدَّ كما يريد وغير ان المؤرخين اتفقوا جميعاً على تقبيح اعماله وسلوكهِ وصوَّروهُ بانهُ طماع ومقلق للكنيسة والدولة معاً لا يهمُّهُ سوى تأييد السلطة المطلقة لنفسه ولو داس كل المباديءِ الدينية والادبية. فلم يكُن يهمهُ خلاص الشعب وسلام الكنيسة بل سلطتهُ واستبداده الاليم (٢).

ولكن احلامهُ لم تصدق في كل ما كان يتمنى لأنهُ صادف عقباتٍ كثيرة لم يقوَ على إزالتها فمنها الحرب الدائمة التي كانت بينهُ وبين عائلة كولونآ. ومنها مقاومة فيليب الرابع ملك فرنسا الملقَّب بالجميل. واسبابها ان البابا من حين جلوسهِ على كرسي البابوية ادعى «بالسلطان المطلق على كل شيءٍ دينيٍّ وعالميٍّ وهال الملوكَ والامم باهوال مناشيرهِ

(١) ابلاتينا في سنة ١٢٩٦.

(٢) موسهيم. وملاتيوس . وبافيدي. وباباريغوبولُس.

وكان ينهي منازعاتهم كقاضٍ عليهم» وإذ كانت الحرب مستعرةً بين فيليب ملك فرنسا وادوارد الاول ملك الانكليز تداخل بينهما سنة ١٢٩٥ لا بصفة مصلحٍ بل بصفة حاكمٍ. غير ان فيليب ردعهُ ردعاً فظًّا واهانهُ ولكي يغطي مصاريف الحرب فرض خراجاً وافراً على الاكليرُس. فأصدر البابا امراً الى الاكليرُس والعوام مؤرخاً في كانون الثاني سنة ١٢٩٦ بهِ تهدد بالحرم كل العوام الذين يفرضون خراجاً على الاكليرُس وكل الاكليريين الذين يدفعون خراجاً الى العوام. اما فيليب فلما وقف على هذا الامر غضب واصدر امراً لا يمسُّ به البابا رأساً ولكنهُ يضر بمصالحهِ لانه منع بهِ تصدير الاسلحة والخيل والعملة وكل معدنٍ ثمين الى خارج بلادهِ ... فتضايقت بلاد ايطاليا من هذا المنع وقامت كلها تصرخ ضد البابا. ولكن البابا اصدر منشوراً اعاد فيهِ معنى المنشور الأول ووبخ فيليب توبيخاً عنيفاً على سلوكهِ مع ادوارد ملك الانكليز ومع خلفائهِ. اما فيليب فلم يجزع من هذا المنشور بل اصدر كتاباً برَّر بهِ سلوكهُ نحو الملوك وكتب عن الاكليرُس والبابا يقول «يا ترى هل الكنيسة المسيحية مؤلفة من رجال الاكليرُس وحدهم؛ يا ترى هل تخولهم امتيازاتهم حقًّا في ان يجعلوا ادارة الدولة والدفاع عنها امراً مستحيلاً؟ ويا ترى هل يُسمح للكهنة ان يسرفوا على ملاذهم ورفاهتهم فيما الوطن محتاجٌ الى المال الضروري لحياتهِ وقيامهِ؟» فلما وقف بونيفاتيوس على هذه الأجوبة ورأى ان الضرورة تلزمهُ بان يذعن استرجع في سنة ١٢٩٧ الامر الذي اصدرهُ واعتذر بان امرهُ بمنع الاكليرُس عن تأدية الخراج لا تعلُّق لهُ ببلاد فرنسا. وهكذا زال النزاع بين البابا وبين فيليب. ولكنهُ انما زال موقتاً ثم أُعيد اشدَّ مما كان قبلاً. وتحرير الخبر ان فيليب كان يبغض اسقفاً من اساقفة البابا اسمهُ برنارد سَسيّتيوس نظراً لوقاحتهِ وكثرة تعصُّبهِ ضد الملوك. فهذا الاسقف عيَّنه البابا على ابرشية باميه (Pamiers) الفرنساوية ولم يعبأ باغاظة فيليب وما اكتفى بذلك بل ارسله في سنة ١٣٠١ سفيراً الى الملك فيليب يطلب منهُ تحرير كونت فلاندريا. فلما حضر امام فيليب استعمل نحوهُ من اساليب الحماقة والغلظة ما جعل فيليب ان يهينهُ ويطردهُ من بلاطهِ بكل احتقار ويتهمهُ بانهُ من اعداءِ المملكة ويتُهَم غير هذه ايضاً. فلما بلغ البابا ذلك طلب ان تُنظَر القضية بين الملك والاسقف امامهُ

غير ان الملك كلّف متشرعهُ وِلْيَم نوغارت فنقض دعوى البابا بهذا الحق وهكذا ارسل هذا الاسقف مخفوراً الى باريس. اما البابا فتمزق غيظاً من هذه المعاملة وحالاً اصدر امراً وارسلهُ الى بلاد فرنسا يدَّعي فيهِ بانهُ هو الحاكم الاعلى لا في الامور الروحية فقط بل في القضايا الزمنية ايضاً. ومع هذا الامر كتب رسالةً الى الملك فيليب هذا نصها.

«من الاسقف بونيفاتيوس عبد عبيد الله ملك الفرنساويين. خَف من الله واحفظ وصاياهُ. نرغب ان تعلم انك خاضعٌ لنا في الامور الروحية والعالمية لا حقَّ لك في توزيع الرتب ولا في (جباية) الايرادات الكنائسية. فان كنت حاصلاً على شيءٍ من بعض الزوائد منها فاخزن اثمارها لخلفائك. وان كنت استأثرت ببعضها فمثل هذا الاستئثار نعتبره باطلاً ونستردُّهُ بنسبة بعدهِ عن حقيقتهِ. والذين يؤمنون بغير ذلك نحسبهم هراطقة. صدر عن اللاتيران في اوائل دسمبر من السنة السابعة لأسقفيتنا».

فأجابه الملك برسلة هذه ترجمتها «من فيليب ملك الفرنساويين بنعمة الله الى بونيفاتيوس المتصوّر نفسهُ حبراً أعلى سلامٌ قليلٌ او لا سلام. لتعلم حماقتك اننا في الأمور العالمية نحن لا نخضع لأحد. وان مجموع الكنائس وما يزيد من الايرادات الكنائسية يختصُّ بنا بحقٍّ ملوكيّ. واننا نجعل اثمارها ملكاً لنا. وان ما جمعناهُ منها الى الآن وما سنجمعهُ في المستقبل هو حقٌّ قويٌّ لنا في الماضي والمستقبل. واننا نحافظ عليها محافظة رجال ضد كل الذين يقصدون امتلاكها. واما الذين يؤمنون بغير ذلك فنعتبرهم حُمقاء ومجانين. صدر في باريس».

على ان سلوك البابا لم يغضب فيليب فقط بل اغضب كل امة الفرنساويين ايضاً. وعليهِ اغتنم فيليب فرصة هيجان الرأي العام ضد البابا وقرَّر ان امر البابا مجحفٌ بحقوق الامة والمملكة وامر بحرقهِ في باريس في شهر شباط سنة ١٣٠٢. ولكي يجعل الشعب شريكاً لهُ ويتخذهُ مساعداً في جهادهِ ضد هذا البابا جمع الاكليرُس والأشراف واحضر نواباً من سائر مدن المملكة ينوبون عنها من كل واحدة اثنين وهكذا أَلَّف الجمعية المعروفة بالعمومية (états généraux) وهذه أول مرة عُقدت فيها هذه الجمعية. وقد وجد

الاكليرُس نفسهُ مضطراً ان يوافق الشعب ويعترف بحقوقهِ ويساعدهُ على عملهِ وان يكتب الى البابا رسالةً خصوصية يطلب اليهِ بها وينصحهُ ان يُعيد السلام. ثم ان الجمعية ارسلت سفراءَ ومعهم وكيلٌ من قِبَل الملك الى البابا يحملون احتجاجاً ضد سلوكه فجاؤوا الى رومية ووجدوا بونيفاتيوس ايضاً عاقداً مجمعاً ضد فيليب ومملكتهِ فلم تأتِ المخابرات بنتيجة بين الجهتين لأنها كانت على طرفي نقيض. ولذا اصدر البابا في شهر تشرين الثاني منشورهُ المشهور باسم «أُونَم سانْكْتَم (الوحدة المقدسة) بهِ ادعى بان جميع الممالك وقفٌ وملك للكرسي الروماني لا يقبل نزاعاً وقال بان سلطة البابا الاستبدادية والاعتراف بان قوَّتها مطلقةٌ لا تقع تحت حصر عقيدةٌ من عقائد الايمان (كما هو الامر عندهم الى اليوم) وحكم بالهرطقة على الذين يعترفون بان كلًّا من السلطتين الروحية والزمنية مستقلة عن الأخرى وقال بان هرطقتهم من نوع هرطقة مانس الذي يعتقد بإلهين إله نور وإله ظلام وقرَّر ايضاً ان يسوع المسيح منح كنيستهُ سلطاناً مزدوجاً روحيًّا وزمنيًّا وان كل الجنس البشري يجب ان يخضع للبابا ومن يخالف هذا التعليم يكن هرطوقياً وباطلاً يأمل بالخلاص.

وفي هذه الأثناءِ قام نزاعٌ على مملكة جرمانيا بعد وفاة ملكها رودُلف سنة ١٢٩١ بين البريخت (او ألبرت) دوق اوستريا ابن رودُلف وبين ادولف ابن عمهِ. وبمساعدة رئيس اساقفة موغُنديالك فاز ادولف على ألبرت ولكنهُ لما تولى الأحكام ظهر منهُ غير ما كان يُظن بهِ. فانهُ اخذ مالاً طائلاً من ادوارد الاول ملك الانكليز ليساعدهُ ضد فيليب ملك فرنسا. غير انهُ استعمل ذلك المال في سبيل تنظيم جنود ضد ادوارد نفسهِ. فقام عليهِ بعض الأمراءِ بايعاز رئيس اساقفة موغُنديالك وتحالفوا مع ألبرت سنة ١٢٩٧ ليخلعوا ادولف ويقيموا ألبرت ملكاً. فأعدَّ ألبرت القوات اللازمة لهذا الجهاد وارسل رسلاً وهدايا الى البابا بونيفاتيوس في رومية ليصدّق لهُ على ما نواهُ هو وحلفاؤهُ. فأخذ البابا المال والهدايا وصدَّق لهُ بامضائهِ وختمهِ. وبعد قليل ارسل ادولف ايضاً مالاً وهدايا اليهِ جعلهُ بها ان ينكر صحة الامضاءِ الذي أمضاهُ بيدهِ لألبرت والختم الذي ختمهُ لهُ. ولكن القتال لم يُمنَع بهذا الانكار بل

ابتدأ في شهر اذار وانتهى في ٢ حزيران سنة ١٢٩٨ بموقعة قُتل فيها ادولف ودارت الدائرة عليهِ. وبعد قليل تُوِّجَ ألبرت ملكاً وقبلهُ الجميع الاَّ بونيفاتيوس فانهُ لما رأى آمالهِ بالانتفاع من اختلاف الملكين ساقطةً وان الذي أحبطها كان ألبرت بعدم توقفه عن الحرب أخذ يثير ضدَّهُ اقارب ادولف. غير ان ألبرت لم يكن أقل درايةً وسياسةً من البابا. فأرسل البابا اليه سفراءَ يقولون لهُ «ان الذي يقتل سيدهُ لا يستحق المُلك» فلما سمع ألبرت هذا الكلام وضع التاج على رأسهِ ومسك السيف بيده وقال لامراءِ مملكتهِ بصوت جهير «ماذا يضرني اذا انكر البابا عليَّ التاج. انا ملك بانتخاب الامراءِ فانا اذاً قيصر» هذا كان جواب ألبرت للبابا. ونظراً الى ما فيهِ من الازدراءِ اغتاظ البابا منهُ غيظاً شديداً ودعاهُ اليهِ ليعتذر امامه. الاَّ ان ألبرت تحالف مع فيليب ملك فرنسا الذي كان من اعداءِ البابا كما تقدم. ولما كان سلفهُ ادولف حين تبوُّئه كرسي المملكة وهب املاكاً كثيرة لرئيس اساقفة موغنديك ولبعض الامراءِ طلب ألبرت سنة ١٣٠٠ إرجاع تلك الاملاك منهم الى المملكة. فاتفقوا عليهِ مع البابا وعملوا على خلعهِ. ولكن ألبرت جنَّد ضدهم جنداً قويًّا واجبر العصاة علس الخضوع لهُ بكل سرعة واجبر البابا ايضاً ان يعترف بهِ قيصراً ويصالحهُ.

وفي سنة ١٣٠٠ سنَّ هذا البابا عيد اليوبيل فكان هو اول من عيَّدَهُ طمعاً بجمع الدرهم والدينار الذي كان مولعاً به اشدَّ الولع. ففي اول يوم من السنة لبس ملابس رئاسة الكهنوت كاملةً وعليها البُرفير الامبراطوري وفي صدرهِ النياشين القيصرية وامر أن يُحمَل امامهُ سيفٌ. وعلى هذه الصورة تجلَّى على الشعب ليُظهر لهُ ان القوة والسلطة التي في يدهِ روحية وزمنية.

وتحت هذه الغاية كان هو اول من اضاف الى التاج البابوي التاج القيصري وجعل تاج البابا مركَّباً من تاجين مع انهُ كان الى ايامهِ تاجاً بسيطاً اشبه بالمتاج الشرقي. اما سنة اليوبيل فقد جعلها بونيفاتيوس كل مائة سنة مرةً. ولكي يجلب الشعب الى حضورها وبذل المال في رومية اعلن ان كل مَن يزور في سنة اليوبيل كنيسة مار بطرس وبولس في رومية وسائر كنائسها ينال غفراناً عن مائة سنة. على ان خلفاءهُ لما رأوا عيد اليوبيل يأتيهم

بايرادات طائلة وارباح جزيلة أخذوا يقربون مدة تعييدهِ حتى جعلوها كل خمس وعشرين سنة مرةً.

قلنا في ما تقدم ان الخلاف بين البابا بونيفاتيوس والملك الفرنساوي فيليب الرابع كان من يوم الى يوم يزداد استحكاماً حتى اصدر البابا ضد فيليب منشورهُ المسمى «أُونَم سانكتَم». غير ان هذا المنشور لم يأتِ بفائدة لان الملك عقد مجمع الشرفاءِ في ربيع سنة ١٣٠٣ مؤلفاً من البارونين وبعض الاساقفة وكلف متشرعهُ الشهير وليم دي نوغارت ان يقرِّف البابا علانيةً. ففعل ونعتهُ بالهرطقة والسيمونيَّة وعدم الاستقامة وبخبائث أخرى وألحَّ بطلب مجمع مسكوني يعزل هذا البابا الاثيم من وظيفتهِ. فعُقدَ اجتماعٌ قرَّر الحق للملك في ان يضبط البابا. اما البابا فلما بلغهُ ما جرى اصدر في شهر نيسان حرماً ضد الملك وحجر كل بلاد فرنسا وربط اكليرُسها واعتق الشعب من واجب حفظ الامانة للملك. فلما ورد الحرم الى الملك عقد في باريس جمعية كبيرةً في شهر حزيران مؤلفة من عظماءِ المملكة اكليرُساً واعواماً فقرَّرت هذه الجمعية وجوب استئناف القضية التي بين البابا والملك الى مجمع مسكوني يُعقَد حالاً واقامت الحجة على كل الأعمال التي عملها البابا او سيعملها ضد المملكة والملك. ثم ارسل الملك متشرّعهُ وليم دي نوغارت مع آخرين الى ايطاليا ليبلّغ البابا هذا القرار ويأتي بهِ الى ليون حيث عزم ان يعقد المجمع. ولكن البابا لما علم بقدومهِ هرب من رومية الى وطنهِ مدينة آناغني وتحصن فيها. فاستعان وليم بعائلة كولونا عدوة البابا المذكورة قبلاً وتبعهُ الى حيث كان في بيت ابيهِ. فلما رأى البابا الخطر الذي تهددهُ لبس بدلة رئاسة الكهنوت كاملة وجلس على كرسيّ. ولكن العدو اقتحمهُ بغتةً مع مائتي فارس بقيادة القائد سكيارَّه وهناك اخذ سكيارَّه يضرب البابا على رأسه بعفيرة كفهِ الحديدية حتى ادوخهُ وجعلهُ اشبه بالمجانين ينهش لحم جثتهِ من شدة الغضب ولولا تداخل وليم لتخليصه لكان اماتهُ. ثم انهم اخذوهُ اسيراً وجاؤوا بهِ الى رومية حيث اقام مدة خمسة وثلاثين يوماً لا يأكل الاَّ من لحمهِ لكثرة غيظهِ وانفعالاتهِ النفسانية حتى مات في ١١ تشرين الاول من السنة عينها ١٣٠٣. فلما بلغ موتهُ ملك فرنسا رفع

علَمهُ امام قصرهِ ثلاثة ايام ليلاً ونهاراً اشارة الى الظفر الذي نالهُ ضد اسقف رومية. اما التاريخ فقد نعت هذا البابا بجملة نعوت تتضح منها رداءة اطوارهِ. فالمؤرخ دانتي اعتبرهُ سيمونياً ذهب الى الجحيم حيث يقيم بين نيقولاوس الثالث واكليمس الخامس. واما الشعب فكان يقول فيهِ «انهُ زَحَفَ زَحْفَ الثعلب وحكمَ حُكْمَ الاسد ومات موت الكلب». وبالحقيقة ان هذا الوصف لشنيع جدًّا وكنا نود ان لا نورد مثلهُ في مؤلفنا ولكن الحقيقة على ما قال فلوري يجب ان تقال وخصوصاً انهُ وصفٌ وارد في مؤلفات الغربيين انفسهم مثل اربرت الارجنديني والقس سبفردُن وبولس لانكيوس وابلاتينا.

وبهذا البابا نختم تاريخ القرن الثالث عشر كما بدأناهُ بتاريخ البابا اينوشنسيوس الثالث البابوَين اللذين حلَّ فيهما وتصوَّر بهما بنوع خاص حب الاستبداد والسلطة المطلقة. وقد رأينا ان هذا القرن كان على الكنيسة الشرقية الارثوذكسية اثقل واكره القرون كلها لما اصابها من تعديات الصليبيين الذين خربوا عاصمة المملكة ومن دسائس الاجبار الرومانيين الذين كانوا يحاولون دائماً اخضاع الشرق لاستبدادهم الذي كان هذا القرن ازهى عصر لهُ كما يتضح من تاريخ البابوَين المذكورَين وممن بينهما. فان اينوشنسيوس كان مُخل الحركة في اوربا كلها ومدير الشرق كلهِ ايضاً حيث كان ينصب البطاركة ويعزلهم بامرهِ بعد فتح الصليبيين للقسطنطينية. ومما ورد في مناشيره حين كان يستنهض الملوك الى محاربة الروم وفتح مملكتهم قولهُ «عندما تتأملون في العار العظيم الذي تسببهُ الكنيسة اليونانية لا للكنيسة الرومانية وحدها فقط بل لكل الكنيسة وعندما تعرفون احتقارها ايانا وعندما تقفون على بعضها لنا واضاليلها في العقائد حينئذٍ تنهضون بلا تحريضٍ منا الى حمل السلاح ضدها وتجاهدون بغيرةٍ حارَّةٍ جدًّا في سبيل الايمان» هذه عبارة من عبارات البابا اينوشنسيوس الثالث وهي واضحة لا تحتاج الى زيادة. وكذلك بونيفاتيوس اصدر منشوراً امر فيه ان يكون الاعتقاد بسلطان البابا واستبدادهِ عقيدةً من عقائد الايمان كما ذكرنا وان من لا يعتقدها لا يخلص ومما ورد في هذا المنشور قولهُ «اننا نعترف ونؤمن لكنيسة واحدة مقدسة جامعة ورسولية ليس لمن خرج عنها خلاص. ونعترف

ايضاً بانها واحدة اعني جسماً واحداً ذا رأس واحدٍ لا اثنين كفلتات الطبيعة. فرأسها هو يسوع المسيح وحدهُ والقديس بطرس نائبهُ والبابا خليفة القديس بُطرس ووريثهُ. فاذا كان الروم او غيرهم يقولون بانهم غير خاضعين لخليفتهِ يعترفوا بذلك انهم ليسوا خراف المسيح لأنهُ هو قال «رعية واحدة وراعٍ واحد».

ثم ان بونيفاتيوس يحكي في الرسالة عن السيفين الروحي والزمني وعن السلطتين المعادلتين لهما اللتين يجب ان تخضع الزمنية منهما للروحية لأن الانسان الروحاني يحكم على كل شيءٍ ولا يستطيع احد ان يحكم عليهِ ثم يقول «فالذي يقاوم إذاً سلطتهُ يقاوم الله ويعلّم بسلطتين مثل اتباع مانِس وهذا تعليم كاذب وهرطقة. ولذا ننادي ونحدد انهُ من الضرورة لكل مخلوق ان يخضع للبابا ليحصل الجميع على الخلاص». هذا ما قالهُ البابا بالحرف الواحد وقد قال فيهِ احد مؤلفي الشرق حين اورده «ان هذا القول يبين لنا الى اي جهل وحماقة يصل الانحراف عن الادراة القديمة في الكنيسة الادارة التي سُنَّت من الرب ورسلهِ. وبالحقيقة ان الانسان يتعجب عندما يرى كيف كان اتباع الكنيسة الغربية انفسهم يحكمون في مطالب رؤساءِ كهنتها وعموم الاساقفة فيها بوجه الاجمال الذين كانت قائمة الخصام منتشبة دوماً بينهم وبين الحكام العالميين» قال المؤرخ فلوري الغربي «ان هذه المنازعات لا نرى لها مثيلاً في الكنيسة اليونانية (يعني الارثوذكسية) لان اساقفتها لم تكن لهم سلطة ووظائف عالمية ولا كانوا ذوي املاك ولم يكونوا عارفين بالاوامر البابوية واحكام الكنيسة اللاتينية الناشئة عنها. وانما كان حقهم القانوني كلهُ مؤلَّفاً من قوانين مجامع الكنيسة المسكونية وهم انما كانوا يحاكمون الاكليركيين وحدهم ويفرضون على التائبين قصاصات كنائسية فقط. وكان الامراء اللاتينيون (واكثرهم كانوا على اقصى درجة من الجهل) يصدقون كل ما كان يقولهُ لهم اكليرُسهم في امتيازات الكنيسة. اما الروم الذين كانوا يمتازون في التمدن اكثر منهم كثيراً فكان عامتهم ايضاً يقرأون الكتاب المقدس وقوانين الآباءِ القديسين ولذا كانوا افضل منهم في حفظ السنن القديمة الكنائسية. فاساقفتهم

وبطاركتهم انفسهم كان يُحاكمون في كل المجامع من دون ان يطلَب من البابا ولا مرةً واحدةً رخصة لعقدها او تصديق على قراراتها. وكان الاساقفة ينتقلون من مكان الى مكان بلا مخابرة البابا وكانت تشكل ابرشيات جديدة كذلك وعلى هذه الصورة كانت قوانين الكنيسة الشرقية القديمة تُحفَظ لا بعد فوتيوس فقط بل قبلهُ ايضاً حين كانت مرتبطة بالكنيسة الرومانية باشد الرباط وهذا كان لان الغرب عينهُ لم يكن فيه شيء وقتئذٍ من السنن الجديدة المتأخرة. اما الانشقاق فقد ضرب اطنابهُ لما فتح الصليبيون عاصمة المملكة».

«ثم ان البابا لاون التاسع وخلفاءهُ الذين كانوا يريدون انهاض الكنيسة الرومانية من حالة الخراب التي سقطت فيها في القرن العاشر واعادتها الى مجدها كلهِ كانوا يسعون في تشييد سلطتها الزمنية التي كانوا يؤسسونها على كتاب مزوَّر منسوب الى القيصر قسطنطين الكبير وعلى جملة كتابات بعد ذلك لقياصرة الافرنج وقد كانت هذه الكتابات موضوع تصديق عظيم في الغرب وقتئذٍ حتى ان القديس برنارد كان يسمي البابا اوجانيوس الثالث خليفة لا لبطرس فقط بل لقسطنطين ايضاً. فيا ترى هل أُعلنت في القرن الحادي عشر حكمةٌ لم تُعلَن في القرون القديمة حتى جدَّت هذه المعرفة؟ او لعلَّ لاون التاسع وغريغوريوس السابع كانا متنورَين اكثر من القديسين لاون الكبير وغريغوريوس الكبير؟»

«اما سلطة البابا‌وات الروحية فقد زادت بواسطة الاوامر الكاذبة (الديكريتات) وامتدت امتداداً واسعاً حتى انهم كانوا مضطرين ان ينيطوا بها آخرين لأنهم لم يكونوا قادرين ان يذهبوا الى كل مكانٍ ليجذبوا الجميع اليهم ويكسبوا ميلهم. ومن ذلك الوقت دعت الضرورة الى ارسال سفراءِ خصوصيين (قصَّاد) يُنتخبون اما من كرادلة رومية او من الاساقفة ورؤساءِ الاديرة المقيمين في بلادهم وكان هؤلاءِ القصَّاد يديرون كل الابرشيات ويجعلون بذلك سلطة اساقفة البلاد ومجامعها عدَماً وكانوا مُبْغَضين بسبب خيلائهم ومطامعهم. وبهذا النظام الحديث خرب النظام الكنائِس الاصلي وصار مطارنة الابرشيات يجهلون حقوقهم حتى صاروا

يتهافتون بكل قواهم على الوصول الى لقب القاصد الرسولي. وبالحقيقة انهُ لأمرٌ محزنٌ ان نزيح الغطاءَ عن اعمالٍ قبيحةٍ مثل هذه ونفضحها واخشى من اني اكون بذلك قد شككت اناساً اتقياءَ اكثر مما هم علماءُ ولكن ما العمل واساس التاريخ هو الحقيقة؟»

القرن الرابع عشر

الباباوات والبطاركة والقياصرة مدة هذا القرن

بعد وفاة البابا بونيفاتيوس سنة ١٣٠٣ أُقيم البابا بنيدِكْتُس الحادي عشر خليفةً لهُ وكان هذا الرجل ابن عائلة واطئة اسمهُ الاصلي نيقولاوس من مدينة تريفيسيا ولكنهُ باجتهادهِ صار رئيساً على طغمة الدومينيكيين. فلما رقي كرسي البابوية اجتهد في ان يرجع اليهِ النفوذ الذي اضاعهُ بونيفاتيوس ولكن على وجهٍ سلميٍّ (والحكيم من اتَّعظ من الحوادث) فارجع ملك فرنسا ومملكتهُ الى شرفهم واعترف بامتيازاتهم السابقة من دون ان يكلفّهُ احد الى ذلك وانما بقي مصرًّا على حرم وليم دي نوغارت نظراً لما صدر منهُ ضد البابا وشرف مركزهِ. فلم تكن تلك التساهلات وحدها كافئةً لاسترضاء الملك ولذا باشر متشرعهُ وليم المذكور بطلب من الديوان البابوي في رومية باسم الملك فيليب ان توضع علامة العار على البابا بونيفاتيوس المتوفَّى. غير ان البابا بنيدِكْتُس لم تطُل مدتهُ بل توفي في اواخر الصيف ١٣٠٤ ولبث بعدهُ الكرسي الروماني مدة تسعة اشهر بلا اسقف. وفي خلال هذه المدة كانت حيَل الملك فيليب متواصلةً للحصول على غايته بتنصيب حبر فرنساوي الجنس يكون لهُ عليه النفوذ التام ليحل وليم من الحرم ويحكم حكماً كنائسياً على بونيفاتيوس ويبيد طغمة الهيكليين الغنية التي كانت عقبةً لهُ. وقد وجد رجلاً يوافقهُ على اتمام مقاصدهِ هذه وهو برترندْ دي غوت اسقف بوردو الذي وعدهُ باجرائها كلها متى ارتقى الكرسي البابوي وكان هذا الاسقف واحداً من تلاميذ البابا بونيفاتيوس ولكنهُ كان غيوراً جدًّا على مصلحة فرنسا فسيم بابا في ٥ حزيران من سنة ١٣٠٥ ودُعي اكليمس الخامس. ولما استقرت لهُ الرئاسة على الكرسي البابوي رأى ان ينقل مركزه من ايطاليا الى فرنسا ليتخلص من المقاومات والمنازعات العنيفة التي كانت تقوم عادةً في رومية والتي حصلت في مدتهِ ايضاً سبب تتويج هنري السابع ملك الغرب سنة ١٣٠٨. فنقلهُ الى مدينة افينيون في هذه السنة عينها. وكانت هذه المدينة تابعةً لمملكة نابولي ولكن الباباوات بعد

ان اقاموا فيها مدةً اشتروها في ١٣٠٧ ولبثوا فيها الى سنة ١٣٧٧ فكانت مدة اقامتهم كلها سبعين سنةً. ولما كانت هذه المدة مساوية لمدة أُسر الاسرائيليين في بابل المعروفة بسبي بابل سُميّت على مثالها «منفى الباباوات البابلي». وقد كان هذا البابا منقاداً للملك فيليب لا يخالف لهُ امراً فألغى كل الاوامر البابوية التي صدرت ضدهُ من سلفائهِ وسمح لهُ بالعشور من كل الاملاك الكنائسية. غير ان الملك فيليب كان رجلاً متصفاً بالطمع وحب المال.

ومما يُرْوَى عن مطامعهِ انهُ طرد اليهود من مملكتهِ واستولى على كل ثروتهم ومن بعد ثماني سنوات سمح لهم بالرجوع ثانيةً حتى انهُ متى رجعوا واستغنوا يرجَع ويسلبهم كل غناهم. فلما اخضع لسلطانهِ وارادتهِ الحبر الروماني طلب ان يبيد طغمة الفرسان الهيكليين الغنية لكي يستولي على املاكها. وعلى ما روى ملاتيوس وغيرهُ من المؤرّخين لكي يحوّل غناها الى احد اولاده ليجرد بهِ جيشاً على الاراضي المقدسة ويجعلهُ ملكاً عليها. ولكنه لم يكن سهلاً على البابا ان يجيب طلبه هذا. ولكي يفهم القارىء مَن هي طغمة الهيكليين ومتى قامت نأتي على تاريخها واصل تأسيسها بوجه الاختصار فنقول:

ان الطغمات الفرنساوية المعروفة عادة بطغمات الشيفاليه او الكافاليرِ كانت واحدة من نتائج الحروب الصليبية. وقد كانت هذه الطغمات قبل الحروب الصليبية تؤلّف هيئة خيرية غايتها مساعدة زوّار القبر المقدس واخلاء الطرقات امامهم من اللصوص واسعاف فقرائهم الخ ولكنها بعد الحروب الصليبية تحوّلت الى طغمات حربية وجنود رسمية عنوانها الطاعة والعفة والفقر الاختياري وأهم مقاصدها المواظبة على الجهاد ضد الكافرين. وقد اشتهر من هذه الطغمات في التاريخ ثلاثٌ الاولى طغمة القديس يوحنا والثانية طغمة الهيكليين والثالثة طغمة الجرمانيين او التوتونيين.

اما طغمة القديس يوحنا فقد أُنشئت سنة ١٠٤٨ في اورشليم. قال المؤرخون ان بعضاً من التجار سافروا في تلك السنة من آمالفي في جوار

نابولي الى اورشليم واسَّسوا فيها بقرب وادي يهوشافاط الدير المعروف بدير اللاتين على اسم القديس يوحنا الرحوم بطريرك الاسكندرية واقاموا فيهِ رهابين مخصَّصين لخدمة اعمال الرحمة والمحبة نحو زوَّار القبر المقدس. ثم أُبدل اسم هذا الدير من اسم القديس يوحنا الرحوم الى اسم القديس يوحنا المعمدان. وكان عبارةً عن مستشفى يدخلهُ كل محتاجٍ من زوَّار اورشليم. فلما حاصر اللاتين مدينة اورشليم قام اخوة هذا الدير باعمالٍ عظيمةٍ خدمةً للبر حتى ان غودوفريد كافأهم بهدايا وافرة ومن ذلك الحين اخذت ثروتهم تزداد يوماً فيوماً من سخاءِ الناس الاتقياء الذين كانوا يزورونهُ حتى صارت ثروةً واسعةً يعتمد عليها في اعمال تزيد عن مساعدة المرضى والمساكين. وقد صار لهؤلاءِ الرهبان شهرةٌ عظيمة وحصلوا على اعتبارٍ وشرفٍ رفيع حتى اخذ كثيرون ينضمون اليهم ومن جملتهم فرسان من الذين دافعوا بحد السيف عن الاماكن المقدسة وكانوا بانضمامهم اليهم يجدون راحةً عظيمة وتعزيةً روحية. وفي سنة ١١١٨ كان عليهم رئيس يُدعى رَيموند دُوْبُوِيّ. فهذا الرئيس اعرض على بلدوين ملك اورشليم ان يؤلّف من رهبانه طغمةً تحارب اعداء الدين على مصروف الدير فاستصوب الملك هذا الرأي وقبلهُ وأُعرض على البابا كاليستُس الثاني سنة ١١٢٠ ومن ذلك الوقت ارتبط في هذه الطغمة واجبان واجب القيام بفضائل الرهبنة وواجب القيام بالحروب الدموية دفاعاً عن الاراضي المقدسة وصارت طغمةً جنديةً فرسانيةً رسميةً مصدقاً عليها من رئيس كنسيتها وعلى ما قال موسهَيم «تحوَّلت من خَدَمةٍ للمساكين بالهدوء والسكينة (دهشة للجميع) الى جنود حربيين». وقد انقسمت هذه الطغمة الى ثلاث رتَب وهي رتبة الفرسان ورتبة الكهنة ورتبة الخدَّام. فرتبة الفرسان كان عملها الحرب في سبيل الدين والاماكن المقدسة. ورتبة الكهنة كان عملها القيام بالخدمة الدينية للطغمة ورتبة الخدام كان عملها القيام بخدمة احتياجات الطغمة. اما لباسها فكان وشاحاً وصليباً ابيض على الصدر وعلمها كان الصليب الاحمر. ومن جملة نظامها ان لا يخرج اعضاؤُها في الطريق الاَّ اثنين اثنين. وقد كان البذخ والاسراف ممنوعاً عليهم. ولكنهم لم يثبتوا على هذه المبادئ الصالحة طويلاً لأن الغنى افسدهم وكثرة الواردات ابطرتهم فصارت تزدادا مساوئهم

وتُسمع ضدهم شكاوٍ كثيرة. وقد اقاموا في اورشليم الى سنة ١٢٨٧ واظهروا في هذه المدة من اعمال الهمة والشجاعة اعظمها وحصلوا على غنى وافر جدًّا. ولكن لما امتلك السلطان صلاح الدين الايوبي بلاد فلسطين وفتح مدينة اورشليم كما تقدم الكلام هاجروا الى عكا سنة ١٢٥٧ ومنها الى جزيرة قبرص سنة ١٢٩١ وفي سنة ١٣١٠ استولوا على جزيرة رودُس واقاموا فيها ومنها سمُّوا بالرودُسيين. ولما فتح السلطان سليمان القانوني سلطان بني عثمان هذه الجزيرة سنة ١٥٢٢ طردهم منها فاعطاهم كارلوس الخامس ملك جرمانيا جزيرة مالطة فجاؤُوها واقاموا فيها من سنة ١٥٣٠ وسمُّوا من ذلك الوقت بفرسان مالطة او المالطيين. وفي سنة ١٧٩٨ سلَّموا هذه الجزيرة الى العمارة الفرنساوية التي كان نابوليون بونابارت قادماً بها الى مصر. ولكن الانكليز حاصروها سنتين ثم استلموها ولم تزل في يدهم الى الآن. غير ان الطغمة المذكورة انحطت انحطاطاً مهمًّا لأنها في الثورة الفرنساوية كانت قد خسرت جانباً عظيماً من ايراداتها واملاكها ومن ذلك الوقت صارت مداخيلها تتلاشى يوماً فيوماً حتى قربت من العدم.

واما الطغمة الثانية فهي طغمة الهيكليين وعليها مدار الكلام. فهذه الطغمة اسَّسها اثنان وهما هوكو دوباغانس وغودوفريد دي آمور (او ماري عُمَر وسبعة آخرون اسماؤُهم مجهولة على قول موسهَيم) وكان هذان الاثنان فقيرين جدًّا لا يملكان غير حصانٍ واحدٍ ولذا كانت علامة طغمتهم حصانًا بفارسين. فاتفقا على ان يكرسا حياتهما لخدمة الاماكن المقدسة ومساعدة زائريها واتكلا على مساعدة السيدة والدة الاله. وقد اعطاهما بلدوين ملك اورشليم قسماً من بلاطٍ لهُ بقرب هيكل سليمان ليجعلاهُ مركزاً ومن ثم سمُّوا هيكليين. ومع مرور الأيام انضم الى هذين الفارسين كثيرون غيرهما الى ان صاروا جمعيةً مهمةً وطغمةً رسميةً صدَّق عليها البابا اونوريوس الثاني بقرار مجمع طرويس (او تركي على قول ملاتيوس) سنة ١١٢٨ حيث سنَّ قانونها ايضاً. اما واجبات هذه الطغمة فكانت المدافعة بالسيف عن الديانة والمحافظة على الطرقات من اللصوص وحماية زوَّار الاماكن المقدسة من تعديات الغير المؤمنين على حياتهم واعراضهم واموالهم وكل راحتهم. وقد

كانت في اول امرها فقيرة جدًّا ولكنها ما لبثت طويلاً حتى حصلت على ثروة واسعة من الهدايا الكثيرة التي كانت تأتيها. وكان جيمع رجالها جنوداً فقط ولم يكن فيهم كهنة مثل الطغمة الاولى. وقد اشتهرت في أوروبا كلها شهرةً عظيمةً بواسطة برنارد كليربو وحصلت على اعتبار عظيم في كل مكان وكانت والحق يُقال طغمة حريةً بالشهرة لانها كانت متصفة بفضائل كثيرة اخصها كثرة الصلوات الى السيدة والدة الاله على نوع خصوصي والعيشة العفيفة التي كان اعضاؤُها يواظبونها بكل صرامة وكثرة الحسنات الى الفقراء. وكان لباس جنودها وشاحاً ابيض وصليباً احمر اما خدامها فكانوا يلبسون صليباً اسود. وقد اظهرت من اعمال الشجاعة والبسالة اعظمها. وخدمت مبادئها خدماً مهمة. ولكنها لما اغتنت وبطرت بكثرة الاموال انقلبت آدابها انقلاباً تامًّا الى عكس ما كانت عليه وفسدت اطوراها وصارت طغمةً متكبرةً قاسية شريرة لا تميل الى غير الرفاهة والفساد. ففي بادىء فسادها انكرت الطاعة للبطريرك الاروشليمي اللاتيني الذي كان عمادها بكثرة مساعداته لها ثم بعد ان كانت قبلاً تدافع عن المسيحيين وتحميهم صارت تضرهم وتؤذيهم وتخونهم وتنضم احياناً الى اعدائهم وقد وصفها المؤرخون بانها جمعت الكفر والخيانة والرياء والبدَع وعبادة الاوثان عينها احياناً وخصوصاً الرذائل والفسق. حتى ان البابا اينوشنسيوس الثالث (١١٩٨ ــ ١٢١٦) تشكّى منها مراراً بسبب كثرة استبدادها وسوء اعمالها. على انها لم تُقِم في فلسطين الى ما بعد سنة ١٢٩١ حين سقطت عكا في يد السلطان سيف الدين قلاوون ولم تعد قائمة للافرنج في سوريا وفلسطين فانتقلت الى جزيرة قبرص ومن هناك الى جهات عديدة في أوروبا ولكنها اختارت مركزاً لها مدينة باريس حيث كانت في ايام فيليب الجميل كما مرَّ وكما سيأتي.

واما الطغمة الثالثة فهي طغمة الفرسان الجرمانيين او التوتونيين وقد نشأت سنة ١١٩٠ حين كانت مدينة عكا محاصرةً من قلاوون. اما سبب انشائها فهو احتياج الجرمانيين من زوَّار الاماكن المقدسة الى ملجإٍ يلتجئون اليه عند الحاجة وجهلهم لغة الفرنساويين والايطاليين الذين كانت اسبابا

الراحة متوفرة لهم بواسطة الطغمتين الاوليين. وعليه اسَّس دوق سويبيا هذه الطغمة من فرسان جرمانيين فقط على مثال الطغمتين السابقتين لتعتني في اقامة محلاتٍ للمرضى والجرحَى من العساكر الجرمانيين. وقد ثبتها البابا اكليمس الثالث (او على قول موسهَيم كلستينوس الثالث) في السنة عينها او بعدها بقليل وكان قانونها مثل قوانين الطغمات الاخرى وملبوسها الوشاح الابيض والصليب الاسود وواجباتها محاربة الكفار ومداراة الزوَّار. ثم انتقلت هذه الطغمة الى بروسيا وفي سنة ١٢٣٧ اتحدت مع طغمة أُخرى اسمها طغمة السيَّافين وكانت في اول امرها على صرامة عظيمة من العيشة غير انها لما اغتنت تراخت ومالت للرفاهة والغرور.

هذه خلاصة تاريخ طغمات الفرسان (الكافاليرز) منها يفهم القارىء ما هي طغمة الهيكليين ومَن كانت في ايام الملك فيليب.

فلما طلب هذا الملك ان يبيدها ليستولي على ثروتها الواسعة كما قلنا لم يكُن سهلاً على البابا ان يوقفهُ رسمياً على هذا الطلب ويُصدر قراراً بالغائها ولكنهُ لم يكن في الباطن شديد المعارضة كما كان في الظاهر فلما قام بعض اضدادها وقدموا عليها من الشكايات اقبحها وادنسها لم يتردد البابا في الحكم ضدها. وهذه هي بوجه الاختصار المطاعن التي رموها بها. اولاً ان اعضاءَ هذه الطغمة يجحدون الايمان ويعبدون الاوثان. ثانياً انهم يبتعدون عن النساءِ ويضاجعون الذكور. ثالثاً. ان الذي يدخل طغمتهم يجبرونهُ ان ينكر المسيح ويتفل على الصليب ثلاث مراتٍ ويرميهُ على الارض ويدوسهُ ثلاثاً. رابعاً. ان الذي يدخلونهُ في جنديتهم يعرُّونه ثم يأمرونهُ ان يقبّل نقطةً معينةً في كفل احد الاخوة الحديثين. خامساً. يأتونهُ برأس احد الاصنام ويأمرونه بالسجود لهُ سجود عابدٍ. وقد وردت هذه التُّهم في منشور من البابا ارسله الى مجامع سبقت مجمع فيانا والى الملك فيليب وغيرهِ من الملوك والى القيصر هنري السابع نفسهِ.

فهذه التُّهم ساعدت البابا كثيراً على اصدار رسائلهِ ضدها وتصريحه بان هذه الطغمة يجب ان تبيد وعليه اصدر الملك فيليب برضى البابا امراً في ايلول سنة ١٣٠٧ بان يُسجَن جميع الفرسان الهيكليين في كل انحاءِ

مملكتهِ في يومٍ واحد. ومثل ذلك حصل في انكلترا في السنة التالية. ثم امر بتعذيبهم واجبارهم على الاقرار بكل ما كان يريد ومن ثمَّ امر بقصاصهم قبل اتمام التحقيق وهكذا احرق منهم ٥٤ فارساً في سنة ١٣٠٩ وهم ينادون بانهم مظلومون ومغصوبون على ما اقرُّوا بهِ. ثم أُحرق غيرهم ايضاً في جهات أُخرى من المملكة الى ان أُبيد اكثرهم في تسعٍ وخمسين حريقةً. وقد اجتمعت ضدهم جملة مجامع سنة ١٣١٠ في رافنَّا ومايانس وسلمنكا وسنلس وخصوصاً في باريس حيث تقرر ان بعض الهيكليين يجب ان يخرجوا من الطغمة خروجاً كليًّا وبعضهم ان يُحرَّروا بعد اتمامهم قانون التوبة المفروض عليهم وبعضهم ان يرموا في سجنٍ ضيقٍ وبعضهم ان يوضعوا بين حائطين على الدوام وبعضهم وهم الذين رجعوا وسقطوا في الهرطقة ان يُدفعوا الى المحاكم المدنية بعد ان يقطعهم الاسقف ويحرمهم. واذ كان البابا والملك يُريدان ان يُلبسا اعمالهما هذه حلةً رسميةً عقد مجمع فيانا وهو الخامس عشر المسكوني عند الكنيسة الغربية فألغى هذه الطغمة إلغاءً رسميًّا. قال المؤرخون ان كل هذه الاعمال عملها البابا ليرضي فيليب ويحرص على شرف سلفهِ بونيفاتيوس لان فيليب طلب ان يتوَّج قيصراً. واذ لم يكن ممكناً للبابا اجابة طلبهِ اراد فيليب البحث في اعمال البابا بونيفاتيوس والحكم عليها فلم يجد البابا طريقاً لارضائهِ وسكوتهِ الا هذه والله اعلم.

ومن بعد هذا الحكم استولى فيليب على كل ثروة الفرسان المنقولة اما الاملاك الغير المنقولة فاعطاها لفرسان القديس يوحنا بعد ان اخذ منهم مالاً طائلاً بصفة قرضٍ حتى صارت الاملاك المذكورة مضرةً لا نافعةً لهم. وقد وكل امر بقية الهيكليين في الجهات الى مجامعها المكانية حتى تلاشوا بعضهم عاجلاً وبعضهم آجلاً من شدة الضيق والاضطهاد. اما رئيسهم الاخير يعقوب مولايس فقد احرق في باريس سنة ١١١٤ وفيها مات البابا اكليمس ايضاً.

ومن بعد وفاة هذا البابا قام الخصام بين الكرادلة على انتخاب من يخلفهُ ولبث هذا الخلاف مدة سنتين والكرسي الروماني بلا رئيس يرأسهُ لان

الكرادلة الايطاليين كانوا يرغبون اقامة بابا ايطالي الجنس واما الفرنساويون فأصروا على اقامة بابا فرنساويٍّ. ولكن الحزب الفرنساوي تغلب على الايطالي واقام البابا يوحنا الثاني والعشرين (اوال ٢١ اوال ٢٣) الفرنساوي الجنس قال ملاتيوس نقلاً عن المؤرخين الغربيين ان هذا البابا كان ابن فلاح حقير جدًّا وقد ارتقى في رتب الكهنوت الى ان صار اسقفاً على بورت فلما اشتد النزاع بين الكرادلة على انتخاب البابا ولم يقروا على رأيٍ اتفقوا على ان يفوضوا هذا الاسقف في امر الانتخاب واقروا على ان الذي ينتخبهُ هو يكون البابا. فمن بعد ان استوثق منهم على ذلك انتخب نفسهُ وهكذا رقي الكرسي البابوي وشُرطن في ليون في ٧ آب من سنة ١٣١٦. وكان هذا البابا رجلاً محبًّا للقلاقل والمنازعات كثير الاضطرابات وعنيداً وعلى الخصوص كان طماعاً ومحبًّا للمال وتحت هذه الغاية قسم بعض الاسقفيات الى اثنتين وضم بعضها كل اثنتين وضم بعضها كل اثنتين الى واحدة وكان يشكل اسقفياتٍ جديدةً ويلغي اسقفياتٍ موجودة ويرتب جمعياتٍ جديدة ويلغي بعضاً من الموجود ويغير في نظاماتها الى غير ذلك من الاعمال. وقد قام بينهُ وبين لويس الخامس ملك بافاريا خصام عظيم نسردهُ بوجه الايجاز.

فانهُ بعد وفاة هنري قيصر جرمانيا في ٢٤ آب سنة ١٣١٣ طلب خلافته اثنان احدهما فريديريك الملقَّب بالصالح اكبر اولاد ألبرخت ملك النمسا والثاني لويس الخامس امير باڤاريا العليا. الاَّ ان البابا يوحنا استناداً على مبدأ سلفهِ بانهُ متى مات القيصر تنتقل سلطتهُ بحقٍّ ذاتيٍّ الى البابا ادعى بان كل وظيفةٍ مُنحت من هنري السابع لاغية وصرَّح بان كل موظَّفٍ في مملكة جرمانيا يمارس واجبات وظيفته من الآن فصاعداً بلا تصديق من البابا يكون محروماً. ثم ألَّف حملةً صليبيةً بقيادة البطل الباسل راسيوند كردونا ضد متَّى ملك ميلان فاستولت على عدة بلاد. وفي سنة ١٣٢٢ مات متَّى فخلفهُ ابنهُ كالياتزوس الاول. واذ رأى نفسه عاجزاً عن صد جنود البابا استنجد لويس فانجدهُ وبواسطة هذه النجدة كسر اعداءهُ فذهبت كل مصاريف البابا على هذه الحملة سدًى. هذا ما كان من البابا. اما المتنازعان

على السلطة فوجدا كلٌّ منهما حزباً قويًّا وقام بينهما حرب اهلية دامت الى سنة ١٣٢٢ حين غُلِبَ النمساويون وأُخذ فريديريك اسيراً. فاعتبر لويس نفسهُ قيصراً لا منازع لهُ على الوظيفة ولكن من حظهِ انهُ قام بين الباباويين طغمة المينوريين (الفرنسيسكان) نزاعٌ كبير في حالة النفوس بعد مفارقتها الاجساد حتى ان كثيرين صاروا يعتبرون أن البابا هرطوقياً في قولهِ «ان النفوس المنتقلة ترى الانسان المسيح ولكنها لا ترى وجه الله او الطبيعة الالهية الى ان تتحد ثانيةً بالجسد في اليوم الاخير. ولما كان البابا حانقاً على لويس لظفرهِ بفريديرك ولانهُ ساعد بعض اخصامه عليهِ دعاهُ في شهر تشرين الاول سنة ١٣٢٣ ليحضر امام كرسيه البابوي. وليحاكم على ما جناهُ. اما لويس فاراد في بادىءِ الامر ان يحل المشكل بالتي هي احسن فارسل من عندهُ وكلاءَ الى البابا يسترضونهُ ويقنعونهُ بقبول ما حصل. ولكن البابا اصرَّ على طلبهِ وتهدَّد لويس بالحرم ان لم يحضر في مدة شهرين. فتنازل عن الوظيفة التي انتحلها. فلم يحفل لويس لهذا التهديد بل طلب عقد مجمعٍ مسكونيٍّ يحكم على البابا فحرمهُ البابا. واذ كان البابا متهوماً بالهرطقة كما قدمنا واكثر علماءِ ذلك العصر وطغمة الرهبان الفرنسيسكانية المحترمة منذ وكّل الشعب مقتنعين بغلطهِ ومخالفتهِ تعليم كنيستهِ كان حزب لويس اقوى من حزبهِ فعزم لويس ان ينزل الى ايطاليا ويستولي عليها سنة ١٣٢٧. وكان قد دعاهُ اليها جميع اشرافها لأنهم كانوا متكدرين من البابا لاقامته بعيداً منها وللاسباب الاخرى فنزل الى ترنت حيث جمع جمعية علماءِ من نخبة رجال مملكته الّفوا منشوراً فحواهُ ان البابا يوحنا هرطوقيٌّ (اي مبتدع). وفي شهر ايار من تلك السنة نزل بقوة عظيمة الى ميلان واستولى عليها. وفي اواخر آب ذهب الى توسكانا ومنها ذهب الى رومية فدخلها في ٧ كانون الثاني سنة ١٣٢٨ وقد استقبلهُ اهلها بفرحٍ وحبورٍ ما عليهما من مزيد واخذ التاج القيصري من حاكم رومية وتتوَّج بهِ ولكن الاكليرُس العالي لم يحفل للمنشور المصرّح بان البابا مبتدع ولذا لم يحضر تتويجهُ سوى بعضٍ من الاساقفة. ثم انهُ عقد مجمعاً كبيراً من الاساقفة ومن رجال الاكليرُس قطع يوحنا من الوظيفة وشرطن رجلاً تقيًّا اسمهُ بطرس كُربيرينسوس رياتينوس من رهبنة الفرنسيسكان كان يتعاطى التعليم مشهوراً

بالحكمة والفطنة فدُعي نيقولاوس الخامس. وقد شرطن هذا البابا كرادلة واساقفة كثيرين. اما يوحنا فعقد مجمعاً حرم نيقولاوس بصفة رجلٍ مقاومٍ لهُ فقابلهُ بيقولاوس ايضاً بانه امر ان تهان وتُحرَق صورة البابا يوحنا لانهُ لم يكن مستحقاً الكرسي البابوي. غير ان الاحوال المادية اجبرت لويس على الرجوع الى جرمانيا سنة ١٣٢٩ فاغتنم هذه الفرصة بونيفاتيوس كونت بسبي الذي كان صديقاً للبابا يوحنا وخطف البابا نيقولاوس وجاءَ به اليهِ. فوضعهُ يوحنا في سجنٍ الى ان مات وجدد الحرم ضد لويس فلما رأى لويس ان الاحوال صارت معاكسةً لهُ من كل جهةٍ عزم ان يصالح البابا ويقال انهُ نوى على التظاهر بالاستقالة من الكرسي القيصري الاّ ان البابا توفي سنة ١٣٣٤ بعد ان عاش تسعين سنةً فلم يتم صلحٌ بينهُ وبين لويس.

وهذا البابا اول من رتب ان تُقرع اجراس الكنائس في عشية كل يوم وان يتلو المسيحيون عند سماعهم اياها السلام الملائكي لوالدة الاله ثلاث مرات وكذلك البابا كالسكتُس الثالث في منتصف القرن الخامس عشر امر بقرعها كل يوم عند نصف النهار. ومما يستحق ان يُذكر من تاريخ البابا يوحنا الثاني والعشرين الثروة الطائلة التي تركها وقد ورد في تاريخ العلامة فلوري المؤرخ الغربي عن هذه الثروة ما نصهُ «ان جميع اوهام البابا يوحنا الهرطوقية من جهة حالة النفوس المنتقلة ليست شيئاً بالنسبة الى الهرطقة المالية التي وجدت في صندوقهِ بعد وفاتهِ وهي تساوي خمسة وعشرين مليوناً من الفلورينات منها ثمانية عشر مليوناً نقوداً والباقي آنية ومصاغ وتيجان وجواهر سلبها كلها ظلماً من الشعب والاكليرُس الواطئ مدة حبريته».

ومن بعد وفاة البابا يوحنا قام البابا بنيديكتُس الثاني عشر وهو ابن رجلٍ خبَّاز وكان رقيق الجانب اكثر من سلفهِ ولذا ظهر في بادئ الأمر انه يرغب في التساهل للقيصر الجرماني لويس في حلهِ من الحرم والاعتراف بهِ ومصالحتهِ ليستطيع بمساعدتهِ ان يتخلص من فيليب ملك فرنسا ويرجع من افينيون الى رومية. الاّ ان فيليب ومجمع الكرادلة الذين كان اكثرهم فرنسويين غلوا يدي البابا واجبروهُ ان يعرض على لويس شروطاً يجعلهُ بها خائناً وطنهُ ومملكتهُ. فمن بعد ان تردّد لويس في قبول تلك الشروط وعدمهِ

اخذتهُ الحمية الوطنية وغير سياستهُ تغييراً كليًّا سنة ١٣٣٧ فقطع المخابرات مع البابا ورجع الى اللقب القيصري بعد انهُ كان في السنة الماضية تساهل للبابا بالتنازل عنهُ وتحالف مع ادوارد الثالث ملك الانكليز الذي كان وقتئذ يحارب فرنسا وطلب مساعدة الامة فانضافت اليهِ ما عدا يوحنا ملك بوهيمياً والرهبان. حينئذٍ اجتمع الاساقفة وكتبوا الى البابا انهُ اذا كان يبقى مصرًّا على عدم حل لويس من الحرم فهم مستعدون ان يفتكروا في ما يجب فعله للمحافظة على حقوق المملكة الجرمانية وشرفها. وكذلك عظماءُ المملكة عقدوا في فرنكفورت مجمعاً كبيراً في ايار سنة ١٣٣٨ واذ علموا بان البابا مغلول اليدين لا يتجاسر على رفع الحرم من تهديدات ملك فرنسا قرروا ان كل ما جرى من البابا يوحنا في حق القيصر لويس غير شرعي ومن ثمَّ هو فاسد واصدروا امراً بان كل اكليريٍّ يخضع لقصاص الربط الذي فرضهُ البابا ويعتبر نفسهُ مربوطاً بهِ يُقاصُّ بصفة عدوٍّ للوطن وفوضوا لجمعية المنتخبين ان تقر رأيها في دعوى البابا اعني في ما اذا كان هو وحدهُ صاحب الصلاحية لان يحكم في مَن يستطيع ان يُلقَّب بملك الرومانيين او بالقيصر. فاقرت جمعية الانتخاب بالاجماع (ما عدا ملك بوهيميا) على ان دعوى البابا خارجة عن الصواب. غير ان لويس لم ينتفع من هذه الفرصة بل كان يسعى سرًّا في الحصول علي رضى البابا لعلمهِ بانهُ كان مكرَهاً ومغلول الايدي من فيليب. وإذ كان مجتهداً في اغناءِ بيتهِ من اموال الرعية كرههُ الجرمانيون انفسهم ودامت الحال على هذا المنوال الى ان مات البابا سنة ١٣٤٢. قال ملاتيوس ان هذا البابا كان ذا علاقاتٍ غير ممدوحة مع شقيقة فرانسيسكو بيطراركا الجميلة وانهُ كان يغويها بالهدايا والتمليقات لتوافقهُ على اهوائهِ ضدًّا لارادة اخيها الذي كان في رومية اشهر علماءِ عصرهِ وفطاحل زمانه لا في العلم فقط بل في الفضيلة والتقوى والشرف ايضاً حتى نودي بهِ في رومية بملك العلماءِ والشعراءِ في حفلةٍ جمعت جموعاً لا تُعد ولا تُحصى وتوَّجهُ فيها حاكم رومية باكليلٍ من ورق الغار في شهر نيسان سنة ١٣٤١. ولكن بعضاً يقولون ان البابا انما أُتهم بمثل هذه التهمة وغيرها لانهُ كان يرغب اصلاح شأن الاكليرُس والرهبان ولم يكُن ذلك مما يروق لهم اجراؤُهُ والله اعلم.

ومن بعد وفاته خلفهُ على كرسي البابوية اكليمس السادس الفرنساوي الجنس وكان من الشديدي التعصب للمصالح الفرنساوية وقد اشتهر هذا البابا اكثر من كل شيءٍ بفساد آدابهِ وكثرة قبائحهِ حتى لُقِّبَ بعاشق النساء والاستبداد والفخفخة وسُمِّي بضد المسيح نظراً لقساوتهِ وشراسة اخلاقهِ. وقد قال العالم الشهير فرانسيسكو بيطراركا في رسائلهِ ان البابوين اكليمس الخامس واكليمس السادس قد افسدا كنيسة رومية في سنين قليلة الى درجة لم يستطِع بقية البابواوات في سنين كثيرة اصلاحها وارجاعها الى جمالها الاول. ومن بعد تبوُّئه الكرسي البابوي حالاً ارسل اليهِ القيصر لويس سفارةً تطلب منهُ التعطُّف بحلهِ من الحرم. لكن البابا الجديد طرد السفارة واهانها لعلمهِ باشمئزاز الامراء الجرمانيين من لويس كما تقدم. فتكدَّر الامراءُ من عمل البابا واجتمعوا في فرنكفورت في ايلول سنة ١٣٤٤ ورفضوا مطاليب البابا الغير الشرعية. الاَّ ان البابا استمال اليهِ اربعة اعضاء من السبعة التي تؤَلِّف منها جمعية انتخاب القياصرة وهم اسقفا تُوْر وكولونيا وملك بوهيميا واَمير مكسونيا الفقير وبواسطتهم انتدب قيصراً آخر وهو شارل الرابع ابن يوحنا ملك بوهيميا سنة ١٣٤٦ واصدر حرماً جديداً ضد القيصر لويس. فانقسمت البلاد بعضها على بعض وساد الاستبداد وفقدت السلطة واستعرت نيران الحرب الاهلية وصار كلٌّ يغتنم الفرصة لينال من احد القيصرين امتيازات مفقودةً منهُ او جديدةً وبالاجمال صار كل قويٍّ يبتلع من يجدهُ من الضعفاء. ولكن لويس لم تطُلْ حياتهُ بعد ذلك فتوفي في ١١ تشرين الاول سنة ١٣٤٧ ولم تنتهِ بوفاتهِ الحرب الاهلية بل دامت مدةً بعدها ايضاً. ومن بعد وفاة لويس لم يُعرَف شارل قيصراً الاَّ بعد انتخابهِ من جديد وتتويجهِ بامر البابا وذلك بعد أن تنازل رسميًّا عن كل حقوق القيصرية امام سلطة البابا الزمنية. غير انهُ صادف من الشعب الجرماني وبعض امرائهِ مقاومةً عنيفة وضحَّى اموالاً طائلة وحقوقاً كثيرة من حقوق سلطتهِ الاستبدادية ليحفظ مركزهُ امامهم لأنهم كانوا يعتبرونهُ غرسةً من البابا وآلة للاغراض الفرنساوية وبكل جهدٍ محصل على رضى مقاوميه.

ومن اعمال البابا اكليمس السادس انهُ جعل سنة اليوبيل التي عينها

البابا بونيفاتيوس الثامن كل مئة سنة مرةً ان يُحْتفَل بها كل خمسين سنة مرةً وبنى ذلك على سببين احدهما ان عمر البشر لا يساعدهم على الوصول الى سنة اليوبيل كل مائة سنة ليحصلوا فيها على الحل من خطاياهم والثاني ان اليوبيل في العهد القديم يُعيَّد في السنة الخمسين. قال ملاتيوس «اما السبب الحقيقي في اقامة اليوبيل فلم يكن سوى ان يجمع اساقفة رومية اكداساً من المال بتجارة الغفرانات ومحو الخطايا لكل شخص من الزائرين الخ». وقد ادعى اكليمس بان البابا وحدهُ لهُ الحق في ان يقيم كل خمسين سنة اليوبيل المعين من بونيفاتيوس مرةً كل مائة سنة. وعليه دعا المسيحيين بمنشورٍ عام الى زيارة رومية سنة ١٣٥٠ حيث اجتمع على ما قيل مليون وثمان مائة الف نفس وقد حدَّد ان الاموال التي تُجمَع من زوَّار رومية في سنة اليوبيل يبقى ثلثها فقط لكنائس رومية واما الثلثان الآخران فيأخذهما هو.

وفي سنة ١٣٥٢ توفي البابا اكليمس فخلفهُ البابا اينوشنسيوس السادس وكان قبلاً محامياً امام المحاكم الفرنساوية. وفي مدته كرر القيصر شارل الخضوع لسلطة البابا الزمنية الذي كان قدمهُ لسلفهِ وتوَّج مرةً ثانيةً في رومية من كردينالين سنة ١٣٥٥ رغماً عن اصرار الرومانيين على وجوب حفظهِ الحقوق القيصرية وعدم اعترافه بسلطةٍ عالميةٍ للبابا. ولكنهُ في السنة التالية اصدر امراً ملوكيًّا سنَّ بهِ القانون الذي عليه يجب ان يجري انتخاب القياصرة وتتويجهم وعين علاقة المنتخبين بالقيصر وبالمملكة. وكان من جملة ما قصدهُ بهذا الامر الملوكي ان يمنع باسلوبٍ لطيف استبداد البابا‌وات في انتخاب اعلى حاكم في مملكة جرمانيا وتعيينه. وقد تكدَّر البابا اينوشنسيوس من هذا الامر لانهُ يقلّص سلطته واستبدادهُ ولكنهُ لعلمهِ انهُ لم يصدر منهُ بل من تدبير المتشرعين الذين عندهُ خاف ان يعترض عليهِ حذراً من ان يسوقوا القيصر بعدئذٍ الى ان يطلب الغاء كل الاوامر الصادرة من اسلافهِ المضرة والمجحفة بحقوق المملكة وخصوصاً منع اكليرُس جرمانيا من دفع العشور للبابا كما جرى في مملكتي فرنسا وانكلترا.

وفي سنة ١٣٦٢ توفي البابا اينوشنسيوس السادس فخلفهُ البابا اوربانوس الخامس وكان راهباً فرنساوي الجنس ولكنهُ اضطر ان ينتقل الى

رومية لسبب القلاقل التي كانت قائمةً على قدم وساق في ايطاليا. وقد اجتهد شارل الخامس ملك فرنسا في منعهِ وعزمه فلم يقنع بل قام في آخر يوم من شهر نيسان سنة ١٣٦٧ من افينيون الى مرسيليا ومنها الى جنوى فرومية وهناك نزل في القصر البابوي المجدَّد. وقد عقد محالفةً هناك مع القيصر الجرماني شارل الرابع ومع لويس الكبير ملك المجر وغيرهما ضد حكام مملكة ميلان الاقوياء. ولكن شارل ارتشى من الاعداء سنة ١٣٦٨ وترك حلفاءهُ وضايقهم وهكذا رجع الى جرمانيا في السنة التالية ١٣٦٩ ودام النزاع بين البابا وحكام ميلان الى ان ضايقوهُ هم ومن بقي من حلفائهِ ومن ثم اضطر ان يرجع الى افينيون سنة ١٣٧٠ حيث توفي في السنة عينها. ولهذا البابا علاقات مع قيصر الروم سنأتي على ذكرها.

وبعد وفاتهِ خلفهُ البابا غريغوريوس الحادي عشر الفرنساوي الجنس ايضاً سنة ١٣٧١ وكان هذا البابا ابن اخي البابا اكليمس السادس وكان قد شُرطن منهُ كردينالاً وهو لايكاد يبلغ السنة السابعة عشرة من عمرهِ. وفي مدة هذا البابا كانت القلاقل تزداد في ايطاليا والاملاك الكنائسية تُغتصب حتى ان مدينة فلورانسا انضافت الى اعدائهِ ونوابهُ انفسهم في ادراة الاملاك كانوا مضرين بمصالحهِ وكانوا يتفقون احياناً مع اعدائهِ ويحالفونهم فافتكر هذا البابا ان يرجّع كرسي البابوية من افينون الى رومية ليكون قريباً من مركز الحركات والقلاقل ويتلافاها بحضوره. وقد ساعدهُ على فكرهِ عابدتان كانتا تدَّعيان الرؤيا والالهام الالهي احداهما تُدعى كاترين السينية والاخرى بريجيتَّه السويكية. اما بريجيتَّه فكانت من دم ملوكيٍّ تزوجت ببُولفُن امير نيريتيا وولدت منهُ سبعة اولاد وبعد ذلك الَّفت طغمة رهبانية تُدعى بطغمة المخلص وكانت تدَّعي الالهامات والرؤيا الالهية وتقصها على البابا وعلى غيرهِ من الاساقفة فيصدقوها وقد احصاها البابا بونيفاتيوس التاسع مع القديسين البابويين سنة ١٣٩١ ولها ثمانية كتب تشتمل على الرؤى والاعلانات التي كشفت لها. واما كاترينا فكانت من سينه في ايطاليا وقد اسَّست طغمة العذراى وكانت هذه ايضاً تدَّعي الرؤى والاعلانات وأُحصيت مع القديسين عندهم. ولهذه العابدة حكايا وقصص عجيبة عند الرهبان عن

الاعراس الاحتفالية التي كانت تُقام لها بصفة عروس عريسها المسيح. فهاتان العابدتان كانتا تنصحان البابا غريغوريوس ان يرجع كرسيهُ الى رومية وكان لكلامهما تأثير عليهِ كما تقدم. وقد ساعدتهما جملة اسباب على اقناعهِ منها ما رواهُ احد المؤرخين من ان البابا لام يوماً احد الاساقفة لانهُ كان تاركاً مركزه ومقيماً في غير ابرشيته فأجابهُ الاسقف: لماذا تلوموني وانت نفسك رئيس الاساقفة الاعظم الذي يطلب منهُ ان يكون قدوةً لغيرهِ في كل عملٍ تركت مركزك (رومية) واقمت في افينيون؟ فمن هذا الكلام تأثر البابا تأثيراً كلياً وعزم عزماً قاطعاً على العودة الى رومية. فجهَّز حالاً عشرين سفينة وتظاهر بانهُ مسافر الى غير رومية لكي لا يمنعهُ الفرنساويون عن السفر وهكذا جاء الى رومية سنة ١٣٧٧ فاستقبلهُ اهل رومية وايطاليا بكل احتفاء الاَّ اهالي فلورانسا فانهم كانوا مقاومين لهُ واهانوهُ بكل نوعٍ فحرمهم هو ايضاً ومنع كهنتهم عن اقامة الخدَم الدينية لهم. اما هم فكانوا بغصبون الكهنة على الخدمة غصباً فاضطر ان يباشر المخابرات معهم في امر الصلح ولكنهُ توفي سنة ١٣٧٨. وبعد وفاته بدأ الشقاق العظيم في كنيسة رومية بقسمة السلطة البابوية الى شطرين متضادين ولكن قبل ان نثبت تاريخ هذا الانقسام نصوّر للقارئ من اشهر مؤلفي رومية الحالة التي كانت عليها كنيسة البابا في هذه المدة. وهذا المؤلف هو العالم فرانسوا بيطرارك اشهر علماء زمانهِ في بلاد ايطاليا الذي تقدم الكلام عنهُ. فانهُ في رسالةٍ الى احد اصدقائه قال بالحرف ما يأتي «ان المجمع الروماني (الذي يسميهِ بابل) قد فقد منهُ كل شيءٍ صالح. واول كل شيءٍ خسر الحرية. ثم بالتتابع الهدوء والفرح والرجاء والمحبة. خسارةً عظيمةً للنفس ولكن تحت سلطان الطمع لا يُعتبر شيءٌ ضرراً ما دامت العملة باقيةً. واما الرجاء بالحياة العتيدة فهو عندهم خرافة باطلة وكل ما يقال عن العذابات كلهُ خرافات. وقيامة الجسد ونهاية العالم والمسيح المزمع ان يأتي ايضاً ليدين الاحياء والاموات كلها امور تُذكر في الندب فقط اعني من النادبين امواتهم. وقد صارت الحقيقة هنا جنوناً والإمساك خشونةً والعفة خطيئةً فظيعة واخيراً صار الترخيص بارتكاب الخطايا شجاعةً وحريةً عظيمةً. وبقدر ما تكون الحياة رجسةً تكون مجيدةً وحيث تزداد الارتكابات هناك الشرف الاعظم. اما الاسم الصالح فادنس من

الحمأة والتجارة الاخيرة العظيمة انما هي اشاعةٌ دارت على الالسن». هذه كانت حالة مركز ادارة الكنيسة البابوية ورئاستها وهي يسير من كثير تغني القارئ مؤونة التطويل.

ومن بعد وفاة البابا غريغوريوس قام شعب رومية وطلب من مجمع الكرادلة ان ينتخبوا بابا ايطالي الجنس لا فرنساويًّا لئلا يرجع فينقل كرسيه الى فرنسا. فاجابهم الكرادلة انهم عازمون على انتخاب شخصٍ موافق من كل الوجوه وقادر على حماية مصلحة الكنيسة. ثم دخلوا قاعة الاجتماع لينتخبوا وكانوا كلهم سبعة عشر كردينالاً اربعة ايطاليين وثلاثة عشر فرونسويين. وكان النجاح مضموناً للفرنساويين نظراً لكثرتهم كما لا يخفى لولا انهم انقسموا بعضهم على بعض وأُجبروا ايضاً من الشعب الروماني الذي كان مجتمعاً حولهم يضجُّ ويهددهم ان يوافقوا على انتخاب بابا ايطالي الجنس. فانتخبوا برثوليماوس دي بيرغنانو النابوليّ الوطن رئيس اساقفة باريّ ونادوا بهِ حبراً اعظم سنة ١٣٧٨ وسُمِي اوريانوس السادس وكان هذا البابا رجلاً سمج الاخلاق وقاسياً وعادم الفطنة ومتكبراً الى درجة لا تُطاق. ولذا نفرت منهُ قلوب الكرادلة الفرنساويين على الخصوص فقاموا من رومية بحجة التصييف في جهة غيرها وجاؤُوا الى فوندي احدى مدن مملكة نابولي وهناك عقدوا مجمعاً اقرُّوا فيهِ على ان الانتخاب السابق كان اغتصابيًّا ووقتيًّا لتسكين هيجان الشعب الروماني الذي كان يتهددهم بقوة السلاح ومن ثمَّ ألغوهُ وانتخبوا بابا آخر الكردينال روبرت الفرنساوي امير جنوَى ونادوا به بابا وسُمِي اكليمس السابع وهكذا انقسمت كنيسة رومية الى شطرين وصار لها رأسان كلٌّ منهما يدَّعي الصحة لنفسهِ والعلة للآخر ثم انقسمت الشعوب الغربية الى قسمين قسم تبع البابا اوريانوس وهو ممالك ايطاليا ما عدا مملكة نابولي وممالك جرمانيا والمجر والانكليز وبولونيا وقسم تبع البابا اكليمس وهو مملكة فرنسا وممالك اسبانيا وسكوتلاندا ونابولي وسيسيليا وقبرص. على ان الامر لم يقف عند هذا الحد بل كان الانقسام قائماً بين الجمعيات والافراد ايضاً. فان الراهبة كاترينا السينية مثلاً كانت تسمي اكليمس في رسائلها «ضد المسيح» وبطرس دي لُوسِنْبُرج شاب ابن

سبع عشرة سنة كان يجاهد ويدافع عن اكليمس واكاديمية باريس كانت مساعدة لهُ فيما ان اكاديميتي اكسفورد وبراغا كانتا من حزب اوريانوس. وكان كل واحد من الباباوين يلغي ما يسنهُ الآخر ويرفضهُ كشيءٍ غير لائق ويرشق الآخر بالحرم وهكذا ساد الشقاق البابوي واستمرّ مدة خمسين سنة تقريباً وهدم عظمة السلطة البابوية ووحدتها هدماً ماديًّا ومعنويًّا. لأن القوة البابوية لما ضعفت بانقسامها صارت كل قوة من اضدادها اقوى منها ولم يكن لها سبيل الى الثبات امام مقاوميها بغير القساوة والارتكابات. على ان الحرب لم تكن بين البابويين ادبية فقط بل كانت مادية ايضاً. فان البابا اكليمس انضم الى اعداء بونيفاتيوس وحاربهُ ولكن بونيفاتيوس تغلب عليهِ ودحرهُ واجبرهُ ان يقيم في افينيون من سنة ١٣٧٩.

ومن اعمال البابا اوريانوس انهُ قَرَّب مدة اليوبيل فجعلها كل ثلاث وثلاثين سنة مرةً بدلاً من خمسين. وقد شرطن اربعاً وخمسين كردينالاً قبل وفاته كان بعضهم يلبسون قبعة حمراء ولذا فلما كانوا يجسرون على الخروج علانيةً امام الناس حذراً من ان يسخروا بهم ولكن بقدر ما كان هذا سهلاً في شرطنة الكرادلة كان قاسياً وشرساً نحوهم حتى انهُ كان يضع بعضهم في اكياس ويرميهم في البحر. ولم تنحصر شراسة اخلاقهِ وسماجة معاملته وسلوكهِ مع الكرادلة فقط بل تجاوزتهم الى الملوك والامراء ايضاً. وهكذا فإنهُ اقام على الكرسي مدة احدى عشرة سنةً لا بصفة رئيس كهنة بل بصفة مارد شرير توفي سنة ١٣٨٩. وخلفهُ البابا بونيفاتيوس التاسع الذي وصف التاريخ بالجهل في المعارف وبالسيمونيا وبشدة الطمع الى درجة الدناءة الكثيرة وعدم الذمة. وقد احتفل هذا البابا سنة ١٣٩٠ باليوبيل الذي سنه سلفه وجمع فيه اموالاً طائلةً ولكنهُ لم يكتفِ بها بل كان يحاول ان يجد سبباً ليحتفل بيوبيلاً آخر سنة ١٤٠٠ ثم انهُ ضرب ضرائب كثيرة في ايطاليا وغيرها واخترع جملة وسائط كان يجمع بها الاموال كأوراق الغفران ورسوم الاحكام وغيرها. وقد تمكن من ان يُخضع لنفسهِ كل المملكة الكنائسية ويعيد سلطانه في رومية الى مجدها القديم حتى صارت قوتهُ اول قوة في ايطاليا الوسطى. غير ان الشقاق بينه وبين خصمه البابا الفرنساوي

كان متفاقماً وقد تزايدت منهُ الخطوب والمنازعات في اوروبا حتى صار الجميع يرون انهُ لا بدَّ من عقد مجمع مسكونيٍّ يحكم في الخلاف وقد اشتهر في رفع هذا الشقاق بنوعٍ خصوصي مدرسة باريس الكلية مقام رجالها الثلاثة الفيلسوف يوحنا جيرسُن المشهور بالثبات والاقدام واللاهوتيان نيقولاوس كليمانك وبطرس آيليّ المشهوران بالذكاءِ والعلم والجهاد في سبيل السلام وقدموا تقريراً سنة ١٣٩٤ الى شارل السادس ملك فرنسا شرحوا فيه رأيهم في حالة الكنيسة واقنعوهُ بان يُلزِم البابويين المتخاصمين اكليمس السابع وبونيفاتيوس التاسع بان يستعفيا من وظيفتهما ليتحد الكرادلة بعد ذلك وينتخبوا بالاتفاق رئيساً جديداً للكنيسة. ولكن اكليمس السابع مات في شهر ايلول من هذه السنة عينها وكرادلة افينيون لم يتوقفوا عن ان انتخبوا خلفاً لهُ البابا بطرس دي لُونا الاسباني فسامُوهُ وسموهُ بِنيدكتوس الثالث عشر. اما هذا البابا فلم يرضَ برأي الاستعفاءِ بل طلب ان يُعين محكَّمون الجهتين يحكمون في مَن الاثنين هو أحق بالوظيفة أَهو ام بونيفاتيوس. اخيراً طلب بونيفاتيوس عقد مجمعٍ عموميّ. فلما رأى ملك فرنسا انهما لا يقنعان عين لهما بالاتفاق مع ملكَي كستيليا وانكليترا ميعاداً غايتهُ سنة ١٣٩٨ وانذروهما بانهما اذا لم يقبلا رأي ملك فرنسا لا يعرفوهما ولا يخضعوا لهما. وقد كان لان الاجل مضى بلا فائدة. فدعا هؤلاءِ الملوك امراءَ جرمانيا الى الاشتراك في حل هذه المسألة الكنائسية وكان وقتئذٍ ملكاً عليها القيصر وِنْسِلاف الذي خلف اباهُ من سنة ١٣٧٨ ولم يكن محبوباً من شعوبهِ نظراً الى جبانتهِ. فقبلت جرمانيا دعوة الملوك وارسلت سفراءَ الى بوينفاتيوس ولكن بوينفاتيوس رشاهم واستمال اليه يوحنا رئيس اساقفة موغونديالك وهيج الشعب الجرماني ضد امرائهِ حتى تمكن من تهديد القيصر واجبرهُ ان يخضع لهُ خضوعاً اعمى ويطرح على اقدامهِ حقوق كنيسة جرمانيا عينها. هذا ما فعلتهُ جرمانيا فيما ان فرنسا خلعت عن عاتقها النير البابوي بواسطة علمائها وملكها وكانت تدافع عن حقوق كنيستها ووضعت حواجز قوية في سبيل التعديات البابوية. فما اكتفى الفرنساويون بان لا يخضعوا لباباهم بل اصدروا منشوراً بينوا فيهِ حقوقهم الكنائسية وهو المعروف «بالنظام الفعلي» وحدَّدت كيفية تعيين الموظفين

الكنائسيين في بلادها بلا مداخلة البابا. وهذا النظام كثيراً ما أُلغي ثم أُعيد على ان خضوع ملك جرمانيا للبابا لم ينفعهُ لأن جمعية الانتخاب اجتمعت سنة ١٤٠٠ وعزلتهُ وعينت ملكاً غيره من اعضائها روبِرخِتْ الثالث على شروطٍ من ضمنها ان يصلح الاحوال الكنائسية. فلما جاءَ الى رومية ليتوَّج لم يرضَ البابا ان يتوجه ما لم يتعهد بانهُ لا يتداخل مع الملوك في الخصام على الوظيفة البابوية وبما انه لم يقبل هذا الشرط رجع بلا تتوُّج سنة ١٤٠٢ . اما ما كان بعدهُ وكيف انتهى الخصام البابوي فسنأتي على ذكرهِ في تاريخ القرن الآتي. والآن نسرد تاريخ الحوادث الكنائسية في المملكة الشرقية وما يتعلق منها خصوصاً بالغرب.

فقد تركنا في آخر القرن السابق القيصر اندرونيكوس الكبير على كرسي القيصرية والبطريرك اثناسيوس الاول على كرسي البطريركية في القسطنطينية وقد قلنا ان هذا القيصر كان رجلاً حكيماً ونزيد على ذلك انهُ كان رزيناً وفيلسوفاً ومتعمقاً بنوع خصوصيٍّ في العلوم اللغوية والدينية. غير انهُ كان منهمكاً في المنازعات الدينية التي قامت في ايامه في عزل البطاركة وتنصيبهم كما تقدم لاهياً بها عن تدبير امور المملكة ولهذا السبب فقد منها بلاداً كثيرةً في سواحل البحر المتوسط استولى عليها جنود القيصر روبرت المدعوون كاتالونيين وعدة جزائر منها جزيرة رودُس التي امتلكها فرسان ماري يوحنا في شهر آب سنة ١٣١٠ بقيادة فولكُن ويلاريتيوس بعد انهم كسروا اسطول الروم وطردوا الاتراك الذين كانوا مستولين على قسمٍ منها.

اما البطريرك اثناسيوس الاول فقد كان سُمّي بطريركاً سنة ١٢٨٩ واستعفى سنة ١٢٩٤ واقام ناسكاً على رأس جبلٍ في جوار القسطنطينية كما قدمنا وقد اعتبروه نبيًّا لأنهُ سبق فقال عن احتلال دولة الاتراك للبلاد التي بين نهر سنغار ومدينة ازمير على انهُ لم يُقم على الكرسي الى آخر حياتهِ لان اعداءَهُ كانوا دائماً يحاولون إسقاطهُ. واذ لم يجدوا عليه علةً للعزل سرقوا موطئَ الكرسي البطريركي حيث يدوس البطريرك وصوَّروا عليهِ من الجهة الواحدة صورة السيد المسيح ومن الجهة الثانية صورة القيصر وفي فمهِ

لجامٌ طرفهُ في يد البطريرك يسحبهُ بهِ كيف شاء. ثم ارجعوا هذه القطعة الى محلها في الكرسي البطريركي واوعزوا الى القيصر بان البطريرك عملها واحضروها اليهِ. فالقيصر لما رآها لم يقُل شيئاً ولكن البطريرك لم يعُد قادراً على احتمال امثال هذه التجربة كل يومٍ من اعدائهِ فانسحب من الكرسي مرةً ثانيةً سنة ١٣١١ ورجع الى مسكنهِ وهناك عاش بقية حياتهِ الى ان انتقل شيخاً جليلاً تعيد لهُ الكنيسة الارثوذكسية كل سنة في ٢٨ تشرين الاول. وخلفهُ على الكرسي البطريركي نيفُن مطران كيزيكوس المكدوني الاصل وكان رجلاً اميًّا ليس على شيءٍ من العلم بالكلية وانما كان ذا ذكاءٍ طبيعي وخبرةٍ عظيمةٍ في الاشغال كغرس الاشجار والكروم والفلاحة والبناية وامثالها. وكان هذا البطريرك سيمونيًّا بالحقيقة موصوفاً بالطمع وحب الاموال لا يأبى عملاً في سبيل جمعها وقد عزل من الكرسي البطريركي عزلاً بعد ان اقام عليهِ ثلاث سنين وعشرة اشهر وذهب الى دير بِرِيفِلِبْتُس ولم يقُمْ بعده بطريركٌ حالاً بل بقي الكرسي بلا بطريرك نحو سنةٍ الى ان انتُخب في ربيع سنة ١٣١٥ البطريرك يوحنا غليكاس وكان العلمانيين المزوَّجين الارامل ذا بنين وبنات ومن علماءِ عصرهِ المقدَّمين في خدمة الدولة فسيم بطريركاً واقام الى سنة ١٣٢٠ يرعى الكرسي القسطنطيني بكل فضيلةٍ وتقوى ورأيٍ ثاقب ودراية ادارية. وقد أُصيب بداءٍ في مفاصل رجليهِ واذ علم ان شفاءَهُ مستحيل استعفى وذهب الى دير حيث قضى باقي حياتهِ.

وخلفه على الكرسي البطريركي جراسيموس الاول من فيلادلفيه (الله شهر) وكان رئيس دير فاضلاً وشيخاً تقيًّا ذا شيبةٍ مهابة ولكن ثقيل السمع من كبر سنهِ بسيطاً جداً لا يعرف شيئاً من العلوم. وقد قال فيه احد المؤرخين «ان الملوك يحبون ان يرقوا الرجال البسطاءَ الى الوظائف العلية ليكونوا طوع امرهم ينقادون لهم بسهولةٍ ولا يقاوموهم في شيءٍ» وقد اقام على الكرسي سنةً واحدةً وتوفي ليلة ١٩ نيسان سنة ١٣٢١ وهي الليلة التي خرج فيها من القسطنطينية اندرونيكوس الصغير حفيد القيصر لمحاربة جدهِ كما سنرى فيما بعد.

ومن بعد وفاة البطريرك جراسيموس ومنازعاتٍ طويلة على خلافتهِ

رشّح القيصر لمنصب البطريرك راهباً بسيطاً اصلهُ من ايبيرُس ومن رهبان الجبل المقدس اسمهُ ايصائيا (اشعيا) وجد بطريق الصدفة في العاصمة وكان هذا الشخص رجلاً بسيطاً جدًّا لا يعرف شيئاً من العلوم وكان ذميم السيرة ممنوعاً عن الترقي الى درجات الكهنوت. اما القيصر فانما رشحهُ الى الرئاسة بسبب بساطتهِ وجهلهِ كما سبقَ لهُ في ترشيح غيرهِ. ولكن من ايـن للقيصر ان يعلم ان هذا البسيط سيكون اشد ضرراً عليهِ من اكبر اعدائهِ؟ وهكذا جرى كما سنرى.

فان القيصر اندرونيكوس الكبير كان قد اشرك معهُ في ادارة المملكة ابنهُ الاكبر ميخائيل الثاني وتوَّجهُ ملكاً في ٢١ ايار سنة ١٢٩٥ وفوض اليهِ ادارة مقاطعتي ادرنة وسالونيك وكان لميخائيل هذا ابنان احدهما يُدعى اندرونيكوس والثاني مانوئيل وكان القيصر يحب اندرونيكوس حفيدهُ محبةً شديدةً ونادى بهِ ملكاً ايضاً غير ان اندرونيكوس لم يكن مستحقًّا محبة جدهِ لانهُ كان شابًّا مسرفاً وخاملاً مولعاً بالرذائل والحب المخالف للشريعة والادب. ففي سنة ١٣٢٠ كانت لهُ علاقات ذميمة مع امرأة وضع عليها رقباءَ كثيرين من اتباعهِ ليكون على ثقة في امانتها. وفي ذات ليلة اذ كان اخوهُ مانوئيل يطلبهُ دنا من منزل هذه الامرأة واذ لم يعرفهُ رقباءُ اندرونيكوس جرحوهُ جرحاً خطراً ظانين انهُ عزول لسيدهم فمات مانوئيل على اثر جرحه ثم مات الملك ميخائيل والدهُ من شدة غمهِ على ابنهِ وبسبب هذا الحادث الاليم وجملة حوادث سابقة تكدر القيصر اندرونيكوس من حفيدهِ ونوى على حرمانهِ من حق الخلافة فامر رجال مملكتهِ ان يجددوا يمين الامانة لهُ واعرض عن ذكر هذا الحفيد في اليمين حسب العادة وابدلهُ بان الرعية تقسم يمين الامانة لمن يختارهُ القيصر خليفةً لهُ وكان للقيصر ابنٌ ثان اسمهُ قسطنطين وكان لقسطنطين ولدٌ غير شرعي اسمهُ ميخائيل كاثاروس فعلى اثر حرمان اندرونيكوس الحفيد من حق الوراثة شاع ان القيصر عازم على ان يقيم خليفةً لهُ حفيدهُ الغير الشرعي. ميخائيل لا ابنهُ قسطنطين وقد اثرت هذه الاشاعة تأثيراً سيئاً في البلاط وعند رجال المملكة وبدلاً من ان ينشأ عن هذا التغيير اصلاحٌ نشأَ ضررٌ.

فان اندرونيكوس الصغير ظهر لهُ انصار من رجال البلاط احدهم يُدعَى سيريانِس والآخر يوحنا كنداكوزينوس ساعدهما على رأيهما رئيس الفرسان المدعو سنيادنيوس. فبتحريض هؤلاءِ الثلاثة خرج اندرونيكوس من القسطنطينية في ١٩ نيسان سنة ١٣٢١ وجاءَ الى ادرنه وفيها وجد جيشاً وقوَّاداً مستعدين لنجدتهِ بتدبير اصحابهِ فجاءَ بهم ضد جدهِ لفتح القسطنطينية فلما علم القيصر بذلك اندهش وطلب من البطريرك ان يحرمهُ فابى وزاد على ذلك ان بعضاً من حرس القيصر ومشيري المملكة انضافوا الى جنود العدو فاضطر حينئذٍ القيصر الشيخ ان يطلب الصلح وكانت نتيجتهُ قسمه المملكة الى شطرين احدهما بقي تحت سلطة القيصر وعاصمتهُ القسطنطينية والآخر دخل تحت سلطة حفيدهِ وعاصمتهُ ادرنه. وهكذا زادت المملكة ضعفاً بانقسامها فيما انها كانت محاطةً بالاعداءِ من كل جانبٍ وكانت محاصرة من الاتراك والبلغار والصقالبة والافرنج ومحتاجة الى القوة للدفاع عن نفسها والذود عن املاكها ووجودها.

على ان الحال لم تقف عند هذا الحد بل زادت ارتباكاً. لأن سيريانِس لما رأى زميلهُ كنداكوزينوس اكثر منهُ نفوذاً عند اندرونيكوس الصغير تركهُ ورجع الى موالاة القيصر واغتنم فرصة مرض اندرونيكوس مدة سنة تقريباً واسترجع منهُ عدة مدن. ثم ان قسطنطين عم اندرونيكوس ضبط امةً كساني ارملة ميخائيل اخيهِ وارسلها الى القيصر فحصرها في البلاط وعليهِ حالما تعافى اندرونيكوس الصغير حرضهُ كنداكوزينوس على الاخذ بالثأر وقدم لهُ من امواله مصاريف معدات الحرب. فأثار ثورةً في سالونيك وضبط عمه قسطنطين وسجنهُ. فما رأى جدهُ ذلك فضَّل المسالمة على الحرب وعقد الصلح على شرط ان يتوَّج اندورنيكوس الصغير قيصراً شريكاً لجدهِ في كل المملكة وحُكم على سيريانِس بالقيود المؤبدة وبعد ذلك أُطلق منها ولكن قسطنطين بقي مسجوناً. وفي هذه الاثناءِ كان البلغار ينهبون املاك الروم في جهات ثراكي فخرج ضدهم اندرونيكوس الصغير ودحرهم ورجع ظافراً الى القسطنطينية حيث استُقبل استقبالاً عظيماً وتُوِّج قيصراً في كنيسة القديسة صوفيا في ٢ شباط. واذ كان مترملاً من امرأتهِ السابقة ايريني

الالمانية تزوج زيجة ثانيةً بزوجةٍ ايطالية الجنس اسمها الكونتيسة ايوانًا او حنَّة شقيقة دوق سابويًا واقام بعد ذلك في ديديمونتيخوس محاذراً هجمات البلغار. وبعد سنة من هذا التاريخ استلم الاتراك مدينة بُرصه بقيادة اورخان ابن السلطان عثمان وقتئذٍ. وهي من اشهر مدن اسيا الصغرى بجودة هوائها وجمال مناظرها الطبيعية ومياهها المعدنية بعد ان كانوا حصروها حصاراً عنيفاً دام عشر سنوات. فجعلوها عاصمة املاكهم في بيثينيا والاناضول سنة ١٣٢٦ على ان الحال بين الجد وحفيدهِ لم تدُم على ما ذكرنا اكثر من ثلاث سنوات لان رجال الحفيد وفي مقدمتهم كنداكوزينوس والقائد سينادنيوس لما رأوا حياة الجد طويلةً ملُّوا وحاولوا تقصيرها ليضموا المملكة المنقسمة شطرين الى واحد فحرضوا اندرونيكوس الصغير على محاربة جدهِ وكان من جملة هؤُلاءِ المحركين البطريرك ايصائيًا فانه الَّف حزباً ضد القيصر الكبير وحرم كل الاساقفة الذين كانوا مواليين لهُ ولكن الاساقفة اجتمعوا وحرموا البطريرك وكل من كان على رأيهِ. ثم ضبطهُ القيصر وامر ان يُسجَن بلا قيود في دير مانكانا سنة ١٣٢٧. ولكن في الوقت نفسه كان الحفيد واعوانهُ شرعوا في العمل. واذ كان فتح القسطنطينية امراً غير ميسورٍ لهم استعانوا بجملة انصار وبوسائط يطول شرحها اهمها الرشوة مع خمول رجال اندرونيكوس الكبير وفتحوها في ٢٨ ايار سنة ١٣٢٨ وعزلوا الجد على وجهٍ مخالفٍ للعوائد السابقة في القسطنطينية ونادوا بالصغير قيصراً وحدهُ واطلقوا البطريرك من سجنه. اما مخالفة العوائد فهي ان اندرونيكوس الفاتح استحيا جدهُ واحترمهُ احتراماً عظيماً وسمح لهُ بان يحافظ على اسمهِ ورتبتهِ الملوكية ويسكن في القصر القديم. ولم يسمح ايضاً بنهب المدينة ولا بالانتقام من احد من رجال جدهِ سوى اللوغوثيت تيودورس ميطوشيتي فانهُ ضبط بيتهُ ونفاهُ الى ديديموتيخوس. ولكنهُ بعد ذلك بسعاية ذوي المفاسد والبطريرك جار على جده. فامر بان يجرَّد من كل رتبةٍ ويُطرَد من البلاط. فذهب الى دير وصار راهباً وسُمّي انطونيوس ولم يعِش طويلاً بل توفي في ١٣ شباط سنة ١٣٣٢. أما البطريرك ايصائيا فمن بعد ان رجع الى كرسيهِ لم يترك احداً من رؤَساءِ الكهنة والكهنة الموالين للجد الاَّ قاصصهُ اشد قصاصٍ وهكذا لم تُفِد بساطتهُ القيصر الذي انتخبهُ

بل اضرَّت به اشد الضرر. وقد اعتبر هذا الامر المؤَرخ نيكفورُس غريغوراس انتقاماً الهياً حيث قال «لما كان حق الله قد دِيْسَ في سبيل الهوى البشري سمح الله ان يُحرَم هؤُلاءِ مركز رئاستهمْ من هذا الرجل الشديد البساطة هؤُلاءِ الذين بذلوا من اجله جهداً عظيماً بلا حقٍّ»

وفيما كانت هذه المخاصمات قائمةً في القسطنطينية استولى الاتراك على مدينة نيقوميديه (ازميد) على شاطئ بحر مرمرة سنة ١٣٢٨ بقيادة السلطان أُرخان الذي خلف اباهُ السلطان عثمان ثم حاصروا نيقيه (ازنيك) مدة سنتين فخرج ضدهم اندرونيكوس الصغير وكنداكوزينوس بجيشٍ غير مدرَّبٍ وبعد معركةٍ معروفة بمعركة بِلكان (قرية مجاورة لمدينة خريسوبولي) فاز الأتراك وجُرح اندرونيكوس وقُتل حصان كنداكوزينوس وانكسر جيش الروم وعادوا الى القسطنطينية ثم سلمت مدينة نيقية للاتراك سنة ١٣٣٠ وبسقوطها سقط نفوذ الروم في آسيا الصغرى. وعدا ذلك نشبت حربٌ بين اندرونيكوس والكسندروس امير البلغار خسرها اندرونيكوس واضطر ان يمضي معاهدةً مخالفةً لصوالحه فرأى ان يستعين بممالك الغرب ليحافظ على مملكتهِ مع انهُ كان في غنىً عن هذه المساعدة لان مملكتهُ كانت في هذا العهد عشرة اضعاف مملكة عدوهِ اتساعاً وكان يمكنهُ ان يؤَلف من سكانها جيشاً عظيماً يقوم باحتياجاتهِ وان يقوّي اسطولهُ في البحر ويحالف مملكتي السرب والبلغار او يسالمهما على الاقل ويستعين بجملة معاكسين ومناظرين لعدوهِ من ممالك اسيا ولكنهُ لم يفعل شيئاً من ذلك بل التجأَ الى مساعدة الغربيين الذين اوضح التاريخ انهم كانوا عليه اشد خطراً من بني عثمان. فشرع من سنة ١٣٣٢ ان يخابر الباباوات في افينيون. ولا يخفى ما كان عليهِ الباباوات في هذا العصر من القلاقل ولكنهم مع كل ذلك لم يكونوا يأبون المخابرات خصوصاً لان آمالهم بانقياد اندرونيكوس الى رغائبهم كانت عظيمةً لأنهُ كان متزوجاً زوجةً ايطالية الاصل كما تقدم. وعليه كتب البابا يوحنا الثاني والعشرون رسائِل الى رجال القسطنطينية سنة ١٣٣٣ ينصحهم بها ان يحيدوا عن زيغانهم. وفي السنة التي بعدها ارسل أسقفين لاتينيين لكي يخاطباهم في اتحاد الكنيستين ويقنعاهم في قبول رئاسة البابا. وكان البطريرك ايصائيًا قد توفي في اواخر السنة الماضية

فانتخب القيصر خلفاً لهُ البطريرك يوحنا الرابع عشر الملقب بكاليكَسْ من مدينة آبرو وكان رجلاً عالماً وكاهناً في البلاط القيصري. وقد سيم بطريركاً سنة ١٣٣٤ فكثيرون من رجال القسطنطينية طلبوا من البطريرك ان يخاطب وكلاء البابا ويجادلهم اما هو فاناط ذلك بواحدٍ من علماء العصر المحنكين نيكفورُس غريغوراس. الا ان غريغوراس خطبَ خطبةً امام البطريرك وعلماء الاساقفة اوضح بها ان مخاطبة اللاتين ومناظراتهم امرٌ عبث لا جدوى منهُ ما داموا وهم في مركز المدعى عليهم يطلبون ان يكونوا قضاةً وما دامت مسائلهم التي هي موضوع البحث فُحِصت ورُفضت من زمانٍ طويل وما دام الروم راسخين في الايمان رسوخاً عظيماً حتى انهم لم يدعوا محلاً للجدال. فاقوال غريغوراس هذه وقعت وقعاً حسناً عند البطريرك واساقفته وعاد اللاتين من حيث اتوا بلا نتيجة. قال يوحنا ماندويلا احد مؤرخي الانكليز: ان الروم قد اجابوا البابا يوحنا في هذه الفرصة جواباً مختصراً بقولهم «اننا نعترف لك بالسلطة النهائية على رعيتك اعترافاً تامًّا واما عجرفتك العظيمة فلا نستطيع ان نطيقها ولا نقوى على اشباع مطامعك المالية. فالشيطان معك لان الرب معنا» على ان هذه الرواية وان كانت صحيحةً فلا عجب منها. «لان قلوب مسيحيي القسطنطينية الارثوذكسيين على ما قال ملاتيوس كانت نافرةً نفوراً عظيماً من ابتداعات اساقفة رومية المتواصلة في العقائد الابوية وصاروا يكرهونهم كرهاً شديداً حتى ان قيصر القسطنطينية نفسهُ لم يعد يستطيع ان يتظاهر بتحريضهم اقل تحريض على الخضوع لاسقف رومية ليتحدوا مع الكنيسة الغربية ويعتقدوا اعتقاداتها ولا يقاوموا ما يستحسن البابا. لانهُ كان خائفاً من محذورٍ ينوبهُ من الجمهور في حياتهِ او في مملكتهِ». على انهُ ضمناً لم يرُق لهُ استمرار الشقاق حتى لا يخيب من المساعدة التي كان يرغبها بل كان دائماً يُظهر للبابا رغبتهُ في الاتحاد حتى ان البابا بنيديكتُس الثاني عشر خَلَف يوحنا كتب اليهِ رسالةً سنة ١٣٣٧ يمدح رغبتهُ هذه ويقويهِ فيها. على ان هذه الرغبة كانت تعمُّ افئدة كل الارثوذكسيين لو ان الباباوات كانوا يرغبون الاتحاد الحقيقي ولكنهم لسوء الحظ لم يكونوا يعنون بالاتحاد سوى إخضاع الكنيسة الارثوذكسية لاستبدادهم وقبولها بدَعهم وطقوسهم وهذا امرٌ لم يكن ليقبلهُ لا الاكليرُس ولا الشعب الارثوذكسي لانهُ ليس اتحاداً بل إذلالٌ وابتلاع ولذا كان الرهبان

بنوعٍ خصوصيٍّ على كثرة عددهم وسائر بطاركة الكنائس الشرقية الاخرى الاسكندرية والانطاكية والاورشليمية يكرهون اعمال البلاط البابوي الروماني ويقاومون الاتحاد معهُ على هذه الصورة الاستبدادية الغير القانونية. على ان القيصر اندرونيكوس بعد انصراف رسل اللاتين اختار ارشيمندريتاً اسمهُ برلعام رئيس احد أديرة القسطنطينية ووجيهاً من وجهاء البندقيين اسمهُ استفانوس دندول وارسلهما سرًّا الى البابا بنيديكتُس في افينيون سنة ١٣٣٩ وطلب بواسطتهما من البابا اولاً ان يحرض شعوب الغرب وممالكهُ على ارسال مساعدة الى قيصر الروم ضد البربر حتى اذا رأى شعب الروم هذا الالتفات من البابا يسهل عليهِ الانضمام اليهِ والاتحاد معهُ وثانياً ان يجتمع مجمعٌ مسكوني يحضرهُ جميع بطاركة المشرق او نوابهم ويجري فيه الاتحاد ثابتاً ومستديماً لا كما جرى في مجمع ليون. وكان برلعام ايطالي الوطن من كالابريًّا متضلعاً في العلوم اللاتينية واليونانية فلما جاءَ هذان السفيران الى افينيون خطب برلعام امام البابا وكرادلتهِ خطبتين اوضح فيهما بكل تعقلٍ وإخلاصٍ ان الاتحاد لا يتم الاَّ على احد وجهين اما بالاجبار واما بالبرهان فالوجه الاول مستحيل كما علمتنا الخبرة في عمل القيصر ميخائيل باليولوغُس ولذا يكون الوجه الثاني اعني الاقناع بالبرهان هو الافضل وهذا يتم بعقد مجمعٍ مسكونيٍّ. ومن جملة ما قالهُ لهم قولهُ «من الضرورة ان يُعقَد مجمع مسكوني يمكن ان يعترف بهِ الروم ويقبلوهُ بسرور. ولكن لا حاجة الى ذكر المجمع الذي عُقد في ليون. واذا اراد لأحدٍ من الروم ان يقبل هذا المجمع. لان اللذين حضروهُ من الروم ولم يُرسلوا من البطاركة الاربعة الذين في يدهم زمام الكنيسة الشرقية ولا من قبل الشعب بل انما أُرسلوا من القيصر (ميخائيل) الذي كان يريد ان يكرههم على الاتحاد اكراهاً لا طوعاً. فإن كنتم ترغبون في عقد مجمع مسكوني ارسلوا اولاً الى الكنيسة الشرقية نواباً خائفين من الله ومملوئين من روح التواضع والصبر وزودوهم برسائل استدعائية الى البطاركة الاربعة وسائر الاساقفة ليجتمعوا معكم في مكانٍ معلوم ويتذاكروا في الموضوع بمحبةٍ ويحكموا بحسب ما ينير الروح القدس كل واحدٍ منهم. (هذه هي الواسطة الوحيدة لرجوع الشعب

والكنيسة الى الاتحاد.) ولكن قبل عقد هذا المجمع يجب ان تُرسَل منكم مساعدة اليهم ضد الاتراك. لانهم متى دُحروا عن المملكة يكُن الروم اكثر رغبةً واستعداداً لقبول الاتحاد ويجتمع المجمع بسهولة. اما قولكم بانهُ يجب ان يتحد الروم معنا كنائسيًّا وبعد ذلك نسير نحن معهم ضد الاتراك فاراهُ قولاً غلطاً محضاً. لان الاتراك لا يحاربون الروم وحدهم بمعزلٍ عنكم لكنهم يحاربونهم لانهم يسجدون للصليب فهم يحاربون جميع المسيحيين عموماً. وعلى ذلك تكون مساعدتكم لهم مساعدةً لكل العالم المسيحي. على انهُ ما دامت مملكة الروم ثابتةً يسهل عليكم الانتصار على الاتراك. ولكن اذا لا سمح الله سقطت فيصعب عليكم حينئذٍ ان تصادروهم. فاسرعوا إذاً في العمل لكي لا تضطروا الى الحرب دفاعاً لا هجوماً ... واعلموا ايضاً وصدقوا ان الفرق بينكم وبين الروم في العقائد والطقوس لا يبعدكم عنهم بقدر ما يبعدكم البغض الذي تشرَّبوه ضدكم من انواع القساوة والاذى التي نالتهم ولم تزل من يوم الى آخر تنالهم من اللاتين. اما الاتحاد فيستحيل اتمامهُ ان لم يُستأصَل هذا البغض باحسانٍ عظيمٍ تعملونهُ معهم وبدونهِ لا يسمعون كلامكم قطعيًّا. واعلموا ايضاً ان الذي ارسلني اليكم ليس شعب الروم بل القيصر وحدهُ وقد ارسلني خفيةً لانهُ لا يتجاسر ان يعلن رغبتهُ في الاتحاد معكم قبل ان تُرسَل اليهِ المساعدة منكم».

ولكن البابا والكرادلة لم يقبلوا هذه النصيحة العاقلة بل استندوا على ما قرروهُ في مجمع ليون الذي كانوا يدَّعون بصحتهِ ويقولون بان المسائل العقائدية تقررت فيهِ نهائياً لصالحهم واجابوا بانهُ يصعب عليهم ان يجمعوا مجمعاً جديداً لا فائدة منهُ لان الروم ليس لهم شيءٌ بعد يعرضونه للمذاكرة وانما يمكن ارسال وكلاء من قبل البابا ليعلّموهم او يكفي ان يحضر من القسطنطينية رجالٌ علماءُ يتنورون في موضوع اضاليلهم.

اما برلعام فحالاً نقض هذه الاقوال بقوله لهم قولاً نهائيًّا «ان الحقيقة لا تخاف من البحث بل تصير بهِ اكثر وضوحاً واشد ظهوراً. لان الآباء الذين اجتمعوا في نيقيه كانوا هم ايضاً يؤمنون بمساواة الآب والابن في الجوهر. ولكنهم بسبب كفر الاريوسيين ارادوا ان يُدخلوهم بواسطة البحث

الى طريق الخلاص. هكذا يجب ان تسلكوا انتم ايضاً مع الروم ولا تدعوا لهم سبباً ليقولوا انكم تخافون البحث لكونكم غير واثقين اقل وثوقٍ في صحة ما انتم عليه».

ولكن لما رأى برلعام ان البابا واتباعهُ لم يصغوا الى نصائحه بتاتاً تطرف في خطبته الثانية تطرفاً عظيماً املاً في السلام الى ان قال «ان الفرق في الاعتقاد بانبثاق الروح القدس لا بأس من ان يبقى على حالهِ بين الكنائس من دون ان يفصلها ويكون سبباً للطعن. فكل كنيسةٍ عليها ان تقدم الى الأخرى الاكرام الواجب» ــ ولكن البابا رجع واجاب طالباً الموافقة التامة من الكنيسة الشرقية للكنيسة الغربية وان هذا هو الشرط الاخير الذي لا امل في المساعدة الاَّ بهِ. ــ اما برلعام فاذ كان عالماً بان الروم لا يوافقون قطعيًّا على مثل هذا الاتحاد رجع خائباً. وهكذا انقضت هذه الفرصة بلا نتيجة.

ومن بعد رجوع برلعام الى القسطنطينية نشب خصامٌ بينهُ وبين القديس غريغوريوس بالاماس على التعليم في مخلوقية او عدم مخلوقية نور جبل ثابور وقد ازعج هذا الخصام الكنيسة مدةً وهذه تفصيلاته بالايجاز الممكن:

في اديرة الجبل المقدس (جبل آثُس) كان كثيرون من الرهبان المواظبين على العبادة والصلوات يؤكدون انهم في حال الصلوات يرون نوراً سماويًّا باعينهم الحسيّة ويفرحون كثيراً. وبعضٌ من هؤلاءِ سيما البسطاء كانوا يغالون في هذا الموضوع ويتفننون في اساليب العبادة والتجرد عن العالميات في تقديمها حتى كانوا يحتبسون ضمن قلاليهم (اكواخهم) وينزّهون عقولهم عن كل شيءٍ عالميّ ثم يسندون ذقونهم على صدورهم ويشخصون باعينهم وبكل عقولهم وحواسهم الى صُرَرهم في اواسط بطونهم ويحبسون انفاسهم على قدر ما يستطيعون ثم يأخذون في البحث والتنقيب في ذلك المحل لاعتبارهم اياهُ مركز القوَى النفسانية. واذ كانوا يلازمون هذه الحال وقتاً طويلاً واعينهم شاخصةٌ لا تتحرك ولا تحيد عن موضعٍ واحد كانوا في اول الامر يدوخون ويُغمَى عليهم احياناً ولكنهم

مع التكرار والمواظبة على العمل ليلاً نهاراً كانوا يعتادون عليهِ الى درجة الالتذاذ بهِ فكانوا يشعرون بغتةً بسرورٍ وفرحٍ داخليٍّ لا يوصف ويشرق عليهم نورٌ سماويٌّ يرونهُ ويعتقدون انهُ نورٌ الهيٌّ غير مخلوق وكان هؤُلاءِ النسَّاك يسمُّون «بالهادئين». قال المؤرخ المدني باباريغوبولُس «ربما امكنا ان نفسر هذا الحادث بانه ناشئٌ عن الاحتقانات التي كثيراً ما تحصل من شد اعصاب البصر وقتاً طويلاً وتُحدِث ما نسميهِ بالشعلات النورية» على ان الرجال الكنائسيين قد قالوا بامكان مشاهدة هذا النور الغير المخلوق الذي كثيراً ما كان الشهداء وقديسو الله يرونهُ بالعين الحاسة.

وقد ذكر المؤرخون ان هذه الطريقة كانت معروفة في القرن الحادي عشر واستشهدوا بسمعان احد رؤَساءِ دير القديس ماما في القسطنطينية في ذلك القرن. وقد كتب ينصح الرهبان ما نصُّهُ «اجلس في احدى الكوَى منفرداً وانتبه لان تعمل ما اقولهُ لكَ: اغلق بابك ونزّه عقلك عن كل امرٍ باطلٍ اي زمنيٍّ ثم اسند ذقنك على صدرك سنداً ثابتاً وحرّك عينك الحاسة وكل عقلك في وسط بطنك اعني في جهة الصرة واخنق حركة نفَس الانف حتى لا تتنفَّس الا بالضرورة وافحص ضمن احشائك لتجد اين موضع القلب حيث توجد طبعاً كل القوَى النفسانية. ففي اول الامر تجد ظلاماً وثخانة منيعةً. ولكنك اذا ثبتَّ على ذلك وتكرر هذا العلم ليلاً ونهاراً فتصادف يا للعجب سروراً لا ينتهي. لان العقل حالما يجد مكان القلب ينظر حالاً ما لم يكُن يعلمهُ قبلاً اصالةً. فانهُ ينظر الهواء الذي يتخلل القلب ونَفَسَه ايضاً نيّراً وكلهُ ومملوءًا تمييزاً» فهذه النصائح كان كثيرون من الرهبان يتبعونها ويعتقدون انهم يرون نوراً الهيًّا. قال المؤرخ كنداكوزينوس «ان هؤُلاءِ الهادئين اذ كانوا يتقدمون في عملهم رويداً رويداً ويصلُّون وهم متجردون عن المقلقات كانوا يتقبلون في نفوسهم بهجةً ولذةً الهيةً لا توصف وينظرون باعينهم الحسية نوراً شارقاً حولهم».

وقد اراد العالم نيكفورُس غريغوراس ان ينتقد على هؤلاء الرهبان هذه الطريقة ولكن بعضهم نصحهُ ان يتركهم وشأنهم فعدل. على ان برلعام لما رجع من رومية خائباً كما تقدم الكلام لم يرُق له الا ان يفتح هذا الباب

طامعاً بالمجد والغنى لانهُ كان من دأبهِ ان يمدح كل ما يتعلق بهِ ويحتقر ما للغير ويُزدرى بمدينة البيزنطيين ويدَّعي بانهُ ليس فيها علماء. واذا كان القيصر وقتئذٍ يحارب في اكارنانيًّا نزل برلعام الى سالونيك وزار جبل آثُس وطغمة النسَّاك الهادئين وتبع ناسكاً منهم وتتلمذ لهُ ليطَّلع على كل احوالهم. وكان هذا الناسك رجلاً بسيطاً جدًّا لا يحسن الكلام والنطق فضلاً عن القراءة والعلم. فعلَّمهُ هذا الناسك طريقة هذا النسك على ما كان هو فاهماً وممارساً لها. اما برلعام فلما وقف عليها شرع يهتك جميع الرهبان الهادئين ويدعوهم خَدَّاعين ويشبّههم بالهراطقة ويدَّعي بانهم حرَّفوا العقائد الكنائسية الصحيحة. وينهي كل احدٍ عن الاختلاط معهم قائلاً بانهم ضالُّون ومضلُّون. وكان في هذا العصر رجلٌ مشهورٌ بالعلم والحكمة وبالتقوى والجهادات النسكية في جبل آثُس وبيريًّا سنين طويلة اسمهُ غريغوريوس بالاماس وكان وقتئذٍ نازلاً في سالونيك لاسبابٍ صحيةٍ. فلما سمع بما كان برلعام يقرّف به رهبان الجبل ويهتكهم ارسل اليهِ يرجوهُ ان يكفَّ عن عملهِ هذا ولا يحكم على كل الرهبان بما ربما تستحقهُ بساطة واحدٍ منهم وان لا يساويهم كلهم بهِ وطلب منهُ ان يرمي في النار ما سبق وكتبهُ ضدهم عن جهل بحقيقتهم. وقد كتب اليهِ في ما كتبهُ يقول «فانهُ ليس من العدل عندما يريد احدٌ ان يتعلم علم المساحة او الفلك ان لا يواظب عند الاشد جهلاً بل عند الاشد علماً به وعندما يطلب الفلسفة الحقيقية ومعرفة الامور السماوية ان يتخذ معلماً من ليس لهُ عليها اطلاعٌ ... فضلاً عن ان هذا النور الالهي قد انار حول آخرين كثيرين من الذين جاهدوا في سبيل المسيح اوقات الاضطهاد مثل انطونيوس الكبير الذي تجنّد ضد الشياطين. اما عن امكان مشاهدة النور الالهي الغير المخلوق بالاعين الجسدية فلنا مثالٌ من تجلّي الرب على ثابور حين سطع بهذا النور الالهي الغير المخلوق او بشبههِ وقد صار منظوراً من التلاميذ. فان كان اولئك وهم بشرٌ وعلى حالٍ اقل كمالاً وقتئذٍ استطاعوا ان يروا النور الالهي الغير المخلوق الذي شرق حولهم فما العجب في ما اذا قلنا ان القديسين ينظرون الآن ايضاً نوراً شارقاً عليهم من الله من العلاء؟» فمن هذه الاقوال يتضح ان جوهر تعليم هؤلاء الرهبان لم يكن في الذقن والصرة والبطن والقلب على ما

كان يدَّعي برلعام بل كان في قوة التعلُّق بالصلاة وشدة المواظبة عليها مع التجرد التام عن الافكار العالمية حين ترتفع روح الانسان وتتعلق بالخالق وتشعر بلذةٍ وفرحٍ لا يوصف. ولذا نرى المؤرخ ملاتيوس ينكر على برلعام دعاويهُ على الرهبان ويعتبرها افتراءً.

اما برلعام فلما سمع ان بالاماس واتباعه يدَّعون بان النور الذي ظهر في ثابور نوراً الهيًّا غير مخلوق وهو كان يعتقد انهُ سطوعٌ بسيطٌ وخلقةٌ ظهر ثم انطفأ اخذ يتهمهم بعبادة الهين وكان يقول «يا للحماقة. هربنا من الدخان فوقعنا في النار. اسمعي ايتها السماء وانصتي ايتها الارض. تقولون بان النور الذي ظهر في ثابور غير مخلوق أفلا يكون الهاً على زعمكم؟ فانهُ ليس كائنٌ غير مخلوق الا وهو الهٌ. فان لم يكن ذلك النور مخلوقاً ولا جوهراً الهيًّا (لان الله لم يرَه احد قط) أفلا ينتج ان المعبود إلاهان احدهما الخالق كل الاشياء الذي كل واحدٍ يعترف بانهُ غير منظور والثاني هو هذا النور المنظور الغير المخلوق على زعمكم؟ اما انا فما طقت قبلاً ولن اطيق فيما بعد ايضاً ولا مرةً واحدة ان اعتقد بشيءٍ مباين لجوهر الله انهُ غير مخلوق ... واما النور الذي سطع في ثابور فلم يكن ممتنعاً عن الوقوع تحت الاحساس ولا كان حقيقةً نور لاهوتٍ ولا اكثر طهارةً واقرب الى الاله من الملائكة بالكلية بل كان احطَّ وادنى من عقلنا عينه. فان كل العقول والمعقولات ارفع منزلة من ذلك النور لانهُ كان واقعاً تحت النظر بواسطة الهواء ومنبسطاً تحت القوة الحاسة وموضحاً المحسوسات وحدها للناظرين وهو ماديٌّ وذو شكلٍ وبادٍ في مكانٍ وفي زمانٍ وفاصلٌ للهواء وتارةً موجودٌ وظاهرٌ وأُخرى منحلٌّ وصائرٌ الى العدم من حيث انهُ واقعٌ تحت التصوُّر وقابلٌ للانقسام ومحدود. ولذا كان منظوراً من أُناسٍ مصابين بحرمان الافعال الالهية او بالحري ممَّن لم ينالوها الى الآن بل كانوا بعد غير طاهرين وغير كاملين في حالة ذلك المنظر عينهِ على الجبل وغير مؤهلين بعد للإدراكات الالهية الشكل وانما ننتقل من هذا النور الى ادراكاتٍ ونظرياتٍ افضل من ذلك النور بما لا يُقاس».

على ان غريغوريوس بالاماس دفع التهمة الموجهة ضدهُ وضد جماعة

الرهبان الهادئين بقولهِ: ان الرجال القديسين الذين يستحقون الاستنارة الالهية نعم هم يرون نوراً الهيًّا غير مخلوقٍ ولكن لا يرون جوهر الله. فالجوهر الالهي لا خلاف في انهُ غير منظور وغير قربي للحواس وغير قابلٍ للمساهمة. ولكن اوصافهُ الالهية او افعالهُ ليست كذلك. فان هذه ايضاً وان تكن غير مخلوقة لا تزال قابلةً المساهمة وقريبةً من الحواس ويستطيع المستحقون ان يصيروا شركاءَ لها. ففي عداد هذه الافعال الالهية يدخل ليس النور الالهي الذي سطع في ثابور على الرسل فقط بل تدخل ايضاً العوسجة الملتهبة التي رآها موسى ومركبة ايليا النارية وعمود النور الذي ظهر في البرية وغيرها.

وبعد مشاحناتٍ طويلة ترك برلعام مدينة سالونيك حيث اجتمع الرهبان من كل صقعٍ وجاءَ الى القسطنطينية الى البطريرك يوحنا كاليكس وقدم قضية ضد الرهبان واتهمهم بانهم يعبدون الهين وطلب عقد مجمعٍ بفحص تعليمهم. فاستدعى البطريرك حينئذٍ غريغوريوس بالاماس وبعض الرهبان وشرع القيصر في توفيقهم ولكنهُ اذ لم يستطع شيئاً عقد مجمعاً كبيراً سنة ١٣٤١ في كنيسة اجيا صوفيا حضرهُ البطريرك يوحنا وكثيرون من رؤساءِ الكهنة والارشيمنديتين ورؤساء الاديرة والقيصر اندرونيكوس ومجلس الدولة الاعلى. ولما انتظم عقد المجمع قدم برلعام شكايته ضد الرهبان وقرأ ما كتبهُ في موضوع النور الثابوري ثم طعن في الرهبان انفسهم بانهم تابعون لهرطقة البوغوميل الذين كان من جملة بدَعهم انهم يرفضون كل الصلوات الكنائسية بمثابة كثرة كلام ويعتاضون عنها بالصلاة الربِّية وحدها وقال ان هؤلاء الرهبان ايضاً يعتاضون عن صلوات الكنيسة كلها بصلاتهم «ايها الرب يسوع المسيح ابن الله ارحمني» وانهم عن قصد ابدلوا فيها كلمة «الهنا» بكلمة «ابن الله» وهكذا اخذ يخلط الموضوع على المجمع. اما المجمع ففحص اقوالهُ وسمع دفاع بالاماس الذي اثبت صحة تعليمهِ واستشهد من اباءِ الكنيسة على صحة قولهِ بان نور ثابور الهيٌّ وغير مخلوق وانهُ ممكن الاشتراك به بالحواس. ثم اثبت ايضاً صحة الصلاة السابق ذكرها من الكتب الالهية ومن اباءِ الكنيسة الى ان اقتنع المجمع بضلال برلعام. فلما رأى

برلعام ان المجمع عازم على الحكم عليهِ استنصح يوحنا كنداكوزينوس وبتحريضه استرجع علناً امام الجيمع كل ما قالهُ وكتبهُ قبلاً واعترف بان النور الذي ظهر على ثابور كان الهياً وغير مخلوق وعليهِ تصافح الفريقان وحكم المجمع «بانهُ يسامحهُ اذا كان يتوب حقيقةً ويصلح خطأَهُ. والاَّ فيعتبرهُ مرفوضاً ومقطوعاً من كنيسة المسيح» وقد اوصى ايضاً بالاماس واصحابهُ ان لا يعودوا فيما بعد الى الكلام والكتابة علناً في هذه المسائل «لان العثرات التي تنشأُ عن ذلك لكنيسة الله ليست صغيرة ويأتي عنه تشوُّش واضطراب وهيجان وقلق عظيم لنفوس السامعين».

اما القيصر فبعد خروجه من المجمع مضنوكاً من التعب تعشى عشاءً ثقيلاً نحو نصف الليل فاغمي عليهِ وبعد ان افاق من غميانهِ اعترته حمَّى شديدة وبعد ايام قليلة توفي في ١٥ حزيران سنة ١٣٤١. وبعد وفاته رجع برلعام الى تعليمه فترك القسطنطينية ورجع الى ايطاليا وانضم الى كنيسة البابا فشرطنوهُ اسقفاً على مدينة ايَّارَكُس وهناك توفي سنة ١٣٤٨ ولكن ضلالهُ لم ينتهِ بفراره بل قام بعضهم يعلم تعليمهُ وفي مقدمتهم راهب اسمه جاورجيوس آكينذينوس فكان هذا الراهب تابعاً تعليم برلعام وخلفهُ في رئاسة اتباع اضاليلهِ.

وقد ترك القيصر عند وفاتهِ ولدين قاصرين يوحنا ومانوئيل اكبرهما يوحنا ابن تسع سنين واقام وصيًّا عليهما يوحنا كنداكوزينوس. فلما مات القيصر اكد يوحنا للقيصرة حنه انهُ مستعدٌّ للعناية في اولادها ونجاح المملكة واعتنى في تجنيز القيصر كما يليق بهِ واصدر الاوامر اللازمة الى كل الدوائر الادارية والعسكرية والمالية وشرع في ادارة المملكة ثم عقد مجمعاً ثانياً في تموز سنة ١٣٤١ هو والقيصر القاصر يوحنا الخامس وامهُ حنه في كنيسة اجيا صوفيا فحكم المجمع بصحة تعليم بالاماس وبفساد تعليم آكيذينوس وسماهُ هرطوقياً وتهددهُ بانهُ يقطعهُ من الكنيسة ان لم يرجع عن شرهِ وضلالهِ ويقدم توبةً. على انها لم تمضِ ايامٌ كثيرةٌ حتى قام الخلاف بين كنداكوزينوس وبين القيصرة حنه بدسائس بعض رجال المملكة ومعهم البطريرك يوحنا ليحطموا من نفوذهِ. ففيما كان يقود الجند في مدينة

ميديموتيخوس اخذ اضدادهُ يعملون على خلعهِ وفي مقدمتهم الدوق الاعظم أَبواكَفْخُس والبطريرك وحموهُ نفسهُ اندرونيكوس آسان وغيرهم من رجال الملكية والجندية. فانتدبت القيصرة حنة أَبواكَفْخُس حاكماً للقسطنطينية. وحالاً أُمسكت ام كنداكوزينوس وابنهُ اندرونيكوس وزُجَّا في السجن ولم تلبث امهُ ان ماتت من خوفها. ونُهب بيتهُ وبيوت اتباعهِ وفرَّ اصحابها الى حماهُ. فلما سمع بما كان كتب يستأذن من القيصرة ان يأتي ويبرئَ نفسهُ مما أُتهم بهِ فلم يُجَب بل صدرت اليهِ الاوامر ان يتوقف عن كل حركة وينتظر القرار الاخير بحقهِ. حينئذٍ حرضهُ اصحابهُ ان يقيم نفسهُ ملكاً فاجاب تحريضهم ولبس تاج الملك بيده من امام ايقونة السيدة ١٣٤٢ ولكنهُ حافظ على ذكر الملكة حنه وابنها الملك يوحنا في كل احتفال وكان يُذكر بعدهما. وبعد ذلك ساد الانقسام وقامت الحروب بين كنداكوزينوس وحنه فاستعان كنداكوزينوس بملك السرب وملك التركمان في ايدين المسمَّى آمور بلد فكان كل سنة يأتي الملك التركماني بقوةٍ بحرية ضد القسطنطينية والقيصرة حنة ترضيه بالمال وتصرفهُ حتى ان المال قلَّ اخيراً لديها فاضطرَّت ان تقترض من وكلاء كنيسة القديس مرقس في البندقية ثلاثين الف ذهب وترهن عليها بعض التحف الثمينة. وقد بقيت تلك التحف من ذلك الوقت ملكاً لتلك الكنيسة لانها لم تعد تفُك. اخيراً طلبت مساعدة السلطان أُرخان ملك الاتراك العثمانيين ولكن كنداكوزينوس طلب ايضاً مساعدتهُ فطلب منهُ أُرخان ان يدفع اليه ابنتهُ زوجةً فقبل كنداكوزينوس. واذ كانت ابنته الكبيرة قد تزوجت بالقيصر يوحنا دفع ابنتهُ الصغيرة وهي في عنفوان صباها زوجة للسلطان أُرخان وهو في سن يزيد عن الستين من عمره فضلاً عن اختلاف الاديان. وقد جرى احتفالٌ عظيم لزواجها في سيلبريًّا وبعد زواجها بقيت ثابتة على ايمانها ولم تحد عنهُ مطلقاً رغماً عن كل التشويقات التي كانت تقدَّم اليها لكي تنكرهُ. ثم ان كنداكوزينوس استحضر لعازر بطريرك اورشليم واجبرهُ ان يمسحهُ ملكاً فمسحهُ في ادرنه سنة ١٣٤٦. ثم عقد مجمعاً حضرهُ البطريرك ومن معهُ من الاساقفة وحكم على بطريرك القسطنطينية بالقطع. وكانت القسطنطينية وقتئذٍ غريقةً في لجة قلاقل وحركات يطول شرحها. منها ان حاكمها أبو كفخُس نفى بعض رفقائهِ

الذين ساعدوهُ في عزل كنداكوزينوس. ثم قام بعض المسجونين المتهمين بخيانته وقتلوهُ. ومنها ان الخلاف استفحل بين سكان القسطنطينية والجَنويين الساكنين جهات غلَطه حتى قام القتال بينهما وما اصطلحا الاَّ بعد ان تكبد اهل القسطنطينية خسائر جسيمة. ومنها ان الخلاف الديني الذي زرعهُ برلعام لم ينته بسفر برلعام الى رومية وبالحكم على خلفه اكينذينوس كما تقدم بل لبث يغلق الكنيسة والدولة مدةً ايضاً. فان الارثوذكسيين لما رأوا ان الفوز كان لهم كانوا يفتخرون بصحة تعليمهم وبمصادقة المجمع لآرائهم. فاتخذ البطريرك يوحنا هذا الموضوع حجةً للانتقام من بالاماس. لان بالاماس كان صديقاً لكنداكوزينوس والبطريرك كان خصماً لهُ عاملاً على عزله من الوصاية على القيصر يوحنا القاصر ليستلم هو زمام المملكة. ومن ثمَّ اخذ البطريرك يحسن معاملة اكيذينوس ويضطهد بالاماس فادَّعى على بالاماس انهُ حرَّف بعض عبارات القرار المجمعي واستدعاهُ ليحضر. ولكن بالاماس لعلمه بسوء نية البطريرك هرب الى هرقلية. فاستحضره بالقوة والقاهُ في السجن بقرار من الملكة حنه والمجلس الاعلى فلما رأى رؤساء الكهنة سلوك البطريرك هذا ضد بالاماس بلا حقٍّ ولا عدالة رفعوا تقريراً الى الملكة حنه يرجونها به ان تعقد مجمعاً لحل هذه المشاكل. فعقدت المجمع سنة ١٣٤٧ ودُعي البطريرك اليه اولاً وثانياً وثالثاً ولكنهُ لم يرُد ان يحضر. وبعد الفحص وجد تعليم بالاماس ارثوذكسياً والبطريرك منحازاً لتعليم اكينذينوس فحكم عليه وعزلهُ عن الكرسي البطريركي. وصدَّق لتعليم بالاماس ولما كتبهُ ضد برلعام واكيذينوس المبتدعين. وكان ذلك في ٨ كانون الثاني سنة ١٣٤٧. ثم ان الملكة كانت قد امرت بان تُعدّ مائدة لغداء رجال المجمع. وفيما كانت معهم على الغداء فتح بعض الجند المستأجرين الباب الذهبي من ابواب اسوار القسطنطينية لكنداكوزينوس بواسطة الرشوة فدخلها هو وجنودهُ على حين غفلة واضطرت الملكة ان تترك غداءها لتعقد المعاهدة بينها وبين الظافر وقد عاملها هذا بكل لطف وتعاهدا على ان تكون ادارة الاحكام مشتركة بينهُ وبين القيصر يوحنا الشاب وترك لها معظم البلاط الملوكي واكتفى هو بدائرة واحدة منهُ. ثم انهُ صدَّق على عزل يوحنا من البطريركية وتُوِّج قيصراً في

ايار من السنة عينها.(١)

وبعد عزل البطريرك يوحنا الرابع عشر انتخب البطريرك ايسيدورُس ورقي الكرسي يوم الخميس الواقع ١٧ ايار سنة ١٣٤٧. اما البطريرك المعزول فلم تصُل حياتهُ بعد ذلك لانهُ توفي في تشرين الثاني من هذه السنة عينها.

وبعد ان استقرت ادارة الاحكام للقيصر كنداكوزينوس ارسل الى البابا اكليمس السادس سفراءَ يطلب منهُ مساعدةً لدفع هجمات الاعداء ويحكي لهُ الاسباب التي دعتهُ ان يعقد محالفتهُ للاتراك. فارسل البابا على اثر ذلك اسقفين سنة ١٣٥٠ ليتفقا معهُ على محاربة العدو واتحاد الكنائس. فلما حضرا اخذ القيصر يخابرهم بكل جهدهِ في موضوع الاتحاد ويوضح لهم رغبتهُ الحارة في الحصول عليه. وقد القى عليهم خطاباً يتضح منهُ شدة ميل القياصرة والشعوب والكنائس الارثوذكسية الى الاتحاد على الوجه القانوني نثبت منهُ بعض عباراته. قال:

«انني لا استطيع ان اعبر لكم التعبير الكافي عن شدة رغبتي في الاتحاد الكنائسي. وانما اقول انهُ اذا اقتضت الحال لذبحي في سبيل الاتفاق لا اكتفي بان اقدم نفسي بكل رغبة الى الذبح بل اقدّم السيف ايضاً بيدي. او اذا رأيتم ان اتحاد الكنائس يتوقف على احراق شخصٍ واخذ رماد جثته لرأيتموهُ اول من يضع على الاتون الحطب الذي به يصير رماداً (يعني نفسهُ). على ان موضوعاً مهمًّا كهذا يقتضي له انتباهٌ عظيمٌ جدًّا. لأنهُ لا يتعلق بالخيرات الزمنية بل بالخيرات الأبدية وبنقاوة الايمان. فانا لا اريد ان اعتمد على نفسي لان واحداً وحدهُ يستحيل عليه الوصول الى سموّ مثل هذه المعارف العظيمة. فضلاً عن ان هذا الامر كان السبب منذ البداءة في فصل الكنائس. لانهُ لو ان الرجال الذي ادخلوا اول مرة العقائد التي تؤيَّد اليوم من اتباع الكنيسة الرومانية بدلاً من ان يعتمدوا على انفسهم فقط ويحتقروا

(١) جدعون صحفة ٤٢٠ وبابا ريغوبولس جزء ٥ صفحة ٢٥٤ . وملاتيوس ١٤ : ٦ و ٧ و ٨

رؤَساءَ الكهنة الآخرين سمحوا لهم بحرية البحث لما امتد الخطب هذا الامتداد. وانتم تعلمون ان القديس بولس نفسهُ اعرض تعليمهُ على الرسل وقال انهُ عمل ذلك جذراً من ان يجاهد عبثاً. على ان سلوك القيصر ميخائيل اول قياصرة عائلة باليولوغُس سلوكاً مخالفاً لذلك حبط وزاد في الانقسام فقط. اما انا فلا يستطيع احد ان يقنعني ان اقبل التعاليم الجديدة واحرض آخرين على قبولها الاَّ بعد ان يقرَّر ذلك من مجمع مسكونيٍّ. لأن اللذين يريدون اجبارهم على ذلك يسدُّون قبل كل احدٍ آذانهم حتى لا يسمعوا ولا اول كلمة. وانا موقن انكم انتم ايضاً انفسكم لا يمكنكم ان تقتنعوا في حقيقة ايماني اذا قبلت عقائدكم واعترافكم حالاً وبلا بحثٍ. وهذا حقٌّ. لانه اي امنية يمكن ان تكون لاحدٍ في انسانٍ يقبل اموراً حديثة وهو ليس ذات ثبات في تمسكه بالعقائد التي ورثها عن اجدادهِ وربي عليها؟ فلهذه الاسباب اظن انه من الضروري عقد مجمع مسكونيٍّ مؤَلَّفٍ من اساقفة شرقيين وغربيين. ومتى تمَّ ذلك لا يسمح الله لنا ان نحيد عن الحقيقة. فلو كانت آسيا واوربا خاضعتين للسلطة الرومانية كما كان قبلاً لكان من الواجب ان يجتمع المجمع عندكم كما في العادة القديمة. لكن ذلك غير ممكن اليوم. فلا البابا يستطيع ان يأتي الى هنا ولا نحن ايضاً نستطيع بسهولةٍ ان نبتعد من هنا بسبب الحروب المتواصلة. ولذا اذا كان البابا يرضى أن نجتمع في مكانٍ ساحلٍ متوسطٍ بيننا وبينكم حيث يحضر هو مع الاساقفة الغربيين واحضر انا ايضاً مع البطاركة والاساقفة التابعين لهم. فان وافق على ذلك فليخبرني على وقتٍ عن زمان الاجتماع ومكانه لاني محتاجٌ الى وقتٍ طويل لاجمع البطاركة والاساقفة». فلما بلغت هذه الدعوة البابا اكليمس رضي بها ولكنهُ لم يستطع شيئاً بسبب الانقسامات والحروب التي كانت سائدةً في مدتهِ بين ملوك الغرب من جهةٍ ولان حياتهُ لم تطُل بعد ذلك اذ توفي سنة ١٣٥٢ كما تقدم.

وفي سنة ١٣٥٠ توفي البطريرك القسطنطيني ايسيدورُس فخلفهُ البطريرك كالستُس الاول يوم الخميس في ١٠ حزيران من السنة عينها وكان رجلاً فاضلاً مشهوداً له بالتقوى والعلم وقد ارسل القيصر سفينةً ملوكية مخصوصة

لنقلهِ من ديرهِ في الجبل المقدس حيث كان مواظباً على العيشة النسكية من سنة ١٣٤١.

وكان للقيصر يوحنا كنداكوزينوس ولدٌ اسمهُ متَّى. فلما اخذ يوحنا القسطنطينية قام الجيش وطلب منهُ ان ينادي بابنهِ متَّى شريكاً لهُ في المملكة فلم يقبل ابوهُ. وبعد ذلك ذهب متَّى الى ادرنة ونادى بنفسهِ ملكاً ولكن والدتهُ ذهبت حالاً اليهِ وارجعتهُ عن عزمهِ وتلافت الحرب بين الولد ووالدهِ. على انهُ بعد سنين قليلة نشب قتالٌ وحربٌ اهلية بين متَّى والقيصر يوحنا باليولوغس في جهات ادرنه وديديموتيخُس وقد اجتهد يوحنا كنداكوزينوس ان يتلافى هذهِ الحرب فلم يستطع الى ان اضطر اخيراً ان يساعد ابنهُ على صهره القيصر الشرعي فكسرهُ واضطرَّهُ ان يهرب ويلتجئَ الى جزيرة تينِدُس سنة ١٣٥٤. ثم طلب من البطريرك ان يتوَّجهُ ملكاً فلم يرضَ. واذا اراد القيصر ان يجبرهُ على ذلك طلب مهلة ثلاثة ايام ليفتكر ويبدي رأيهُ الاخير وكانت نتيجة فكرهِ انهُ ترك الكرسي للذي يريدهُ وذهب الى جزيرة تينِدُس فجمع القيصر المطارنة الذين في ثراكي والقسطنطينية وامرهم ان ينتخبوا بطريركاً. فانتخبوا فيلوثاوس مطران هرقلية رجلاً متعمقاً في العلوم الدينية ومتضلعاً في سائر العلوم الخارجية ومشهوراً في الغيرة على الارثوذكسية فتوَّج متَّى شريكاً لابيهِ في المملكة.

وكان السلطان أُورخان قد آنس الضعف من مملكة الروم لما ارسل جنودهُ لنجدة كنداكوزينوس فاخذ في تجهيز الكتائب سرًّا لاجتياز البحر واحتلال بعض نقط على شاطئ اوربا لتكون مركزاً لاعمال العثمانيين فيها حتى اذا سنحت الفُرَص وساعدت التقادير حاصروا القسطنطينية برًّا وبحراً وفتحوها. وعليهِ إجتاز سليمان باشا اكبر اولادهِ وولِيُّ عهدهِ وصدر مملكتهِ الاعظم بوغاز الدردنيل ومعهُ اربعون من اشجع جنودهِ تحت ستار الظلام حتى اذا وصلوا الى الضفة الاخرى قبضوا على ما كان فيها من القوارب وعادوا بها الى الضفة المعسكرة عليها جيوشهم فانتقل الجيش الى ضفة اوربا وكان عددهُ ثلاثين الفاً فاحتل ميناء تزنب ودخل ثراكي ومكدونية فاستولى على جملة مراكز ثم ان السلطان عقد محالفةً علنيَّةً مع الجنَويين

سكان غلطه اعداء حميّهِ كنداكوزينوس وهكذا توفق لهُ الاستيلاء على جملة قلاع في شبه جزيرة ثراكي منها ريدستوس وكاليبولي التي جعلها مركزاً لجنودهِ في غارتهم. وقد حاول كنداكوزينوس ان يسترجعها منهُ حبيًّا فلم يستطع. وفيما كانت الاحوال على هذه الصفة بين كنداكوزينوس وصهرهِ اورخان اتفق يوحنا باليولوغس مع الجَنَويين بواسطة رجلٍ منهم غنيٍّ وقويٍّ اسمهُ فرانسوا كاتولوسي على ان يساعدهُ ضد حميّهِ كنداكوزينوس ووعدهُ ان يعطيهُ شقيقتهُ زوجةً ويهبهُ جزيرة ليزبُس (مدلّه). فساعدوهُ ودخل القسطنطينية. واذ كان كنداكوزينوس متحصناً في البلاط ولم يستطِع اخذهُ بالقوّة وفاقاً ان يقيما في البلاط ويذهب متّى الى ادرنة محافظاً على صبغتهِ الملوكية مدة حياته. ثم ان فرانسوا تزوّج بشقيقة يوحنا واخذ جزيرة مدلّه. ولكن يوحنا كنداكوزينوس بعد ان ملَّ من الحوادث المكدرة تنازل عن الملك وذهب الى دير مانكانا حيث صار راهباً وسمّي يواصف وشرع في المطالعات والكتابة سنة ١٣٥٥. وبعد ذلك وقع متّى ابنهُ اسيراً في ايدي السرب ففداهُ باليولوغُس واجبرهُ على التنازل عن الملك وهكذا استقلَّ يوحنا في إدراة المملكة.

وكان البطريرك فيلوثاوس في اثناء هذه القلاقل قد هرب من البطريركية واختبأ خوفاً من هجوم الشعب ضدهُ حالما استولى يوحنا باليولوغُس على القسطنطينية لانهُ كان موالياً لخصمهِ كما تقدم. فرجع البطريرك كالِستس من جزيرة تيندُس واستلم زمام الكرسي البطريركي ثانيةً من سنة ١٣٥٤.

ولما استقلّ يوحنا باليولوغُس في مملكة الروم ورأى اعداءهُ على ابواب المملكة يتهددون فتحها افتكر ان يطلب مساعدةً من الباباوات لصدهم عنها فطلب من البابا اينوشنسيوس السادس ان يساعدهُ ووعدهُ بان يكون هو وشعبهُ مطيعاً لهُ وان يرسل لهُ ابنهُ مانوئيل ليتعلم اللغة اللاتينة ويتربّى على المذهب والعوائد الرومانية وبالاجمال ان يضع مملكتهُ واولادهُ ونفسهُ ايضاً تحت خاطر البابا وانهُ لا يعمل عملاً الاّ برأي النواب الرومانيين الذين يرسلهم البابا. ولكي يبرهن صحة وعودهِ ارسل اليهِ ابنهُ الثاني مانوئيل

رهناً. اما البابا اينوشنسيوس فوعدهُ لقاء ذلك بعشرين سفينة تحمل ١٥٠٠ جندي واصدر امرهُ الى طغمة فرسان يوحنا في جزيرة رودُس ثم ان الجَنَويين والبندقيين وملك قبرص لكي يقدموا مساعدتهم ليوحنا ضد اعداء مملكته. ولكن هذا كلهُ لم يُفِد يوحنا بشيءٍ لان الاتراك تقدموا تقدماً عظيماً في هذه المدة. ففي سنة ١٣٥٩ توفي السلطان أُورخان فخلفهُ ابنهُ السلطان مراد الاوّل فاستولى على كل البلاد التي بين الدردنيل والبلقان وفتح مدينة ادرنه وجعلها عاصمةً للمملكة سنة ١٣٦١. ثم فتح مدينة فيلبه وعقد على اثر فتحها صلحاً مع يوحنا باليولوغُس مؤسَّساً على محالفة دفاعية وهجومية بينهما. ولا يخفى ان هذا الصلح كان مرافقاً لمراد انهُ لما قام امراءُ المجر والسرب والفلاخ والبلغار بتحريضٍ من البابا أُربانوس الخامس واتحدوا ضدهُ لم يستطِع القيصر يوحنا ان يتحد معهم بسبب هذه المحالفة فتقهقروا في معركة سنة ١٣٦٣ واخذ الاتراك جملة بلاد وجعلوا امير السرب تحت الخراج وامير البلغار كذلك وتزوَّج السلطان مراد بابنة امير البلغار.

وفي اواسط سنة ١٣٦٣ أُرسل البطريرك كالِستس بمهمة من القيصر الى اليصابات ملكة السرب فلما كاءَ الى فيرا مرض وتوفي ودُفن باحتفالٍ عظيمٍ من اليصابات من مطرانخانة فرا في ٢٠ حزيران وهو اليوم الذي تحتفل فيه الكنيسة الارثوذكسية تذكارهُ سنويًّا. وفي عهد هذا البطريرك كان الدير المسمى «اوذيعون» اي دير المرشدة امطوشاً للكرسي الانطاكي في القسطنطينية.

وكان القيصر في هذا العهد خارج القسطنطينة. فلما رجع اجتمع المجمع لانتخاب خلف للبطريرك فقرر وجوب استدعاء البطريرك فيلوثاوس المتنحي وذلك في ١٢ شباط سنة ١٣٦٤. واذ رأى القيصر هذا القرار حقًّا ومصيباً ارسل ولديهِ اندرونيكوس ومانوئيل ومعهما عدداً عظيماً من عظماء الشعب فاحضروهُ من ديرهِ. وفي ١١ تشرين الاول من السنة عينها رقي الكرسي البطريركي كأنهُ نورٌ وُضِعَ على المنارة وكان مواظباً على تعليم الرعية وانذارها وتغذيتها بلبان التهذيب المسيحي وتثبيتها في العقائد الارثوذكسية واصلاح كل خللٍ ادبيٍّ فيها بقولهِ وبصالح نموذجهِ كل مدة

بطريركيته.

اما القيصر يوحنا فلما رأى فتوحات الاتراك وتأكد انهُ لا بد لهُ من يوم ينتشب فيهِ القتال بينهُ وبينهم وانهُ لا سبيل لهُ الى الخلاص منهم على ما كان يظن انقلب الى طلب المساعدة من البابا. فاشترط عليهِ البابا في سبيل المساعدة ان تخضع الكنيسة الشرقية لسلطتهِ وارسل اسقفاً لاتينيًّا اسمهُ بولس ليخابرهُ في هذا الموضوع. وكان وقتئذٍ بطاركة الاسكندرية الثلاثة. فكتب بطريركاً الكرسيين المشار اليهما الى مطارنتهما ليحضروا وكتب فيلوثاوس الى البطريرك الانطاكي والى رئيس اساقفة بلغاريا يدعوهما الى هذا المجمع. غير ان المجمع لم يُعقد ولا البابا ارسل مساعدة الى القيصر. فالتجأ القيصر الى ملك المجر وطلب الاتحاد معهُ فلم يُجب طلبهُ. واذ كان الخطر يتفاقم على المملكة من يومٍ الى يومٍ رجع القيصر الى استمداد المعونة من البابا ووعدهُ باتحاد الكنائس حسب عادتهِ ولم يكتفِ بذلك بل ترك ابنهُ اندرونيكوس وكيلاً عنهُ في القسطنطينية وقام هو بذاتهِ سنة ١٣٦٩ وجاء الى رومية حيث كان البابا اوربانوس الخامس مقيماً وقتئذٍ كما تقدم القول. ويقال انهُ اعترف رسميًّا امام البابا وسائر الاكليرُس الروماني بعقائد كنيسة رومية رجل البابا الروماني متناسياً قيمة وظيفته الملوكية مع ان الباباوات انفسهم حينما كانوا يثبَّتون من القياصرة كانوا ينحنون امامهم الى الارض على وجوههم. ثم ان البابا وعدهُ بمساعدة سريعة ضد اعدائهِ والقيصر وعدهُ بإخضاع الكنيسة الشرقية إخضاعاً تامًّا لهُ. ولكن هذه الوعود لم تتجاوز الشفاه والالسنة لانهما كلاهما كانا في ظروفٍ لا تمكنّهما من القيام بها. اما البابا فالمشاكل التي كانت عندهُ كما تقدم الكلام. واما القيصر فلأنه لم يكن قادراً على إخضاع الكنيسة لمن يريد. فلما رأى القيصر انهُ لم ينتفع من هذه الزيارة غير الذل والهوان بعد الاستقبال الحافل الذي استقبلوهُ اياهُ افتكر ان يطلب مساعدةً من غير البابا فذهب الى البندقية وهناك نال ايضاً وعوداً وكلامًا واضطر ان يقترض مالاً برباءٍ فاحش ليتمم سياحتهُ في اوربا. فمن البندقية ذهب الى فرنسا الجنوبية ولم يستفد شيئاً ثم رجع الى البندقية افقر مما كان قبلاً. واذ لم يكن لهُ ما يوفي بهِ ديونهُ أُمسك تحت

التوقيف. فلما علم بذلك ابنهُ اندونيكوس الذي كان قائماً مقامهُ في القسطنطينية مدة غيابهِ لم يُرِد ان يرسل اليهِ مالاً يتحرر بهِ. ولكن ابنهُ الثاني مانوئيل الذي كان عيَّنهُ حاكماً على سالونيك سعى وارسل اليهِ مطلوبهُ. فرجع يوحنا الى القسطنطينية صِفر اليدين حقيراً ذليلاً بعد مشقات غينةٍ كاملة. هذا ما كان من امر سفر يوحنا الى رومية مأخوذاً عن رواية اللاتين. على أن المؤرخ ملاتيوس مطران اثينا ينكر عليهم اعتراف يوحنا بالإيمان اللاتين ويقول ما ترجمتهُ بالحرف الواحد «ان بعض اللاتين اعتادوا ان يُظهروا صكَّ اعترافٍ بالايمان البابوي من يوحنا هذا باليولوغُس ابن اندورنيكوس الاصغر ويقولوا انهُ دفعهُ في رومية. غير ان هؤُلاء المؤرخين انفسهم يشهدون بان هذا الصك مزوَّرٌ. راجع ما كتبهُ عن هؤُلاء الملوك نيكيفورُس غريغوراس ولاونيكوس خالكوكونذيلي وجاورجيوس فرانزيس ولاونكلاف وغيرهم» اما اوعاد البابا اوربانوس الخامس فقد كررها البابا غريغوريوس الحادي عشر ولكنها لم تتجاوز القول ايضاً ومن ثم اضطر القيصر ان يتساهل مع الاتراك ويعقد العهود التي ارادوها حتى يستميلهم اليهِ.

وقد اقام البطريرك فيلوثاوس على الكرسي الى سنة ١٣٧٦ وفيها توفي. وهو الذي عيَّن ان يُعيَّد القديس غريغوريوس بالاماس في الاحد الثاني من الصوم الكبير كل سنة وألَّف خدمتهُ. وبعد وفاته انتُخب مكاريوس مطران سِبَسطية بطريركاً. وكان رجلاً تقيًّا لا لوم فيه. ولكنهُ خُلع سنة ١٣٧٨ لانهُ كان موالياً لاندرونيكوس ابن القيصر يوحنا. وتحرير الخبير ان القيصر يوحنا بعد رجوعه من رومية عزل ابنهُ اندرونيكوس من ولاية العهد وعين شريكاً لهُ في الملك ووليًّا لعهدهِ ابنهِ الثاني مانوئيل قصاصاً لاندرونيكوس على العقوقية التي اظهرها نحوهُ حين كان سجيناً في البندقية. فقام الخلاف بين الاخوين على الخلافة حتى اذا سنحت الظروف لاندرونيكوس اغتنم فرصة وجود ابيهِ خارج العاصمة مع السلطان في جهات اسيا واتفق مع صاووجي ابن السلطان مراد وقاما ضد والديهما واستلم اندرونيكوس زمام العاصمة. ولكن السلطان مراد تغلب عليهما فقلع عيني ابنه صاووجي ثم قتلهُ

هو وجميع من حازبهُ من اشراف الروم وطلب من يوحنا ان يفعل مثلهُ مع ابنهِ اندرونيكوس ويقتلهُ ويقتل حفيدهُ ايضاً يوحنا ابن اندرونيكوس. فوعدهُ ولكنهُ لم يقتلهما بل قيل انهُ فقأ عينين اندرونيكوس ونفاهُ او سجنهُ. ولكن يظهر ان الفقأ لم يكن كاملاً. واذ كان البطريرك موالياً لاندرونيكوس كما تقدم خُلع بحكم مجمع عُقد في كنيسة اجيا صوفيا مؤلف من ستة عشر رئيس كهنة بعد انهُ دُعي الى المحاكمة ولم يحضر لانهُ لم يُسمح لهُ ان يحضر بصفة رئيس كهنة. بعد الخلع ضبط في سجن الى ان تحرَّر بعد ذلك بسبب تقلب الاحوال السياسية ومن بعد خلعهِ انتُخب البطريرك نيلس الملقَّب بكيراميفْس (اي الفاخوري) وكان هذا البطريرك رجلاً عالماً وقديساً وقد شهد فيهِ جاورجيوس سخولاريوس ما ترجمتهُ «ان تعاليم البطريرك نيلُس اذا اراد احدٌ ان يشبهها بتعاليم يوحنا العظيم الذهبي اللسان ويقول بأنها اختها لا يخطئ الحقيقة. وهي لم تزل باقيةً توضح ما في كلامهِ من النعمة العظيمة» وقد ساعد هذا البطريرك في إزالة الاحقاد بين يوحنا واندرونيكوس في ايار سنة ١٣٨١ وكتب رسالةً مهمةً جدًّا موضوعها النصيحة في هذا المعنى وقد جرى على عهد هذا البطريرك في موضوع اتحاد الكنائس مخابرةٌ بينهُ وبين البابا اوربانوس السادس سنة ١٣٨٤ لم تأت بنتيجة فكتب البطريرك الى البابا يقول « لانعترف لك بانك اولٌ فينا الا اذا صار الاتحاد كما يجب ان يصير بحسب قوانين الآباءِ القديسين» وتاريخ هذه الكتابة شهر ايلول سنة ١٣٨٤. ثم انهُ لما كان قد قامت في الغرب اشاعاتٌ كثيرة ضد الكنيسة الارثوذكسية حيث دخلت تحت حكم الاتراك كتب البطريرك الى البابا يقول في هذا المعنى ما ترجمتهُ «ان الكنيسة الارثوذكسية في الشرق متمتعةٌ تحت صولجان السلاطين بكل حريةٍ. فهي تستلم مكاتباتٍ وتجيب عنها وترسل رسائل وتشرطن اساقفةً وترسلهم الى حيث تريد وتعمل كل الاعمال الكنائسية بلا مانع» وفي سنة ١٣٨٨ توفي البطريرك نيلُس فخلفهُ انطونيوس الرابع في كانون الثاني ١٣٨٩ وقد كان قبلاً كاهناً متوحداً وبعد سنةٍ ونصف انسحب عن الكرسي في تموز سنة ١٣٩٠. وفي ٣٠ من هذا الشهر دُعي الى الكرسي البطريركي البطريرك مكاريوس ثم اجتمع في شهر آب مجمعٌ تحت رئاسة يوسف مطران هرقلية

مؤلَّف من ١٢ رئيس كهنة وألغى الحكم الذي صدر ضدهُ منذ ١١ سنة وارجعهُ الى الكرسي البطريركي وقرر ان يبقى البطريرك انطونيوس متنحياً عن الرئاسة ما دام مكاريوس حيًّا ولكن الوظيفة تبقى عليهِ وهكذا قبل شهر آب سنة ١٣٩١ دُعي ثانية الى الكرسي البطريركي واستلم زمامهُ مدة ست سنين ايضاً.

وفي خلال هذه المدة ظهر رجل اسمهُ تاغَرِس اصلهُ من والدَين شريفين ازوجاهُ وهو في سن الخامسة عشر من عمرهِ. واذ لم تتفق معهُ زوجتهُ تركها وجاءَ فلسطين وصار راهباً. وبعد ذلك بمدةٍ شرطنهُ لعازر بطريرك اورشليم شماساً ثم جاءَ الى ميخائيل بطريرك انطاكية وسيم قسًّا وعُين إكسرخُساً على ابرشيات الكرسي. غير انهُ لم يسِر مستقيماً بل كان يسمح بشرطونياتٍ غير مسموحةٍ يأخذ عليها اموالاً ويتجاسر على امورٍ كثيرةٍ غير محللة. ثم ذهب من انطاكية الى جهات ايقونية سنة ١٣٦٩ وكان ينادي بنفسهِ انهُ رئيس كهنة ويشرطن اساقفة وكهنةً وشمامسة حتى انهُ ازعج تلك الابرشية كثيراً الى ان ارسل البطريرك الانطاكي مطران صور وصيدا اول مطارنة كرسيهِ فشرطنهُ اسقفاً على تبريز. واذ كان قد بلغ البطريرك القسطنطيني فيلوثاوس ما كان يرتكبهُ ارسل مطارنة قيصرية وموكيسُّو إكسَرخُسين ليفحصا امورهُ ثم طلبهُ الى القسطنطينية. فخاف القصاص وذهب الى رومية واعتنق المذاهب البابوية. فشرطنهُ البابا بطريركاً للقسطنطينية وارسلهُ ولكنهُ في عهد البطريرك انطونيوس ندم على ما فرط منهُ وطلب السماح فقبلهُ البطريرك وعقد مجمعين لفحص قضيتهِ ولكن لا نعلم ما اقرَّا عليهِ.

وفي عهد هذا البطريرك ايضاً اعني سنة ١٣٦٩ جمع يوسف المصري مجموع القوانين الشريفة في ترجمةٍ عربية كما ذكر قسطنطين ايكونوموس في كتابهِ المعنون «في الدرجات الكهنوتية الكنائسية الثلاث».

وفي سنة ١٣٨٩ قُتل السلطان مراد اغتيالاً في موقعةٍ على حدود البوسنه والسرب معروفة بموقعة قوضوه كان الظفر فيها للاتراك. فخلفهُ ابنهُ السلطان بايازيد الملقب بيلدرم (اي الصاعقة) وقتل اخاهُ يعقوب لكي لا

ينازعهُ الملك. واذ كان لعازر امير السرب قد قُتِل ايضاً في تلك الحرب جاءَ ابنهُ استفان الى السلطان بايازيد ليقدم الخضوع ويطلب الصلح. فصالحهُ على ثلاثة شروط: اولها ان يكون ملزوماً بمساعدته في حروبهِ. والثاني ان يدفع اليهِ شقيقته اوليفيرا زوجةً. والثالث ان يدفع لهُ خراجاً سنويًّا. فقبل ثم ان اندرونيكوس ابن القيصر يوحنا هرب من السجن بمساعدة البندقيين والتجأ الى السلطان بايازيد وطلب مساعدتهُ بعد ان تعهَّد له بالخراج. فاعطاهُ السلطان اربعة آلاف فارس فجاءَ بهم ضد القسطنطينية ودخلها وامسك اباهُ واخاهُ ووضعهما في قفصٍ من خشب ضمن برجٍ حصين ثلاث سنوات. غير انهما فرَّا من السجن والتجأا الى بايازيد ووعداهُ ان يقدما لهُ خراجاً اعظم من خراج اندرونيكوس ويكونا مجبورَين ان يحاربا معهُ باثني عشر الف فارس اينما حارب ويصادقا اصدقاءَهُ ويعاديا اعداءَهُ. فقبل معهما وقدم لهما جنداً كافئاً. فجاءا بهِ ضد اندرونيكوس ولم يحارباهُ بل تساويا معهُ بان يستلم يوحنا ومانوئيل زمام القسطنطينية واندرونيكوس يعين حاكماً على سالونيك. ثم ان بايازيد طلب ان يستولي على مدينة فيلادلفيا (الله شهر او آلاشهر) في اسيا الصغرى وقد كانت هي وازمير باقيتين في يد الروم. فلبَّى القيصر يوحنا طلبهُ وساعدهُ هو ابنهُ اندرونيكوس على فتحها ضد مقاومة قائد حاميتها سنة ١٣٩٠. وفي سنة ١٣٩١ سلم حاكم آيدين مقاطعتهُ للسلطان وذهب الى الخارج وكذلك فعل حاكم مقاطعة منتشا وحاكم صاروخان فانهما تركا لهُ ولايتهما واحتميا عند امير قسطموني ومثلهم فعل علاء الدين امير القرمان فانهُ سمح للسلطان بجانب عظيمٍ من املاكهِ ليؤمنهُ على الباقي. ثم ان بايازيد رجع من اسيا الى جهات القسطنطينية وكان القيصر يوحنا قد حصَّن سورها ببرجين عظيمين عند الباب المعروف بالباب الذهبي. فاستاءَ بايازيد من ذلك وطلب منهُ ان يهدمهما فهدمهما. وبعد قليل توفي وكان ولي عهدهِ مانوئيل وقتئذٍ في بُرصه في خدمة السلطان بايازيد. فلما بلغهُ موت ابيهِ بادر الى القسطنطينية خفيةً لانهُ اشعر ان السلطان عزم ان يضبطهُ في بُرصه ويستولي على القسطنطينية. فلما سمع بايازيد بفرارهِ غضب وطلب منهُ ان يعين قاضياً في عاصمتهِ ينظر في مصالح المسلمين وان يبني جامعاً لهم يقيمون فيهِ واجبات عبادتهم. فابى مانوئيل ومن ثم دمَّر بايازيد المدن

والقرى التي حول القسطنطينية واحرقها ونقل سكانها الى جهاتٍ اخرى ثم شرع في حصار القسطنطينية عينها سنة ١٣٩١.

اما الحصار فقد دام مدة سبع سنين لم تحصل في اثنائهِ مواقع مهمة بل كان مقتصراً على قطع الاتصال عن العاصمة. على ان بايازيد ضيَّق الحصار على القسطنطينية وترك حولها جيشاً جراراً وسافر قاصداً الفتح في بلاد اسيا واوروبا. فاخضع بلاد الفلاخ ووضعها تحت الجزية سنة ١٣٩٣. وتمم فتح مملكة القرمان بعد انهُ اسر حاكمها علاءَ الدين في موقعة آق چاي. وفتح امارتَي سيواس وتوقات بعد ان هزَّم اميرها برهان الدين. وقرض امارة قسطموني بعد ان هزَّم اميرها بايازيد وضم بلاد البلغار الى املاكهِ بعد ان قتل اميرها سمسان حتى ارع ملوك اوربا بفتوحاتهِ وتقدمهِ.

فلما رأى سيجيموند (او سجسيمون) ملك المجر ما حلَّ ببلاد البلغار خاف ان يصيبهُ ما اصابها. فكتب الى البابا والى ممالك أوروبا يطلب مساعدتهم وينهض حميتهم لمساعدتهِ. وعليهِ بادر الى نجدتهِ كثيرون من فرسان جرمانيا وفرسان فرنسا وفرسان مار يوحنا وانضموا الى جيشهِ. فتألفت حملة من ستين الف مقاتل تقريباً تحت قيادة ملك المجر وزحفت ضد السلطان بايازيد واعلن البابا هذه الحرب حرباً دينيةً ضد الاتراك. فقطعت الحملة نهر الدانوب وبلاد السرب والفلاخ وجاءَت الى بلاد البلغار في ايلول سنة ١٣٩٦ وشرعت في حصار نيكوبولي. فجاءَ بايازيد ضدها بمائتي الف مقاتل منهم كثيرون من اهالي السرب تحت قيادة اميرهم استفان ابن لعازر وغيرهم من الامم المسيحية الخاضعة لهُ وفي ١٨ من الشهر المذكور جرت موقعة هائلة كان الظفر فيها للسلطان بايازيد بعد ان قُتِل كثيرون من الجهتين وأُسِر كثيرون عند العثمانيين ومن جملتهم القائد الفرنساوي بوسيكو (Boussico) الذي حُرِّر بعد ذلك في جملة الذين حُرِّروا. ثم ان السلطان بايازيد امر وزيرهُ علي باشا ان يشدِّد الحصار على القسطنطينية ويفتحها ويخلع القيصر مانوئيل ويسلم كرسيَّه ليوحنا ابن اخيهِ اندرونيكوس الذي كان وقتئذٍ حاكماً على سيلبريًّا ويُدخل سيلبريًّا في حكم الاتراك بصفة مكافأة. ففعل واستولى على سيلبريًّا وخلع مانوئيل وسلَّم الزمام ليوحنا بعد

ان اخذ منهُ مالاً طائلاً هديةً لهُ واتفق معهُ على خراجٍ سنويٍّ قدرهُ عشرة آلاف ذهب وان يجيز للمصلين ان يبنوا جامعاً في القسطنطينية وتقام لهم محكمة شرعية لتنظر في قضايا المستوطنين فيها منهم. اما مانوئيل فذهب الى المورة وترك زوجتهُ وابنهُ عند اخيهِ ثيودورُس حاكمها وباشر سياحةً في اوروبا نذكرها بعد قليل. هذه احدى روايتين. اما الرواية الاخرى فهي كما يأتي:

لما كان الجوع قد ضرب اطنابهُ في القسطنطينية حتى صار كثيرون يفضلون تسليم المدينة على الموت جوعاً وكان القائد بوسيكو قد حُرّر بالمال هو وغيرهُ من الأسرى وذهب الى باريس ارسل اليهِ القيصر مانوئيل خالهُ يوحنا كنداكوزينوس يرجوهُ ان يسعى في مساعدتهِ ضد الاتراك. فتداخل بوسّيكو في الامر عند ملك فرنسا وجاء سنة ١٣٩٧ باسطول فرنساويّ الى جزيرة تينِدُس واتحد مع الجَنَويين والبندقيين ضد اسطول الاتراك فاجبروهُ على رفع الحصار عن الموانى البحرية في بيزا وغلطه وغيرهما. ثم انهُ احضر يوحنا أبن اندرونيكوس من سيلبيريًا الى القسطنطينية وجمعهُ بعمهِ مانوئيل واقنعهما ان يتساويا بان اعترف مانوئيل لابن اخيهِ بالاشتراك في الملك. واذ عزم بوسيكو على مبارحة القسطنطينية لظروف اقتضت رجوعهُ نصح للقيصر مانوئيل ان يترك ليوحنا ادارة شؤون المملكة موقتاً ويرافقهُ الى اوروبا الغربية ليطلب المساعدة مرةً اخرى من الملوك اللاتينيين. فذهب مانوئيل سنة ١٣٩٨ الى اوروبا وسعى جهدهُ في طلب المساعدة ولكنهُ لم يحصل على غير الاحتفاء وحسن الملاقاة. هذه هي الرواية الثانية. وعلى كلٍّ من هاتين الروايتين يكون القيصر مانوئيل قد ترك يوحنا ابن اخيهِ اما طوعاً اما كرهاً على كرسي العاصمة وجاء الى اوربا سنة ١٣٩٨. اما سياحتهُ الى اوروبا فروايتها واحدة وهي انهُ ذهب الى البندقية واخذ مالاً كافئاً ومنها جاء الى ميلان فاستقبلهُ اميرها بترحاب واعطاهُ مالاً وخيلاً وارسلهُ الى ملك فرنسا شارل السادس فوجدهُ في حالة تعيسة جدًّا لانهُ كان مختل الشعور وكانت مملكتهُ منقسمة الى شطرين. وبعد ان اقام مدةً طويلةً ينتظر المساعدة ولم يحصل على شيءٍ منها ذهب الى انكلترا سنة ١٤٠٠ فوجد على كرسي مملكتها هنري الرابع غريقاً في بحر عظيم من

القلاقل والمكائد التي كانت تنصب تباعاً ضده والتي كثيراً ما كان يقابلها بمذابح هائلة فلم ينتفع منهُ شيئاً. اما البابا الذي كان قد وعد ان يساعدهُ هو وسائر ملوك الغرب فلم يقم بشيءٍ من وعدهِ بل بالعكس اعني انهُ سعى في ان يمنع عنهُ كل مساعدة. وحجتهُ في ذلك دعواهُ بان القيصر مانوئيل لم يتنازل في احد الاعياد لان يسجد لكُمّ اليد اليمنى من اكمام احد اساقفة القرى وقد كانت صورة المسيح مطرَّزة عل تلك الكمّ. فكتب البابا الى امراءِ بلاد ايطاليا كلهم: ان اي امير ساعد ملك الروم الذي لم يتنازل لان يسجد لصورة المسيح يكون محروماً من الغفران.

وبعد ان رفع الاتراك الحصار عن القسطنطينية سنة ١٣٩٨ إما طوعاً من علي باشا او كرهاً من بوسّيكو على ما تقدم القول كان السلطان بايازيد في جهات آسيا فتوغل في فتوحاتها حتى وصل الفرات وانقلب عنها الى بلاد اليونان في اوربا ففتحها الى بلاد المورة سنة ١٤٠٠. واذ رأى الفرصة مناسبةً للاستيلاءِ على القسطنطينية طلب من يوحنا تسليمها. غير ان يوحنا وسكان العاصمة كانوا قد جمعوا في فترة هاتين السنتين ذخائر كافئة ومؤَناً وافرة تكفيهم وقتاً طويلاً. فأجابوا بايازيد سلباً ومن ثمَّ شرع في حصارها مرة ثانية وضيَّق عليها ولم يكن لاحد شبهة في قرب سقوطها وملاشاة مملكة الروم لولا ظهور القائد تيمورلنك الذي اشغل مملكة العثمانيين مدةً كما سيأتي في القرن القادم.

وكان البطريرك انطونيوس الرابع قد توفي في ايار سنة ١٣٩٧ فخلفهُ البطريرك كالِستُس الثاني وكان من رهبان دير الكسانثوبوليين وقد شرطن في آخر ايار من السنة عينها وأقام على الكرسي ثلاثة اشهر فقط ثم تنحى عنهُ ورجع الى الحياة النسكية حيث انكبَّ على الدرس والتأليف ممارساً العيشة الملائكية وكان رجلاً عالماً وحكيماً وورعاً. والكنيسة الارثوذكسية تحتفل تذكارهُ سنويًّا في ٢٢ تشرين الثاني.

وبعد استعفائه رقي الكرسي البطريرك متى (متثيوس) بانتخاب المجمع وموافقة القيصر وقد كان قبلاً مطراناً على كيزكُس وهو من تلاميذ البطريرك نيلُس وسنأتي على ذكره في تاريخ القرن القادم.

تركنا على كرسي البابوية في اواخر القرن السابق بابوَين احدهما في رومية واسمهُ بونيفاتيوس التاسع والآخر في افينيون واسمهُ بنيدِكتُس الثالث عشر. ورأينا ان كلاًّ من هذين البابوَين كان يدعي انهُ هو الشرعي ويطلب خلع الآخر. وقد رأينا ان البابا بونيفاتيوس كان مقاوماً لملك جرمانيا القيصر وِنْسِسلاف للاسباب التي ذُكرت هناك وانهُ ساعد على خلعهِ واقامة الملك روبِرخت ثم تردد في الاعتراف لروبرخت الى ان اعترف به قيصراً شرعيًّا سنة ١٤٠٣ وكان وقتئذٍ على كرسي مملكة الملك سيجيموند فقام ضدهُ لادِسلاف ملك نابولي وحاول خطف مملكتهِ فما كان من بونيفاتيوس الا انهُ اعترف بهِ ملكاً على المجر. فلما رأى اهالي بلاد المجر هذا السلوك الشاذ من البابا تكدروا ونفروا منهُ وسنوا قانوناً منطوقهُ: ان كل الوظائف والواردات الكنائسية لا توزَّع الا من الملك وحدهُ وان اوامر البابا لا تقبل من الآن فصاعداً بلا رخصة. ومثل هذهِ الحركة قامت ايضاً في بوهيميا حيث كان الخطباءُ يخطبون ضد عقائد كنيسة رومية ويطعنون عل الفساد السائد فيها. على ان البابا استرجع مودَّة سيجيموند ولكنهُ لم يستطِع ان يمنع تأثير اقوال الخطباء على عقول العامة. هذا فيما ان اكثر بلاد جرمانيا كانت قد تمردت على القيصر روبرخت ولم تعترف بهِ قيصراً عليها حتى اوشكت السلطتان القيصرية والبابوية في الغرب ان تنحلاَّ.

اما فرنسا فاعترفت رسميًّا ببابا افينيون بنيدِكتُس الثالث عشر ومعها كستيليا والبُرتوغال وجزيرة سيسيليا (صقليه) سنة ١٤٠٣ وكذلك اراغونيا التي كان البابا قريباً لملكها وصديقاً لهُ ومن رعاياه وانما اعترفوا به انه شرعي بعد وعدهِ بأنه يتنازل عن رتبة البابوية حالما يتنازل خصمهُ بابا رومية. ثم ان هذا البابا اعرض على بابا رومية ان يتنازلا كلاهما فرفض بونيفاتيوس طلبهُ وتوفي في ١ تشرين الاوَّل سنة ١٤٠٤ وعلى اثر وفاتهِ انتخب كرادلة رومية خليفةً لهُ كلمات دي ميليوراتي وسمي اينوشنسيوس السابع وكان هذا البابا رجلاً شيخاً وكثير الاختبار ولكنهُ لم يكن اقرب من سلفهِ الى الاتفاق

ورفع الشقاق. وقد رُوي عنهُ انهُ كان يكره كل من يفاتحهُ في هذا الموضوع حتى انهُ ارسل تسعة من الرُّومانيين زعماء الحزب الذي كان يحرضهُ على الانفاق الى لويس ابن اخيهِ فقتلهم وقال انهُ هكذا يمكنهُ ان يرفع الشقاق فقط ولم يمكث طويلاً على الكرسي الرُّوماني بل مات في تشرين الثاني سنة ١٤٠٦ واذ كان الكرادلة قد شعروا بوخامة عواقب هذا الشقاق إما من انفسهم او من الذين كانوا يحرضونهم على رفعهِ اجتمعوا في كونلابهم على اثر وفاة اينوشنسيوس واتفقوا كلهم باقسامٍ عظيمة ولعناتٍ مخيفة على ان اي من صار منهم بابا يكون ملزوماً ان يتنازل عن رئاستهِ متى تنازل خصمهُ البابا بنيدِكتُس الثالث عشر ليرتفع الشقاق من الكنيسة. وعلى ذلك انتخبوا لرتبة البابوية آنجِلُس كُرَّاريوس البندقي وساموهُ وسموهُ غريغوريوس الثاني عشر بعد انهُ اقسم الاقسام المذكورة اعلاهُ. وبعد سيامتهِ دفع صكًّا بذلك ممضياً منهُ ومصدَّقاً عليهِ من شهودٍ. وفي واقع الامر قد كتب هذا البابا الى بنيدِكتُس انهُ يريد ان يتقابلا شخصيًّا وانهُ يقبل من كل قلبهِ التسوية التي اقرت عليها فرنسا وكذلك بنيدِكتُس اضطرَّ من فرنسا ان يجيبهُ جواباً ايجابيًّا وتظاهر بانهُ يقبل المقابلة وعُين مكان المقابلة مدينة سابونا وزمانها شهر نيسان سنة ١٤٠٧. ولكن يظهر ان اعظم كِذبة نيسانية كانت في تلك السنة لانهُ لا البابا الايطالي ولا البابا الفرنساوي كان يرغب المقابلة بالفعل بل بالقول فقط رعايةً لاضطرار الظروف فنكثا باوعادهما وكانا يضعان كل عقبة ممكنة في سبيل المقابلة. فكان غريغوريوس يتظاهر بانهُ يريد ان يعقد مجمعاً في اكيليا وبنيدكتُس في تاراكونيا. فإذ شعر كرادلة كلٌّ من البابوين انهما يخدعانهم عبثاً ولا يريدان ان يستقيلا شرعوا يخابرون بعضهم بعضاً لعقد مجمع يقرر ما يلزم حسماً للنزاع. فقرروا ان يعقدوا مجمعاً مسكونياً وعليه تركوا البابوين وشأنهما وهربوا خفيةً الى مدينة بيزا (اوبيسا) وعقدوا مجمعاً سنة ١٤٠٩ اما عقد هذا المجمع فكان نتيجة مساعي الفيلسوف يوحنا جيرسُن استاذ مدرسة باريس الكلية الذي وان كان يعترف في مؤلفاتهِ بضرورة رأسٍ منظورٍ للكنيسة في رومية كان ينادي ويصرح بوجوب اصلاح تلك الكنيسة في رأسها وفي اعضائِها ويعلّم جهاراً بان المجمع المسكوني أعلى من البابا.

ففي ٢٥ اذار من سنة ١٤٠٩ عُقِد المجمع في بيزا ودام الى ٧ آب من تلك السنة وعدد جلساته ٢٤ جلسة ولكنهُ لم يأتِ بشيءٍ من الاصلاح بل زاد الشر تفاقماً ضدًّا لمقاصدِه. وقد طُلِب الباباوان ان يحضرا الى المجمع ليُحاكما ولكنهما لم يحضرا فحكم المجمع عليهما في الجلسة الرابعة عشر المؤرخة في ٥ حزيران بانهما منشقان وهرطوقيان وحانثان ومقلقان للكنيسة وعنيدان وليسا أهلاً لكرامةٍ من الكرامات. وفي ٢٦ حزيران نصَّب عوضاً عنهما بطرس فيرلارجيّ دي كنديا او الكريتي وسمَّاهُ اسكندر الخامس ولكن الباباوَين لم يكترثا لتحديدات المجمع بل استمرَّا قائمين بوظائفهما ومعروفين من بعض الممالك. لان اسبانيا وسكوتيا بقيتا تابعتين لبنيدكتُس. وجرمانيا مملكة نابولي لغريغوريوس. فزاد الاضطراب وتفاقمت القلاقل بهذا الانتخاب بدلاً من ان تستتب الراحة لان الكنيسة انشقت بين ثلاثة باباوات كان كل واحدٍ منهم يقذف الآخَرين بالحرم واللعنات. على ان ملك فرنسا حاصر البابا في افينيون واراد ان يجبرهُ على الرضوخ ولكن بنيدكتُس هرب الى وطنهِ كاتولونيا ومنها انتقل الى بربغنان (او برغنان) وعقد مجمعاً خصوصياً حرم فيه البابوين الآخرين. وكذلك غريغوريوس عقد مجمعاً في أُودينو وحرم الآخرَين. ولكن المجمعين لم يكونا قانونيين فلم يحضرهما الاَّ قليلٌ من الاساقفة. اما البابا الجديد فلكي يكون حرًّا من سيطرة المجمع المؤلف من عددٍ عديدٍ من الاساقفة حلَّهُ في ٧ آب من السنة عيها الى ثلاث سنين. وكان هذا البابا رجلاً رحوماً محبًّا للفقراء حتى قيل عنهُ انهُ كان يفرّق عليهم كل ما كان يملكهُ. واذ كان البابا بونيفاتيوس رجع الى مصافاة سيجموند ضد لادِسلاف ولم يستطِع لادِسلاف ان يستولي عل مملكة المجر التي كان اعترف لهُ بها كما تقدم الكلام اغتاظ من البابا ونادى بنفسهِ ملكاً على رومية وجاء ضد المملكة الكنائسية وكتب على رأياتهِ هذه العبارة «اما اني ملك الرومانيين او لا شيء». وعليهِ حرَّك البابا اسكندر ضدهُ لويس الثاني ابن لويس الاول دوق اندغابيا وساعدهُ ماديًّا باموالهِ وادبيًّا ضد لادِسلاف واخرجهُ من ايطاليا سنة ١٤١٠ وحاول خلعهُ عن مملكة نابولي. ولم تطُل اقامة هذا البابا على الكرسي بل توفي سنة ١٤١٠ في بونونيا مسموماً من كردينالها بلثاسر كوسَّا على ما يُقال قبل ان يتم السنة في

وظيفتهِ. اما هذا الكردينال فكان من مدينة نابولي وكان في شبيبتهِ واحداً من القرصان (لصًّا من لصوص البحر) ثم دخل في خدمة البابا بونيفاتيوس التاسع وبالتتابع رقي درجة الكردينال وعين نائباً بابويًّا في بونونيا. وكان تحت امرتهِ هناك قوة حربية وافرة. فلما اجتمع مجمع الكرادلة فيها لينتخبوا حبراً خلفاً للمتوفَّى اخذ يتهددهم تهديداً شديداً لكي يُطلعوهُ على اسم المنتدَب قبل انتخابهِ بابا فسمُّوا حملة كرادلة واطلعوهُ على اسمائهم ولكنهُ لم يرضَ باحدٍ منهم. اخيراً طلب منهم ان يسمي هو الشخص الذي يريدهُ فقال لهم اعطوني وشاح ماري بطرس وانا ادفعهُ للشخص الذي سيرقى الكرسي الحبروي. فاعطوهُ. فلما اخذهُ وضعهُ على اكتافهِ ولبِسهُ وصرخ بصوتٍ عالٍ «انا البابا» واذ لم يستطِع احدٌ ان يقاومهُ لشدة بأسهِ والقوة الجندية التي كانت تحتاطهُ قبلوهُ وساموهُ بابا وسمُّوهُ يوحنا الـ ٢٣ (او الـ ٢٢ او الـ ٢٤) وكان هذا الرجل ذميم الاخلاق ومفسود السيرة واقرب الى اللصوصية منهُ الى رئاسة الكهنوت. وقد قال فيهِ اونوفريوس كاتب تراجم الباباوات واعمالهم «انهُ كان رجلاً لائقاً للحرب والسلاح اكثر كثيراً منهُ للديانة. لانهُ لم يكن يعرف شيئاً لا من الايمان ولا من التقوى فكان متعلقاً بالامور الرجسة والكفرية اكثر مما بالعبادة الالهية». وفي هذه السنة ١٤١٠ مات القيصر روبرخت ايضاً فانتخب قيصراً على جرمانيا سيجيموند ملك المجر بموافقة اخيهِ ونْسِلاف الذي كان مناظراً لهُ على الوظيفة. ولكنهُ لم يستطع ان يأتي الى جرمانيا الاَّ سنة ١٤١٤ بسبب القلاقل التي كانت في مملكتهِ مملكة المجر. ففي ٨ تشرين الاول سنة ١٤١٤ توّج قيصراً في اكويسغران وشرع ينظر في الاحوال الكنائسية كما سيأتي.

اما لويس الاندغابيّ الذي حاول خلع لادِسلاف عن مملكة نابولي فلم يستطِع اتمام عملهِ. لان الجَنويين اتحدوا مع لادِسلاف فدحروا لويس الثاني وارجعوهُ الى بلادهِ. وفي سنة ١٤١٣ جاء ضد البابا يوحنا واوشك ان يستولي على ايطاليا الوسطى لولا انهُ مات سنة ١٣١٤ فخلفتهُ شقيقتهُ يوانَّا الثانية وكانت من النساء الساقطات الآداب والضعيفات وسيأتي الكلام عنها في ما يأتي.

اما يوحنا الثالث والعشرون فلما رقي كرسي البابوية جدَّد حرم البابوين الآخرَين غريغوريوس وبنيدكتُس. ولكنهُ لم يعقد المجمع الذي وعد بهِ سلفهُ اسكندر الأ بعد سنتين ١٤١٢. غير ان الاساقفة الذين لبُّوا الدعوة للحضور كانوا قليلين جدًّا. اولاً: لان الطريق بين رومية وبين الابرشيات كانت مملوءةً من اللصوص. لان لادسلاف كان قد حصل على مساعدة الجَنَويين واعاد الكرَّة على ايطاليا. وثانياً: لان اكثر الاساقفة كانوا يكرهون هذا البابا. فلما اجتمع من اجتمع من الاساقفة وصلَّى المجمع الصلاة الاعتيادية ورتل النشيد الذي اولهُ هلمَّ ايها الروح الخالق» رأى بغتة بومةً كبيرةً تحوم في الكنيسة التي كان مجتمعاً فيها. وحينئذٍ اخذ كثيرون الكرادلة يهمسون بعضهم لبعض ويقولون «ها هو الروح القدس في شكل بومة». قال المؤرخون ان هذا الحادث يشهد بالرأي العام الذي كان في ذلك العصر سائداً في اعتبار المجمع وهذا البابا. ثم ان المجمع انحلَّ بلا نتيجة وشرع يوحنا في ان يتودَّد لمدرسة باريس الكلية فوهبها هدايا متنوعة وسمَّى العالم بطرس آيلي كردينالاً. ولكنهُ حاول ذلك عبثًا لان يوحنا جيرسُن وبطرس آيليّ اوضحا في جملة مؤلفات وجوب اجتماع مجمع مسكونيٍّ حرٍّ لا تعلق لهُ بالبابا ليصلح الكنيسة الغربية اصلاحاً اساسيًّا. وهذا الرأي كان رأي القيصر سيجيموند ايضاً الذي انما رضي بالاعتراف بيوحنا بعد تعهُّدهِ بعقد مجمعٍ مسكونيٍّ. على ان لادسلاف ايضاً كان قد ضيَّق على البابا كثيراً واستولى على رومية سنة ١٤١٤. فلم يرَ البابا مفرًّا من وجوب عقد المجمع. فاتفق مع القيصر سيجموند على عقدهِ ولكنهُ نوى على استعمال الحيل والخداع من الآن ليكون لهُ النفوذ ولا يدَع المجمع حرًّا من سيطرتهِ. فمن جملة ما قالهُ لكاتم اسرارهِ ليونارد دي أريتسُهْ عن مقاصدهِ السرية قولهُ «ان كل شيءٍ موقوفٌ على المكان الذي يجتمع فيهِ المجمع. وانا لا اريد ان يكون القيصر فيهِ اقوى مني. ولذا فاني سأُخوّل لوكلائي كل سلطةٍ بموجب صكٍّ ليستطيعوا ان يظهروهُ امام كل احدٍ. ولكي سرًّا سأعين لهم محلاتٍ معلومة يوافقون عليها». على ان البابا لما راسل وكلاءهُ ليتفقوا على تعيين محل المجمع اضطر ان يخولهم الحرية التامة وقال لهم «اني واثقٌ بدرايتكم» ولكنهُ لما سمع ان وكلاءهُ اتفقوا مع القيصر على مدينة

قسطنديا (كونْسْتَنْس) على حدود مملكة جرمانيا تكدر جدًّا لانهُ لم يكن يرغب ذلك المحن.

اما مجمع قسطنديا فهو اعظم مجمع عُقد وذكرهُ التأريخ من حيث الابهة وكثرة عدد المجتمعين. وقد اجتمع فيهِ عدة آلاف من الاعضاء منهم القيصر سيجيموند ومعهُ الف شخص. والبابا ومعهُ ٦٠٠. واربعة بطاركة غربيين و ٣٠ كردينالاً و ٣٣ رئيس اساقفة و ١٥٠ اسقفاً و ١٢٤ رئيس دير و ١٨٠٠ كاهن واكثر منهم من درجات الاكليرُس الأُخرى ومن الرهبان وكل واحدٍ منهم معهُ عددٌ وافر من الاتباع. وجاء ايضاً كثيرٌ من الامراءِ والبرنسات والدوقة وحشمهم ومن معلمي اللاهوت المرسلين من مدارس باريس واوريليا وكولونيا وڤينَّا وغيرها. وعدا هؤُلاءِ اجتمع ايضاً في المدينة عددٌ عديد من النساءِ الفواجر والمشخّصين وامثالهم حتى ان عدد الغرباءِ الذين جاؤُوا مدينة قسطنديا بداعي عقد المجمع كان يزيد عن الخمسين الف شخص. وجاءَ أيضاً البابا المحروم غريغوريوس. قال المؤرخ فلوري الفرنساوي ما معناهُ: ان المجامع قد اخذت منذ قرونٍ قريبةٍ تفرق في الكنيسة الغربية عن المجامع القديمة مجامع الكنيسة الاصلية. لانهُ في المجامع القديمة كانت الجلسات لها محاضر حقيقية اذ كانت القضايا تُطرح فيها وتُفحص منها وكان الاساقفة يبدون آراءهم وبعد ذلك يؤلَّف القرار بحسب الاصول ولهذا السبب كانت تدوم بعض اشهر فقط. واما مجامع الكنيسة الغربية فصارت في القرون المتأخرة على عكس ذلك لان محاضرها وجلساتها لم تكن سوى احتفالاتٍ يُحتفل بها في الكنيسة. فكانت تبدأ بقداسٍ حافلٍ في الكنيسة وبعد القداس تُلقى عظةٌ واخيراً نقرأ تحديدات المجمع جاهزةً من ذي قبل ومقرَّرةً لكل جلسة من الجلسات. ولهذا السبب صارت المجامع تطول كمجمع قسطنديا الذي دام ثلاث سنوات. على ان هذا المجمع وسائر المجامع التي بعدهُ اوضحت ان الكنيسة الغربية قد شعرت ولو بعد حين باحتياجها الى الادارة المجمعية بدلاً من الاستبداد البابوي الذي ذهب بها الى احوال شاذة كثيراً ما كانت لا تستطيع ان تتخلص منها فيما بعد ولا بمساعدة التحديدات المجمعية. لان

عاداتٍ وآراءَ كثيرةً رسخت مع الزمان في عقول العامة ولم يعُد قلعها سهلاً.

وقد ابتدأ عقد المجمع في ٥ تشرين الثاني سنة ١٤١٤ وكان البابا يوحنا رئيسهُ وكان يؤَمل ان يسوق اعمالهُ بحسب افكارهِ وعلى تخطيطه. فأوّل كل شيءٍ اعتبر هذا المجمع قسماً متمماً لمجمع بيزا لا مجمعاً قائماً بنفسهِ ومن ثمَّ ادعى انهُ لا حق لهُ ان ينظر الاّ في قضية البابوَين الآخرين واما هو فبصفته خليفةً للبابا اسكندر المتخَب من مجمع بيزا لا يحق للمجمع ان يحاكمهُ. غير ان العالم بطرس آيليّ اوضح ببراهين كثيرة ان المجمع مستقلٌ في اعمالهِ بالنظر الى الباباوات الثلاثة. ثم ان يوحنا طرح للمجمع ان يُوجّه افكارهُ رسميًّا الى النظر في المسائل العقائدية فقط وبطريقةٍ عرضيةٍ يفتكر في الاصلاح الكنائسي. ولكن آيلي برهن ان أهم عمل للمجمع يجب ان يكون اصلاح الكنيسة في الرأس وفي الاعضاء. ثم ان البابا طلب ان لا يجلس في المجمع ويصوّت الا الاساقفة ورُؤساء الاديرة آملاً انهُ بهذهِ الواسطة يربح الاكثرية. غير ان رأي آيليّ رجح على رايهِ وتقرَّر ان يكون هذا الحق نفسهُ لا ساتذة العلوم الدينية وللخطباء الدينيين. اخيراً طلب البابا ان يكون التصويت بحسب الاشخاص ولكن طلبهُ رُفض وتقرَّر وجوب اعتبار الاصوات بحسب الاجناس. على ان مركز البابا يوحنا ازداد حراجةً بعد ذلك حين طلب المجمع منهُ ان يتعهد الاعتزال عن رئاستهِ متى اعتزل خصماهُ وكلنهُ أبى في اوّل الامر ثم اضطر ان يتعهد بقسمٍ ان يعتزل المنصب متى اعتزل الباباوان الآخران. هذا كان في الجلستين الاولى والثانية. وفي الجلسة الثالثة التي كانت في شباط سنة ١٤١٥ قُدّمت لائحة الى المجمع من امضاء هنري دي بيرُّه ويوحنا دي سكريفان المنوطة بهما ادارة المجمع مضمونها الطعن على البابا يوحنا بأنه سيموني وقاتلٌ ومرتكبٌ وكافر. فأخذ البابا ان يمنع القيصر عن المذاكرة على هذه اللائحة ويجتهد في ان يقسم المجمع. ولكنهُ اذ لم يستطع ذلك بل علم ان الحكم سيصدر ضدهُ لا محالة تزيَّى بزيّ سائس وهرب ليلاً من قسطنديا في ٢٠ أذرا سنة ١٤١٥ وأقام الحجة على ذلك المجمع. غير ان المجمع لم يرهب من هذا التهديد بل اقام احد كرادلته رئيساً عليهِ ولبث على مواظبة

اعمالهِ وضبط البابا يوحنا وألقاهُ في السجن وذلك بعناية القيصر سيجيموند والاستاذ يوحنا جيرسُن. وفي جلستهِ الرابعة التي كانت في ٣٠ اذار قرَّر بالاجماع المبدأ الآتي وهو «ان مجمع قسطنديا الذي التأم بالرّوح القدس وأَلّف مجمعاً مسكونيًّا شرعيًّا من حيث هو نائب الكنيسة المتجندة لهُ السلطة رأساً من المسيح. فكل واحد ايًّا كان ومن ذوي أيّ رتبةٍ ووظيفةٍ كان والبابا نفسهُ ايضاً ملزوم ان يخضع لهُ في ما يتعلق بأمور الايمان ورفع الشقاق واصلاح كنيسة الله إصلاحاً عامًّا في الرأس وفي الاعضاء» وكذلك قرَّر في الجلسة الخامسة هذا المبدأ عينهُ وزاد عليهِ ان «أي بابا امتنع عن الخضوع لهذا المجمع او لايّ مجمع مسكونيّ آخر وأصرّ على عنادهِ يكون تحت طائلة القصاص الواجب» ومن بعد قبول هذا المبدأ شرع المجمع يبحث في اعمالهِ. ففي الجلسة التاسعة بحث في احوال البابا يوحنا ودعاهُ الى الحضور في الجلسة العاشرة فلم يرضَ ان يحضر فحكم عليه بالربط عن الخدمة. وفي الجلسة الحادية عشرة اخذ يبحث في اللائحة التي قدّمت ضدهُ ويجري التحقيقات في مضمونها وفي الذنوب المذكورة فيها وكانت تلك الذنوب تزيد عن الخمسين عدًّا وكلها مخالفة للديانة والآداب المسيحية. ولكي يقف القارئ على ملخصها نسرد هنا اهمها:

فقد ورد في تلك اللائحة ان البابا يوحنا كان منذ نعومة اظفارهِ ذا طويلة شرّيرة وقد ربيَ على الشرّ وعدم الحياءِ وعلى الرذيلة والكذب. وانهُ لم يغير هذه الاطوار ولا بعد ارتقائهِ كرسي البابوية بل كان يزدري بالاسرار الالهية كأنهُ وثنيّ. وعند ما كان يتفق لهُ ان يخدمها كان يخدمها وهو لابس السلام كأنهُ صيَّاد وانما كان يخدمها لا عن ورعٍ بل لكي لا يُخلَع من رئاسة الكهنوت خلعاً تامًّا. وقد كان للكنيسة المسيحية عثرة عظيمة حتى ان المؤمنين الذين كانوا يعرفون عيشتهُ واخلاقهُ لم يكونوا يرتابون في ان يسمّوهُ شيطانًا متجسداً. وليس هذا فقط بل كان مع الزمان يزداد في الانقياد لاشارات ابليس فيرتكب اعمالاً أشنع من السابقة حتى صار ساحراً وقاتلاً للناس ومبيداً للاخوة ومهرقاً للدماء ومخالطاً للدم القريب اذا كان يضاجع زوجة اخيهِ. وقد افسد العذارى الناذرات لله وفسق بنساءٍ كثيرات متزوّجات

ولم يكن لهُ حدّ في الفحشاء وأخيراً كان يقول امام كثيرين من رؤَساء الكهنة ومن الرجال الوجهاء والمعتبرين انهُ يؤَكد ويثبت انها لا توجد حياة ابدية وان نفس الانسان تموت مع جسدهِ وروحهُ تنطفئ كروح سائر الحيوانات الغير الناطقة وانها ليست قيامة البتة. هذا هو المعروف والمشهور من اعمال البابا يوحنا التي طُرحت امام المجمع. وقد شهد بها واثبتها رسميًّا في تلك الحضرة العمومية رجال معتبرون وعالمون باحوالهِ حتى ثبتت حقيقيتها تماماً. على ان المجمع قدَّم ليوحنا صورة هذه المطاعن كلها وسألهُ ما اذا كان يعترض على صحتها فأجاب: بانهُ لا ينكرها ولا يخالف اقوال الذين شهدوا بها. ومن ثمَّ حكم عليهِ في الجلسة الثانية بالقطع التام من الكهنوت.

اما البابَاوان الآخران فاحدهما غريغوريوس قدَّم استعفاءهُ طوعاً بواسطة وكيلهِ في الجلسة الرابعة عشرة. واما بنيدكتُس فقطع ايضاً في الجلسة السابعة والثلاثين. وبعد رفع الشقاق بين البابَاوات على هذه الصورة اخذ المجمع يفتكر في إقامة بابا جديد وفي إصلاح الكنيسة. ولكنهُ اختلف. فالقيصر سيجيموند طلب ان تُقرَّر اولاً صورة الإصلاح وبعد ذلك يُنتخب البابا وأيَّد رأيهُ الحاضرون من الجرمانيين والانكليز. ولكنَّ الفرنساويين والايطاليين والاسبانيين طلبوا ان يتقدم انتخاب البابا على الإصلاح فكانت لهم الاكثرية واضطر القسم الآخر ان يوافقهم وعليهِ. ففي الجلسة الحادية والاربعين التي عُقدت في ثامن تشرين الاول سنة ١٤١٧ إلتأم الكرادلة وانتخبوا الكردينال اوثُن كولونا الايطالي وساموهُ بابا وسموهُ مرتينُس الخامس. وفي الجلسة الثانية والاربعين طلب مرتينُس ان يُحضروا امامهُ البابا يوحنا مقيَّداً. ثم اخذ يُشغل المجمع ويعقد جلساتٍ خصوصيةً مع نواب بعض الشعوب دون غيرهم الى ان تمكن من حل المجمع قبل تقرير الاصلاح المطلوب فكانت الجلسة الخامسة والاربعون في ٢٢ نيسان سنة ١٤١٨ آخر جلساته. وقد حلَّهُ فيها على شرط ان يعقد مجمعاً مسكونيًّا سنة ١٤٢٣ في بافيا جرياً على قرار الجلسة التاسعة والثلاثين والقائل بوجوب عقد مجمعٍ مسكوني كل مدة خمس سنوات. ثم انهُ وزَّع للجميع

غفرانات وحلهم من الخطايا حتى المميتة وسمح لاخ ان يتزوّج باختهِ حتى استحق اللوم من كثيرين. وعفا عن البابا يوحنا وعيَّنه كردينالاً ورئيساً على الكرادلة وهكذا رجع باحتفاءٍ واحتفال عظيمين من قسطنديا الى رومية. اما البابا يوحنا فمات في فلورانسا في اواخر سنة ١٤١٩. وكذلك البابا غريغوريوس عين إكسرَخُساً على آنكون مدى حياتهِ. وقد تخللت اعمال هذه المجمع قضايا اخرى غير المذكورة. منها محاكمة بعض زعماءِ الهراطقة وخصوصاً يوحنا وكلف الذي في الجلسة الثامنة المنعقدة في ٤ ايار سنة ١٤١٥ حُكِم عليهِ بالهرطقة وعلى مؤَلفاته وعظامهِ بالحرق. ويوحنا هُوْس احد تلامذتهِ الذي في الجلسة الخامسة عشرة حكم عليهِ بالهرطقة واماتهُ المجمع حرقاً في ٦ تموز سنة ١٤١٥. وايارونيموس (جيروم) البراغي من تلامذة وكِلف ايضاً وقد حكم عليهِ بالهرطقة في الجلسة الحادية والعشرين واماتهُ المجمع حرقاً في ٣٠ ايار سنة ١٣١٦. هذه والعياذ بالله قصاصات الهراطقة عند البابويين اعني حرقهم وهم احياء او حرق عظامهم اذ كانوا امواتاً ...

ومن قراراته ايضاً البدعة الغريبة التي ابتدعها بانهُ حرم الشعب من مناولة الدم الالهي في سر الشركة. وهكذا القرار اصدرهُ في الجلسة الثالثة عشرة التي عُقدت في ١٤ حزيران سنة ١٤١٥ واليك نصُّه: «في بعض الاماكن من البسيطة يوجد أُناس يتشبثون تشبثاً وقحاً بان الشعب المسيحي يجب ان يشترك بالاسرار المقدسة في سر الشكر تحت الشكلين الخبز والخمر. وفعلاً يتناولون العوام على هذه الصورة وخصوصاً وهم غير صائمين خلافاً للعادة الكنائسية الحميدة التي يرفضونها بمثابة امرٍ محرَّم. فالمجمع الحاضر يوضح ويُقَرّر انهُ وان كان يسوع المسيح اسس هذا السر حين العشاءِ السري وسلمهُ الى تلاميذهِ تحت الشكلين لكنهُ بحسب القوانين المقدسة والعادة المقبولة والمرعية في الكنيسة يجب ان لا يُقام سر الشكر بعد المائدة (اي بعد الطعام) ولا يُتناول منه المؤمنون الاَّ وهم صائمون ما عدا ظروف المرض او الضرورة الاخيرة (اي خطر الموت) ثم وان كان المؤمنون يتناولون هذا السر تحت الشكلين في الكنيسة القديمة لكن العادة كرست بعد ذلك بكل حكمةٍ تجنُّباً لبعض الاخطار والشكوك ان لا يتناول

تحت النوعين الاّ القسوس الخادمون واما العوام فتحت النوع الواحد فقط نوع الخبز. لانهُ لا ريب في ان كل جسد يسوع المسيح وكل دمهِ موجود في كل واحدٍ من هذين النوعين. ولذا بما ان هذه العادة أُدخلت بحكمةٍ الى الكنيسة وصارت مرعيَّةً منها زمناً طويلاً نقررها شريعةً لا يستطيع احد ان يلغيها او يغيرها بلا موافقة الكنيسة. وعليهِ فالذين يصرون على التشبث بمخالفتها يجب ان يُضبطوا ويؤدَّبوا تأديباً صارماً من اساقفة الابرشيات ومن رجال ديوان التفتيش».

قال المؤَلف الغربي فلوري «لو ان قراراً مثل هذا القرار صفتهُ سلب الالهيات تُلي في احد المجامع المسكونية فالآباء القديسون الذين كانت ترنُّ بعد في آذانهم اقوال المسيح التي قالها على العشاءِ السري في دمه الالهي «اشربوا منهُ كلكم» أما كانوا يا ترى يرتعدون حين يسمعون ان الذي يتمم هذا العهد يُدعى هرطوقيًّا؟» هذا ما قالهُ فلوري. ولكن فاتهُ ان الشعب الذي اعترى اذنيهِ الصمم من كثرة البدَع التي كانت تقرع كل يوم فيها لم يعُد يتأثر فضلاً عن ان يرتعد من هذه البدعة ولا من اعظم منها.

على ان هذا المجمع بحرقهِ العالمين يوحنا هُوس وايارونيمرس البراغي اللذين حكم عليهما بالهرطقة صار سبباً لحروب دينية طويلة يطول شرحها. لان بلاد بوهيميا قامت كلها على قدم وساق تطلب الانتقام لهما واذ عارضها اميرها وِنسِسْلاف شقيق القيصر سيجيموند انفصل عنهُ زعماءُ ثورتها نيقولاوس الاوسينيكي وزيسكا التروسنوبي وفي ١٦ آب سنة ١٤١٩ شرعا في العداء والثورة. واذ مات وِنسِسْلاف في هذه السنة استلم الهوسيون (اتباع هُوْس) زمام الاحكام في كل مكان. فاراد سيجيموند ان يتساوى معهم ويتجنب الحروب ولكن البابا حرضهُ على التضييق عليهم فكان ذلك سبباً لانضمامهم بعضهم الى بعضٍ واتفاقهم ضدهُ. وقد جاء ضدهم بقوة ١٥٠٠٠٠ رجل لكن زيسكا انتصر عليهِ وردهُ في ١٤ تموز سنة ١٤٢٠. وفي اول تشرين الثاني خسر الموقعة القاضية في جهات بيسيراد. ولكن في سنة ١٤٢٤ مات زيسكا فخلفهُ القائِد الماهر بروكوبيوس الكبير وكانت

الحرب مستمرةً فكان سيجيموند يأتي من حين الى آخر ضد البوهيميين ويتقهقر. على ان البوهيميين افرغوا كل جهدهم ليتقفوا معهُ على وجهٍ فلم يكن يرضى ودامت الحال على هذه الصورة الى سنة ١٤٣١ التي فيها اجتمع مجمع باسيليا لينظر في هذه الاحوال وفي غيرها كما سيأتي.

اما الملكة ايوانَّا الثانية ملكة نابولي فقد اساءت ادارة مملكتها حتى انقسمت بعضها على بعضٍ وكدرت البابا مرتينُس ايضاً. ومن ثمَّ استدعى البابا ضدها لويس الثالث ابن لويس الثاني الاندِغابي ليحاربها ويخلعها. فاستنجدت هي ايضاً الفونس الخامس الملقَّب بالحكيم ملك اراغونيا وصقلية وساردُن وتبنَّتهُ وجعلتهُ وليًّا لعهدها على كرسي ملكها فانجدها وارجع لويس عن محاربتها وبسبب انجادهِ لها واقامتها اياهُ وليَّ عهدٍ لها وقع النفور بينهُ وبين البابا مرتينُوس فاخذ البابا يسعى في عزله واقامة غيرهِ بدعواهُ ان مملكة نابولي تخصُّهُ.

اما في الشرق فقد تركنا السلطان بايازيد محاصراً للقسطنطينية سنة ١٤٠٠ بعد ان طلب من يوحنا تسليمها ولم يسلمها. وقلنا انهُ لم تكن شبهة في فتحهِ اياها لولا ظهور القائِد تيمورلنك. وكان تيمورلنك (اي تيمور الاعرج) تنزيًّا مغوليًّا ماهراً في الحركات الحربية والفنون العسكرية ومن اعظم القواد المدرَّبين. وكان مستخدماً اولاً عند حُسين (من ذرية جنكيزخان) امير بلاد العجم الشرقية وبخارى وقد خدمهُ خدَماً تذكر في جملة مواقع ثم اختلف معهُ فحاربهُ وانتصر عليهِ وصار ملكاً على بخارى والقسم الشمالي الشرقي من بلاد العجم وجعل عاصمة ملكهِ سمرقند وصار خاناً اعظم او سلطاناً على كل اقسام الجيش سنة ١٣٦٩. وقد سنَّ شرائع لمملكتهِ في غاية الإحكام وجعل لها نظاماً يدلُّ على ذكاءٍ عجيب. ثم انهُ باشر الفتوحات فانتصر على تسع ممالك في الشرق منها المملكة السابقة وممالك التتر والموغول وخوارزم وخراسان والعراق العجمي والعراق العربي والهند والعثمانيين فامتدت مملكتهُ الى اسوار الصين شرقاً والى اقاصي بلاد الروس شمالاً والى البحر المتوسط غرباً والى بلاد مصر جنوباً.

ومن جملة ما كان يعتمد عليهِ تيمورلنك في حروبهِ بث الجواسيس في كل الاصقاع بصفة دراويش وفقراء متسولين ورهبان سائحين فكان بواسطتهم يعلم بكل ما يحصل في سائر الممالك وبعلاقاتها بعضها مع بعضٍ وبكل احوالها داخلاً وخارجاً. ومن جملة ذلك حالة مملكتي الروم والاتراك وعلاقاتهما في هذا الوقت. فاتفق ان امير بغداد والعراق المدعو احمد جلاير لما فتح تيمور بلادهُ هرب واحتمى عند السلطان بايازيد ومثلهُ قره يوسف امير ديار بكر وكذلك حكام مقاطعات اسيا الصغرى واولادهم اعني مقاطعات كرميان ومنتشا وصاروخان وآيدين كانوا قد فروا الى حمى تيمور لما اخذ بايازيد بلادهم كما تقدم ولا يبعد ان يكون هؤُلاء الامراء اقنعوا تيمور بمحاربة العثمانيين وان يكون الروم ايضاً استنجدوهُ. فاغتنم تيمور فرصة فرار امراء بغداد وديار بكر الى السلطان وارسل اليه سفارةً تطلب منهُ بلهجةٍ غريبة تسليم الاميرين اليهِ وارجاع كل ما اخذهُ من مملكة الروم. فتكدَّر السلطان من تلك اللهجة واهان السفارة وارجعها خائبةً. فاغار تيمور بجيوش جرارة على بلاد اسيا الصغرى من جهات بحر قزبين وفتح مدينة سيواس (سبسطية) عاصمة الكبادوك ودمَّرها وهدم كل اسوارها وقتل كثيرين من سكانها واخذ ارطغرل ابن السلطان بايازيد اسيراً وقطع رأسهُ ولذلك رفع السلطان الحصار عن القسطنطينية واخذ يجمع جيوشهُ ويهيئها لمحاربة تيمور. ولكن تيمور لم يتقدم بعد تلك المعركة بل رجع الى بغداد والشام وسوريا ودولة المماليك في مصر ليقتصَّ من الذين عصوهُ منهم او ساعدوا العصاة ضده. وبعد ان دمَّر اهم المدن التي بين بغداد وحلب تدميراً تامًّا رجع الى سمرقند لإقامة بعض الاحتفالات ونشر بعض الشرائع الخيرية التي وضعها مع فلاسفة قصره ثم عاد في شتاء سنة ١٤٠١ ـ ١٤٠٢ الى اسيا الصغرى مع جيوشه العديدة ووصل الى ضواحي مدينة انقره (أنكيرا) حيث كانت وصلت ايضاً جيوش السلطان ومعها جيوش السرب وكان عدد الجميع ١٢٠ او على رواية أُخرى ١٦٠ ألف مقاتل. اما جيوش تيمور فكانت ٨٠٠ الف مقاتل. فشرع تيمور في المخابرة الى بايازيد. غير ان بايازيد رفض مخابرتهُ وهجم عليهِ بجنودهِ وجنود السرب واشتبك القتال في ٢٠ تموز سنة ١٤٠٢ وقد دامت هذه المعركة من قبل شروق الشمس الى ما بعد المغيب

قُتل في خلالها ما ينيف عن ثلاثمائة الف مقاتل ومع كثرة عدد الاعداء اظهر السلطان في خلالها من الشجاعة والاقدام والاقتحام الاخطار والاهوال ما يبهر العقول ويحيّر الالباب. ولكن كفة الظفر رجحت لخصمهِ تيمور لانهُ فضلاً عن قلة عدد جنود السلطان امام معسكر الاعداء الضخم هرب منهُ عند استئناف القتال في اليوم التالي كل فرَق الجنود التي كانت من ولايات كرميان ومنتشا وصاروخان وآيدين وانضمت الى جنود تيمور حيث كان امراؤُها الاصليون مقيمين كما تقدم ولم يبقَ مع السلطان سوى عشرة آلاف انكشاري وعساكر السرب فلبث يحارب معهم طول النهار حتى سقط اسيراً في يد الموغول وهو وابنهُ موسى وهرب اولادهُ سليمان ومحمد وعيسى ولم يوقف لابنهِ مصطفى على اثر. ثم ان تيمور ارسل حفيدهُ مرزا محمد الى بُرصه ليستولي عل ثروة آل عثمان ولكن سليمان ابن السلطان بايازيد كان قد سبقهُ ونقل كل ثمينٍ وذي قيمةٍ الى الضفة الاوربية وابعد عن الشاطئ كل السفن فلم يعثر مرزا محمد على شيءٍ. وبعد ان اقام تيمور مدةً في بفلاغونيا رجع يفتح ويدمر وينهب مدن آسيا يمنةً ويسرةً ولا يشفق على روميٍّ ولا على تركيٍّ ففتح بُرصه ونيقيه ونيقوميديه ونزل الى فرنجيا وفتح مدن مغنسيا وبرغاموس وساردس وفيلادلفيا وازمير بعد ان صادف فيها مقاومةً عنيفةً. ثم فتح افَسُس ونهب كل السواحل البحرية الى كاريًّا ولكن برداً شديداً صادف جيوشهُ بغتةً فحصد منها جانباً عظيماً يُعد بعشرات الآلاف. وقد اعاد الى الامراء السلجوقيين امراء قسطموني وآيدين وكرميان وصاروخان ومنتشا والقرمان ولاياتهم التي كانوا فقدوها. اما السلطان بايازيد فتوفي في اسره سنة ١٤٠٣ فسمح تيمور لابنهِ موسى ان ينقل جثة ابيهِ واطلقهُ من الاسر مع الجثة فنقلها الى بُرصه ودفنها بجانب جدهِ السلطان مراد. وقال بعضهم انه لم يطلق موسى من الاسر بل جعله تحت حراسة امير كرميان.

فهذه الحوادث كانت سبباً لنجاة عاصمة مملكة الروم من السقوط ولرجوع بلاد البلغار والسرب والفلاخ الى الاستقلال. اما مانوئيل فلما سمع برفع الحصار عن العاصمة وأسر السلطان رجع اليها من انكليترا على جناح السرعة سنة ١٤٠٣ وكان من اول اعماله انه نفى يوحنا ابن اخيهِ الى

جزيرة ليمنُس وقد كان السلطان اجبرهُ على قبولهِ شريكاً لهُ ثم هدم المعبد وألغى المحكمة الشرعية التي كان أُجبر ايضاً على قبولها. على ان اولاد السلطان بايازيد وهم سليمان وموسى وعيسى ومحمد وقاسم ويوسف انقسموا بعضهم على بعض فيوسف استنصر واقام في بلاط مانوئيل ومات فيه مسيحيًّا. وسليمان طلب من تيمور الصداقة والالتفات فسمح لهُ ببعض الاملاك وأناط بهِ بنوع خصوصيٍّ البلاد العثمانية في أوروبا فأقام في أدرنه وهناك ولاّهُ الجنود سلطاناً. وعيسى اقام في بُرصه. ومحمد في اماسيا. واما موسى فبعد ان حررهُ التتر اقام عند اخيهِ سليمان فعينهُ قائداً للجيوش وقال بعضهم ان محمداً حررهُ من عند امير كرميان وولاهُ القيادة. فاما سليمان فلكي يقوى على اخوته عقد محالفة مع مانوئيل ملك الروم فتنازل له عن القلاع المجاورة للعاصمة وعن مدينة سالونيك ومدن غيرها في مكدونية الى نهر ستريمون وعن سواحل البحر الاسود الى مدينة وارنا. ثم انهُ دفع لهُ ضماناً لصدق المحالفة أخاهُ قاسماً وواحدة من اخواتهِ وبعد ذلك تزوج سليمان بابنة ثيودورُس اخي مانوئيل وتنازل لهُ لقاءَ مهرها عن كل جهات ايونيا فلم تكن لمانوئيل فرصة انسب من هذه يجدد فيها قوى المملكة وحياتها ومع ذلك ليس انهُ لم يعمل شيئاً في سبيل تقدمها فقط بل كان سبباً عظيماً لتأخر احوالها فان محمداً احد اولاد بايازيد تغلب على اخيه عيسى وقتلهُ ثم قام النزاع بينهُ وبين سليمان وكان سليمان قد جاء لفتح اسيا الصغرى سنة ١٤٠٥ فغلبهُ اخوهُ محمد في آسيا وعقد مخالفةً ضدهُ في أوروبا مع استفان امير السرب وميسترو امير الفلاخ وارسل اليهما اخاهُ موسى بقوةٍ كافئة ليحاربوا سليمان ولكن استفان ترك موسى وانضاف الى سليمان وبمساعدة مانوئيل ايضاً هزَّم موسى وارجعهُ الى آسيا فجمع موسى جيشاً آخر وعاد بهِ الى أوروبا وحارب اخاهُ سليمان وقتلهُ خارج اسوار ادرنه سنة ١٤١٠ وبعد ذلك اغار على بلاد السرب وانتقم من اهلها لخروجهم عن طاعتهِ وحارب سيجيموند ملك المجر لانه انتصر للسرب ثم نزل الى مكدونية فاسترجع سالونيك وسائر البلاد التابعة لها وكان مانوئيل قد اقام عليها يوحنا المنفي ابن اخيهِ حاكماً. وعلى اثر ذلك قام النزاع بين موسى والقيصر مانوئيل. وفي اثناء هذا النزاع توفق عمانوئيل وهو ابنٌ غير شرعي

ليوحنا باليولوغُس واخٌ للقيصر مانوئيل ان ينتصر على اسطول الاتراك في جوار جزيرة ابلاتي. فالقيصر مانوئيل بدلاً من ان يكافئهُ على هذا الانتصار سجنهُ حسداً. اما موسى فلكي ينتقم لاسطوله حاصر القسطنطينية ليفتحها لنفسهِ لانهُ داخلهُ الطمع وكان قد عصي اخاهُ محمداً واراد الاستقلال ببلاد الدولة في أوروبا. ولكن مانوئيل استنجد عليه اخاهُ محمداً فاشرع الى نجدته والزم موسى ان يرفع الحصار بعد محاربة شديدة ثم حالف محمد ملك القسطنطينية وامير السرب وبثوا الدسائس في جيش موسى حتى خانهُ اغلب قوادهِ ووقع بين يدي محمد اخيهِ فامر بقتلهِ سنة ١٤١٣ وانفرد بالملك على آل عثمان وهو السلطان محمد چلبي الاول الغازي. وقد حافظ السلطان محمد على محالفة قيصر الروم وارجع اليه كل البلاد التي فتحها اخوهُ موسى لانه لولا مساعدة القيصر لهُ لكانت عرى الدولة في خطر الانفصام والسقوط. على ان تلك البلاد كانت خراباً وطلالاً على الغالب من كثرة الحروب المتوالية عليها. وكان السلطان محمد يكرم مثوى المسيحيين كثيراً ويعتبر القيصر اعتبار ابٍ لهُ. وكذلك القيصر ارجع قاسماً الذي كان رهناً عندهُ الى اخيه السلطان محمد فتفرغ السلطان الى ارجاع كل الامارات الاسيوية التي كانت قد استقلت في مدة الفوضى التي عقبت موت ابيهِ. وقد قامت ضدَّهُ فتن متنوعة اهمها فتنة اخيهِ الامير مصطفى الذي كان اختفى في موقعة انقره فانه ظهر الآن واتفق مع قرَه جُنَيْد حاكم ازمير قبلاً على محاربة السلطان ولكنهُ لم يستطع مقاومتهُ فالتجأ كلاهما الى سالونيك وبواسطة القيصر عفا السلطان عنهما ورضي ان يقدم لمصاريفهما راتباً سنويًّا قدرهُ ثلاثمائة الف من الفضة (وهي تساوي ٣٢ الف فرنك تقريباً (١)) على شرط وضعهما تحت المراقبة. ثم وجه السلطان عنايته الى اصلاح داخلية بلادهِ ولكنهُ لم يعِش طويلاً بل توفي ادرنة سنة ١٤٢١ وخلفهُ ابنهُ السلطان مراد الثاني وعمرهُ ١٨ سنة فقط. وقد عزم هذا السلطان بادئَ ذي بدءٍ ان يبقى مقيماً على ولاءِ مانوئيل قيصر الروم كما ان القيصر ايضاً رأى ان يعمل كل

(١) بابا ريغوبولس جزء ٥ صفحة ٣٠٨ و ٣١٠

ما من شأنه حفظ العهود بينهُ وبين السلطان للمحافظة على مصالح المملكة. غير ان ابنه يوحنا باليولوغُس الذي كان قد عينه شريكاً لهُ في السلطة لم يكن موافقاً لهُ بل اقنعهُ ان يطلب من مراد عهداً بانهُ لا يحاربهُ مطلقاً وان يدفع اليهِ اثنين من اخوتهِ ضماناً لهذا العهد وتهدّدهُ وبانهُ اذا لم يقبل يطلق عمهُ مصطفى وقره جُنيد ضدهُ فمراد لم يجب الطلب ومانوئيل اطلق سراح مصطفى وقره جُنيد فهبَّا لمحاربة مراد ومعهما عشرة مراكب حربية من مراكب الروم تحت امرة ديمتريوس لاسكَرِس فأخذ كاليبولي وادرنه. ولكن مصطفى أُسلم الى السلطان بخيانة من قره جُنَيْد فشنقهُ ثم جاء مراد ضد القسطنطينية لينقم من مانوئيل سنة ١٤٢٢ وحاصرها ثلاثة اشهر وفي اثناء هذا الحصار اقنع مانوئيل الامير مصطفى شقيق السلطان بشق عصا الطاعة وقدم لهُ اموالاً طائلة لارضائهِ فرضي واشهر العصيان هو وبعضٌ من امراء آسيا الصغرى ومن ثم هجم السلطان بجنوده هجمة هائلة على القسطنطينية في ٢٤ آب وبعد قتال عنيف اضطر ان يرجع بلا فائدة فرفع الحصار وذهب للاقتصاص من اخيه واتباعه فقبض عليه وقتلهُ مع كثيرين من حزبه ثم عصاهُ قره جُنَيد واستولى على امارة آيدين فقبض عليه القائد حمزة بك وخنقه وهكذا رجعت كل ولايات آسيا الى الدولة. هذا ما كان الى الآن من حيث الوجهة السياسية في الشرق.

اما ما كان من حيث الوجهة الكنائسية المتعلقة بتاريخنا فهو ان البطريرك متّى قد اقام على كرسي البطريركية الى سنة ١٤١٠ ومن جملة ما كان في مدتهِ انه بالاتفاق مع المجمع المقدس سنة ١٤٠٥ ارسل الى قبرص الراهب يوسف بريانيوس الشهير بعلمهِ وفضائله لكي يخابر ذوي الشأن في تحرير الداخلين من اهاليها تحت النير الباباوي وارجاعهم الى الحظيرة الارثوذكسية. ولكنهُ رجع بلا نتيجة. وقد خلف البطريرك متّى البطريرك افثيميوس الثاني وكان رجلاً قديساً وعالماً وفي السنة الثانية لبطريركيته ارسل سفارة الى قبرص لارجاع المشاقين ال كنيستهِ فلم تفلح. وفي هذه الاثناء اقتضت الاحوال في بلاد المورة ان يذهب اليها القيصر بنفسهِ لتسويتها سنة ١٤١٤ وفي اثناء رجوعه رأى ان يحصن برزخ كورنثوس

ليصد بهِ غارات الاتراك فبنى عليه سوراً من البحر الى البحر مسافتهُ ستة اميال دعمهُ بمائة وخمسين برجاً وقلعتين على طرفيهِ. وكل ذلك في برهة ٢٥ يوماً. وقد اقام في هذه الرحلة زهاء السنتين. وفيما كان يبني هذا السور رأى ان يبذل عنايتهُ في ضم الكنيستين الشرقية والغربية. فارسل من كورنثوس يوحنا إفذيمُن سفيراً الى ايطاليا سنة ١٤١٥ ليوضح للبابا رغبتهُ في عقد مجمعٍ مسكونيٍّ في القسطنطينية. وقد حضر هذا السفير انتخاب البابا مرتينُس في مجمع قسطنديا سنة ١٤١٧ وبعد ذلك اعرض عليهِ رأي القيصر بعقد مجمعٍ مسكونيٍّ في القسطنطينية لضم الكنيستين. واذ كانت وقتئذٍ سلطة الباباوات متزعزعة في الغرب بسبب قيام الرأي العام ضدها لاخضاعها لسلطة المجامع المسكونية التي اقر مجمع قسطنديا بانها اعلى من البابا جرياً على المبدإ الكنائسي الصحيح والقديم فرح فرحاً عظيماً بمخابرة القيصر في ضم الكنائس لانهُ امل بانهُ اذا تمكن من اخضاع الكنيسة الشرقية يكُن هو الرئيس الاعلى لكل الكنيسة على زعمهِ ويُفسد مشروع الاصلاح الذي باشرتهُ مجامع الغرب وعليه قبل رأي القيصر بكل سرور في عقد المجمع في القسطنطينية. واذ كان البطريرك افثيميوس الثاني قد توفي وخلفهُ البطريرك يوسف الثاني سنة ١٤١٦ كتب البابا الى القيصر والى البطريرك يوسف رسالتين وسمَّى البطريرك اخاً لهُ وجاملهُ مجاملةً عظيمةً لم تسبق من بابا غيرهِ وسمح لاميرتين من اميرات الغرب ان تقترنا بيوحنا وثيودورُس اولاد مانوئيل وعمل غير ذلك من الاعمال الحبية. فهذه الاعمال احيت الآمال في القسطنطينية بميل البابا الى المسالمة. فكتب اليه القيصر والبطريرك يتشكرانه على غيرتهِ وقالا له: ان الطريقة الوحيدة للحصول على السلام المرغوب انما هي التئام مجمعٍ مسكونيٍّ تُفحَص فيهِ بكل حريّة وبلا خصام اسباب الشقاق. ومتى حُلَّت الاختلافات وفقاً لتعاليم الآباءِ القدماءِ وعلى تمام الإخلاص لا يبقى مانع يمنع الاتحاد. ثم ان القيصر طلب مساعدة الشعوب الغربية له ضد الاتراك. فلما وصلت الرسائل الى البابا اصدر منشوراً في ١٠ تموز سنة ١٤٢٠ دعا بهِ جمع امراءِ أوروبا الى حمل السلاح لمساعدة القيصر وامر جميع الاساقفة ان ينادوا بحمل الصليب وعيَّن معتمدين في القسطنطينية لكي يتخابروا في امر الاتحاد وطلب

مصاريف المجمع من رؤَساء اساقفة كولونيا وموغونديك وقرَّر بان يقدم كل واحد ستة آلاف فيوريني (١) ولكن لما بلغهُ ان احوال القسطنطينية تغيرت بعد جلوس السلطان مراد كما تقدم ورأى حركات الاتراك لا تمكّن القيصر من عقد المجمع اخَّر المباشرة مدةً وارسل الإكسَرخُس انطونيوس ماسانِس احد رهبان الفرنسيسكان ومن اساتذة علم اللاهوت ليتفق مع القيصر والبطريرك على زمان عقد المجمع ومكان اجتماعهِ ويقرأ عليها شروطهُ. وقد اوصى قاصدهُ هذا ان يسميهُ في حضرة القيصر وعموم الشرقيين «البابا الكلي القداسة والكلي الغبطة وذا سلطة سماوية قائمة بذاتها وربًّا على الارض وخليفةً لبطرس وسيداً على المسكونة كلها واب الملوك وكوكب العالم (٢)» فاستقبل القيصر إكسَرخُس البابا بكل التفات حسن في ١٦ ايلول سنة ١٤٢٢ وعيَّن يوماً محدوداً لقراءة الشروط. ولكنهُ قبل ان يسمعها وقع في داءِ النقطة وسلم زمام الحكم لابنهِ يوحنا السابع. فتليت الشروط امام القيصر يوحنا وبعد ذلك امام البطريرك وعدة اساقفة غيره. ومن جملة ما ورد في تلك الشروط قولهُ: ان البابا يريد الاتحاد من كل قلبهِ ولكنهُ يطلب من القيصر ان يحفظ العهد الذي عاهدهُ اياهُ بواسطة سفيرهِ (شفاهاً) انهُ يقبل تعاليم الكنيسة الرومانية ويخضع لها. ثم قال ان البابا يريد عقد المجمع ويوافق عليهِ ولكنهُ يرغب ان يعرف زمانهُ ومكانهُ.

فلما سمع القيصر والاساقفة هذه الشروط الغير المنتظرة استغربوها. فكتب القيصر الى البابا جواباً يقول فيه «اننا قد اوصينا سفراءنا ان يربطوا عهداً في ما تتضمنه رسائلنا فقط اعني في عقد المجمع بحسب عادة المجامع المسكونية السبعة ونعتبر انسب مكان لهُ مدينة القسطنطينية. اولاً لاننا لا نستطيع ان نبتعد عنها وثانياً لافتقارنا الى المصاريف. فقبلاً كان القيصر يقوم بالمصروف كلهِ. واما الآن فلا نستطيع نحن ان نصرف ولا

(١) فلوري ١٠١: ٥١ و ١٠٢: ٧

(٢) راجع اعمال مجمع سيتاني سنة ١٤٢٣ وملاتيوس ١٥:٣:٤

بوجهٍ من الوجوه. بل نرجوكم ان تقوموا انتم بالمصروف. اما عن زمان اجتماع المجمع فنقول اننا نرغب ان يجتمع اعضاؤُه باسرع ما يمكن ولكن معتمدكم قد رأى كيفية احوالنا. فاننا قد بدنا تقريباً الى الغاية وعاصمتنا ومملكتنا باتت تحت سيف الغير المؤمنين. ولذا يستحيل علينا ان نجمع اساقفة اسيا وأوروبا بسبب الحرب. ولكن حالما يرسل الرب سلاماً وتتوفق احوالنا نوعاً حالاً نكتب اليكم وبعد ان نحصل على جوابٍ مُسرٍّ ايجابيٍّ في مسألة المصاريف نقرر ان يلتئم المجمع في السنة عينها. ثم اننا نرجو ان ترشقوا حرماً رهيباً ضد كل اتباعكم الذين مع انهم عائشون معنا بسلام يتركوننا نحارب وحدنا ضد الامم. فالمسيحيون يجب ان يساعدونا ولا يسمحوا للامم ان يقلوا على سفنهم مسحيين مسلحين ضدنا(١)». هذا ومثل هذا الكلام كتب القيصر الى البابا مرتينُس ومنهُ يتضح كم كانت احوال المملكة تعيسة في تلك المدة وكم كان يسهل على اساقفة رومية ان يغتنموا فرصة افتقارها واكتنافها من الاخطار ليجبروا كنائسها جبراً على الاتحاد كما يريدونهُ.

فلما وصلت هذه الكتابات الى البابا مرتينُوس كان قد باشر عقد المجمع الذي وعد به حين حل مجمع قسطنديا. وقد دعاهُ ليلتئم في بافيا. غير انهُ لم يعقد فيها ولا جلسة لسبب وباءٍ حل في المدينة فنقلهُ الى مدينة سياني من مقاطعة توسكيانا في ايطاليا الوسطى. ولم يحضر هذا المجمع سوى اساقفة ايطاليا. اما الباقون فرفضوا ان يجتمعوا في مدينة ايطاليا. فاعرض البابا عليهِ جواب القيصر. ولكن هذا المجمع لم يعقد سوى جلساتٍ قليلة. لان البابا رجع وحلهُ لقلة عدد اعضائهِ على قولهِ والصحيح لخوفهِ من شروع المجمع في الاصلاحات الكنائسية ولان الفونس الخامس ملك اراغونيا ارسل متشرعهُ الى هذا المجمع ليسعى بواسطة الرشوة والاوعاد في عزل مرتينُس وارجاع بيندكتُس الذي كان مقيماً في احدى قرى

(١) فلوري ١٠٢: ٦ ـ ٨

اسبانيا يداعي بحقوق الكرسي لنفسه لان مرتينُس كان ساعياً في عزل الفونس واقامة غيرهِ فخاف مرتينُس من بث هذا الرأي بين اعضاء المجمع وتشبُّث المجمع بهِ فحلهُ على عجل وعند حلهِ قرَّر ان يعقد مجمعاً مسكونيًّا غيرهُ بعد سبع سنوات في مدينة باسيليا. ولكي يوضح انه يرغب في خدمة الكنيسة ومصلحتها قرَّر ايضاً وجوب الحرب ضد الهُوْسيين والوِكلفيين ووعد بغفرانات كاملة لكل من يحاربهم وينكل بهم. على ان بعض المؤَرخين يقول ان انطونيوس ماسانس لم يُرسل الى القسطنطينية قبل مجمع سياني بل بعدهُ. وان المجمع ارسلهُ سنة ١٤٢٣ الى القيصر والبطريرك والقيصر اجاب المجمع بما قلناهُ آنفاً وعلى كلا الروايتين النتيجة واحدة. على ان القيصر يوحنا لعلمه بما هو عليه من الضعف وما لعدوه من القوة رأى ان يقوم بنفسهِ ويقصد مساعدة سيجيموند قيصر جرمانيا فترك العاصمة في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٤٢٣ وذهب اليه وخاطبه طويلاً في الاتحاد معهُ ولكن سيجيموند كان مرتبكاً في حروبه ضد الهوسيين (البوهيميين) كما تقدم فلم يستطع مساعدتهُ بل نصحهُ ان يسرع في عمل الاتحاد وقال لهُ «انك ان تممت الاتحاد تصلح انت هذه الكنيسة (اي البابوية) لان رؤَساءنا ورعيتنا شردوا في امورٍ كثيرةٍ واما رجال الكنيسة الشرقية فلهم نظام افضل منا» وعلى ذلك رجع يوحنا في اوائل سنة ١٤٢٤ واذ لم يأخذ جواباً من البابا عن كتاباته اليه ارسل معتمدين من قبله للمخابرة في زمان المجمع ومكانهِ. ولكن المعتمدين «ان كنيسة رومية امٌّ والكنيسة الشرقية بنتٌ فلا تذهب الام الى البنت بل البنت الى الام».

هذا ما قالهُ الكرادلة وكتبهُ البابا الى القيصر. اما الشرقيون فيقولون ان تسمية الكرادلة والبابا للكنيسة الشرقية بالبنت هي حقةٌ من حيث هي بكرٌ فقط لان الكنيسة الشرقية لم تزل بكراً نقية لخنتها الوحيد يسوع المسيح. اما اطلاق ذاك الاسم عليها من حيث القدمية فهو ضلالٌ ظاهر لاننا نعلم ان الروح القدس لم يحل في الفاتيكان بل في علية صهيون. وعليه تكون اورشليم ام الكنائس وابنتها كنيسة انطاكية وواحدة من حفيداتها كنيسة رومية. هذا بعض ما يقولهُ الشرقيون. ولكن لنرجع نحن الى سرد الحوادث

تاريخيًّا.

فطلب الكرادلة والبابا من معتمدي القيصر ان يُعقَد المجمع في ايطاليا وقال البابا انه يتعهد بارسال عمارة وجنودٍ للمحافظة على القسطنطينية ويقدم مائة الف ذهب لمصروف السفر والمهمات مدة المجمع. ولكن المعتمدين رفضوا قبول هذه الشروط بلا مراجعة القيصر فارسل معهم البابا معتمداً من عنده اسمهُ اندراوس رئيس اساقفة كولوسي يوناني الجنس تابعاً المذهب البابوي. فلما وصل الى القسطنطينية واخبر القيصر بطلب البابا وجماعته لم ير القيصر بدًّا من اجابة الطلب ولكن البطريرك جعله ان يعدل عن هذا الرأي وكذلك الفيلسوف جاورجيوس جيمِستوس اشار على القيصر ايضاً حين جاءَ الى بلاد المورة سنة ١٤٢٨ ان لا يذهب الى ايطاليا لان ذهابهُ الى هناك كان مخطراً اكثر مما كان نافعاً. وان حكمت الظروف واضطر ان يقرّر الذهاب يجب ان يتفق مع الغربيين على القاعدة الآتية بان لا يكون التصويت في جلسات المجمع مبنيًّا على عدد الافراد بل على ان يكون كل قسم من قسمي الشرقيين والغربيين ذا اصوات مساوية لاصوات الآخر. لان الغربيين نظراً الى كثرتهم يكونون دائماً اكثر اصواتاً واما الشرقيون فنظراً الى قلتهم لا يبقى لهم الاّ ان يخضعوا لإرادة الغربيين فرجع معتمد البابا بلا فائدة ولكن القيصر ارسل معه ياغَرِس رئيس معسكرهِ والبوطوسينجِلُس مكاريوس وأوصاهما وصايا لم تزل مجهولة كما ان جواب البابا ايضاً بقي مكتوماً على ما قال المؤرخ سيروبولُس.

غير ان احوال المملكة كانت من يوم الى يوم تزداد تعاسةً ففي شهر نيسان سنة ١٤٣٠ فتح السلطان مراد الثاني مدينة سالونيك وكان القيصر قد باعها للبنادقة سنة ١٤٢٣ ليستعين بثمنها على ما قيل. وبعد بضع اشهر فُتِحَت مدينة يانِنا في تشرين الاول ولم يعُد امام الاتراك غير القسطنطينية. فاضطر القيصر ان يعوّل على قبول اقتراح البابا ويجبر البطريرك ايضاً ان يقبلهُ. على ان البطريرك وان كان اضطرَّ ان يقبل كان يقول على حدة للاكليروس الذي عنده العبارات الآتية:

يقولون لي ان يكون المجمع في ايطاليا ويذهب رجالنا الى هناك ويكونوا

صبورين في الاجتماع ويأخذوا مصاريف الطريق ومصاريف معاشهم منهم فانا قطعيًّا لا اريد ان اذهب الى هناك. لاننا اذا ذهبنا على هذه الصورة واخذنا ننتظر من الرومانيين قوتنا الضروري كل يوم بيومه نصير عبيداً وارقاء واولئك يصيرون سادةً. ومعلوم ان العبد مجبورٌ ان يعمل ارادة سيدهِ والمأجور أن يعمل عمل مستأجرهِ. لان كل مستأجر انما ينقد الاجرة لكي يتمم مأجوره كل ما يأمرهُ اياهُ والاَّ فلا ينقدهُ الاجرة. فان هم امسكوا الطعام عنا فماذا يعمل اتباعنا؟ واذا لم يريدوا ان يرجعوا رجالنا على مصاريفهم وسفنهم فماذا يستطيعون ان يعملوا؟ وما هو الصالح لهؤلاك القلائِل الغرباء الفقراء في ان يذهبوا الى الكثيرين من الاغنياء المتكبرين المقيمين في اوطانهم ويصيروا عبيداً لهم؟ أو كيف بعد هذا يمكنهم ان يناقشوهم ويعلّموهم الايمان وحسن العبادة؟ ان هذا ليس امراً موافقاً. وانا اراهُ غير موافق. لانهُ قطعيًّا لا يوافقنا. فالملك يستطيع لو اراد ان يجمع المجمع هنا بلا مصاريف منهُ. لان المزمعين ان يأتوا الينا من كنيسة رومية يأتون على مصاريفهم. وان احتاج الامر الى مصاريف يقدر ان يجمع اكثر من مائة الف من الفضة ... لان السيد فوتيوس رئيس اساقفة روسيا سيأتي بغنى جزيل تزيد قيمتهُ على مائة الف من الفضة. فبكل سهولة يستطيع القيصر ان يأخذ منه عشرين الفاً. والاسقف العام لبلاد الكرج سيأتي ايضاً وهو غنيٌّ فيأخذ منه ٣٠ او ٢٠ الفاً على الاقل. وسيأتي اسقف السرب فيأخذ منه ايضاً عشرين. ومن البطاركة الشرقيين يأخذ الفي ذهب او الفاً على الاقل. ومن اغنياء مطارنتنا يستطيع ان يأخذ الفاً ومن بعضهم و٦٠٠ من آخرين و٣٠٠ من آخرين ايضاً فيجمع اكثر من مائة الف.

هذه كانت اراءَ البطريرك الخصوصية ولكن القيصر لم يوافقهُ عليها بل اصرَّ على الذهاب وكان تارةً هو وتارةً قصَّاد البابا يجتمعون بهِ سرًّا وعلى حدة ويحسّنون لهُ نتائج الذهاب وعقد المجمع ويعدونهُ بالراحة والرفاهة التامة الى ان اقنعوهُ وجعلوهُ يحض الآخرين على الذهاب من الذين كانوا يأبون مرافقتهُ ويعتقدون ان الاجتماع والمذاكرة مع اللاتين امرٌ خطرٌ ومضرٌّ بمصلحة الكنيسة. فكان يقول لهم:

اني انا على ثقةٍ عظيمةٍ لعلمي من الرسائِل ومن اقوال القادمين من هناك اننا اذا ذهبنا مع معونة الله الى هناك يستقبلونا جميعاً باكرام جزيل ومحبةٍ كثيرة ويعتنون بنا عنايةً عظيمة ونحصل على تمام الرخصة والحرية في ان نتكلم كلُّ ما يريد ونبرهن ان عقيدتنا بنعمة المسيح نقية وساطعه. على ان رجالنا سيكونون في ما يخص العقيدة معلمين لأولئك فيقتنعون ويقبلون رأينا وهكذا نتحد ونرجع غالبين وظافرين»(١).

فعلى هذه الآمال انفذ القيصر ياغِرَس المذكور قبلاً وغيرهُ سفراءَ مِنْ مَن قَبلِهِ ومن قَبل البطريرك الى البابا مرتينُس سنة ١٤٣٠ يبشرونه بقبول الشرقيين الاجتماع في ايطاليا واستعدادهم للسفر. ولكن الاحوال كانت تغيرت في رومية لان البابا كان مهتمًّا في جمع المجمع الذي وعد ان يجمعهُ في باسيليا وقبل ان يعقدهُ توفي في ٢٠ شباط سنة ١٤٣١ فخلفهُ البابا افجانيوس الرابع في ٣ آذار في السنة عينها وكان هذا البابا من اهالي البندقية رجلاً عنيداً ومتكبراً كثيراً في ابواب الخبث والحركات حتى انهُ لم يدع شيئاً الهيًّا او بشريًّا الاَّ وشوشهُ على ما شهد المؤرخ ابلاتينا في ترجمتهِ. وقد اقسم حين شرطونيته على انه يعيد النظام القديم الى الكنيسة ولا ينقل كرسيهُ من مكان الى آخر وانهُ يجمع مجامع عمومية في الزمان والمكان المعينين. غير انهُ لم يحفظ هذهِ الاقسام كما سيتضح. فبعد تبوّئِهِ الكرسي عقد المجمع في باسيليا بمساعدة القيصر سيجيموند الذي كان يسعى في اخضاع البوهيميين اتباع هُوْس كما سبق القول وعين نائباً عنهُ في رئاسة المجمع الكردينال يوليانوس قيصاريني احد مشاهير الكرادلة وكان قد ارسلهُ البابا مرتينُس الى باسيليا لهذهِ الغاية. فبدأ المجمع جلساتهِ في ٢٣ تموز سنة ١٤٣١ وفي جلستهِ الاولى قرّر المسائل الاساسية التي سيكون مدار البحث عليها وهي استئصال الهرطقات وضم كل أمة تعترف بالمسيح الى الكنيسة وكف الحروب من بين الملوك المسيحيين واصلاح كنيسة رومية في رأسها واعضائِها وتجديد تعليم الكنيسة القديم بكل جهد.

---

(١) ترجمة مرقص صحيفة ٣٨

وفي هذه الاثناء وصل سفراءُ الروم فوجدوا البابا افجانيوس وقدموا لهُ رسائل القيصر والبطريرك. اما هو فأجابهم على تحاريرهم بانهُ يوافق على الاجتماع في ايطاليا ولكنهُ لم يُظهر غيرةً عظيمة في موضوع الاتحاد كما كان سلفهُ مرتينُس بل بالعكس طلب من السفراء بعض شروطٍ لم يسمعوها من سلفهِ وكلها تشفُّ عن عجرفةٍ وكبرياء فائقة الحدود وربما سلك هذا السلوك عمداً ليتخلص من مصاريف المجمع لان احوالهُ المالية كانت ضعيفة اذ ان اقرباء سلفه مرتينُس كانوا قد سلبوا كل الاموال التي جمعها لهذه الغاية. اما السفراء فاضطربوا من شروط البابا ومن ثم رجعوا من حيث جاؤُوا. واذ لاحظ البابا ان مجمع باسيليا ضم جميع المسيحيين الى واحد تحت راية التعاليم القديمة وشرع في مخابرة الهوسيين وعزم ان يتبع آثار مجمع قسطنديا في قراراتهِ ويبنيها على المبدأ القديم وهو ان سلطان المجمع المسكوني اعلى من سلطان البابا ادعى بان هرطقة هوس اخذت تمتد في قسطنديا وانهُ مضطر ان يخابر الروم في موضوع الاتحاد وعليهِ طلب رجوع نوابهِ في ١٨ كانون الاول سنة ١٤٣١ وامر بحل المجمع متعهداً بأن يعيدهُ بعد سنةٍ ونصف في مدينة بونونيا حيث يحضر الروم ايضاً للاتحاد. غير ان المجمع (ونائب البابا معهُ) اذ كان معتصماً بمساعده سيجيموند وامراء جرمانيا ولمعاضدة فرنسا ايضاً لم يَعِرهُ اذناً صاغيةً بل قاومهُ بكل جرأةٍ وقال انهُ لا ينير مكانهُ ولا يترك اعمالهُ ناقصةً بل يواظب بنعمة الروح القدس ليزيل الهرطقات ويصلح الآداب في الشعب المسيحي ويعيد السلام والوئام وانهُ يؤمل ان البابا افجانيوس ايضاً يساعد المجمع الذي عُقد بسلطان سلفهِ مرتينُس وسلطانهِ هو نفسهُ. من جملة ما قالهُ ايضاً قولهُ «اما مسألة الاتحاد بين الشرقيين والغربيين فهي ترنيمة لم نزل نسمع نغمتها منذ ٣٠٠ سنة وسنسمعها في كل سنةٍ ايضاً في المستقبل بلا نتيجة فالاجدر الآن بالكنيسة الغربية ان تبدل جريها وراءَ ذاك الظل بمخابرة الهوسيين الذين خرجوا من عهدٍ قريب. واما مسألة الروم ففي كل الاحوال يمكنها ان تخابر فيها ولا تتركها الآن ايضاً» ثم ان المجمع عقد جلستهُ الثانية في ١٦ شباط سنة ١٤٣٢ وصدَّق على قرار مجمع قسطنديا الذي قررهُ في جلستهِ الرابعة والخامسة بوجوب خضوع المجمع والبابا نفسهِ ايضاً

لسلطان المجمع وقرر ايضاً ان المجمع لا يمكن ان يُحل او يؤَجل او يُنقل الاَّ برضاهُ وقرارهِ هو ثم قرر ان يستدعي البابا افجانيوس ليحضر شخصيًّا امامهُ فعيَّم له ميعاداً وتهددهُ بانهُ اذا خالف القرار فالمجمع يعاملهُ بما يمليهِ عليه الروح القدس وتحددهُ الشرائع الالهية والمدنية (١). اما البابا فبدلاً من ان يحضر بذاتهِ امام المجمع ارسل نواباً عنهُ اهمهم رئيس اساقفة اسمهُ اندراوس من دون ان يبدي عذراً شرعيًّا. ولذا قرر المجمع ان يعزله ويقطعهُ ولكنهُ لكي يتجنب اسباب القلاقل حدد لهُ ايضاً ميعاد شهرين آخرين وفي الوقت نفسهِ قرر ايضاً هذا القرار وهو «لما كان دستور الايمان يعترف بكنيسةٍ جامعةٍ واحدةٍ فقط كان المجمع الذي يشخصها واحداً فقط. وعليهِ لا يمكن ان يُعقد مجمعٌ مسكونيٌّ في مكانٍ آخر ما دام مجمع باسيليا منعقداً لانهُ التأم التئاماً شرعيًّا بسلطة مجمعين مجمع قسطنديا ومجمع ليون وبموافقة بابوين مرتينُس الخامس وافجانيوس الرابع. ولذا كلُّ اجتماعٍ وإن كان مزيَّناً باسم المجمع المسكوني لا يكون في الحقيقة سوى جماعة منشقين لا مجمعاً للكنيسة الجامعة. اما المجمع فيمنع على الكل من اي رتبةٍ كانوا قياصرة او ملوكاً او باباوات ان يجمعوا بسلطانهم الذاتي جمعيات يسمونها مجامع مسكونية والذي خالف يكون تحت طائلة الحرم والقطع».

على ان البابا لما رأى ان اعظم سند للمجمع كان للقيصر سيجيموند ارسل اليهِ سفراءَ ليخابرهُ في تغيير المكان ووعدهُ ان يتوّجه قيصراً في رومية وان يقوم هو بنفقات التتويج. فحضر القيصر الى رومية وتُوّج في يد البابا في ٣١ ايار سنة ١٤٣٣ ثم رجع الى باسيليا بعد ان نصح البابا ان يخابر المجمع رأساً فخابرهُ. غير انهُ لم ينتفع شيئاً من المخابرة بل كان مركزهُ يزداد حراجةً من ساعةٍ الى ساعة الى ان قرر المجمع قطعهُ وعزلهُ. فلما بلغهُ ذلك صدَّق بكتابٍ رسميٍّ (بُولاً) على إطالة مدة المجمع في باسيليا واعتذر

(١) فلوري ١٠٢: ٤٢

عن تشبثاتهِ السابقة في نقلهِ الى ايطاليا بقولهِ انهُ انما فعل ذلك ليسهل الامر على الروم وعلى ذلك ارسل في ١٥ كانون الاول سنة ١٤٣٣ اربعة كرادلة ليرأسوا المجمع عنهُ. غير ان آباءِ المجمع في باسيليا لم يرضوا بذلك بل طلبوا حضور البابا بشخصهِ في المجمع وعينوا لهُ ميعاداً آخر قصيراً وتهددوهُ حتماً بالقطع. اما البابا فمن جهةٍ كتب الى المجمع ما كتبهُ بالقبول. ولكنهُ من جهةٍ أُخرى اعلن اولاً ان كل قرارات المجمع ضد امتيازات السدة الرومانية مخالفة الشريعة ولاغية ومنع المؤمنين من الخضوع للمجمع. وبعد ثلاثة ايام صدر كتاباً رسميًّا جديداً قال فيه انهُ يقبل قرارات مجمع باسيليا كلها ويساعدهُ بكل سلطانهِ على شرط ان يُلغي المجمع كل ما اجراهُ ضد شخصهِ. ثم رجع واصدر دفاعاً عن نفسهِ بشكلٍ منشور صرَّح فيهِ بوجوب تغيير مكان المجمع وبان البابا ارفع من المجمع فيما انهُ من وجهٍ آخر ايضاً ارسل الى باسيليا رسالةً ترضي المجمع. فلما وصلت هذه الرسالة الى المجمع اعتبرها كافئةً وسمح لوكلاءِ البابا الاربعة ان يحضروا جلساتهِ بعد اذ اقسموا في ٢٦ حزيران سنة ١٤٣٤ على انهم يعرفون المجمع ارفع من البابا ولا ينقلونهُ بلا اتفاق عموميٍّ.

غير ان اعمال البابا المذكورة ضد المجمع اسخطت شعب رومية فهاج ضدهُ وعزم ان يسلمهُ الى دوق ميلان ليضعهُ تحت الحفظ الى ان يصدر حُكم المجمع فيهِ. ولكنهُ بنصيحة اصحابهِ تزيَّى بزي راهبٍ وهرب الى مدينة فلورانسا ومنها رجع يخابر مجمع باسيليا. اما المجمع فكان مواظباً على مخابرة القسم المعتدل من الهوسيين حتى وصل الى تسوية بينهُ وبينهم أُمضيت في برافا في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٤٣٣ وصدَّق عليها المجمع في شباط سنة ١٤٣٤ وملخص هذه التسوية هو انهُ منح كنيسة بوهيميا اربعة امتيازات. اولها: ان تكون مناولة العشاء السري للشعب من الشكلين الخبز والخمر. وثانيها: ان رجال الاكليرُس اذا جنوا جناياتٍ عموميةٍ يحاكمون من

(١) فلوري ١٠٣: ٥٣ و ٥ و ٥٧ و ٥٩ و ٦٢

حكام علمانيين بالاشتراك مع قضاة اكليركيين ايضاً. ثالثها: ان كلام الله يُكرز به بحرية من رجال الدين فقط. ورابعها: ان الاكليرُس لا حق له في تقليد اي وظيفة مدنية كانت وانما يحق له التصرف باملاك الكنيسة. على ان المتطرفين منهم لم يقبلوا بهذه التسوية فقامت الحرب بين الحزبين وفاز فيها حزب المعتدلين في ٢٨ ايار سنة ١٤٣٤ وتساوى مع القيصر سيجيموند وبعد مخابرات طويلة دخل القيصر مدينة براغا عاصمتهم في ٢٥ آب سنة ١٤٣٦. هذا ما تم من جهة الهوسيين. (١)

اما ما جرى من جهة الروم فان البابا كان قد افاد المجمع بواسطة اندراوس رئيس الاساقفة عن عزمهم ورغبتهم في اتحاد الكنائس وعن مخابراتهم السابقة مع البابا مرتينس ومعهُ. وقد ابدى اندراوس هذه الافادة امام المجمع في ٢٢ آب سنة ١٤٣٢ وعليه أرسل المجمع معتمدين من قبله الى القسطنطينية على أثر خلافه مع البابا وهما الاسقف انطونيوس والمعلم ألبرت ودعا الروم للحضور اليه وقال لهم ان سلطانهُ أعلى من سلطان البابا وانه هو يستطيع اكثر منه ابعاد اعداء المملكة خصوصاً لان ملوكاً كثيرين والقيصر سيجيمند نفسه يعضدونهُ فيمكنهم ان يحصلوا على مساعدة اكيدة منهُ هو لا من البابا الذي صارت امورهُ على اردإٍ وجهة وأتعس حال (٢).

فالقيصر يُوحنا لما اخذ افادات المجمع رأى ان يخابره وان كانت مخابراتهُ مع البابا غير منقطعة. فارسل الى باسيليا حاملةً رسائل منهُ ومن البطريرك ومؤرخة في ١٥ تشرين الاول سنة ١٤٣٣ وصك وكالة مفوضة ومطلقة مؤرخاً في ١١ تشرين الثاني ١٤٣٣ وأهمّ رجال هذه السفارة ديمتريوس باليولوغوس رئيس معسكر القيصر وايسيدورُس رئيس دير القديس ديمتريوس [ميتروبوليت روسيا فيما بعد] ويوحنا ديوباتوس.

فلما سمع البابا افجانيوس ان القيصر ارسل سفراء المجمع خلافاً لما كان بأمل خاف واسرع فاخبر القيصر بانهُ يوافق على عقد المجمع في

(١) باباريغو ٢: ٣٢٣ (٢) سيروبولس ٢: ٢١

القسطنطينية. اما سبب هذا الانقلاب فهو ان البابا وان كان في الظاهر تصالح مع مجمع باسيليا لكنه في الحقيقة كان يطلب حل هذا المجمع. فرأى هذه الفرصة مناسبةً لاتمام بغيته. وقد كتب بهذا المعنى كتاباً الى ملك طرابزون ايضاً جوابهُ موجود تحت تاريخ ١٨ تشرين الاول سنة ١٤٣٤ والى غيره من الامراء والى غريغوريوس مطران الفلاخ.(١)

ولكن القيصر اذ كان يجهل ما تؤول اليه امور مجمع باسيليا رأى من الحكمة ان يقبل رأي البابا ويخبر مجمع باسيليا واقعة الحال. وهكذافعل. فلما علم المجمع بعمل البابا ووعده طعن فيه طعناً مراً وقال انهُ لا يليق بقيصر وبابا ومجمع ان يحلوا العهود العمومية ويقرروا ما ينافيها وان خطراً عظيماً يتهدد المجمع اذا عُقد في القسطنطينية لانها محاطة بالاعداء. على ان السفارة التي كان القيصر ارسلها الى المجمع مفوضة من قبلهِ كما تقدم قدَّمت الى المجمع في ١٧ ايلول سنة ١٤٣٤ بعد مخابرات طويلة شروطاً هذه خلاصته: اولاً: اذا عقد المجمع في القسطنطينية يتعهد القيصر بكل مصاريفهِ واذا لم يعقد فيها لم تكن الكنيسة الغربية مكلفةً بدفعها ــ ثانياً: اذا لم يعقد المجمع في القسطنطينية يعقد في كالابريا او في آنكون او في مدينة أخرى على الساحل ضمن ايطاليا او خارجاً عنها في احدى مدن فينا او بودا او سابونيا ــ ثالثا: تتعهد السفارة بان يكون القيصر وبطريرك القسطنطينية واساقفتهُ وغيرهم حاضرين في المجمع* فلما سمع المجمع هذه الشروط تعهد هو ايضاً بمصاريف سفر القيصر والاساقفة ومعاشهم ورجوعهم الى بلادهم وتعهد ايضاً بان يرسل الى القسطنطينية عمارة وحامية تقيم فيها مدة غياب القيصر كلها وقبلَ بان ينتقل الى احدى المدن التي ذكرها السفراء ما عدا القسطنطينية. اخيراً وعد بان البابا ايضاً يقبل كل هذه الشروط ولأجل تصديق القيصر عليها ارسل الى القسطنطينية ثلاثة اكليريين يوحنا وهنري وسمعان ومعهم ثمانية آلاف ذهب تصرف على معدات السفر.

(١) سيرو ٢: ٢٢

واذ كان البابا افجانيوس قد أُشعر باستياء المجمع في حركاتهِ واتفاقه مع القيصر رأى ان يسالم المجمع فكتب اليه يحرضهُ على اجراء الاصلاح الفعلي في الكنيسة الاصلاح المحتاجة اليه حقيقةً. وقد اظهر له انه سيكون قدوةً في المحافظة على القوانين فضلاً عن انه لا يخاصمه. ثم ارسل مع سفراءِ المجمع سفيراً من قبله وأمره في الظاهر ان يؤيد رأي المجمع وعهودهُ ترضيةً لكنه في الحقيقة أرسله ليفسد العلاقات بين المجمع والروم بمداخلاته مع البطريرك الشيخ الذي كان يرغب اكثر من كل واحد سواه اجتماع المجمع في القسطنطينية.(١) فسرَّ مجمع باسيليا بكتابة البابا وخضوعهِ وصالحهِ مع شعب رومية.

فلما حضرت سفارة المجمع الى القيصر اخذت تقنعه ليختار مدينة باسيليا للاجتماع ويعرض عن غيرها. فالقيصر اقتنع ولكنهُ قبل اعلانهِ القبول جمع جمعية مؤلفة من اكليريين وعاميين لتنظر في قرار مجمع باسيليا والشروط المبعوثة للتصديق (٢). فلما شرعوا في قراءة هذا القرار وجدوهُ مفتتحاً بالعبارة الآتية وهي «ان الآباء اجتمعوا في المجمع المسكوني [في باسيليا] لكي يستأصلوا هرطقة الهوسيين الحديثة وهرطقة الروم القديمة». فلما سمع الارثوذكسيون هذه العبارة اضطربوا وطلبوا احد امرين. اما ان تمحى هذه الكلمات المهينة واما ان تصلح. اما السفراء فلما رأوا ذلك اعتراهم الحياء واخذوا يلقون الحق كلهُ على كاتب القرار ويبرّئون المجمع ويلومون ايضاً مفوضي القيصر الذين سمعوها في المجمع ولم يطلبوا اصلاحها. اخيراً تقرر ان تكتب مقدمة اخرى فان اعجبت اليونانيين تبيض وترسل الى باسيليا ليصدق المجمع عليها. اما بقية مواد الشروط فقبلت الا تعيين مكان الاجتماع فأنه تأجل الى ما بعد الاستعداد للسفر (٣). على ان معتمد البابا في اول الامر ابى ان يمضي تلك الشروط ولكنه اخيراً رضي وأظهر صكاً من البابا يفوضهُ بالتصديق على ما يتم في

(١) سيرو ٢: ٢٣ و ٢٤

(٢) سيرو ٢: ٢٥ ــ ٢٧ (٣) سيرو ١: ٢٨ ــ ٣٠

القسطنطينية. وعليه ارسل هذا القرار الى مجمع باسيليا مصحوباً برسائل من القيصر ومن اخيه قسطنطين ومن البطريرك مؤرخة في تشرين الثاني سنة ١٤٣٥. وقد طلبوا بها علاوة على الشروط المذكورة وجوب حضور البابا شخصياً في المجمع بصفته رئيساً على الكنيسة الرومانية الغربية. فلما وصلت السفارة التي حملت تلك الرسائل الى باسيليا قدمتها الى المجمع فقرأها في جلسته الرابعة والعشرين وصدق عليها بلا مراجعة. ثم ان السفراء اوضحوا للمجمع ان اتحاد الكنائس يمكن ان يتم بمجمع عمومي مؤلف من شرقيين وغربيين وطلبوا تعيين مكان الاجتماع. فأكثرية المجمع مالت الى الاجتماع في باسيليا ما لم يعارض اليونان فحينئذٍ تكون مدينة افينيون او سابويًا. واذا لم يقروا على رأي اتفقوا ان يراجعوا القيصر مرة اخرى ايضاً وختموا صك الشروط وارسلوه مع السفراء الى القسطنطينية في اوائل سنة ١٤٣٦.

على ان النفور اخذ في هذه المدة يستحكم بين البابا والمجمع. فمن اسبابه ان الملكة ايوانًا ملكة نابولي توفيت سنة ١٤٣٥. وقد رأينا قبلاً ان هذه الملكة تبنت الفونس الخامس ملك اراغونيا وجعلته وليَّ عهدها وان البابا مرتينُس كان يسعى في عزله واقامة غيره (١) وقد وصل البابا فعلاً الى غايته فاوقع النفور بينه وبينها فعزلته وتبنت عدوه لويس الثالث الذي كان حاربها بايعاز البابا. ولكن لويس مات قبلها سنة ١٤٣٤. فلما ماتت هي ايضاً جاء الفونس ليأخذ مملكتها. فأعلن البابا افجانيوس ان هذه المملكة من املاك كرسي رومية وانها يجب ان ترجع اليه ما دامت بلا وارث شرعي. وعليه ارسل يوحنا ويتيلسكي المسمى ببطريرك الاسكندرية ومعه قوة عسكرية ليطرد الفونس. فحاربه بالاشتراك مع فيليب ماريا دوق ميلان وعمارة الجَنَويين وكسروه وأسروه في ٥ آب سنة ١٤٣٥ ثم اطلقوه بلا فدية. ونظراً الى هذا الفوز كافأ البابا بطريركهُ بان رقاه الى رتبة كردينال خلافاً

(١) صفحة ١٣٣ و ١٤٤

للاوامر المجمعية التي تمنع الاستبداد في زيادة عدد الكرادل. حينئذ تداخل مجمع باسيليا في الموضوع. ولكن لا ليبحث في جوهره اعني ترقية بطريرك الى كردينال لانتصاره في المعركة الدامية بصفة قائد جيش واستخدام الوظائف الدينية للاحوال العسكرية. بل ليدافع عن حقوقه. فلم يسمح لهذا البطريك ان يُعرف كردينالاً بل قرَّر يشرع في محاكمة البابا لان المدة التي عينها له مراراً ليحضر شخصيًّا كانت تمضي بلا فائدة (١).

غير ان غرض المجمع لم يتم واخذت الاحوال تتغير شيئاً فشيئاً لصالح البابا. لان القيصر سيجيموند بعد اذ قضى وطره من البوهيميين بواسطة المجمع كما تقدم لم يعد يهم في شؤونهِ كما كان قبلاً ومثله سائر امراء جرمانيا. لأنهم كانوا يريدون المحافظة على سيادة البابا ليستعينوا بها على تقليل نفوذ اساقفة بلادهم. ولذا كانت كل الاوامر والقرارات التي يصدرها المجمع بعد دخول القيصر مدينة براغا تبقى حبراً على ورق. فلما شعر البابا افجانيوس بذلك لم يعد هو ايضاً يهاب قرارات المجمع كذي قبيل وعليه لما شرع المجمع في الاصلاحات ومن جملتها وجوب الغاء الفردة المسماة اناتا [اي الخراج السنوي] التي كانت تدفع سنوياً الى البابا والكرادلة بمقتضى الاوامر التي كانت تصدر من رومية قام النزاع بين المجمع والكرادلة والبابا لأنه كان ضربة قاضية على ايرادهم. حتى ان المجمع اخذ ينبذ اعمال افجانيوس. وكان نتيجة هذا النزاع انفصال اكثر الكرادلة عن المجمع وانقسامه على نفسه. فقوي بذلك عزم البابا ولم يحفل للمجمع هذه المرة بل ارسل منشوراً الى الامراء الذين كان يعرفهم مساعدين لهُ اكثر من غيرهم ينبذ به اعمال المجمع العدوانية ضده وقال بان هذا المجمع يريد ان يكون رأساً ثانياً للكنيسة ويقسمها بعضها على بعض (٢). اما المجمع فلم يحفل ايضاً لهذا المنشور لأنه كان مؤيداً من ملك

(١) فلوري ١٠٢: ٨٥

(٢) فلوري ١٠٢: ٥٧

فرنسا وبعض امراء غيره وقد زادهُ جسارةً وفاة القيصر سيجيموند التي كانت في ٩ كانون الاول سنة ١٤٣٨.

فلما وصل الى القسطنطينية قرار مجمع باسيليا وتصديقه على الشروط المذكورة شرع القيصر بالاشتراك مع البطريرك يوسف في جمع رعاة الكنيسة الشرقية. فارسل في اوائل سنة ١٤٣٦ سفراء الى البطاركة الشرقيين الثلاثة والى ملوك الكرج وطرابزون والسرب والفلاخ يحملون هدايا فاخرة اليهم ويدعونهم الى ارسال كبار اساقفتهم ليحضروا المجمع العازم ان يلتئم في الغرب. اما مملكة الروس فكان مطرانها قد توفي فشرطن عليها بعده ايسيدوروس الايليريّ رئيس دير القديس ديمتريوس الذي كان ذهب الى باسيليا كما تقدم القول. وقد كانت شرطنته بالغش والخدع بدلاً من القس يونان الذي انتدبه مجمع روسيا انتداباً قانونياً وارسله الى القسطنطينية ليشرطن حسب العادة المرعية وقتئذ فوصل اليها في ١٨ آب سنة ١٤٣٦. ولكي يفهم القاريء كيف وصل هذا الى غرضه خلافاً للوصول تدرج صورة صكٍّ خطيٍّ وُجد في الفاتيكان منه تتضح الدسائس التي استعملها البابا افجانيوس في سبيل شرطونية ايسيدوروس الصك الذي لولاه لما استطاع احد ان يفهم اسبابها. وهذه ترجمته.

انه بعد وفاة فوتيوس متروبوليت كياف سنة ١٤٣٦ انتخب من الاساقفة وسائر الاكليرُس ومن امراء البلاد الغربية في روسيا وامارة ليثوانيا يونان اسقف ريازان متروبوليتاً على كياف وكان رجلاً صالحاً وتقياً ووديعاً وعالماً. وبعد انتخابه ارسل الى القسطنطينية حاملاً رسائل الى القيصر باليولوغس والبطريرك يوسف ليحصل على البركة من البطريرك ولكن قبل ان يصل يونان وصل من رومية الى عاصمة الملك رجل اسمه ايسيدوروس اصله من الجهات الغربية حاملاً رسائل من البابا. وكان رجلاً دارساً معجباً بنفسه ذا دسائس وفي الظاهر لطيفاً ومتملقاً ولكن في الباطن مفسوداً. فهذا الرجل بواسطة اقواله اللطيفة وابتهالاته الوضيعة وبواسطة رسائل البابا لين قلب القيصر والبطريرك عليه ليأتمناه على مركز مَتروبوليت روسيا. اما كتاب البابا افجانيوس الى البطريرك يوسف فهذا نصه:

«من افجانيوس عبد عبيد الله واسقف رومية الى يوسف الجزيل الكرامة بطريرك العاصمة السامية رومية الجديدة اخينا الجزيلة محبته بالمسيح السلام والفرح. ان حقارتنا ترغب ان تشرطنوا بالسرعة الممكنة الرجل المسمى ايسيدوروس المتقي الله والعالم المستحق الكرامة رئيس اساقفة على عاصمة روسيا وترسلوه اليها وتزوده بالقوة الكاملة كما اننا نرسل في هذا الموضوع الى ابننا الحبيب جداً يوحنا القيصر العظيم الشرف كتاباً منا من اجل الرجل ايسيدوروس نفسهِ المحب المسيح الذي هو من عاصمتنا وذو دراية في كل شيء عالم. اما انتم فنسلمكم الى الرب يسوع. تحريراً في رومية في السنة الالف والاربعماية والسادسة والثلاثين».

فالبطريرك يوسف الذي ولا شك يستحيل عليه ان يعرف افكار الناس الخفيّة كما يستحيل على كل انسان مثله لما اخذ كتاب البابا ورأى ميل القيصر الى شرطنة ايسيدوروس قبل رجاءهما ولكي لا تبقى كنيسة المسيح عند الشعب الروسي العظيم وقتاً طويلاً بلا راعٍ ورئيسٍ ومديرٍ اعلى شرطنهُ متروبوليتاً على كياف وارسله الى روسيا بتحارير منه في اواخر سنة ١٤٣٦ واوصاهُ هو والقيصر ان يجتهد في ان تشترك روسيا ايضاً في عمل الاتحاد وان يحضر المجمع ويحضر معهُ اساقفةً وسفارة كافية الى القسطنطينية. وبعد سفرهِ بمدة قصيرة وصل من موسكو يونان منتخب المجمع الروسي حاملاً الرسائل كالعادة. فلما رآه البطريرك ندم على انعطافه الى توسلات ايسيدورُس ودعا هيئة الاكليرُس الى جلسة ليتذاكروا في ما يجب عمله. وبعد الاجتماع قال ليونان «يا إبني يونان الجزيل المحبة. لقد سُحبت مني البركة قبلا بواسطة الخبث والتمليقات لشرطونية متربوليت على كياف. فاني شرطنت ايسيدورُس وارسلتهُ اليها. ولكن متى شاء الله وابعد ايسيدورُس عن تلك المتروبوليتية اما بالموت او على وجه آخر حينئذٍ امنح بركتي لك انت الذي انتخبك الجميع رئيس كهنة لتأخذ كرسي متروبوليتية روسيا» ثم شرطنه البطريرك اسقفاً وارسلهُ الى حيث جاء.

اما ايسيدورُس فلما وصل الى موسكو استقبله الامير الكبير باسيليوس باسيلوفتش بالاكرام اللائق ولكنه هو وسائر حكام روسيا واكليرُسها وشعبها

اندهشوا لما شاهدوهُ غير يونان المنتخب منهم. غير انهم اكراماً لكتابات المبطريرك سمحوا لهُ بالاقامة على كرسي عاصمتهم.

ثم ان القيصر باليولوغس لما اعرض عليه السؤال من مجمع باسيليا عن مكان الاجتماع ارسل اليه سفيراً يقول: ان البطاركة الشرقيين يصعب عليهم ان يقطعوا جبالاً وعرة ويسافروا الى باسيليا. وان الضرورة تقتضي بان يعقد المجمع في اي مكانٍ كان ضمن ايطاليا ليستطيع البابا ايضاً ان يحضر جلساته. فوصل السفير في ٧ شباط سنة ١٤٣٧ وقدم للمجمع رأي القيصر. وعلى اثر هذا الاقتراح انقسمت الآراء في المجمع وقام النزاع لا عل تعيين المكان فقط بل على تدبير المصاريف اللازمة ايضاً. فالاكثرية بقيت مستحسنةً الاجتماع في باسيليا او افينيون او سابوئيًّا وقدمت راياً بان تصدر اوراق غفران للذين يساعدون في عمل الاتحاد المقدس وان يدفع كل رجال الاكليرُس عشوراً. اما سفير القيصر فاعترض على المكان وقال ان باسيليا وافينيون لم تذكرا في عداد المدن التي جرى عليها الاتفاق للاجتماع فيها. واما سابوئيًّا فمعناها عند اليونان لا مدينة سابوئيًّا بل المدن الايطالية الخاضعة لدوق سابوئيًّا. واذ كان البابا يترقب كل فرصةٍ مناسبة ليحل مجمع باسيليا حالما علم بانقسام آرائه الآن ارسل احد اساقفته يعلنه بانه لا يستحسن المكان ولا طريقة جمع النفقات. فلما التأم المجمع في ٧ ايار سنة ١٤٣٧ للتصويت على انتخاب المكان كان ثلثا الاصوات منضافاً للرأي الاول والثلث الآخر اختار مدينة فلورانسا او أُورينو. ثم كتب كل قسم قرارهُ وتُلي القراران في الكنيسة الكاتدرائية. ولكن القرار الذي خُتم كان قرار الاكثرية وهو الذي أعلن للقيصر بواسطة يوحنا سفير المجمع. حينئذٍ رأت الاقلية ان تلتجئ الى عمل دنئ. فسرقت ليلاً ختم المجمع وختمت به قرارها. فاغتنم البابا فرصة النزاع بين القسمين المنشقين وصدق في ٢٩ حزيران على القرار الذي رآه موافقاً له اعني قرار الاقلية. ولكنهُ لم يلبث ان خالف هو نفسهُ هذا القرار بأنهُ عين للاجتماع محلاً آخر. لانه لما رأى ان طول مدة المجمع في باسيليا يهدم سلطتهُ هدماً تاماً اصدر امراً في ١٨ ايلول سنة ١٨٣٧ قال فيه «انه لاجل تسهيل اتحاد الكنائس واصلاح

القضايا التي لم يُوفق في باسيليا اصلاحها يأمر للسلطة الرسولية وموافقة الكرادلة ان يُعقد مجمع مسكوني في مدنية فرَّازا ويأمر جميع الكرادلة والاساقفة ورؤساء الاديرة المقيمين في باسيليا ان ينتقلوا حالاً من باسيليا الى فِرَّارا لمواصلة النظر في الاعمال الكنائسية التي بدأت في باسيليا». وعليه صدر الامر الى الكردينال نيقولاوس آلبرغاتي كردينال صليب اورشليم المقدس ان يحضر الى فِرَّارا مع بعض الاساقفة ويفتح جلسات المجمع.

على ان مجمع باسيليا استاء وغضب من جسارة البابا هذه فعين رئيساً لجلساتهِ الكردينال لويس دي اليماند وعقد جلسة في ١٢ تشرين الاول سنة ١٤٣٧ قرر فيها اقامة الحجة على مشروع البابا كما سترى في ما يأتي.

نترك الآن الكنيسة الغربية في هذه النقطة ونرجع الى استيفاء حوادث الكنائس الشرقية:

قلنا سابقاً ان القيصر يوحنا باليولوغُس كتب وارسل سفراءَ الى بطاركة الشرق واساقفته يدعوهم الاجتماع في القسطنطينة ليقوموا منها الى المجمع. وقد امر السفير الذي ارسله الى البطاركة الثلاثة ان يقول لهم خبراً عن لسانهِ انهم اذا لم يكن عندهم رجال اهلٌ لأن يعينوهم نواباً عنهم في المجمع يمكنهم ان ينتخبوا رجالاً من رجال المملكة اهلاً لذلك هو يفيدهم عن اسمائهم. فالبطاركة عملوا بهذه الوصية وعينوا نواباً بحسب اشارة السفير. فالاسكندري عين انطونيوس متروبوليت هرقلية والقس المتوحد مرقس الملقب افجانيكوس. والانطاكي عين يواصَف مطران افسس والقس غريغوريوس رئيس اعراف القيصر. والاورشليمي عين ديونيسيوس اسقف سارُدس وايسيدورُس مِتروبوليت روسيا وقد كانا وقتئذٍ قسيسين.

وقد كتبوا الى هؤلاء النواب رسائل حتموا عليهم فيها بكل تدقيق وحصروهم بكل تضييق ان لا يتجاسروا ويصدقوا في المجمع على شيءٍ او يحددوا شيئاً غير المواد القانونية الموافقة لتقاليد المجامع المسكونية المقدسة ومعلمي الكنيسة القديسين لكي لا

يُبدل ولا يُجدَّد ولا يضاف شيء في دستور الايمان.(١)

فلما علم البطريرك يوسف ان نواب البطاركة انتدبوا بايعاز القيصر بلا علمه تكدر. ولكن الذي تكدر اكثر منهُ كان يوحنا سفيره مجمع باسيليا الذي اضطرب لما سمع بان البطاركة حصروا حقوق نوابهم ومن ثم اقنعَ القيصر بان يرسل اليهم صكوك وكالة اخرى تطلق التفويض للنواب ليصدقوا عليها بحجة ن تفويض النواب امرٌ ضروري للمحافظة على كرامة الملك والمجمع وكرامة النواب انفسهم وقد كتب القيصر الى البطاركة يقول «وانتم تعلمون اننا عازمون ان لا نعمل نحن الا ما كتبتموه انتم ايضاً. لاننا لا نريد ان تغير شيئاً او بحرف شيئاً مما تسلمناه من قديسي الكنيسة ومعلميها ولا ان نزيد او ننقص شيئاً مما نستمسك ونؤمن به الى الآن ونعتقده. لكننا سنثبت فيه بلا ارتياب. فلا يزعجنكم فكرٌ آخر بل اعملوا رسائلكم كما نحن نكتب اليكم. وانتم متأكدون اننا نحن ايضاً لا نصنع شيئاً يخالف ما تريدونه. فلما وصلت كتابة القيصر الى البطاركة مقرونة بالعهود والوعود المؤكدة لم يروا بدّاً من مطاوعته فأرسلوا هذه المرة صكوك الوكالة بحسب الصورة التي أرسلها القيصر بعد انهم غيروا بعض بنودٍ فيها (٢). ولكن قبل ان تصل كتاباتهم الثانية بقليل توفي مطران افسس نائب الكرسي الانطاكي فشرطن خلفاً له مرقس افجانيكوس وهو اعظم الذين زينوا الكنيسة الشرقية في هذا العصر بمعارفهم الدينية الراسخة ودفاعهم عن العقائد الارثوذكسية كما سيأتي.

ولما ارسل القيصر سفراءهُ مرةً ثانيةً الى بطاركة الشرق ارسل الى البابا ختامهُ (مهر دارهُ) مانوئيل يفيدهُ انه مستعدٌ ليذهب في الشتاء المقبل الى المجمع وقد ارسل سفيراً آخر ايضاً الى آباك مجمع باسيليا يوحنا ديسيباتوس يطلب منهم ان يرسلوا الى القسطنطينية سفناً في الوقت المتفق

(١) سيرو ٣: ٣

(٢) سيرو ٣: ٣ ـ ٤

عليه وهو فصل الخريف ليسافر عليها. وكان من جملة واجبات هذا السفير ان يتفق مع المجمع على مصاريف السفر ايضاً. غير انه بعد ما ذهب الى المجمع ذهب الى البابا ايضاً واتفق معه من دون ان يكون بين القيصر والبابا اتفاق في موضوع السفن والنفقات. ولا يعلم المؤرخون أمن نفسهِ ذهب الى البابا وخالف واجبات رسالتهِ او بايعاز سرّيٍّ.(١) اما البابا فلما علم باستعداد الشرقيين للسفر الى باسيليا اخذ يسعى في ان يجمعهم في ايطاليا ويبعدهم عن مجمع باسيليا. فحالاً جهز سفناً وسلحها كانها ذاهبة الى حرب ضد سفن مجمع باسيليا. وعين اميرالاً عليها الكردينال فرانسوا كوندِلوميرا ابن اخيه وامره ان يجتهد بكل الطرق الممكنة لردع الروم عن السفر الى باسيليا وان يرشو قائد سفن المجمع بالمال الطائل ليعدل عن نقلهم كما قال المؤرخ ابلاتينا ويعد الروم بانهُ يرسل مساعدةً عظيمة اليهم ضد اعدائهم ويستأجر الفي جندي للمحافظة على العاصمة مدة غياب القيصر تحت مصاريفه الشخصية. واذ لم تكن عندهُ اموال كافية للمصاريف باع كثيراً من اوانيهِ الذهبية والفضية ورهن تاجهُ البابوي عند اهالي فلورانسا على اربعين الف فيوريني ليقوم بمصاريف استقبال القيصر ومن معه من الاكليرُس والاتباع مدة اقامتهم ضيوفاً عنده وفقاً لاقتراحهِ ورغبته وحذراً من ذهابهم الى باسيليا(٢).

وفي هذه الاثناء اخذ رؤساء الكهنة ان يجتمعوا في القسطنطينية استعداداً للسفر. فحضر من بلاد الكرج اسقفان ونائبٌ عن الملك. ومن طرابزون المتربوليت ونائب الملك. ومن بلاد الفلاخ والبغدان متروبوليتها وكثيرون معه. وكثيرون من مطارنة الكرسي القسطنطيني. اما متروبوليت الصرب فلم يحضر ولا ارسل نائباً عنه ولا جواباً عن التحارير. ولم يذكر التاريخ سبباً

(١) سيرو ٣: ٥

(٢) ملاه ١٥: ١: ٥

لذلك على ما نعلم غير ما يُسْتَنتَج من تاريخ حضور ايسيدورُس مِتروبوليت روسيا وهو انفة شعوب الصقالبة من احوال كنيسة البابا. اما متروبوليت روسيا المذكور فلم يقم في موسكو اربعة اشهر على ما سبق الذكر (١) الا واخذ يقول للامير الكبير باسيليوس عن عزم الكنيسة اليونانية على الاتحاد مع الكنيسة الرومانية وعن المجمع المسكوني المعين من القيصر والبابا لهذه الغاية. المجمع الذي فيه سيتم الوفاق بين الشرق والغرب اتماماً علنياً. وان الضرورة تقضي بان يكون رئيس الكنيسة الروسية حاضراً فيه ليدافع عن استقامة رأي الكنيسة الشرقية. فلما سمع الامير باسيليوس هذه الاقوال اجابه «ان آباءنا واجدادنا لم يريدوا ان يسمعوا شيئاً عن مثل هذا الاتحاد وانا ايضاً نفسي ارفض هذه الامر» وكذلك فعل سكان البلاد الروسية كلها وامراؤها والاساقفة ايضاً. فانهم لما سمعوا بما كان ايسيدورُس عازماً عليه بعضهم حضروا بالذات وبعضهم كتبوا اليه رسائل. وكانوا كلهم يرجونه ان لا يذهب الى ذلك المجمع او انه ذهب لا يبتعد ولا شعرةً عن التقاليد الرسولية وقوانين الآباء الالهيين. غير ان ايسيدوروس اصرَّ على رأيه وقال انه اقسم للبطريرك على ان يكون في المجمع فلا يمكنه ان لا يذهب. ولكنه وعَد الجميع بانه سيدافع عن العقائد الارثوذكسية من دون ان يخالف الايمان الحقيقي بشيء. حينئذٍ قال له الامير «نحن لا نأمرك ان تذهب الى بلد اللاتين. غير انك لا تسمع بل تريد ان تذهب. فاذكر اذاً نقاوة الايمان وأحضرها معك» فأقسم ايسيدوروس على انه لا ينكر الايمان الارثوذكسي. وفي ٨ من شهر ايلول سنة ١٤٣٧ سافر من موسكو ومعهُ ابراميوس اسقف سودالیا (او سوسدالیا) الارشمندريت باسيانوس والقس سمعان وكثيرون غيرهم من نخبة الاكليرُس واعيان الشعب يناهز عددهم المائة. وكانت وجهته مدينة فرَّارا. غير ان كل ما كان يقوله ويعيده كان خداعاً ومكراً. وقد اتضح مكرهُ هذا وهو بعد على الطريق. فانه لما وصل الى ليبونيا بالقرب من حدود جرمانيا حيث كان كثيرون من الروسيين الارثوذكسيين مقيمين خرج

(١) صفحة ١٦١

لاستقباله الاسقف الارثوذكسي دُرباتس ومعه الكهنة الارثوذكسيون يحملون الصليب والايقونات المقدسة فلما رآهم جيرانهم الجرمانيون وهم يتمذهبون بالمذهب البابوي خرجوا هم ايضاً وراءهم لاستقبالهِ على هيئة مثل هيئتهم. فلما رآهم ايسيدوروس تجنب الارثوذكسيين وصليبهم واسرع البابويين وقبل الصليب منهم اولاً ثم التفت الى الروسيين وقبل ايقوناتهم. فاندهش اتباعه من هذا السلوك وخصوصاً الاسقف ابراميوس فانه همس في آذان الذين حوله قائلاً «يظهر ان الذي عندنا ليس راعياً بل ذِئبٌ لابسٌ ثياب الحمل».

وفيما كان السفراءُ عند البابا وعند مجمع باسيليا يعلنون استعداد الشرقيين للسفر كان القيصر يدعو نخبة الشعب والاكليرُس الى جمعياتٍ يتداولون فيها في مواضيع الاختلاف ويمهدون السبيل للوفاق. ففي احدس الجلسات قام واحد من اشراف المملكة ومن عائلة كندا كوزينوس وكان من المشهورين بالغيرة على العقائد الارثوذكسية وقال للمجتمعين «ان اول اعمال المجمع يجب ان يكون البحث في الزيادة على دستور الايمان لانها هي اهم الاختلافات واعظمها». ومرة قام جاورجيوس سخولاريوس اكبر علماء عصره فالقى خطاباً نصح به الشرقيين نصائح كثيرة قال في جملتها انه اذا كان تقرر عندكم ان يفحص الاعتقاد بكل تدقيق على قدر الامكان وكل ما يبرهن عنه ان شاء الله ببراهين واضحة وصريحة مأخوذة من نصوص معلمي الكنيسة ويصادق عليه المجمع بلا اجبار يكون مقبولاً من المجمع بلا ارتياب منهم ومنا ولا يبقى فيه اختلاف البتة فالامر حسنٌ ... واما اذا كنا عازمين ان نخطو في سبيل سياسة اتحادية كيفما كانت فمن العبث ان تتحمل ملوكانيتك المقدسة والبطريرك القديس اتعاباً واخطاراً وتبذلوا المصاريف الباهظة على ذلك». هذا ما كانوا يشيرون به* على ان القيصر ايضاً لم يكن يريد ان يسلم الروم للاتين بلا بحث وتدقيق. وتحت هذه الغاية قرروا ان تفحص مؤلفات المعلمين الذين ناضلوا قبلاً عن الارثوذكسية في خلال الاختلافات التي قامت بين الروم واللاتين وعلى الخصوص مؤلفات نيلس كافاسيلا متروبوليت سالونيك الذي نبغ في النصف الاول من القرن الرابع عشر وترك مؤلفاتٍ كثيرةً ضد بِدع اللاتين وخصوصاً في إسباب

الخلاف وفي رأس الكنيسة وفي انبثاق الروح القدس. وتقرر ايضاً ان تطلب كتبٌ قديمة من اديرة الجبل المقدس (آثس). ولكن آباء الاديرة لم يرسلوا شيئاً بل حضر كاهنان متوحدان ليحضرا المجمع نائبين عن الجبل المقدس. اخيراً اخذوا يتذاكرون في تعيين رجالٍ اكفاء للمجمع ليكون عليهم الاعتماد في الكلام.

وفيما كان القيصر وسائر الشرقيين ينتظرون وصول السفن من مجمع باسيليا حسب الاتفاق السابق وصلت بغتةً سفن البابا في اواخر ايلول تقل رسولي القيصر وسفيراً من عند البابا وثلاثة اساقفة لاتينيين والدسبوت قسطنطين اخا القيصر من ولايته في بلاد الموره ليستلم زمام الامبراطورية مدة غياب عقدهُ وعل الخصوص حين تدعوك الضرورة الى ان تخيف هؤلاء الاعداء. ولكن اياك ومباشرة عمل الاتحاد ... لأني أخشى من ان يفضي الامر الى شقاقٍ اعظم وتنفضح امام الاعداء»(١). غير ان القيصر لم يصغ الى كل هذه النصائح بل رفضها وعزم ان يسافر على سفن البابا لأنه لم يكن ينظر الا الى أمر واحد وهو الحصول على المساعدة السريعة لتخليص مملكته فكان يصدق اوعاد البابا ويعلق آماله عليها. فتقرر السفر. ولكن قبل ان نحكي سفر القيصر والاكليروس الشرقي ونسرد حوادث المجمع نرى من الواجب ان نبين المصادر التي نأخذ عنها هذه الافادات ونوضح اي المصادر هي حرية بالتصديق لتكون الرواية ايضاً مستوفية شروط التدقيق ولا يبقى ريب لاحد في تصديقها.

مصادر تاريخ مجمعي فرّار وفلورانسا

اننا لكي نبحث في اعمال مجمع فلورانسا يمكنا ان نستعين بالافادات الاصلية التي اثبتها يوحنا متى كاريوفيلي في مجموع اعمال المجامع التي طبعها باللغة اليونانية مع ترجمتها الى اللاتينية. وهذه الافادات ليست تاريخاً متصلاً لكنها افادات متقطعة تتوسط بين تقاطيعها حوادث لم تذكر فيها.

(١) جاورجيوس فرانزيس ٢: ١٣

ومع ذلك فان هذه الافادات المتقطعة معها فيها من النقص يجب ان تكون اصدق كثيراً من النسخة التي طبعها اللاتين في مجموع اعمال المجامع باللغة اللاتينية فقط سنة ١٦٤٤ اول مرة والتي اراد ناشرها ان يجعل لها نصيباً من الاهمية فافتتحها بالمقدمة الآتية وقال «انه في موضوع المجادلات العمومية التي قامت بين اليونانيين واللاتينيين ساد سكوتٌ عميقٌ جداً عند الجميع مدة قرن كامل تقريباً اعني من عصر البابا افجانيوس الرابع الى اكليمس السابع. وان يكن معلوماً ان تلك المجادلات سُطرت من مؤلفين وكتبة مجامع كثيرين. ففيما كانت النسخ اللاتينية الاصلية مهملة على هذه الصورة في الخزائن والمكاتب طعاماً للسوس طُبعت في رومية على عهد اكليمس السابع سنة ١٥٢٦ نسخة خطية يونانية لمؤلف غير مذكور ومعها ترجمتها الى اللاتينية. وهذه النسخة الخطية عينها طبعها كاريوفيلي في كتاب المجامع العام على عهد البابا بولس الخامس مع ترجمةٍ غير المذكورة. ولكن كثيرين كانوا ينتظرون ان تطبع وتنشر نسخة اصلية من قلم مؤلفين لاتينيين في الموضوع عينه للفائدة العمومية. وانا نفسي وجدت في مكتبة الفاتيكان نسخةً خطيَّةً قديمةً مكتوبةً بيد اندراوس بطريق رومية متشرع المحفل الرسولي وهو من الذين كانوا يجلسون في المجمع».

هذا ما قاله هذا العالم الغربي في نسخته اللاتينية سنة ١٦٤٤ اي بعد مائتي سنة ونيف. ولكن مؤلفاً آخر شرقياً لما قرأ هذه العبارة قال «انه من العجب العجاب كيف الرومانيون الذين كانوا بكل اجتهادٍ ووعي يجمعون كل اعمال المجامع القديمة اظهروا الآن على غير انتظارٍ عدم اكتراثٍ لموضوع من اهم المواضيع عندهم ألا وهو موضوع مجمع فلورانسا حتى انهم ضمنوا مائة سنة عن المجمع المذكور. وبعد كل هذا الصمت طبعوا ترجمةً لنسخة يونانية خطية مجهولة المؤلف والكاتب وأخيراً بعد مائتي سنة قالوا بانهم وجدوا النسخة الاصلية اللاتينية حال كون هذه النسخة مملوءةً فقراتٍ من الآباء القدماء مزورة) كما لو قابلنا مثلاً رسالة البابا رامسيس الى باولينوس في الروح القدس والرسالة التي يذكرها ويثبتها بنوع خصوصي ثاودوريتوس في تاريخه الكنائسي وغيرها من امثالها). فلماذا يا ترى لم

يذكر الرومانيون الكتاب المعاصر للمجمع الذي ألفه سيلبسترُس سيروبولوس الرئيس الكبير لطقس كنيسة القسطنطينية احد اعضاء ذلك المجمع ونشره في القسطنطينية حالاً بعد المجمع وكان منشوراً على العموم في كل مدة المائة السنة التي قيل ان اللاتين صمتوها؟ ولا ريب في ان هذا الكتاب صار بعد سقوط العاصمة شائعاً ومعروفاً في ايطاليا ايضاً لان اليونانيين الذين هاجروا اليها اخذوا معهم الكتب التي كانوا كتبوها. وهو يصف وصفاً كاملاً لا اعمال المجمع فقط بل بالاكثر الظروف التي تقدمت المجمع وعقبتهُ والاسباب التي كانت تلقن المجمع كل قرار من قراراته. وقد كتب من رجلٍ كان عضواً عاملاً فيهِ وواحداً من الخمسة الذين كانوا اقرب مشير للبطريرك وهو مُعنونٌ بهذا العنوان «تاريخ حقيقي للاتحاد الغير الحقيقي» وليس في الامكان ولا من سبب لان يرتاب احدٌ في صحة رواية سيروبولوس. ليس لان افاداته تتفق في اكثرها مع الافادات المذكورة (في طبعة كاريوفيلي) وتكمل المحذوف منها فقط بل لان المؤلف نفسهُ لم يعتن قطعياً في ان يخفي شيئاً من الظروف الزمنية الغير المسرة ولا ان يغطي على شيء من اعمال القيصر والبطريرك والاساقفة الآخرين الناشئة عن صغر النفس حتى ولا ان يستر على نفسهِ ايضاً في موضوع انضمامه على غير رضىً منه الى الاتحاد. فيما انه من وجه آخر يبرر تبريراً تاماً ثبات مرقس مطران افسس ويمدحه حتى اصبح باخلاصه العظيم في الرواية مستحقاً ثقة القراء الذين اذا لم يتنوروا من تاريخ سيروبولوس يصعب عليهم ان يفهموا افادات كاريوفيلي التي يُقصد بها الدفاع نوعاً ما عن رومية».

فمن كل ذلك يتضح ان افضل تاريخ يحق لنا ان نستند عليه في حكاية مجمع فلورانسا هو تاريخ سيروبولوس* اما سيلبستروس سيروبولوس فكان ابن كاهن وواعظ تعلم عنده العلوم ودرس على كثيرين من الفلاسفة وأهل العلم والتقى[1] وكان شماساً في كنيسة القسطنطينية ورئيساً اكبر

(١) سيرو ٩: ١٤

لطقسها وحافظاً لحقوقها. وقد رافق البطريرك الى مجمع فلورانسا وكان عضواً فيه كما تقدم. وعليه يكون قد سمع باذنيه ورأى بعينيه كل ما حصل فيه. وكثيراً ما حضر اجتماعات الاساقفة الخصوصية وارسل مع غيره الى البابا. وقد برهن في ظروف كثيرة غيرتهُ الحارة على الارثوذكسية وانفتهُ من الاتحاد مع المبتدعين حتى انه كثيراً ما وقع تحت غضب القيصر بهذا السبب واضطهد من اللاتين ومن اليونانيين المنحازين الى آرائهم. وأخيراً لما حكمت عليه الضرورة امضى قرار المجمع ولكنه ندم بعد ذلك ندامةً خالصةً ونبذ الاتحاد واستعفى وظيفته الكنائسية وكتب التاريخ المذكور.

وبما ان هذا التاريخ ينتهي عند حَوادث سنة ١٤٤٤ ـ ١٤٤٥ يحتمل انه كتب في هذه السنة في حياة القيصر يوحنا باليولوغس وغيرهِ من الذين كانوا في المجمع. وهذا افضل بينة على صحة رواية كاتبه وصدقه. على انه هو نفسهُ يقول في جملة محلات انه لا يتوخى غير الحقيقة[1] وانه كان ترك جملة حوادث لصعوبة تصديقها لو لم يكن شهودها احياء[2] ومع انه لا يذكر المجادلات العلنية كثيراً ما يثبت حرفاً حرفاً المداولات الخصوصية التي كان الاساقفة يتداولونها[3]. اما المراسلات التي جرت بين القيصر والبطريرك وبين البابا فينقلها عن السجل الكنائسي [4]. وكذلك يثبت بعض اعمال المجمع مثل رأي البطريرك والقيصر في انبثاق الروح القدس واعتراضات الاساقفة الشرقيين على اللاتين[5] وكل ما يرى نفسه مرتاباً فيه لا يقول فيه شيئاً بل يثبته كما سمعه[6] وهو وان كان يذكر الذين كانوا سبباً للاتحاد فلا يعرض عن ذكر ما لهم من الفضائل[7] وعن ذكر المدافعين عن الايمان الارثوذكسي[8]. وأخيراً يعترف ببسيط العبارة وباخلاص الرواية كيف اضطر هو نفسهُ ان يوقع على القرار ولا يبريء نفسهُ بعذر سوى بقوله انه لم يفعل ذلك تحت مكافأة مالية[9]. وبالاجمال فان ما كتبه سيروبولوس

(١)١١: ٤ (٢) ٣:١ (٣) ٥: ٥ (٤) ٢: ٨ (٥) ٩: ٩ و١٠ و٨: ١١ و١٤ و١٧ و١٩ (٦) ٨: ١٢ (٧) ٦: ٢٣ ـ ٢٤ (٨) ٩: ٦ (٩) ١٠: ٨

ينطبق في اهم افاداته على ما ألفه غيرهُ من الروم واللاتين في موضوع هذا المجمع وكل ذلك يبرهن حسن ذمة المؤلف وصدق الوارد في مؤلَّفِه.

على ان سيروبولوس وان لم يذكر تفصيل المنازعات التي قامت في المجمع لكنه يزيح الستار عن البواعث والغايات التي كانت تسوق القيصر والبابا ومن كانوا على رأيهما. ثم انه يحكي ايضاً العلاقات السرية الخصوصية بين اللاتين واليونان التي كانت تعقب الجلسات العلنية وبهذه الواسطة يبسط أشعةً منيرةً على القسم المظلم من اعمال المجمع القسم الذي لولا تاريخ سيروبولوس لما استطاع احدٌ ان يفهمه. ولم يخطئ من قال انه لولا تاريخ سيروبولوس لكانت سائر التواريخ عن هذا المجمع غير مفهومةٍ.

ومن الذين كتبوا تاريخاً لهذا المجمع دوروثاوس مطران مدله احد اعضاء المجمع الفلورنسي وتاريخهُ افضل كل التواريخ التي نشرت من كنيسة رومية. وقد ألفه باللغة اليونانية واكثر فصولهِ تشتمل على المجادلات التي جرت في الجلسات وهي على الغالب منقولة عن اعمال المجمع التي يذكرها المؤلف احياناً. وحيث تنقطع الجلسات يبدأ المؤلف بسرد تاريخ يومي مختصر لأهم مذكرات الاساقفة اليونانيين. ومن حيث ان المؤلف كان من اهم المساعدين للاتين على الاتحاد لا يذكر من تلك المذاكرات سوى ما يراه مهماً لغايته. ولكن الذي يقابل بين كتاباتهِ وكتابات سيروبولوس يفهم ما يراه غامضاً في كتاباته ويرف ما كتبه تحت عوامل الغرض ويميز بين صحيح الرواية وفاسدها ويكمل التاريخ حيث تعمد دوروثاوس نقصه.

ومن بعد هذه اللمحة في مصادر تاريخ مجمع فيرَّارا وفلورانسا ننتقل الى ذكر الحوادث وندرج الفرق في الروايات حيث تختلف ليكون القارئ على بصيرة في كل شيء.(١)

(١) اعلم ان الاشارة «سيرو» في ما يأتي تشير الى تاريخ سيروبولوس الذي يستند عليه الشرقيون. والاشارة «ذورو» تشير الى تاريخ دوروتاوس الذي يستند عليه الغربيون.

سفر الروم الى المجمع ومجيئهم الى فيرَّارا

قلنا ان القيصر يوحنا باليولوغُس بعد اعمال الفركة طويلاً اعتمد ان يسافر على سفن البابا الى ايطاليا لأنه ظن انه بهذه الواسطة يحصل على المساعدات التي كان يعده بها ليخلص مملكته من الحالة التعيسة التي وصلت اليها في الوقت الذي صارت فيه تخومها ضيقة جداً وكان يريد خراجاً للسلطان مراد وكان الامر والنهي في يد السلطان الذي كان يجمع عساكره المعروفة بالانكشارية من ابناء الروم وكان الاتراك يهدمون ويغنمون ينقلون سكان البلاد والقيصر ويضطر ان يسكب لضعفهِ لان عساكرهُ كانت مستأجرة وعمارته البحرية لا تذكر وخزينته فارغة الى درجة اجبرته ان يبيع مدينة سالونيك كما تقدم ليقوم بمصاريفه. فلهذه الاسباب ولما كان يسمعه من اوعاد البابا بالمساعدة عزم على ايطاليا من دون ان يحسب عاقةً للاحوال الرديئة التي كانت سائدة في تلك البلاد ومن دون ان يسمع نصيحة احدٍ من كبار الرجال كما ذكرنا. غير انه رأى ان يعلن سفره الى السلطان مراد الثاني. اما السلطان فو إن كان عالماً غرضهُ من هذا السفر لم يرضَ ان يفاتحهُ به بل اظهر عدمُ استحسانه كما ذكرنا وقال له: لماذا هذا التعب وهذه المصاريف كلها؟ فان كنت محتاجاً الى مالٍ فأنا اعطيك مهما شئت. ولكن لما اصر القيصر على السفر همَّ السلطان ان يحاصر القسطنطينية. غير ان وزيرهُ خليل باشا اوقفه عن عزمهِ وقال له: ان انت حاصرتها الآن فالقيصر يقبل بالاتحاد كيفما كان ويستعين بكل أوروبا ضدك. ولكن اذا لبثنا مسالمين له فنتيجة سفره تبقى غامضة. فان تم الاتحاد يمكننا ان نؤخر الهجوم عليها وان لم يتم يمكننا ان نباشرهُ حالاً على آمالٍ بالنجاح اعظم من آمالنا الآن وهكذا كان. ولهذا السبب قال المؤرخ جاورجيوس فرانزيس «ان مسألة مجمع فلورانسا كانت اول واعظم سبب لهجوم الاعداء على القسطنطينية وهي سبب حصارها وأسر سكانها ومصائب اهلها». والله اعلم.

على ان البطريرك يوسف مع ما كان عليه من تقدم سن الشيخوخة ومع ما كان عليه من الضعف والمرض عزم بكل رغبة على مرافقة القيصر في هذا

السفر الكثير الاتعاب والعظيم المشاق لا لكي يساعده في امر الحصول على مساعدة اوربابل كما قال سيروبولوس لانه أمل انه «بواسطة البابا يحرر الكنيسة من العبودية التي كان القيصر يضعها تحتها» فمما تقدم يتضح انه لا القيصر ولا البابا ولا البطريرك عقدوا مجمع فيرارا وفلورانسا عن اخلاص للنظر في التعليم الصحيح المستقيم بل ان كل واحد منهم كانت لهُ غاية خصوصية اما القيصر فليحصل على مساعدة الغرب واما البابا فليتخلص من مجمع باسيليا واما البطريرك فليزيد مركزهُ نفوذاً امام السلطة الزمنية ويتخلص من سيطرتها. ولهذا السبب لا عجب اذا رأينا عاقبة هذا المجمع وخيمةً ونهايتهُ زيادة الشقاق بدلاً من الاتحاد والوفاق. على ان الديانة المقدسة لم تعدم في مثل هذه الظروف ابطالاً يدافعون عنها لا بالصولة العالمية بل بسيف الروح ذي الحدين كما سنرى في ما يأتي مفصلاً.

فلما صدر الأمر بالسفر عين البطريرك يوسف الاساقفة الذين يرافقونه فكانوا جميعاً مع أساقفة طرابزون والكرج والفلاخ اثنين وعشرين رئيس كهنة بين مطارنة ورؤساء اساقفة واساقفة وهم مرقس مطران افسس ودوسيشاس مطران طرابزون وانطوينوس مطران هرقلية ومتروفانيس مطران كيزيكوس وبيصايون مطران نيقيه ومكاريوس مطران نيقوميديه وديونيسيوس مطران سارويس ومطارنة طرنوبا ومونمباسيا والموره واماسيا ومدلّه وسطاوروبولِس والفلاخ ورودُس وميلانيكوس ودراما وغانو ودريسترا وانشيالو ومِتروبوليت الكرج ومعه اسقف واحد. ومن ثم وُزّعت صكوك الوكالة على نواب البطاركة الشرقيين. وقد امتاز بين هؤلاء الاساقفة مرقس مطران افسس وبيصاريون مطران نيقيه وانطونيوس مطران هرقليه في غزارة العلم ووفرة المعارف. ولكن الذي امتاز عنهم جميعاً في ثبات العزم والغيرة على العقائد الارثوذكسية والرأي القويم كان مرقس مطران افسس.

وقد ولد مرقس في مدينة القسطنطينية وتعلم علومهُ فيها وانصبّ من حداثةِ سنهِ علسى تعلم العلوم اللاهوتية وبرع بنوعٍ خصوصيٍّ في فن الخطابة ومن ثم انتدب رئيساً لمدرسة القسطنطينية وذاع صيتهُ في براعة الخطابة والفصاحة حتى كان يُدعى من كل جهةٍ الى إلقاء الخطب في

المواسم والاعياد وكل احتفال. وقد انتظم في سلك الاكليرُس القسطنطيني مدةً ثم اختار العيشة الانفرادية فدخل الدير الذي في منكانا وأقام لوحده يواظب بكل اعتناءٍ درس الكتب المقدسة وكتب الآباءِ القديسين الى ان تعمق تعمقاً تاماً في اساسات التعاليم الارثوذكسية ووقف على صخرتها الوطيدة وقوفاً تاماً. ولما كان من الفطرة ذا عقلٍ ثاقب وذهنٍ متوقدٍ وكان يسهل عليه كشف كل فسادٍ خفيٍّ في كلام اضداد الارثوذكسية وكانت الاجوبة عن كل سؤالٍ في اي موضوعٍ كان حاضرة على لسانه في كل وقت. اما تقواهُ العظيم فقد جعلهُ في اعلى درجةٍ من الثبات على الحقائق القويمة حتى كان يفضل الموت على خيانة الحقيقة عند اللزوم.

واما بيصاريون فكان غنياً في المعارف مثل مرقس يسمو بها على معاصريهِ ويمتاز على مرقس نفسهِ في فصاحةِ اللسان وصناعة الكلام. وكان الجميع يسمونهُ فيلسوفاً خاذقاً وعاشقاً لافلاطون هائماً. وقد ذكر المؤرخ سيروبولوس ان القيصر كلف مرقس وبيصاريون بان يكتب كلٌّ منهما رداً على اللاتين فلما احضر جوابيهما اختار القيصر جواب مرقس لأنه كان ممتازاً بقوة البراهين ومدح جواب بيصاريون لانه كان ممتازاً بصناعة الكلام واحكام الاوضاع[1]. وكان القيصر يحب بيصاريون محبةً كثيرة حتى انه عندما ذهب الى المجمع جعله مستشاراً له. غير انه كان ينقصه ثبات العزم وحب الحقيقة حباً نقياً خالياً من استخدامها للارباح المادية كما كان ينقصهُ التربُّص والتبصُّر في المسائل وكلها مزايا شريفة كان مرقس في اعلى درجاتها. فلذلك ولما كانت محبة الذات متملكةً في بيصاريون كان امرها سهلاً بان تقودهُ الى مخاصمة مرقس ومناظرته بدلاً من ان يكون مساعداً له في العمل العظيم الذي دعاهما اليه القيصر[2].

واما البطريرك القسطنطيني يوسف الذي نظراً لوظيفته كان قادراً ان يعمل اعمالاً عظيمةً في المجمع فبرهن في كل مدة رعايته ان الحمل الذي أُلقي عليه من الكنيسة ومن الظروف كان يفوق مقدرتهُ لانه لما كان قد وصل

(١) ٥:٥ و ١٤ (٢) ٥: ١٦

الى درجة شيخوخة متناهية وغلب عليه الضعف حتى كان يستثقل كل حركة ويخضع في كل امر تقريباً للسلطة العالمية لم يعد في استطاعته الدفاع في المجمع عن استقامة الرأي كما يجب امام اعدائها الاقوياء. نعم كانت تظهر منه احياناً غيرة على حقوقها لكنه لم يكن له سلاح يدافع به ولا جسارة ولا عزم يدخل معه الى ميدان الكفاح علانيةً. على انه وان كان يؤمل ان ينجح في كفاحهِ ويخلد لنفسه مجداً عند المتأخرين كان ينظر ايضاً ويستدرك عكس ذلك فكان يقول للذين حوله «واذا كانوا (اللاتين) يستعملون الاجبار فنحن قطعياً لا ننحرف في شيءٍ عن رأي آبائنا الصحيح ولو عرضونا الى العذابات. لكننا نفضل ان نحتمل كل شيء عن ان نزعزع شيئاً مما تسلمناهُ من المجامع المقدسة المسكونية ومن معلمي الكنيسة القديسين ومن ثم اما نموت شهداء فعلاً او نصير شهداء بنيتنا»[1]. غير ان الزمان لم يشهد على ثباته في هذا الكلام* وقد تقرر ان يتبع البطريرك الى المجمع ستة اشخاص من اكليروس كنيسة القسطنطينية العظمى بوظيفة مستشارين له كان احدهم رئيس الطقس الكنائسي سيروبولوس كاتب تاريخ هذا المجمع. ومن رجال معيته ايضاً ثلاثة من رؤساء الاديرة غريغوريوس رئيس اعتراف القيصر وثلاثة من الكهنة المتوحدين وكثيرون من الشمامسة والرهبان والمرتلين[2] ومن هؤلاء الاكليريين كان الاب الروحي غريغوريوس مقلداً وظيفةً خصوصيةً وهي نيابة البطريرك الانطاكي وكان ايضاً ذا دالة عند القيصر ومن اقرب مقرّبيهِ. فكان قادراً ان يستفيد من كل هذه القوة الادبية ليعمل اعمالاً تنفع ولكنه نظراً لدناءتهِ وتجردهِ من كل رمزية ممدوحة واتصافهِ بالافراط في الكبرياءِ ومحبة الذات كان ممقوتاً من الجميع وكان مضرًّا للكنيسة فضلاً عن انه لم ينفعها. ومن الغريب انه استطاع ان يحصل على ثقة القيصر ومحبته خلافاً لما كان نيتظر من نباهة القيصر ورزانته.

ثم انه عدا الاكليرُس تبع القيصر علمانيون كثيرون في ايطاليا.

(١) سيرو ٣: ١٦ (٢) ٣: ١٥

فمنهم اخوه السيد ديمتريوس والعالم جاورجيوس سخولاريوس الشهير في المعارف الدينية والفلسفية احد اصدقاء مرقس وتلاميذهِ. ومنهم ايضاً الشيخ جيمستوس (المسمى ايضاً ابليثون) الذي كان وقتئذٍ فيلسوفاً معدوداً وكان الملك في ابتداء المخابرات يستشيرهُ كما ذكرنا[1] وقد ظهر في المجمع محامياً قوياً عن استقامة الرأي[2] وكان يعلم الفلسفة في فلورانسا. ومنهم ايضاً جاورجيوس اميروتسي وغيرهم.

ثم ان البطريرك اراد ان يشخص كنيسة القسطنطينية في الغرب بكل عظمتها ومجدها. فأمر بأن تُحمل معه اثمن الاواني والحلل الكنائسية وأبهجها من هيكل اجيا صوفيا. كما ان القيصر ايضاً استصحب بأفضل الذخائر الملوكية وكل ما كان باقياً من التحف القديمة. وقد دفع القيصر الى رجال الاكليرُس ست آلاف فيوريتي من المبلغ الذي أخذهُ من اللاتين وهموا بالسفر.

ففي اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٤٣٧ قدّم الامبراطور والبطريرك مع الاكليرُس والشعب ابتهالات وصلوات كثيرة في الكنيسة العظمى وفي دير السيدة المسماة بالمرشدة وكانوا في صلواتهم يضيفون الى الطلبات هذه الطلبة وهي «وايضاً نطلب من اجل سلامة وتوفيق واصلاح واتحاد كنائس المسيح»[3] وبعد ان صلوا وطلبوا من الله المعونة دخلوا سفن البابا واقلعوا.

واذ كانوا بعد على الطريق حضر الكاردينال نيقولاوس آلبرغاتي وبعض الاساقفة الى فيرَّارا وبدأ المجمع حسب امر البابا[4]. وفي ٨ كانون الثاني سنة ١٤٣٨ عقدوا اول جلسة حضرها ٣٣ اسقفاً اكثرهم من اقلية مجمع باسيليا الناقمة وفي مقدمتهم الكردينال يوليوس قيصر يني. وقد تلي في تلك الجلسة امر البابا بمواصلة النظر في القضايا التي بدأها مجمع

(١) صفحة ١٤٦ وسيرو ٦: ١٠ (٢) ٧: ٨
(٣) سيرو ٤: ١ و ٣: ١٨ (٤) صفحة ١٦٣

مجمع باسيليا وعلانهُ ان كل ما يعلمهُ ذلك المجمع بعد صدور الامر البابوي بحله لاغٍ لا يعتد به. وفي ١٤ شباط عقد جلسةً ثانيةً حضرها البابا نفسهُ والكرادلة وغيرهم حتى كان عددهم يزيد عن السبعين. فتلي فيها امر بابويٌّ ملخصهُ ان جميع الاعضاء الذين لم يزالوا مجتمعين في باسيليا مفروزون من الكنيسة ومجردون عن وظائفهم سواء كانوا اكليرُساً او علمانيين. اما حكام تلك المدينة فمأمورون تحت الوعيد بقصاص الحرم ان يطردوا منها في ميعاد شهرٍ واحدٍ جميع آباء المجمع الباقين(١).

على ان مجمع باسيليا ايضاً رجع وكرر جلساته. ضد مشروع البابا فعقد جلسةً في ٢٤ كانون الثاني وأخرى في ٢٤ آذار أعلن فيهما ان عمل البابا لاغٍ ومجمع فرَّارا غير شرعيٌّ وكل اعمالهِ ساقطة لا يمتد بها. ثم انه في ٢٦ تموز اصدر امراً الى البابا ليأتي بنفسهِ امام المجمع ويبدي اعذارهُ وتهدده بالقطع ان خالف وامر ايضاً بان يحضر جميع الكرادلة والاساقفة المجتمعين في فرَّارا ان لم يحضروا في مدة شهرٍ واحد يُعاقبوا العقاب الكنائسي. فاذ لم يحضر البابا في الوقت المعين اجتمع المجمع وقرر انه متمردٍ وعاصٍ ومستحق العقاب. ومن ثم حكم عليه بالربط والاتناع عن كل الواجبات والخدَم الدينية والدنياوية الى ان يصدر الحكم النهائي عليه. وهكذا قام النزاع بين المجمعين واشتد الخصام اشتداداً عظيماً حتى كان كل واحد منهما يسمى الآخر «جمعيةً شيطانيةً». هذه كانت حالة الكنيسة الغربية في هذا الوقت. شقاقاً وخصامًا ومنازعات وحرومات وكل نوع من انواع العداء والنفور في الوقت الذي كانت تدعو فيه الكنيسة الشرقية الى الاتحاد معها. ومن العجب الغريب ان الاشخاص الذين عرضوا انفسهم ليصالحوا الكنيسة الشرقية مع كنيستهم هم هم انفسهم كانوا سبب شقاق الكنيسة الغربية وانقسامها بعضها على بعضٍ حتى ان واحداً من اخص ابنائها إنيَّاس سيلبيوس وهو الذي صار فيما بعد بابا وسُمي بيوس الثاني

(١) فلوري ١٠٢: ٢

كتب في ذلك الوقت بكل حقٍّ وإحكام العبارة الآتية «ان للشرق يضحك من حماقة اللاتين الذين وهم مقسومون بعضهم على بعض يطلبون اتحاد الآخرين معهم»(٢).

اما الشرقيون فقد اقاموا في سفرهم نحو شهرين ونصف في قلب الشتاء وكابدوا من مشقات السفر في تلك الايام مالا تخفى على احد. على ان القيصر لما وصل الى كينخرياترك سفينتهُ وقطع شبه جزيرة المورة راكباً حصانًا الى ان وصل الى بيلوس حيث لاقته سفينتهُ فاستقلها قاصداً البندقية. وفي اليوم الثامن من شباط سنة ١٤٣٨ وصلوا سالمين الى هذه المدينة. فاستقبلهم حاكمها وهيئة مشيختها استقبالاً حافلاً جداً. وكان من جملة التحف العجيبة التي شاهدها في هذه المدينة اولئك الضيوف الرسميون مصنوعات الشرق البديعة الصنعة والكنوز والذخائر الثمينة التي سلبها اللاتين من عاصمتهم القسطنطينية حين استولوا عليها ايام الحروب الصليبية. ولا شك انهم لم ينظروا هذا المنظر بلا غم قلب وتقطب وجه وحزن نفس حالما وطئوا تلك الارض. فلما علم البابا بقدومهم ارسل الكردينال نيقولاوس آلبرغاتي الذي باشر مجمع فرَّارا والكردينال يوليانوس قيصريني ليدعُوا القيصر والبطريرك الى فرَّارا. فرجع الشرقيون ووقعوا في ارتباك جديد اذ سمعوا باشتداد الخصام بين المجمعين واخذوا يفتكرون الى اي المحلين يذهبون إلى فرَّارا ام الى باسيليا؟ اما دوق البندقية فكان ينصحهم ان ينتظروا سفارة مجمع باسيليا. ولكن السفير خريسطوفورس اقنع القيصر والبطريرك بهدايا ومواعيد متنوعة ان يتوجهوا الى البابا فقبلوا(٢). وقد اقاموا في البندقية عشرين يوماً كانت فيها تلك المدينة موضوع اعجابهم ودهشتهم حتى ان بعضاً من الاساقفة كانوا يسمونها على قول ذورثاوس ارض الميعاد(٣). ولا يخفي ان في هذا الاعجاب ما فيه من التأثير على هؤلاء

(١) باباريغو ٥: ٣١٨

(٢) سيرو ٤: ١٢ ـ ١٤ (٢) صفحة ٦

الاساقفة الذين اذا قابلوا ما وصلت اليه مملكتهم من الانحطاط بما رأوهُ عياناً في البندقية من الراحة والحرية والغنى لا يضنوا في ان يبذلوا كل غال ومرتخص في سبيل المسالمة التي كانوا يأملون منها خيراً لبلادهم.

وفي اليوم الثامن والعشرين من شباط قام القيصر من البندقية قاصداً فيرَّارا. ولما قرب منها خف لملاقاته الى قرية فرانكوليني على بعد ساعةٍ ونصف سفير البابا وحاكم المدينة وآخرون غيرهما من ارباب الوظائف الاكليرية والعالمية. وفي اليوم التالي رابع آذار دخل فرَّارا باحتفاء واحتفال عظيمين يتبعه الاساقفة الغربيون وحاشية البابا والحكومة. وعند دخولهِ استقبلهُ مركيز المدينة باعتبار فائق الوصف وكان اولادهُ مشاةً حول القيصر يحملون مظلة تظلله على شكل قبة السماء الى ان وصلوا به الى البابا[1]. وكان البابا في قصره مع الكرادلة والاساقفة ورؤساء الاديرة ينتظرونه. فلما دخل القيصر عليه قام البابا وقبله وقدم يمينهُ اليه فقبلها ثم اجلسه بقربهِ. فسأله البابا عن البطريرك والاساقفة فأجاب انهم تأخروا لسبب اعداد سفينة تقلهم. على ان البطريرك لما سمع ان القيصر سبقه الى فرَّارا استاء وقال للذين حوله «كان الواجب اما ان يصل القيصر والبطريرك معاً او ان تسبق الكنيسة لا ان تتبع من ورائه». ومن هذا يتضح ان سبب تأخير البطريرك لم يكن إعداد السفينة بل امراً آخر في ذهن القيصر. فان القيصر اذ كان عالماً بما لكل واحد من الحبرين من المطاليب على الآخر خشي من ان يتقابلا على حين غفلةٍ ولا يُحسنا المقابلة احدهما للآخر فيخصل اذ ذاك نفورٌ يعسر زوالهُ وتتلبك الامور من اولها. فرأى ان يسبق ويقابل البابا ليمهد طريق حسن المقابلة. هذا هو الرأي الاصح. خصوصاً وان البطريرك وهو بعد في البندقية كان يقول لاحد مقربيه «اذا كان البابا كبر مني في عدد السنين احسبه اباً لي. وان كان مساوياً لي في السنين اعتبره اخاً لي. وان كان احدث مني سناً اعتبره ابناً لي». على ان القيصر بعد ان اقام عند البابا برهة جرت فيها مذاكرة سرية بينهما ذهب بالاحتفال الذي دخل به الدينة الى القصر المعد لنزولهِ.[3]

(١) باباريغو ٥: ٣٢٣ (٢) سيرو ٤: ١٧ (٣) ودورو ٨ ـ ١١

اما البطريرك فوصل الى فرَّارا في ٧ آذار وقبل وصوله أُرسلت اليه سفينة جميلة تقله من فرانكوليني مع الاساقفة وسائر الاكليرُس. واذ فهم القيصر من مقابلته البابا انه يريد من البطريرك ان يسجد له الى الارض ويقبل حذاء رجله عند اول مقابلةٍ اسرع وارسل فارساً يخبر البطريرك بذلك. فلما سمع البطريرك هذا الطلب اضطرب وعزم ان لا يخرج من السفينة الا بعد تعيين المقابلة بصورة قطعية واجاب القيصر بالاعتراض على هذا الطلب المخالف للقانون وللياقة. ثم ان البابا نحو نصف ذلك النهار ارسل ستة من اساقفتهِ الى البطريرك ليهنئوهُ بالسلامة ويبلغوهُ وجوب قبولهِ التسليم المعتاد بتقبيل الحذاء. فاجابهم البطريرك انه لا يقبل قطعياً بشيءٍ غير القبلة الاخوية الكنائسية القديمة. وهذا الطلب نفسهُ طلبه ايضاً لسائر الاساقفة واصحاب الوظائف الذين كانوا معهُ وقال «انه لا يمكن ان اخرج من السفينة على غير هذا الشرط. فانه يظهر ان الاجتماع والمذاكرة الحاضرة ليست سائرةً على وجه مقبول امام الله». ثم جمع اساقفته وأخبرهم بطلب البابا ولم يخفِ عنهم تأثره منه. فأجابه مطران طرابزون وقال له «ألا تذكر كيف ونحن بعد في القسطنطينية كنا ننصح لك بالاَّ تتسرع بدون فحصٍ وكيف لم نكن نسمع منك الا جواباً واحداً وهو: ان البابا عازم ان يستقبل الجميع بمحبة واعتبار؟» وقال له مطران هرقلية «اني لما قابلت البابا انا ومطران مونمباسيا لم نقبل رجلهُ ولا حسبنا حساباً لغضبه». ثم ان البطريرك التفت الى اساقفة البابا وقال لهم «من اين للبابا هذا الحق او اي مجمع قرر له هذا الامتياز؟ واين كتب هذا القرار؟ فان كان هو خليفةً لبطرس فنحن ايضاً خلفاء لسائر الرسل. أفلعلَّ الرسل قبلوا رجل القديس بطرس؟ من سمع هذا الأمر؟» فأجابه الاساقفة ان هذه عندهم عادةٌ قديمة وهي مرعية من الاساقفة والملوك وقيصر جرمانيا والكرادلة انفسهم الذين هم اعلى من القيصر. غير ان البطريرك اصرَّ على انه لا يقبل المقابلة الا اخوية وانه لا يخرج من السفينة ولا يسمح لاحد من جميع الذين معه ان يخرج ما لم يعدل اوجانيوس عن هذا الطلب الغير العاقل المخالف لكل نظام كنائسي. وفي اثناء ذلك رجع القيصر وارسل الى البطريرك رسولاً ثانياً يقول له: انه لم يزل في نزاع مع البابا بسبب شرف البطريرك. وكان في واقع الامر يؤيد بكل قواهُ اعتراض

البطريرك. اما البابا فلخوفه من ان يرجع البطريرك من حيث جاء او بالحري لخوفه من ان يتركه ويذهب الى باسيليا سلم له تحت برقع حب السلام وقال «انهُ لصالح السلام ولكي لا يحصل من السبب الحاضر عائقٌ ما لهذا العمل الالهي عمل الاتحاد يتنازل عن حقه»(١) ولكنه بعد ما كان قد قرر قبلاً ان يستقبل رؤساء الكنيسة الشرقية في حفلة حافلة بالاشراف والاعيان وارباب الرتب والوظائف طلب الآن ان يستقبلهم في حجرته الخصوصية. فرضي البطريرك.

وفي صباح يوم السبت ثامن شهر آذار حضر الى البطريرك كرادلة وخمسة وعشرون اسقفاً ومركيز المدينة مع ارباب الوظائف ورافقوه ومن معهُ ركوباً على الخيل الى قصر البابا. قدخل عليه البطريرك مع ستة من المطارنة ووجدهُ واقفاً في قاعة واسعة لا في غرفة كما كان الاتفاق. فقبلا احدهما الآخر قبلة اخوية. ثم تقدم الاساقفة وتبعهم الباقون ستةً ستة وكانوا يقبلون وجه البابا ويمينه. ولم ينقل البابا مكان الاستقبال من الغرفة الخصوصية الى تلك القاعة الواسعة بلا قصد بل عمداً. وبعد ان تبادلا عبارات مختصرة كان يترجمها خريسطوفورس سفير البابا جلسوا جميعاً وكان البابا جالساً على عرشٍ عال والكرادلة على كراسيهم عن يمينهِ والبطريرك مقابلاً لهم عن يسارهِ وكان اعلى كراسي البطريرك والكرادلة مساوياً لموطئ اقدام البابا. اما الاساقفة فلم يبقَ منهم مع البطريرك غير الذين دخلوا اولاً ومع ذلك لم يُسمح لهم بالجلوس بل كانوا وقوفاً على الاقدام فكأن هذه المقابلة كانت مكدرة للشرقيين وللبابا معاً وبدءاً لفتور العلاقات وسوء الظن بين الجهتين.

ثم ان البطريرك طلب من البابا ان يسمح له باقامة الصلوات في بيتهِ على ترتيب كنيستهِ الشرقية ومن ثم انتقل هو وكل معيتهِ الى البيت الذي كان معدّاً لنزولهم. وقد تناولوا الغذاء في ذلك اليوم عند مركيز المدينة في وليمةٍ عظيمة اعدها لهم.

(١) سيرو ٤: ١٨ ـ ٢١

وفي اليوم التالي (يوم الاحد) اقاموا القداس الالهي في بيت البطريرك عينه برضى البابا وكان ذلك القداس احتفالياً حضره اشرف رجال المدينة والمركيز نفسهُ وسمعوهُ بكل ورع واحترام الى ان تناولوا البروتي من يد البطريرك. وبعد اربعة ايام اظهر البابا ميله الى الشروع في مذاكرات عمل الاتحاد ولكن القيصر طلب التأجيل لانحراف صحة البطريرك بعد مشقات السفر فوافق. على ان القيصر الذي كان يهمه اكثر من كل شيء احياء مملكتهِ وتخليصها بمساعدة ملوك الغرب اخذ يذكر البابا بان الغاية من حضورهم ليست عقد مجمع كنائسي فقط بل مخابرة الامراء السياسيين الذين رأى من الضرورة اشتراكهم في الجمع وعليه طلب منه ان يدعوهم الى الحضور اما بالذات او بالنيابة فأجابه البابا ان في الامر صعوبة بسبب الحروب الجنسية القائمة قيامتها هذه المدة في ايطاليا. ولكن القيصر لم يكتفِ بهذا الجواب بل اصر على طلب ارباب السياسة فوعده البابا ان يرسل اليه سفراءَ ومن ثم رُؤِيَ مناسباً ان تؤخر الجلسات فوعده العمومية للبحث في مواضيع الايمان مدة اربعة اشهر. غير انهُ لكي لا يمضي الوقت عبثاً وبما ان البابا رأى انه اذا بدأ المجمع اعماله ربما يخضر اليه اساقفة من مجمع باسيليا ويقوى حزبهُ الضعيف ويربح الصوت العام امر بالاتفاق مع الملك ان يبدأ المجمع حالاً وان يُنْتخب من الشرقيين ومن الغربيين رجال معينون يفحصون وحدهم في الفترة المذكورة القضايا التي تختلف في الكنائس عليها(١).

ولكن قبل بداية الاجتماع قامت اختلافات بين الجهتين في جملة امور. واول كل شيء في ما يتعلق بمعيشة هؤلاء الصيوف الشرقيين. ففي باديء الامر جعل الغربيون يقدمون لهم معائشهم كل يوم بيومهِ فيتناولوه كأنهم في حظيرة فقراء. ولكن القيصر اعترض على هذه المعاملة وبعد تعب كثير تقرر ان تعطى لهم نقوداً شهراً فشهراً بدل الطعام اليومي وفقاً للشروط المعقودة. فتعين ان يُعطى القيصر كل شهر ثلاثين ذهباً والبطريرك خمسة

(١) سيرو ٤: ١٩ ـ ٢٣ دورو ١٤ و ١٥ باباريغو ٥: ٣٢٤ ـ ٣٢٥

وعشرين والدسبوت عشرين وكل واحد من معية القيصر والبطريرك اربعة وكل خادم من الخدام ثلاثةً. ومع ان هذه التعيينات كانت قليلةً لم تكن تُعطى لهم الا حينما كانوا يجيبون رغائب البابا. ولكن عندما كانوا يقاومونه في مسألة كانت تمنع عنهم وتضيق بهم المعائش حتى انهم كثيراً ما ضجروا وتشكوا في فرّارا وفي فلورانسا من هذه المعاملة وكثيراً ما باعوا او رهنوا امتعتهم وملابسهم ليدفعوا صدمات الجوع القاسية. وقد حدثنا سيروبولوس ان حراس القيصر اضطروا ان يبيعوا اسلحتهم ويرهنوا ملابسهم وانهم لما لم تبقَ لهم حيلة على دفع الجوع جاؤوا الى البروطوسينجلس الكبير الذي كان القيصر يُحبه ويسمع له وشكوا حالتهم. وبعد ان خاطب القيصر بشأنهم مثنىً وثلاث وبعد انه صرفهم مرتين باعطائه اياهم ذهباً من عنده كل مرة ولم يبقَ له ما يعطيهم اضطر في آخر الامر ان يعطيهم اكمام بدلته الكنائسية ليبيعوها ويأكلوا بثمنها. قال احد المؤرخين «ان هذا الحادث يكفي لكي نعلم سوء الحال الذي وصل اليه الشرقيون وقتئذٍ من خساسة الرواتب (التي لم تكن تكفي لاوقاتها فضلاً عن ان تزيد) ومن تأخير دفعها» اما هذه المعاملة فقد بدأت من اول اختلافٍ قام بين الشرقيين والغربيين على تعيين محل جلوس الاعضاء في المجمع كما سنرى. فان الشرقيين لم يقبضوا رواتبهم الا بعد ان تمت التسوية في ذاك الاختلاف.(١)

وقد قام اختلاف آخر بين الفريقين على طلب عادل طلبه البطريرك بان يُسمح له بكنيسة من كنائس فيرّارا يحتفل فيها القداديس في الاعياد الرسمية. فعلى هذا الطلب اجابه البابا بان هذا من خصائص اسقف المدينة. واما الاسقف فأجاب ايضاً بان الكنائس الكبيرة لا يمكن ان تنزع من الشعب الكثير الذي يزدحم فيها عادة. واما الكنائس الصغيرة فلا ترضي البطريرك.

وكان اهم مواضيع الاختلاف في بداية المجمع تعيين الوجه الذي عليهِ تحضر فيه كل واحدة من الكنيستين. وقد عُيِّن للاجتماع كنيسة

(١) سيرو ٤: ٢٨

القديس جاورجيوس الكاثذرائية. فطلب اللاتين ان يوضع عرشٌ للبابا في وسط الكنيسة وان يجلس الاساقفة الشرقيون والغربيون عن يمينه وعن يسارهِ. ولكن القيصر والبطريرك لم يقبلا هذا الطلب. وبعد مخاصمات كثيرة تقرر ان تقام في وسط الكنيسة منصة جميلة امام الهيكل المقدس يوضع عليها الانجيل الشريف ويوضع كرسي البابا وبعده كرسي لقيصر جرمانيا وكراسي سائر الغربيين في جانب الكنيسة الايمن وبعده كرسي البطريرك ثم كراسي الاساقفة في جانب الكنيسة الأيسر لكي تكون الكنيسة الشرقية كلها في جهة والغربية في جهة ثم يوضع بين الجهتين منبر للخطابة والمذاكرات. غير ان الشرقيين رجعوا وتشكوا لما نظروا كرسي البابا اعلى واجمل لا من كراسي البطريرك والاساقفة فقط بل من كراسي القياصرة ايضاً. وكان البطريرك يطعن في اللاتين على هذا التمييز. فلما رأى منهم القيصر هذه المناظرة تضايق وصرخ «اني الآن علمت حق العلم ان الخصام على الكرسي وعلى السدة لم يقم من اجل النظام المجمعي بل من الكبرياء والفخفخة العالمية البعيدة عن حالتنا الروحية»(١).

وقبل ان يبدأ المجمع جلساته بوقت قليل طلب القيصر يوحنا ان يتغير نواب البطاركة الشرقيين. وبعد منازعات طويلة تم التغيير على ارادة القيصر فعين الاب الروحي غيريغوريوس مع انطونيوس مطران هرقلية في نيابة البطريرك الاسكندري. ومرقس مطران افسس مع ايسيدوروس مطران روسيا (الذي وصل في هذه الاثناء) في نيابة البطريرك الانطاكي. وديونيسيوس مطران ساردس. وذوسيثاوس مطران مونمباسيا في نيابة البطريرك الاورشليمي. وكانت غاية القيصر من هذا التغيير ان يضع مع كل واحد من ثابتي العزم الراسخين في العلم واحداً ضعيف العزم يستعين به عند الحاجة على تأييد مقاصده. والغريب هو ان سيلبسترُس سيروبولوس نفسهُ الذي سلم النواب اوارقهم الجديدة ممضيةً من البطاركة لم يذكر كيف جاءت ولا متى وصلت هذه الاوراق. فالظاهر ان القيصر نوى من القديم على

(١) سيرو ٤: ٢٥ ـ ٢٦

هذا التغيير واستحصل على اوراقه وحفظها الى هذه الساعة ساعة الحاجة.

وفي اليوم التاسع من شهر نيسان سنة ١٤٣٨ وهو يوم الاربعاء العظيمة من اسبوع الآلام فُتحت ابواب الكنيسة الكبيرة في فرّارا فدخل البابا وصعد الى العرش الذي أُعدّ له وكانت منصوبة فوقهُ سماءٌ اصطناعية لم يرفع مثلها فوق غيرهِ. ثم تبعهُ الباقون فكان كرسي قيصر جرمانيا فارغاً وبعد جلس الكرادلة ورؤساء الاساقفة ورؤساء الاديرة واساتذة اللاهوت وذوو الوظائف الواطئة من الاكليرُس واخيراً سفراء بعض الملوك الايطاليين والامراء والدَوَقة والمراكزة (جمع مركيز) وغيرهم من سراة الغربيين (١). وكانوا قد حضروا بشخصين من فضة مطليين بالذهب يشخصان الرسولين بطرس وبولس واقاموهما على جانبي الانجيل في وسط الكنيسة. وبعد اقامة القداس باللغة اللاتينية دخل القيصر يوحنا وسائر اعضاء الكنيسة الشرقية بعد انهم اقاموا قداساً لوحدهم فاستقبلهم اللاتينيون وقوفاً ثم استلموا كل واحد محله. فجلس القيصر على كرسيه مقابلاً لكرسي قيصر جرمانيا وجلس اخوه الدِسبوت ديمتريوس على كرسي اصغر منه وكان امام الكرسي القيصري كراسي سفراء ملك طرابزون ودوق المسكوب العظيم وامير الكرج وامراء السرب والفلاخ ورجال البلاط ومجلس المملكة والعلماء. وعلى جانب الكرسي القيصري كان كرسيٌّ اقل منه علواً معدًّا للبطريرك القسطنطيني. ولكن البطريرك لم يحضر بسبب مرضه. وكان حول الكرسي البطريركي شمامستهُ الخمسة وقوفاً. ثم جلس نواب البطاركة الشرقيين على كراسي اوطأ منه ثم جلس المطارنة والاساقفة واخيراً موظفو كنيسة القسطنطينية ورؤساءُ الاديرة والكهنة ورهبان جبل آثس المقدس(٢). ومن هذا

(١) اختلف الرواة في عدد اساقفة الغرب. فذورورثاوس يذكر ١٥٠ كردينالاً واسقفاً قبل بداية المجمع ولكنه عند الافتتاح يذكر ٢٠٠ (صفحة ١٧ و ٢٠) واما سيروبولوس فيذكر عند الافتتاح ١١ كردينالاً و ٢٥٠ اسقفاً (٥: ٣). ولكن في كتاب الاتحاد ورد ١٤١ توقيعاً بما فيه تواقيع البابا والقيصر والنواب والكرادلة والاساقفة ورؤساء الاديرة والقسوس شرقيين وغربيين. اما جاروجيوس الطرابزوني الذي يذكر اربعمائة اب ويقول ان الشرقيين منهم كانوا ٢٠٠ اب فغلطه واضح.

(٢) سيرو ٤: ٢٧ ـ ٢٩

الترتيب يتضح جلياً الفرق الذي اراد البابا ان يجعله بين مركزه وبين مركز البطريرك. فانه لم يكتف بان جعل كرسيهُ اعظم من كرسي البطريرك بل جعل بينهما درجةً متوسطةً وهي كرسي القيصر الذي كان اوطأ من كرسيه واعلى من كرسي البطرْيرك.

وبعد ان جلسوا كلٌّ في محلهِ واستتب السكوت قال البابا بصوت جهير «مباركٌ الرب اله اسرائيل». ثم رتلت المجدلة الكبرى (المجد لله في العلى» وبعض صلوات. وبعدها تلى امر البابا باللغتين اليونانية واللاتينية المتضمن فتح المجمع وفحواه انه بناءً على الموافقة الصريحة من قيصر القسطنطينية وبطريركها وسائر الآباء الموجودين في فرّارا يعلن فتح المجمع المجتمع في هذه المدينة المقصود منه مصالحة الكنيسيتين الى ان قال «واننا نعلن ذلك ونعين ميعاد اربعة اشهر من الآن لكل الاماكن والممالك المسيحية ليأتوا جميعهم وسائر رجال باسيليا ورجال روميه وكل مسيحي. فكل من اراد ان يحضر فليحضر في الميعاد المعين. واما الذي يحتقر المجمع المقدس ولا يحضر في الميقات المعين فيكون تحت قصاص الحرم ان لم يرضَ بما يعملهُ هذا المجمع الشرعي» وهذ الامر قرأهُ باليونانية عن المنبر ارشيديا كون البطريرك القسطنطيني. وقد ختمت هذه الجلسة القصيرة بالصلاة ايضاً كما بدأت بها.

وبعد ايام قليلة توفي ديونيسيوس مطران ساردیس احد نائبي البطريرك الاورشليمي فعين بدلاً منه مرقس مطران افسس احد نائبي البطريرك الانطاكي فصار نائباً عن بطريركين الانطاكي والاورشليمي(١). ثم ان البابا ارسل صورة قرار الجلسة الاولى الى ملوك فرانسا وجرمانيا وسائر امراء الغرب مع سفراء خصوصيين ودعاهم الى الاشتراك في المجمع وقد حرضهم بكل جهده ليرسلوا نواباً عنهم. غير ان آمالهُ خابت لأن مجمع باسيليا كان معاكساً له كما رأينا وكان في هذا الوقت مؤلفاً من نحو

(١) ٤: ٢٩

سبعمائة اسقف ومؤيداً من اكثر الامراء فلم يكن يكتريث لتهديد البابا بل كان يسفه اعماله ويتهدده بالقطع ويتهدد بالحرم كل من يتجاسر ويذهب الى مجمعه في فرَّارا. فملك فرانسا لم يلتفت الى دعوته لأنه كان عاضداً لمجمع باسيليا وألبرخت الثاني ملك جرمانيا صهر سيجيسمند وخليفتهُ اعلن انه لا يقبل حكم المجمع الباسيلياني ضد البابا ولا حكم البابا ضد المجمع بل يقبل البابا والمجمع معاً على السواء. وكذلك سائر الامراء ايضاً كانوا يطعنون في مجمع فرَّارا ولا يرضون ان يقاموا مجمع باسيليا ويرسلوا معتمدين الى ايطاليا. ولم يستثنَ من هؤلاء الامراء سوى دوق بُرغُنديا فانه أرسل معتمدين الى فرَّارا وصلوا في خلال الجلسات الأخيرة. غير انهم اظهروا من الخشونة عند المقابلة ما لم يصمت التاريخ عنه. فانهم لما دخلوا المجمع قبلوا رجل البابا ولكنهم لم يلتفتوا الى القيصر يوحنا ولا قدموا لهُ شيئاً من الاحترام ولا سلموا عليه كانه لم يكن من الحاضرين(٢).

على ان البابا لكي يظهر ان المجمع مباشر اعمالهُ ومواظب عليها ويُسقط نفوذ مجمع باسيليا عدوّه الألد طلب من القيصر بعد عيد الفصح الذي كان في ١٣ نيسان ان تُعقد جلسات خصوصية بين بعض من اساقفة الكنيستين الى ان يكتمل العدد ويباشر عقد الجلسات الرسمية العمومية. ولكن الشرقيين رأوا تأجيل الاجتماع الى ما بعد حضور اساقفة مجمع باسيليا اكثر موافقة(٢). فالبابا لم يوافقهم بل كرر الطلب ثانياً وثالثاً وعليه انتخب عشرة رجال من كل فرقة يجتمعون ثلاث مرات في الاسبوع في كنيسة احد الاديرة للفحص في الاختلاف(٣). وكان المنتخبون من اليونانيين

(١) سيرو ٤: ٣١ و ٥: ١ وذورو صفحة ١٥ ـ ٢٩ و ٢٩٧ (٢) ذورو صفحة ٢٩

(٣) سيرو ٥: ٣ وذورو صفحة ٢٩. على ان بين الروايتين فرقاً ظاهرياً. فالأول يقول ان الجلسات عينت ثلاث مرات في الاسبوع. والثاني يقول مرتين. فربما عينت ثلاثاً ولكنها لم تكن تجتمع غير مرتين واحياناً اقل. ثم ان الاول يقول ان المنتخبين كانوا عشرة والثاني اثني عشر بما فيه الكتاب وربما ايضاً الفرق في عدد الكتاب. ثم ان الاول يقول ان الجلسات عينت ان تعقد في كنيسة القديس اندراوس والثاني في كنيسة فرانسوا فربما الفرق في ان الدير دير اندراوس وفيه كنيسة للقديس فرانسوا.

مرقس مطران افسس. وبيصاريون مطران نيقيه. واساقفة مونمباسيا والمورة وانشاليوس وخمسة اعضاء غيرهم وكان يحضر معهم ياغَرِس معتمد القيصر. وقد امر القيصر امراً صارماً بان لا احد منهم يجادل اللاتين سوى مرقس وبيصاريون اللذين رخص لهما بان يستشيرا الآخرين عند الضرورة ومنعهما عن البحث في المسائل المهمة وطلب ان يعرف بعد نهاية كل جلسة تفصيل مذاكراتها لانه كان شديد الحرص على كتمان استحالة اتفاق الارثوذكسيين مع اللاتين قبل ان يحصل علي مقصده. ولذا لما كتب مرقس الى البابا بتحريض الكردينال يوليانوس رسالة حال وصول الشرقيين الى فرَّارا يشكره بها على عقد المجمع ويقول انه لأجل توفيق العمل الصالح يجب على الكنيسة الرومانية ان تنكر تعليمها الخصوصي في انبثاق الروح القدس وفي تقديس سر الشركة على فطير». وبلغت كتابته هذه مسامع القيصر كاد ان يستصدر عليه حكماً من مجمع الشرقيين ويقاصهُ لأنه تجاسر ان يبوح بأقوال مثل هذه(١).

اما منتخبو اللاتين فكانوا اثنين من الكرادلة وهما يوليانوس قيصريني (او سيزاريني) ونيقولاوس ألبيرغاتي والاساقفة اندراوس اسقف كولوسي اورودُس الذي كان وقتاً ما ارثوذكسياً ويوحنا الفيلسوف الاسباني واعظ البلاط البابوي وبعض رووساء الاديرة. فلما اجتمع هؤلاء المنتخبون وقدموا التحيات المتبادلة حسب العادة وتذاكروا في جلستين بعض المذاكرات اوضح يوليانوس في الجلسة الثالثة ان القضايا الواجب فحصها هي: اولاً قضية انبثاق الروح القدس. ثانياً قضية الخبز في سر الشكر. ثالثاً قضية النار المطهرة او المطهر. ورابعاً قضية رئاسة البابا. ثم سأل الشرقيين من اين تريدون ان نبتدئ؟ اما هم فاشاروا بتأخير القضية الاولى الى ما بعد التئام المجمع المسكوني ووعدوا بانهم يقدموا الجواب عن بقية القضايا بعد مخابرة القيصر حالاً. فلما قابلوه وطلبوا رأيهُ امر بان ينتخبوا احدى

(١) سيرو ٥: ٣

المسألتين الاخيرتين وهما المطهر ورئاسة البابا وأوصاهم بان يذاكروا اللاتين بكل تأنٍّ وصبر وتبصر لئلا تضر هذه الاجتماعات الخصوصية بالمذاكرات العمومية فيما بعد. فاتفق اللاتين معهم على البحث في مسألة المطهر اولاً لانها مسألة اقل خطراً من غيرها(١).

ففي الجلسة الخامسة في (٤ حزيران) شرح يوليانوس تعليم الكنيسة الرومانية في النار المطهرة فقال «ان الكنيسة الرومانية تسلمت منذ القديم وتعتقد من بدء انتشار الدين المسيحي بان نفوس المتوفين بعد خورجها من هذا العالم تذهب حالاً الى التمتع بالخيرات اذ كانت نقية ومجردة عن كل شائبة كما هي نفوس القديسين. واما نفوس الذين سقطوا بعد المعمودية في الخطايا ثم ندموا عليها ندامةً خالصة واعترفوا بها وكلنهم لم يملكوا وقتًا ليتمموا القانون الذي فُرض عليهم من رئيس اعترافهم ولا ان يأتوا باثمار للتوبة كافئة لمحو خطاياهم الشخصية فهذه النفوس تطهر بالنار المطهرة ازماناً متفاوتة بعضها طويلاً وبعضها قصيراً على نسبة الخطاءِ الذي خطئوه وبعد التطهر تذهب الى التمتع بالسعادة. ثم ان الكنيسة تساعدهم بطلبات الكاهن. كما ان القداديس واعمال الرحمة تسعفهم ايضاً»(٢).

فطلب الشرقيون ان يعطى لهم هذا التعليم كتابة. ولما اخذوه كتبوا عليه جوابين احدهما كتبه مرقس والآخر كتبه بيصاريون كلٌّ لوحده. ثم الفا من الجوابين جواباً واحداً(٣). وفي ١٤ حزيران قدمه بيصاريون وهو يشتمل على شرح الفرق بين الكنائس في هذا الموضوع وقد قال فيه «ان الايطاليين يعترفون بنار في الدهر الحاضر. (الى يوم القيامة الرهيب). وبتطهير بواسطة النار ويعترفون بنار في الدهر العتيد ولكن لا مطهرةٍ بل ابديةٍ. ويقولون بان النفوس تحصل على الطهارة في الوقت الحاضر بواسطة النار على حسب خطيئة كل واحد. اي ان الذي ارتكب خطايا كثيرة يطهر وقتاً طويلاً ثم يطلق. ومن فعل خطايا قليلة يخلص في وقت سريع ويطلق. وذلك بمساعدة

(١) ٥ : ٧ ـ ٨ ذورو : ٢٠

(٢) سيرو ٥: ١٣ وذورو: ٣ (٣) ٥: ١٢

الكنيسة كما ذكرنا. وان الجميع يطهرون بالنار. فيتخذ اذاً اللاتين هذه النار في الدهر الحاضر على معنىً وقتيٍّ. وفي العتيد على معنىً ابديٍّ. وهذه النار الوقتية يسمونها مطهراً. اما الروم فانهم يعترفون بوجود نارٍ في المستقبل فقط وبعذابٍ وقتي للنفوس بمعنى ان نفوس الخطأة تذهب الى مكانٍ مظلم مخوف فتحزن حزناً وقتياً وتعذّب بحرمانها من النور الالهي على انها بواسطة طلبات الكنيسة والقداسات الالهية وافعال الرحمة تطهر اي تعتق من ذلك المكان المظلم مكان الحزن وتطلق. ولكنها لا تطهر بنار. فلا يعترف الروم بان الفعل للنار كما يعترف اللاتين. بل يعترفون بان الفعل انما هو للصلاة والطلبة والصداقة* ثم ان الشرقيين لا يقولون ان النفوس المعذبة الآن صارت الى كمال العذاب. بل انها تنتظر اجسادها كما ان نفوس الصديقين حصلت على بعض الخيرات لكنها لم تحصل على كمالها. واما الايطاليون فمن جهة يقولون بان نفوس المعذبين لا تعذب عذاباً كاملاً لانفصالها عن اجسادها وبانها فيما بعد سوف تعذب مع الاجساد عذاباً ابدياً. ومن جهة اخرى يقولون بان نفوس القديسين نالت مكافأتها في السماء كاملة اما الآن فبحسب ما هي نفس مجردة واما وقتئذٍ فمع اجسادها التي ستلبسها وتفرح ابدياً(١). وفي الجلسة التابعة شرح اللاتين ما يسندون اليه تعليمهم عن نار المطهر. ومن جواب اليونانيين يظهر انهم اسندوه الى آية الكتاب الثاني من اسفار المكابيين (١٢ : ٤٣ و ٤٦) حيث يقال: ان يهوذا المكابي «ارسل الى اورشليم (الفي درهم) ليقدم بها ذبيحةً عن الخطيئة» وكاتب السفر الشريف يمدح هذه العادة ويقول: ان هذا الرأي «رأيٌ صالحٌ وتقويٌّ. ولهذا قدم هذه الكفارة عن الراقدين ليحلوا من الخطيئة». ثم قدموا ايضاً اقوال المخلص الواردة في بشارة متى ١٢ : ٣٢ وهي «واما من قال على الروح القدس فلا يغفر له لا في هذا الدهر ولا في الآتي». ولكنهم بنوعٍ خصوصيٍّ كانوا يستندون على اقوال بولس الرسول (١ كو ٣: ١١ ـ ٥٥) حيث قال «فانه لا يستطيع احد ان يضع أساساً غير الموضوع الذي هو

(١) ذورو: ٣٣ ـ ٣٥

يسوع المسيح. فان كان احد يبني على هذا الاساس ذهباً فضةً حجارة كريمةً خشباً حشيشاً تبناً فان عمل كل واحدٍ سيصير ظاهراً لان اليوم سيبنيهُ. لانهُ يُعلن بالنار. وستمتحن النار عمل كل واحد ما هو. فمن بقي عمله الذي بناه فسينال اجرهُ. ومن احترق عمله فسيخسر «أما هو فسيخلص ولكن (هكذا) كانه بنار». ثم قدموا أيضاً بعض عبارات من الآباء الشرقيين مثل باسيليوس وابيفانيوس ويوحنا الدمشقي وديونيسيوس الايوباغي وثاوذوريطوس وغريغوريوس الديالوغوس. ومع ذلك لم ينسوا ان يسندوا تعليمهم الى سلطان الكنيسة الرومانية والى حكم العقل أيضاً. أما المعلمون الشرقيون فانهم قدموا على كل هذه الاستنادادت أجوبةً صريحةً ومقنعة. فاولاً لاحظوا ان ما ورد في سفر المكابيين وفي الآية الانجيلية لا ينتج منه غير الصفح عن الخطايا بعد الموت. وانه لا ذكر فيه للعذاب ولا للنار الى ان قالوا: فاي علاقة للصفح مع التطهير بالنار او بالعذاب؟ فاما ان يكون الامر عذاباً او صفحاً ولا سبيل الى الجمع بينهما ما داما نقيضين.

ثم في ما خص آية القديس بولس الرسول أبرزوا تفسير القديس يوحنا الدهبي الفم لها حيث يقول: ان «النار» هنا يعنى بها النار الابدية لا مطهراً زمنياً. واما الكلمات «خشب وحشيش وتين» فيعنى بها الاعمال الرديئة التي هي غذاء النار الابدية. واما قوله «سيخسر» فمعناه سيفنى ويباد ويضمحل. واما «اليوم» فهو يوم الدينونة الرهيبة. واما «الخلاص الذي كانه بنار» فلا يعنى به العتق من العذاب بل الخلاص من الخسارة والسلامة من الاضمحلال والفناء. فيكون المعنى اذاً بقاء الاشرار واستمرارهم في العذاب. وعليه رفضوا تفسير اوغستينوس المبني فهمه على كلمة «سيخلّص» بمعنى سيكون مغبوطاً. فجاء فهمهُ كل الآية على معنىً مغاير لمعناها (لانه كان يجهل اليونانية التي كتب بها الرسول). وكان المعلمون الشرقيون يقولون ان كل واحد ملزومٌ ان يقرّ ويعترف بان اليونان يفهمون اللغة اليونانية اكثر من الغرباء عنها. ومن حيث انه ليس في القديسين الذين كانت لغتهم اليونانية مَن فسر كلمات الرسول اليونانية بمعنى غير الذي فسرها به القديس يوحنا الذهبي الفم لأجل ذلك لا يبقى ريب في ان كل مفسر ملزوم بحكم

العقل ان يتبع هؤلاء الرجال الافاضل الكثيرين في ما أجمعوا عليه. اما كلمة «سيخلص» فتلفظ في اليونانية بلفظ «سوتيسته» «من فعل» سوزسته الذي معناه الاصلي البقاءُ وعدم الفناء. وهذا ما أرادهُ الرسول. فانه لما كانت خاصة النار ان تفني الأشياءَ ولما كان الذين يدخلون العذاب الابدي لا يفنون يقول الرسول ان هؤلاء المعذبين يبقون ويدومون في الوجود ولكن كانهم بنار اي ملتهبين ومحترقين ولكي يؤكدوا ان هذا معنى قول الرسول قالوا ما يأتي: ان الرسول يقسم كل البناء «المبني على الاساس الموضوع» الى نوعين فقط ولا يذكر نوعاً ثالثاً غيرهما. فاولاً يذكر الذهب والفضة والحجارة الكريمة ويعني بها الفضائل. وثانياً يذكر الخشب والحشيش والتبن ويعنى بها الرذائل ولم يذكر غير هذين النوعين. ثم قالوا للاتين: ان تعليمكم ربما كان فيه شيء من الصحة لو قسم الرسول الاعمال الشريرة الى نوعين وقال ان اعمال النوع الاول تطهر من الله وأعمال النوع الثاني لا تطهر بل توجب العذابات الابدية. غير انه لم يعمل هذا التمييز مطلقاً بل بعد انه عدد الاعمال التي توجب السعادة الابدية أعني الفضائل والاعمال التي تستلزم القصاص الابدي أعني الرذائل حالاً قال «فان عمل كل واحدٍ سيصير ظاهراً». ثم انه عين الوقت الذي فيه يظهر العمل وأشار الى اليوم الاخير الذي فيه يأتي الله ليكافئ كل احد بحسب استحقاقه فقال «لان اليوم سيبينه لأنه يعلن بالنار» ومن الواضح ان اليوم الذي يعنيهِ انما هو يوم حضور يسوع المسيح والدهر الآتي بعدهُ الذي بنوعٍ خصوصيٍّ يُدعى يوماً بالنسبة الى الدهر الحاضر الذي يسمى ليلاً. هذا هو اليوم الذي يأتي فيه بمجدٍ ويجري قدامهُ نهر النار كما ورد في الكتاب المقدس «من امامهِ جرى وخرج نهرٌ من نار. تخدمهُ الوف الوف وربوات ربوات تقف بين يديه. فجلس (اهل) القضاء وفتحت الاسفار»(١). «النار قدامهُ تتقد وحوله عاصف شديد»(٢) «النار قدامه تتقد وتلهب حول اعدائه»(٣) «منتظرين ومستعجلين مجيءَ يوم الرب الذي فيه ستلتهب السماوات وتنحل العناصر محترقةً وتذوب.

(١) دانيال ٧: ١٠ (٢) مز ٤٩: ٣ (٣) مز٩٦: ٣

ولكنا على مقتضى موعده ننتظر سماوات جديدةً وأرضاً جديدةً يسكن فيها البرّ»[1]. ومن هذه الشهادات يتضح جلياً ان بولس المغبوط انما يتكلم هنا عن اليوم الاخير وعن النار الابدية ويقول ان هذه النار ستمتحن عمل كل واحدٍ ما هو بانها تنير على بعض الاعمال وتحرق بعضها مع الذين عملوها. على ان الاعمال عند احتراقها من النار تفنى وتباد ولا يعود لها اثر ولكن فاعليها لا يتلاشون ولا يفنون بل يبقون في النار ويكون تعذيبهم واحتراقهم فيها أبدياً. فاذاً من حيث ان الرسول لا يقسم الخطايا هنا الى مميتة وغير مميتة بل يقسم كل الاعمال اجمالاً الى صالحة وشريرة. ومن حيث ان الوقت الذي ستميز فيه الاعمال هذا التمييز هو اليوم الاخير كما يشير بولس ويوافق عليه تعليم بطرس. ومن حيث انه يصف تلك النار بابادة الاعمال السهلة الاحتراق وبقاءِ فاعلها. يتضح جلياً ان القديس بولس لا يتكلم هنا عن نار مطهرة تمس على زعمكم بعض الاعمال الرديئة وخصوصاً اصغرها واقلها اعتباراً ولا تمس سائر الاعمال الرديئة وخصوصاً اعظمها بل يتكلم عن النار الابدية التي تحرق جميع الاعمال الرديئة وتفنيها وتعذب فاعليها.

ثم ان الكلمات التالية ايضاً وهي قوله «ان احترق عمل احد فسيخسر» توضح ان الكلام هنا يتعلق بالخاسرين المعذبين بالعذابات الابدية والمحرومين النور الالهي وهذه صفة لا تليق على زعمكم بالمطهرين. لان المطهرين لا يدعون خاسرين بل رابحين لانهم أُعتقوا من العذاب اذ توشحوا الطهارة والنقاوة. فلا يصح ان يكون احتراق العمل هنا بمعنى التطهر لان الطهارة ربح والنص الشريف لا يقول بالربح بل بالخسارة.

اما العبارات التي اوردها اللاتين من القديس باسيليوس الكبير (في افشين العنصرة) ومن القديسين ابيفانيوس ويوحنا الدمشقي وديونيسيوس الاريوباغي فقالوا انها لا تفيدهم اذ لا علاقة لها بالموضوع. واما العبارة

(١) ٢ بط ٣: ١٢ و ١٣

التي اوردوها من ثاوذوريتوس فلم يوجد لها اثر في مؤلفاته. ثم قالوا انها لم تبقَ سوى عبارة غريغوريوس اسقف نيسس الذي يظهر انه يساعدكم اكثر من غيره على رأيكم. ولكن على فرض ان هذا الاب كان يعتقد كما تقولون فمع احترامنا اياه واعتبارنا قداستهُ لا يمكننا ان ننكر انه انسانٌ والانسان ليس معصوماً من الخطاءِ ولو وصل الى اقصى درجات القداسة. وعلى الخصوص اذا تكلم في قضية لم يسبق البحث فيها ولم يُسن لها تحديد في احد المجامع السابقة. هذا على فرض تسليمنا بدعواكم عليه. اما الصحيح الواجب اتباعهُ هو ان ننظر في كل قضية الى تعليم الكنيسة المتوافق وان يكون قانوننا الكتاب الالهي ونطبق عليه ما كتبه كل واحدٍ لوحدهِ من الآباءِ لا ان نطبق تعليم الكنيسة على تعليم الفرد منهم بعد ان نفسره كما نريد. اما ما اورده اللاتين من الآباء الغربيين فقال فيه المعلمون الشرقيون انهم لا يعرفونه لان مؤلفاتهم ليست مترجمةً الى اليونانية وكانوا يعتذرون بان اولئك الآباء لم يفهموا الآية الرسولية وبان ظروفهم قضت عليهم ان يكتبوا ما كتبوا والظروف لا يمكن ان تصير قانوناً.

واما سلطة الكنيسة الرومانية فرفض الشرقيون بتاتاً البحث فيها لانها خارجة عن موضوع البحث الحاضر.

وأخيراً نقضوا براهين اللاتين المسندة الى حكم العقل ببراهين اقوى وأصدق منها مأخوذة من مبادىء التعليم المسيحي ومن اقوال الآباء ومن مثل الغني ولعازر حيث الكلام عن احضان ابراهيم وعن الجحيم فقط يعني الغبطة والعذاب ولم يُذكر مكانٌ متوسط غيرهما لعذابات وقتية. وهكذا دحضوا من جهة تعليم الغربيين وأوضحوه فاسداً ومبتدعاً وبرهنوا ثباتهم على الرأي القويم والايمان الحق الذي تسلموهُ من الرسل القديسين والآباء المتوشحين بالله. غير انه في خلال هذه المجادلات تقطعت المسألة الاصلية الى عدة مسائل دقيقة لا طائل تحتها. لان اللاتين تطرفوا الى ان يسألوا مثلاً: أين الملائكة يقفون؟ وكيف وقوفهم؟ وما هي نار جهنم؟ حتى ان ياغَرِس وكيل القيصر اغتاظ من السؤال الأخير وأجابهم: ان من يسأل هذا السؤال لا

يظفر بجوابٍ الا متى ذهب الى هناك أي الى جهنم(١).

ومع كونهم لم يتفقوا في قضية نار المطهر انتقلوا الى قضية اخرى وهي قضية سعادة القديسين. وقد دعا الى فتحها كلام بيصاريون حتى شرح فرق التعليم في حالة النفوس. فكان السؤال على هذه الكيفية: هل نال القديسون يا ترى الغبطة الكاملة أو لم ينالوها؟ فالشرقيون قبل ان يبحثوا في هذه القضية مع اللاتين رأوا ان يستشيروا باقي الاساقفة على حدةٍ. فاجتمعوا في غرفة البطريرك (في ١٦ تموز) حيث قرأوا عبارات كثيرة من الآباء. قال المؤرخ ذوروثاوس(٢): وفي الغد بعد مذاكرات عديدة قالوا كلهم باتفاق الرأي «ان النفوس حصلت على غبطة كاملة بحسب كونها نفوساً ولكنها عتيدة ان تنال الغبطة في القيامة مع اجسادها على وجه اكثر كمالاً وحينئذٍ تلمع كالشمس»(٣) وهذا كان الجواب للاتين في قضية السعادة.

ولكن كل هذه المذاكرات لم تأتِ بفائدة في موضوع الاتحاد لان اللاهوتيين الغربيين لم تكن لهم براهين أقوى من التي قدموها ولا أرادوا ان يعدلوا عن رأيهم. واما الشرقيون فلم يريدوا ايضاً ان يقبلوا تعليماً فسادهُ واضح كالشمس ولا امكنهم ان يجبروهم على قبول الحقيقة. ولكن لسوء الحظ ظهر في مدة هذه المذاكرات انقسام في هيئة الشرقيين الصغيرة كان ينمو يوماً فيوماً ولم يكن يشير الى عواقب صالحة. لان بيصاريون لاسباب سيأتي بيانها لم يكن مخلصاً في غيرته على استقامة الرأي. فلم يكن يدافع احياناً عنها ضد اللاتين الا لاظهار طلاقة لسانهِ وبراعتهِ في الكلام. فكلما كان الشرقيون يرون اللاتين مشبثين في آرائهم عن عناد فقط ويريدون ان يقطعوا الجدال معهم كان هو وحدهُ يقول «يجب ان نداوم الجدال في الاعتقاد لاننا مستعدون ان نقول أقوالاً كثيرة وجيدة»(٤). وبما انه كان يغار من مرقس الذي كلف ليؤلف جواباً للاتين في نار المطهر ولم يكلف هو(٥)انفعل وأخذ يمقت الايمان المستقيم وانقلب الى معاداة مرقس جندي

(١) سيرو ٥: ١٦ و ١٨ وذورو ٣٥ ـ ٣٧ (٢) ٣٨ و ٣٩
(٣) مجمع فلورانسا ٩٧ ـ ٩٩ (٤) سيرو ٧: ٨ (٥) : ١٤

الرأي الارثوذكسي القديم. فكان يترك مرقس وحدهُ يجاهد ضد اللاتين ولا يرضى ان يساعده بشيء. وقد اجتهد كثيرون من الاتقياءِ ان يطفئوا حالاً نار العداوة منذ ظهورها وطلبوا مساعدة البطريرك ليصلح ذات البين بنصائحهِ ونفوذه. ولكنهم سعوا باطلاً لأن البطريرك الضعيف لم يرد ان يشترك او يتداخل في امر من الامور(١) ثم ان غريغوريوس الاب الروحي كان متكدراً من مرقس لانه قال عنه انه ليس كفوءاً لنيابة البطريرك الاسكندري لقلة معارفه(٢) وعليه كان يستعمل كل واسطة لكي يحرك غيظ بيصاريون ضدهُ اكثر فاكثر. ومع انه كان في الظاهر يحترم مرقس ويجلس تحته في الاجتماع(٣) ويقدم رأيهُ بعد رأيهِ وهو نائبٌ لكرسيٍّ له التقدم على الكراسي التي كان مرقس نائبها وعندما كان يوافق مرقس يقول «انا اتبع رأي قديس افسس»(٤) كان في الباطن يكرههُ ويظهر امام القيصر وبيصاريون انه يحتقره ويطعن على كلامهِ ولا يشعر بانه بهذا السلوك يناقض نفسه(٥) ومن هذا كلهِ يتضح انه ما شرع الشرقيون في أعمالهم الا ودخل شيطان النزاع بينهم فقام منهم رجال لم يستحرموا ان يُضحوا الكنيسة كلها لاغراضهم ولؤم نفوسهم.

ثم ان المذاكرات انقطعت اكثر من ثلاثة اشهر اما الشرقيون فلما رأوا ان لا فائدة منها واذ كانوا يقاسون عذاباً من الحاجة والفاقة والرض احياناً ووردت اليهم الاخبار ان السلطان مراد يستعد ليحاصر القسطنطينية ضجروا. فاخذ القيصر يرجو البابا ان يرسل سفناً تدافع عنها. فطلب البابا من البندقية سفناً او نقوداً ليصرفها على السفن فلم يريدوا ان يأتمنوه على دراهم. فاراد كثيرون من الاساقفة ان يهربوا الى البندقية خفيةً ليرجعوا منها الى القسطنطينية ومنهم مرقس وانطونيوس. ولكن القيصر أصدر امراً صارماً ضد كل من يسافر منهم وأمر حاكم المدينة ان لا يطلق احداً بلا رخصة منه. ثم انه تركهم في فرّارا وانتقل الى دير خارج المدينة جعله مركزاً له فكان يصرف اوقاتهُ على الصيد كانه غير مبالٍ بالعمل الذي ترك مملكته لاجله(٦)

(١) ٥: ١٤ ـ ١٧ (٢) ٤: ٢٩ (٣) ٤: ٣٢
(٤) ٧: ١٠ (٥) ٥: ١٤ و ١٥ (٦) سيرو ٦: ١ و ٢

او كما قال آخرون لكي يخفف الاكدرا التي اشتملته على اثر الفشل الذي ظهرت له علاماته(١).

فلما مضي الوقت الذي كان معيناً للاجتماع العمومي اخذ الشرقيون يرجون القيصر ليرجع الى المدينة ويشتغل في عقد المجمع. لكنه كان يجاوبهم بانه اذا لم يحضر سفراءُ من الامراءِ والملوك الغربيين واذا لم يجتمع أساقفة اكثر عدداً من الحاضرين فلا يريد ان يفتكر في مجمع مسكوني فضلاً عن ان يسعى في عقدهِ. غير ان المجمع بدلاً من ان يزداد كان ينقص. لان مرضاً وبائياً مبيداً حل في المدينة فبعضهم ماتوا به وبعضهم رحلوا الى ديارهم حتى انهم لما شرعوا في الجلسات العمومية لم يوجد منهم سوى خمسة كرادلة وخمسين اسقفاً بعد ان كانوا ١١ كردينالاً و ١٥٠ أسقفاً. اما الشرقيون فلم يفقد منهم احد بذاك الوباءِ(٢).

وقد ذكرنا سابقاً ان مجمع باسيليا اصدر في ٦ تموز حكماً ضد البابا ربطه به عن واجباتهِ وقلنا ان فرانسا كانت من انصار هذا المجمع ولهذا السبب لم يجب دعوة البابا الى مجمعه بل استندت على حكم مجمع باسيليا ورفضت الاعتراف بمجمعهِ رفضاً باتاً في ٧ تموز. فلما وردت الاخبار الى البابا اوجانيوس عن قرارِ مجمع باسيليا وان الملك شارل السابع منع اساقفتهُ عن المجيء الى فرَّارا ئيس من تلبية دعوته وعلم ان لا فائدة له من الانتظار فرأى ان يعقد الجلسات العمومية(٣) وعليه أخذ يلح على القيصر ليباشروا الاجتماع والمداولة. وكان يقول للشرقيين «لكم سبعة اشهر في ايطاليا وما عملتم غير أتسيتولا» وكان بهذا الاسم يعني ورقة الاعلان كما يقول سيروبولوس(٤). اخيراً عاد القيصر الى المدينة ومن بعد مداولات كثيرةٍ جرب بينهُ وبين البابا عين اليوم الثامن من شهر تشرين الاول ميعاداً لمباشرة الجلسات.

(١) باباريغولوس (٢) سيرو ٦: ٣
(٣) سيرو ٦: ٤ (٤) ٦: ٥

جلسات المجمع العمومية

الجدال في الزيادة اللاتينية في دستور الايمان

على ان الشرقيين قرروا في المداولات الاولية ان لا يكون حل الاختلافات مبنياً على اكثرية الاصوات لأن اللاتين كانوا اكثر منهم عدداً بل بالصوت العام من كل فرقة معاً وان تكون قوة أصوات الفرقة الواحدة مساوية لقوة أصوات الاخرى وان لا يُسمح لأحد لا من الشرقيين ولا من الغربيين ان ينضاف الى الفرقة الاخرى بصوته.(١)

وبعد ذلك دعا القيصر ستة من المطارنة الممتازين وحافظ الاوراق ورئيس الطقس الكنائسي واثنين من رؤساءِ الاديرة وكاهناً متوحداً وثلاثة من العلماء اليونانيين وهم سخولاريوس وجيمستوس وأميروتسيس وسألهم اي الموضوعين يوافق ان نجعله بدءًا للجدال في قضية الانبثاق أأن يُطلب ما اذا كانت الكنيسة الغربية مستقيمة الرأي في اعتقادها في الروح القدس او ان يُفحص ما اذا كان مسموحاً لها ان تضيف شيئاً الى دستور الايمان على فرض صحة الزيادة؟ فمرقس الافسسي وجيمستوس فضلوا القضية الثانية ووافقهم كثيرون. واما بيصارون وسخولاريوس واميروتسيس ففضلوا الاولى. غير ان القيصر انضم الى اكثرية الاصوات التي كانت مع الاولين وقرروا رأي مرقس وفيئتهِ(٢)

وقد تقرر ان تُعقد في كل اسبوع ثلاث جلسات بلا بدّ وان تبدأ كل جلسة الساعة الحادية ونصف من النهار وتنتهي عند الساعة السادسة ثم طلب الشرقيون ان يكون لهم حق في طرح السمائل وانتخبوا للتكلم في الجلسات مرقس وايسيدورُس وبيصاريون من المطارنة ومعهم جيمستوس وحافظ الاوراق وحافظ الاواني الكنائسية وخُص بالجدال مرقس وبيصاريون وحدهما.

(١)سيرو ٦: ٩ و١٠ (٢) ٦: ١٢

اما اللاتين فانتخبوا الكرادلة يوليانوس قيصريني ونيقولا ألبرغاتيواندراوس اسقف رودُس ويوحنا اسقف فورلِيا واثنين من المتوحدين اللاهوتيين منهما يُوحنا الدومينيكاني احد مشاهيرهم في المجمع(١). ثم ان الكرادلة أخبروا بان البابا يرغب ان تكون المباحثات في كنيسة بلاطهِ لأنه يرى ان ذهابه الى محل الاسقف ودخوله في وسط جماهير الناس مع اربعة او خمسة كرادلة وعدد قليل من الاساقفة فقط امرٌ ينافي عظمته ولا يليق بسموه على الاطلاق(٢).

اما الجلسات التي عقدت في فرَّارا فكانت كلها خمس عشرة جلسة(٣) وكانت مدة المجادلات شهرين كاملين وكانت نهايتها مثل نهاية التي قبلها اي بلا نتيجة لان كلاً من الفريقين كان مصرًّا على رأيهِ.

وفي اليوم المعين من البابا اجتمع القيصر وكل الاساقفة في قصر البابا حيث حضر جمهور كثيرٌ من الشعب. وبعد قليل حضر البابا ايضاً. وقد وُضعت الكراسي على الترتيب الذي كانت عليه في كنيسة القديس جاورجيوس. وفي وسط الهيكل بين القيصر والبابا جلس على مقعدين احدهما يقابل الآخر الخطباءُ والشرقيون والغربيون وعددهم اثنا عشر. وكان الكتاب والمترجمون قريبين منهم. ففي الجلسة الاولى بدأ بيصاريون في الكلام فألقى خطاباً اوضح فيه اهمية السلام الكنائسي العظيمة. وكان يحرض اعضاءَ المجمع على ان لا يخافوا من عناء في اتمام هذا العمل. ثم استمد للمجتمعين النعمة الالهية من الثالوث الاقدس للبحث عن الحقيقة ولمسالمة الاعضاء المتفرقة في رعية المسيح الواحدة. واطنب في مدح البابا والقيصر والبطريرك وسائر الحاضرين على غيرتهم واخلاصهم في سلام الكنائس. وطلب الى البابا والقيصر معاً ان لا يحرموا المجمع من عنايتهما

(١) سيرو ٦: ١٣ وذورو: ٤٣ و ٤٤. (٢) ٦: ١٤ وذورو: ٤١ حيث يضيف عذراً اخر وهو رجع رجل البابا. (٣) اختلفت الرواية بين دوروثاوس وسيروبولوس في عدد الجلسات واوقاتها اختلافاً ربما كان مصدره عدم ترتيب التعليقات والمفكرات المجمعية ولكن بما ان هذا الاختلاف لا يضر في جوهر الموضوع لا نرى لزوماً الى التطويل بايضاحه.

ومساعدتهما* ثم خطب اندراوس اسقف رودُس ايضاً خطاباً بالمعنى نفسه(١). ومن بعد هذين الخطابين استلم الكلام مرقس وفتح موضوع المجمع الخصوصي. فقال في ما قاله «ان ربنا يسوع المسيح اوصى تلاميذه بالمحبة وترك لهم سلامهُ ذخراً ثميناً. غير ان الكنيسة الرومانية باعراضها عن المحبة واحتسابها اياها امراً لا اهمية له فكت السلام. واما الآن فبواسطة هذا المجمع رجعت وبرهنت محبتها للسلام. غير ان السلام لا يمكن ان يؤيد ما لم تُنزع العثرة ويُطرَح الشك خارجاً اعني الابتداع في التعليم ويوافق المجمع الحاضر على تحديدات المجامع المسكونية» ومن ثم طلب مرقس ان يقرأ قبل كل شيء تحديدات المجامع المسكونية المتعلقة بموضوع الخلاف(٢). لكن هذا الطلب العادل لم يَرُق للاتين لعلمهم بانه يفضحهم. ولذا كانوا يقاومون مرقس ويجتهدون في ان يجعلوا الشرقيين ان يعدلوا عن قراءة تلك التحديدات. وتحت هذه الغاية حضر الكردينالان يوليانوس ونيقولاوس ومعهما بعض الاساقفة الى مخدع البطريرك حيث كان القيصر كثيرون من الاساقفة الشرقيين وكانوا يقنعونهم اما ان يتركوا قراءة التحديدات المجمعية قطعياً او على الاقل ان تقرأ في البيت حدة لا في المجمع(٣) لكن الشرقيين لم يوافقوهم. حينئذٍ قال اللاتين لهم فلتقرأ اذاً في محرراتكم كحق لكم لا كأنها من ارادة عمومية ومن ارادتنا. وكانوا عند قراءتها يبذلون كل جهدهم في ان لا يكون الاجتماع حافلاً. فلم يسمحوا بالدخول الاَّ لقليلين من العلمانيين. ووضعوا مطبوقاً وتماثيل الرسل مسطحة ولم يُشعلوا ولا شمعة واحدةً امامها(٤).

(١) ذورو ٤٤ ــ ٥٩ هذه رواية دوروثاوس اللاتينية اما رواية سيروبولس فهي ان اندراوس خطب اولاً ثم بيصاريون

(٢) سيرو ٦: ١٤ وذورو ٦٠ ــ ٧٥

(٣) سيرو ٦: ١٨ وذورو ٨٤. وهذه الجلسة الخصوصية يقول ذوروثاوس انها كانت في ١٥ تشرين الاول. واما سيروبولوس فيقول في ١٤ منه.

(٤) سيرو ٦: ١٩.

وفي اليوم السادس عشر من الشهر أُحضرت اعمال المجامع المسكونية. وكان الريفيرنداريوس يقرأ الفصول التي كان يشير اليها مرقس وهي المشتملة على قرارات المجمع المتعلقة بدستور الايمان والترجمان نيقولاوس سيكوندبينوس يترجمها الى اللغة اللاتينية ومرقس يردف كل فصل بملاحظات وتنبيهات ايضاحية لمعناها. واول ما قال مرقس «فلنبدأ الآن من كتاب اعمال المجمع الثالث الكتاب الذي في مقدمته يسطع دستور الآباء الذين اجتمعوا في نيقية ويتبعه تحديدٌ من الآباء الذين اجتمعوا في افسس انفسهم بهِ يأمرون بان يبقى هذا الدستور غير متزعزع وغير متغير». فقرئَ دستور ايمان المجمع الاول المسكوني وتبعه تحديد المجمع الثالث الافسسي القائل «انه لا يُسمح لاحد ان يقدم او يؤلف او يركب ايماناً آخر غير المحدود من الآباء القديسين الذين اجتمعوا في نيقيه. اما الذين يتجاسرون ان يؤلفوا او يقدموا او يأتوا بايمان آخر فان كان (المتجاسر) اكليرياً فليقطع وان كان عامياً فليحرم» فعلى هذه الاقوال قدم مرقس ملاحظة فقال «ان آباء المجمع المسكوني الثاني القسطنطيني زادوا على دستور مجمع نيقيه ما زادوه لسببين: اولاً لانهم كانوا يؤلفون مجمعاً مسكونياً. وثانياً لانه لم يكن وقتئذٍ تحديدٌ منه او من مجمع آخر يمنع الزيادة على الدستور. ولكن لما قام اصحاب هرطقة نسطوريوس وغيروا الدستور الشريف ولفقوا دستورهم واخذوا يبذرون به زؤان تعاليمهم الغريبة عن عقائد الكنيسة سمع المجمع في جلسته السادسة منطوق هذا الدستور الذي ذكره في اعمالها وقدم كل واحد من الآباء تقريرهُ ورأيه فيه. ومن ثم قرر المجمع وحدّد باجماع الرأي ان يبقي دستور مجمع نيقيه غير متزعزع وغير متغير وان لا يسمح لاحد ان يزيد فيه او ينقص منه او يلفظ ايماناً آخر غيرهُ. وقد تهددوا الذي يخالف امرهم بالقطع اذا كان اكليرياً او بالحرم اذا كان عامياً. وبسنهم هذا التحديد اوضحوا وبرهنوا بذاتهم احترامهم دستور المجمع النيقاوي اذ كانوا هم اول من راعاه وجعلوا انفسهم قدوة لغيرهم في احترامه. لانهم لم يتجاسروا ان يضيفوا الى الدستور لفظة «والدة الاله» اللفظة التي كانت وقتئذٍ ضروريةً لدفع هذر نسطوريوس وهي على كل

الاحوال ضرورية جدًّا في عقائد تدبير مخلصنا كما لا يخفى». ولكي لا يظن احد بان مجمع افسس بقوله دستور مجمع نيقيه انما عنى القسم الاول فقط قسم المجمع النيقاوي ولم يعنِ القسم الثاني الذي وضعهُ المجمع الثاني القسطنطيني اوضح مرقس كيف آباء مجمع افسس يعتبرون الدستور كله بقسميه دستوراً واحداً ويسمونه دستور مجمع نيقيه اجلالاً لمقام هذا المجمع الذي وضع اساسهُ كما ان سائر المجامع التي بعدهُ تسميه دستور نيقيه ايضاً. ولا يخفى ان دستور المجمع الاول النيقاوي ينتهي عند قوله «وبالروح القدس» ودستور المجمع الثاني القسطنطيني ينتهي عند قوله «والحياة في الدهر العتيد امين». اخيراً لكي يبرهن مرقس ان مجمع افسس لم يمنع تأليف دستور آخر فقط بل يمنع كل شرح يقوم باضافة شيء الى الدستور ابرز كلمات لقديس كيرللس بطريرك الاسكندرية رئيس المجمع الافسسي في رسالته الى يوحنا بطريرك انطاكية حيث يقول «اننا قطعياً لا نطيق ولا بوجه من الوجوه ان يزعزع من احد الايمان المحدود اعني دستور الايمان الذي كتب من آبائنا القديسين الذين اجتمعوا وقتاً ما في نيقيه. ولا نسمح لا لانفسنا ولا لغيرنا ان نغير كلمةً من الكلمات المسطرة فيه او ان نخالف تهجئة واحدة منه» ثم ألحقَ مرقس هذه العبارة بقوله: ان هذه الرسالة قرئت في المجمع الرابع المسكوني الخلكيدوني وصدق عليها.

ثم قُرئَ تجديد مجمع خلكيدون المسكوني الرابع الآمر بان يُعتبر الدستوران دستور مجمع نيقيه ودستور مجمع القسطنطينية دستوراً واحداً. وعلى ذلك قال مرقس. ان الآباء من بعد قراءة كلا الدستورين قالوا «ان هذا الدستور الموقر والمحترم يكفي لكمال معرفة الحقيقة» لانه يعلم تعليماً كاملاً عن الاب والابن والروح القدس.

ثم قرئَ من اعمال مجمع القسطنطينية الذي عُقد سنة ٥١٨ خطاب يوحنا الكبادوكي بطريرك القسطنطينية الى الشعب حيث يوصيه قائلاً «اصغوا للدستور المقدس الذي به كلنا اعتمدنا والذي سنهُ بالروح القدس مجمع نيقيه وصادق عليه مجمع الآباءِ القديسين في القسطنطينية وثبته

مجمع افسس البار وحتم عليه مجمع خلكيدون المقدَّس». ثم قرئت رسالة افتيشيوس بطريرك القسطنطينية الى البابا ويجيليوس وهي ومدوّنة في اعمال المجمع الخامس المسكوني وفيها يشهد البطريرك «اننا حفظنا دائماً ونحفظ الايمان ... ولا سيما الذي حُدِّد من الذين اجتمعوا في المجامع الاربعة الاخرى الذين في كل شيء وعلى كل وجه نتبعهم ونقبلهم» وهذه الرسالة نسبها مرقس الى البابا ويجيليوس نفسه لانها مُدرَجة في رسالته ومصدَّق عليها منه ايضاً. ثم قرئ تحديد المجمع السادس المسكوني وفيه تثبيتٌ للدستور الذي ألّفه المجمعان الاولان واعتبرته المجامع الثلاثة اللاحقة قانوناً للايمان. وبعد ذلك قُرئت بعض فصول من اعمال المجمع السادس نفسه اعني من رسالتي البابا اغاثُن الى قياصرة الروم حيث يقول «اننا نحفظ بلا ريب ما حدده قانونياً القديسون السابقون والمجامع الخمسة المقدسة ونتمنى ونرغب بنوعٍ خصوصي ان نحصل دائماً على أمر واحد وهو ان لا ينقص ولا يتغير ولا يضاف شيء خلافاً لما حدِّد تحديداً قانونياً. بل ان يبقى ذلك كلهُ في كلماتهِ وفي معانيه غير مثلوم».

اخيراً قرئ تجديد المجمع السابع المسكوني حيث يعاد دستور نيقيه والقسطنطينية. وقد ورد في اعمال هذا المجمع ان الآباء بعد قراءة الدستور صرخوا جميعهم «كلنا هكذا نؤمن. كلنا هكذا نعتقد. هذا ايمان الآباء. هذا ايمان المستقيمي الرأي ... ومن لا يعتقد هكذا فليطرد بعيداً من الكنيسة.

فلما قرئ هذا الفصل من اعمال المجمع المسكوني السابع مع دستور الايمان برز اللاتين بكتاب آخر مكتوبٍ على رقٍّ ادعوا انه قديم وكان فيه دستور الايمان بعبارة يونيانية مع زيادة لفظة «ومن الابن»[1] ولدى مقابلة هذا الكتاب بالكتاب الذي في يد الشرقيين وجد مطابقاً له في كل شيء ما عدا هذه الزيادة. فادعى اللاتين بناءً عليه ان آباء المجمع المسكوني السابع

(١) سيرو ٦: ١٩

قرأوا دستور الايمان بالزيادة «ومن الابن». ثم ان الكردينال يوليانوس استشهد ايضاً بتاريخ قديم على دعواهُ ورد فيه انه في المجمع المسكوني السابع قرأ الآباءُ دستور الايمان بالزيادة. غير انه لم يسمِّ مؤلف هذا التاريخ[2].

غير ان هذه النتيجة نقضها الفيلسوف جيمستوس بعبارة وجيزة وافية فقال «ان الكنيسة الرومانية لو كانت قادرة ان تثبت من كثبٍ ما تقولونه ومن مؤرخ ألف في هذا الموضوع فقد امسى مستغرباً عمل الذين كتبوا ودافعوا عن اللاتين مثل توما الآكويني والذين قبله كيف بذلوا جهدهم في ان يبرهنوا باقوال كثيرة وكتاباتٍ عديدة ان الزيادة صارت من كنيستكم بحق

(١) بعضهم يقول ان يوليانوس كان يشير الى رجل يوناني الجنس اسمه مرتينوس اسقف اغنيزينيا. لان هذا الرجل يقول في تاريخ له ان المجمع النقاوي اي المسكوني السابع حدد انبثاق الروح القدس من الآب ومن الابن (زيرنيكابيوس في الانبثاق قسم اول). غير ان مرتينوس من رجال القرن الرابع عشر والمجمع السابع عقد في القرن السابع فبينه وبين المجمع سبعة قرون فلا يصح ان تكون شهادته صادقة ما دامت كل النسخ القديمة التي لا تحصر عداً وتخالفها وتنقصها اذ لا اثر للزيادة فيها. ثم انها توجد استنادات قوية لا يمكن ان تراجع كلها تبرهن ان المجمع المسكوني السابع حفظ الدستور كلمة أو اكثر من دون ان يوضح في أعماله السبب الذي دعاه الى زيادتها. ثانثاً لان آباء هذا المجمع عندما شرعوا في قراءة الدستور يشهدون ويصرخون باعلى صوتهم قائلين «اننا لا ننفقص شيئاً ولا نزيد شيئاً بل نحفظ كل سيء في الكنيسة الجامعة بلا تغيير». ثالثاً لانه في الكنيسة اللاتينية عينها كان دستور الايمان يقرأ زماناً طويلاً بعد المجمع المسكوني السابع خالياً من الزيادة. حتى ان البابا لاون الثالث امر ان ينقش الدستور على لوحين من فضة باللاتينية واليونانية خالياً من الزيادة كما يشهد فوتيوس في رسالته الى اسقف اكيليثا والمؤلفون اللاتينيون انفسهم مثل انسطاس حافظ المكتبة وبطرس داميانوس وغيرهم (راجع الجزء الاول صفحة ٣٥٢ ـ ٣٥٦) ثم ان علماء اللاتين انفسهم يبرهنون ان قراءة الدستور مع الزيادة في القداس لم يسمح بها في الكنيسة اللاتينية ذاتها قبل القرن الحادي عشر (رزنيكابيوس) رابعاً لان نسخ اعمال المجمع السابع اللاتينية القديمة لا توجد فيها هذه الزيادة. وقد كان في مكتبة بطرس بيتيوس نسخة منها مصحوبة بترجمة ترجمها في القرن التاسع انسطاسيوس حافظ المكتبة وهي خالية من الزيادة ولا اثر لها فيها (تاريخ قضية الانبثاق طبعة باريز وزنيكابيوس وغيرهم)

وواجب وتركوا أعظم سند يبرهن ما كانوا يقصدون ان يقولوه كانه لا ينفعهم. فانهم بدلاً من كل الاستنادات والقياسات التي اخترعوها يكفي لو انهم قالوا ان الزيادة كانت في الدستور من القديم وان المجمع المسكوني السابع قرأ الدستور وفيه الزيادة وصدق عليه وهي فيه. ولكن من حيث ان الدستور لم يُقرأ قطعياً في المجمع السابع على الوجه الذي تقولونه لم يُذكر هذا الاستناد من الرجال الذين دافعوا عن اللاتين[1] فواضح اذاً ان النسخة كانت مزورة من اللاتين في مدة اختلاف الكنائس في انبثاق الروح القدس.

وقد ختم مرقس الافسسي قراءة الاعماب بقوله «فنحن اذاً بما اننا نحترم آباءنا ونحفظ تحديداتهم ونخشى من اللعنات لا يمكنا ان نقبل الزيادة التي ادخلت على الدستور. ومن ثم يبقى علينا الآن ان نسمع دفاعكم عن ادخال هذه الزيادة اذا كان الوقت يسمح».

فلما سمع اللاتين الذين كانوا في الجلسة تحديدات المجامع وملاحظات مرقس قال كثيرون منهم وخصوصاً الرهبان الممتازون فيهم وأصحاب الذمة «اننا لم نعلم نحن ولا سمعنا ولا مرة مثل هذه الاقوال ولا علمنا معلمونا شيئاً في موضوعها. اما الآن فنرى ان اليونان يعلمون تعليماً اصوَب من تعليمنا. وكانوا كلهم يتعجبون من اسقف افسس. غير ان الاشراف الرومانيين امروهم ان يسكتوا ولا يشيعوا مثل هذا الكلام بين الشعب»[2] فاخذ اندراوس اسقف رودُس يجاوب مرقس ويبرهن بمقالة طويلة اقتضت قراءتها اكثر من جلستين[3] اولاً: ان لفظه «ومن الابن» ليست زيادةً بل شرحٌ وتفسير لكلمات الدستور في قوله «المنبثق من الآب» ثانياً ان شرحاً كهذا ليس ممنوعاً من القوانين. وثالثاً ان الكنيسة الرومانية بحسب سلطانها لها الحق في ان تفسر هذا التفسير وتزيدهُ على الدستور.

(١) سيرو ٦: ١٩ وذورو ٨٥ ـ ١١٧. (٢) سيرو ٦: ١٩ وذورو ١١٤ و ١١٥
(٢) ذورو ١٣٦ ـ ١٨٣

فلكي يبرهن القضية الاولى اعني ان الزيادة اللاتينية ليست زيادةً بل تفسير عرَّف في بدءِ خطابه ما هي الزيادة وما هو التفسير. وبعد ذلك طبق تعريفهُ على الموضوع فقال: ان الزيادة على شيء تكون معنىً خارجاً عن موضوعهِ واما التفسير والايضاح فيكون من نفس الموضوع ومتضمناته. فقولنا «ومن الابن» هو تفسيرٌ لعبارة الدستور في قوله «من الآب». ولكي يبرهن ذلك برز بكلمات القديس كيرللس بطريرك الاسكندرية التي على زعمه تتضمن معنى انبثاق الروح القدس من الابن مثل انبثاقهِ من الآب. وعبارة القديس هذه وردت في الكتاب التاسع من تفسيرهِ بشارة يوحنا وهذه ترجمتها «انا اسأل الآب ليرسل اليكم معزياً آخر. فانه لما كان الابن مشتركاً في خيرات الاله الآب الجوهرية له الروح ايضاً على الوجه الذي يفهم انه للآب. اعني لا داخلاً عليه من الخارج (لان مثل هذا الرأي جهلٌ او بالحري جنونٌ) بل على نحو ما كل واحد منا ايضاً يضبط الروح الذي فيه ويبثه من اعماق احشائه الى خارجٍ. فلاجل هذا نفخه المخلص جسدياً ايضاً موضحاً انه كما ان الروح يخرج من فم الانسان جسدياً هكذا من الجوهر الالهي يصدر على معنىً يليق بالله الروح الذي منه» غير ان هذه العبارة لا ينتج منها مقصد اللاتين اصالةً. لانه لا ينتج منها غير النتيجتين الآتيتين وهما اولاً: ان الروح القدس ليس داخلاً على الابن اضافياً بل هو من جوهرهِ بما انه مساوٍ له في الجوهر. وثانياً: انه بانبثاقه من الجوهر الالهي يصدر بالابن وليس هناك ذكرٌ لانبثاقه ازلياً من الابن. على انه اذا فرض المحال وقيل ان في عبارة كيرللس معنىً موافقاً لزعم اللاتين فلا ينتج من ذلك ان عبارة «ومن الابن» اي الزيادة هي تفسير لقول الدستور «ومن الآب». على ان اندراوس اراد ايضاً ان يستند على عبارة للقديس باسيليوس الكبير وردت في رسالته الثامنة والثلاثين ادّعى بناءً عليها انه بحسب معناها لا يمكن ولا بوجه من الوجوه ان يُفهم الآب ما لم يُفهم الابن والروح القدس معه.

وكذلك اورد عبارات أُخرى له من خطبته في الايمان معناها كمعنى هذه العبارة. اما العبارة فهي هذه «ان من افتكر بالآب فقد افتكر به في ذاته وتقبل الابن ايضاً معه في ذهنه. ومن تقبل الابن لم يُفصل الروح عن الابن

لكنه طبع في ذاته الايمان بالثلاثة على وجهٍ متتابع في الترتيب ووحدانيٌّ في الطبيعة الممزوجة نوعاً واحداً. ومن ذكر الروح وحدهُ فقد شمل في اعترافه من هو روحٌ له ايضاً. وبما انه روح المسيح (رو ٨: ٩) ومن الله (١ كو ٢: ١٢) على حد قول الرسول لذلك كما ان من امسك واحداً من طرَفي سلسلة جذب اليه الطرف الآخر هكذا من جذب الروح اليه جذب به الآب والابن ايضاً معه. لانه لا يمكن لاحد ان يخترع انفصالاً او انقساماً (في الثالوث) حتى يُفهم الابن بلا الآب او الروح منفصلاً عن الابن» وهنا واضح ان القديس باسيليوس انما يعلّم ضرورة تصور الاقانيم الثلاثة معاً حين تصورهم من حيث الطبيعة والجوهر فقط وليس في غير ذلك كالخواص الاقنومية مثلاً. والاّ لوجب ان ننسب التجسد ايضاً للاقانيم الثلاثة معاً وننسب الانبثاق للثلاثة وهذا خطأ. فكلمات القديس باسيليوس لاتبرهن ان الروح القدس بما انه ينبثق من الآب يجب ان يكون منبثقاً من الابن ايضاً. وهذه الملاحظات تنطبق على سائر العبارات التي اوردها اندراوس من خطاب القديس باسيليوس. فلم تبقَ براهين لاندراوس المتليتن ليقدمها في هذا الموضوع.

ولكي يبرهن اندراوس قضيته الثانية القائلة بان مثل هذا الشرح ليس ممنوعاً من القوانين قدم شواهد كثيرة لا علاقة لها بالموضوع اصالة. فاتى مثلاً بآية الرسول في رسالته الى غلاطيه (١: ٨) حيث يقول «ولكن ان كنا نحن او ملاك من السماء يبشركم خلاف ما بشرناكم به فليكن مفروزاً» ثم قال اننا مع ذلك نرى ان اشياء كثيرةً قد أُضيفت على بولس وعلى اقواله وعلى بقية الكتاب. والآباءُ القديسون انفسهم الذين اجتمعوا في نيقية قالوا اقوالاً كثيرة لم ترد في دستور الرسل القديسين. وكذلك آباء المجمع الثاني اضافوا الى الاول ومجمع افسس الثالث الى الثاني. فالممنوع اذاً هو الاضافة لا التفسير. ثم انه اتى ايضاً بالبراهين الآتية فقال. اولاً: ان الرسول يقول «الرب واحدٌ الايمان واحدٌ المعمودية واحدة الله واحد وأبو الكل» (اف ٤: ٥ ــ ٦) فما دامت الكنيسة واحدة فسلطتها واحدة (دائماً). وما دام سُمحَ لها قبلاً ان تضيف عند الاقتضاءِ (على الدستور) لماذا لا يسمح لها

الآن؟ لان المخلص يقول «ها أنا معكم كل الايام والى انقضاء الدهر» (مت ٢٧: ٢٠). ثانياً: انه لما كان في اوقات متعددة تظهر هرطقاتٌ متنوعة كان من واجبات الكنيسة ان تحاربها بالتعليم وتحصن الحقيقة باضافة التفاسير الى الدستور.

ثم انه أعاد النظر في القوانين وتحديدات المجامع وعبارات الآباءِ التي اوردها مرقس وكان يجتهد في ان يبرهن ان المجمع الافسسي منع تأليف ايمان آخر غير الذي في الدستور ولكن التعليم عن انبثاق الروح القدس من الابن ايضاً ليس تعليماً آخر بل تفسير لكلمات الدستور. ثم اجاب عن ملاحظة مرقس في ان مجمع افسس لم يزد على الدستور لفظتي «والدة الاله» فقال: انها لم تكن حاجة الى ذلك. لان المعنى بان العذراء والدة الاله موجودٌ في كلمات الدستور حيث يعلم ان ابن الله الهٌ حقيقيٌّ وانه تجسد من مريم العذراء.

اما القضية الثانية وهي دعواه بسلطان كنيسة رومية وحقوقها في ان تزيد في دستور الايمان ما تراه ضرورياً فقد اسندهُ اسندهُ اندراوس اولاً: الى اقوال الآباء الذين على زعمه كانوا يعلمون بان الروح القدس منبثقٌ من الابن ايضاً. ثانياً الى الظروف التي احوجت هذه الكنيسة ان تكمل الدستور. وثالثاً الى سلطان الكرسي الروماني الاعلى. ولكي يؤيد مستنده الاول اشار الى اوغستينوس وامبروسيوس وغريغوريوس الديالوغوس وايلاريوس من الغربيين والى اقوال باسيليوس وغريغوريوس النيسيّ واثناسيوس ويوحنا الذهبي الفم وابيفانيوس وانسطاسيوس السينائي وسمعان المترجم من الشرقيين. غير ان عبارات هؤلاء الآباء لا تثبت تعليم اللاتين اصلاً لان الكلام فيها اما انه عن مساواة الاقانيم الثلاثة في جوهر اللاهوت او عن ارسال الروح القدس ارسالاً زمنياً لا عن انبثاقه انبثاقاً ازلياً. وسيأتي البحث في اقوالهم في الجلسات الاخيرة* اما الاستناد الثاني أعني الظروف التي أحوجت كنيسة رومية ان تكمل الدستور فقال عنه: انه لما كان تعليم النسطوريين الكاذب يمتد وقتاً ما في الكنيسة الغربية وكان تابعوه يقولون بان الروح القدس ليس أزلياً قبل المجمع المسكوني السادس رأى البابا

ومجمع الآباء الغربيين ان تُدخَل هذه الزيادة في دستور الايمان دحضاً لذاك التعليم. هذا ما قاله اندراوس ولكن التاريخ لم يذكر مجمعاً كهذا ولا تحديداً في هذا المعنى. بل العكس لانه يشهد بان البابا لاون الثالث منع هذه الزيادة في القرن التاسع عينه. واخيراً لكي يبرهن المستند الثالث وهو دعواه بان الكنيسة الرومانية لها حق بشخص البابا رأسها ان تكمل الدستور بتفاسير وشروح استشهد بالقديس كيرللس الاسكندري. وكان يقول ان هذا الاب يعترف صريحاً برئاسة بابا رومية وسلطته. غير انه لم يورد كلمات القديس كيرللس بنصها. واما الكردينال يوليانوس فاشار الى رسالة البابا اغاثُن التي قرئت في المجمع المسكوني السادس وفيها يقول: ان تعليم الكنيسة الرومانية كان دائماً يتبعه كل المجامع الارثوذكسية ومعلمو الكنيسة وانه كان يخاف ان يُدان من مخلصنا يسوع المسيح اذا كان يسكت ويخبئ الحقيقة التي كان مجبوراً ان يظهرها الى المحتاجين. ولكن التاريخ يعلمنا ان الكنيسة لم تتبع دائماً تعليم الباباوات بل انها في المجمع السادس نفسه حكمت عى البابا اونوريوس كما رأينا(١).

وفي الجلستين التابعتين في ١ و ٤ تشرين الثاني رد الشرقيون على اندراوس ويوليانوس وكتب الرد جاورجيوس سخولاريوس وسلمه للقيصر والقيصر دفعه لبيصاريون وبيصاريون تلاه في المجمع(٢). وقبل كل شيء برهن فيه ان زيادة «ومن الابن» في الدستور ليست تفسيراً بل زيادة محضة. لأنها مؤسسة على مبدإٍ آخر وهو ان «كل ما للآب هو للابن ايضاً». ثم قال انه بعد مجمع افسس أمسى ممنوعاً كل اضافة في الدستور حتى التفاسير المستقيمة عينها ايضاً. لان المجمع المسكوني الثالث منع كل اضافة منعاً قطعياً. ولا ريب في انه بمنعه الزيادة لا يشير الى الزيادات المخالفة للدستور. وقد قال القديس كيرللس في رسالته الى اكاكيوس اسقف ميليتيني ما نصه «لان المجمع المقدس المسكوني الذي اجتمع في مدينة

(١) جزء ١ صفحة ٣٢٥ (٢) سيرو ٦: ٢١ وذورو ١٨٣ ـ ٢١٦

الافسسيين قد اعتنى بحكم الضرورة في انه لا يجب ان يُدخل الى كنائس الله اعترافاً اخر للايمان غير الاعتراف الموجود الذي نطق به الروح القدس آباؤنا المثلثو الغبطة وحددوه». ثم قال بيصاريون : اننا نرى من ذلك ان المجمع يمنع اعترافاً آخر للايمان لا اعترافاً لايمانٍ آخر. وقد منع ذلك عن الكنيسة كلها لا عن جزء منها وأول ما منعه عن نفسه. لان لفظة «والدة الاله» التي كانت في ذلك الوقت ضرورية جداً عندما اقتضى الامر ان تزاد في الدستور لم يزيدوها مع انها تعبر عن معنىً يتضمنه الدستور وكانت زيادتها ضرورية جداً لدحض الضلالة النسطورية. وكذلك المجامع اللاحقة ايضاً لم تضف الى الدستور تحديداتها العقائدية في الطبيعتين والمشيئتين في المسيح يسوع التحديدات التي ليست الا تفسيراً وايضاحاً لما في الدستور وكانت اضافتها ضرورية جداً ضد تعليم ذوي الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة. ومع ذلك لا نرى الا عكس ما تقدم أعني اننا اذا بدأنا من مجمع افسس نجد في اعمال المجامع ان آباء المجامع اللاحقة قبلوا الدستور وصدقوا عليه كما استلمته الكنيسة من المجمعين الأولين بلا أدنى تغيير.

على ان الآباء المحكمين من الله وجدوا طريقاً ومخرجاً لقضاءِ حاجتهم مع المحافظة على الاحترام الواجب للقدماءِ فكانوا يسنون تحديدات خصوصيةً يوضحون بها عقائدهم ويحفظون الدستور الشريف بلا تغيير ولاَ مسٍّ. وهذا السلوك لا يبرهن ان سلطة الكنيسة نقصت من بعد مجمع افسس بل بالعكس يشهد على اتحادها. لان حفظ التحديدات السابقة دليل قاطع على وحدة ارادة الكنيسة. وبهذه الواسطة تحفظ الكنيسة نفسها وبخلافها كانت تخرب نفسها. فلا وجه اذاً للكنيسة الرومانية تبرئ به نفسها في زيادتها على الدستور لا من حكم الظروف ولا من السلطان الذي هي تنتحله لنفسها. على اننا نعرف حقوق الكنيسة الرومانية وتقدمها ولكننا نعرف ايضاً حدودها. فكيف يحق لجزء من الكنيسة ان يزيد في الدستور مع ان الكنيسة كلها امست عادمة هذا الحق؟ ثم ان بيصاريون سأل الرومانيين قائلاً: ما قولكم في حجب المجامع المسكونة كل زيادة في الدستور والى اي دستور تشير الى هذا الدستور او الى غيره؟ وطلب الجواب. فلما سمع

خطباءُ اللاتين هذا السؤال قاموا ودنوا من البابا وأخذوا يتذاكرون مدةً مع الكرادلة والاساقفة. ثم رجعوا ولم يجيبوا عن سؤال بيصاريون بسيء ولا عن اقواله السابقة. ولكن اندراوس بدأ بكلام طويل لم يفهم منه جوهر ولا نفعهم بشيء بل قتل به الوقت قتلاً وجعل السامعين ان يملوا منه حتى تركوا الجلسة وقاموا(١).

وفي الجلسة الخامسة عشرة (٨ تشرين الثاني) برز لمجاوبة بيصاريون يوحنا اسقف فورلئيا. فأخذ يعيد ما قيل قبلاً وزاد عليه انه يبني اقواله على اقوال لاهوتيين لاتينيين قائلاً ان لفظة Filioque (اي ومن الابن) ليست زيادة بند آخر في الدستور بل هي شرحٌ بسيط يتضمنه قوله «ex patre» (اي من الاب) كما ان العهد الجديد يتضمنه العهد القديم وما شاكل ذلك من الكلام(٢).

اخيراً فهم اللاتين ان محور المسألة هو منع المجمع الافسسي وان قوة الشرقيين في هذا الموضوع عظيمة. وعليه نزل بعد يوحنا الى ميدان الجهاد ضدهم الكردينال يوليانوس واخذ يجتهد بكل قواه في ان يفسر منع المجمع بمعنىً يوافق الكنيسة الرومانية. فكان يقول: ان هذا المنع كان موجهاً الى الدستورات ذات الآراء الوخيمة كما يتضح من ظروف المجمع واعمالهِ وتحرير ذلك ان رجلاً اسمه خاريسيوس كان قساً في فيلادلفيا قرأ امام المجمع اعتراف ايمان انسطاسيوس وفوتيوس تلميذي نسطوريوس. وكان يشتكي عليهما بانهما حرماهُ من الكنيسة لعدم قبوله دستور نسطوريوس. فلكي يبرهن صحة رأيهِ الشخصي قرأ اعتراف ايمانهِ بدستورٍ خاصٍ كان مستقيماً في معناه ولكنه لم يكن مطابقاً للدستور العام في مبناه. فلما سمع الاباءُ كلا الدستورين ورأوا دستور نسطوريوس مملوءاً من البدَع جددوا ان لا يتجاسر احدٌ فيما بعد على تأليف اعتراف آخر للايمان. ومن هذا استنتج يوليانوس ان الآباء لكونهم لم يرفضوا اعتراف ايمان

(١) ذورو ٢١٦ ـ ٢١٧ وسيرو ٦: ٢١ والروايتان متفقتان.

(٢) ذورو ٢١٨ ـ ٢٤٢.

خاريسيوس الذي كان مستقيماً في المعنى ومختلفاً في المبنى بل رفضوا اعتراف ايمان نسطوريوس لما كان فيه من التعليم المبتدَع انما قصدوا بحكمهم في المنع منع الدستورات الوخيمة الآراء لا غير.

وفي الجلسة السادسة عشرة وقف مرقس وأجاب عن اقوال يوليانوس فقال: ان اعتراف ايمان خاريسيوس المستقيم الرأي وان لم يُرفض من المجمع لم يُعتبر دستوراً عاماً للكنيسة كلها وما ذلك الا لانه كان يفرق في كلماتهِ عن دستور مجمع نيقيه. نعم انه ليس ممنوعاً من الكنيسة ان يعبر كل واحد عن ايمانه الشخصي بالالفاظ التي يريدها ليوضح رأيهُ وفكره فقط. ولكن عباراته هذه لا يمكن ان تكون دستوراً عمومياً للايمان. على ان هذا ايضاً مسموحٌ به عند ما لا يوجد دستور مسنونٌ. ولا يخفى ان كثيرين من رؤساءِ الكنيسة كانوا في اوقات متعددة يشرحون ايمانهم امام المجامع التي بعد الثالث بالكلمات التي كانوا يختارونها. فان البابا اغاثُن والبطريرك الاورشليمي صفرونيوس شرحا ايمانهما الشخصي في رسائل قرئت في المجمع السادس المسكوني وصدق المجمع عليها. وكل واحد من البطاركة ورؤساءِ الاساقفة كانوا يرسلون بعضهم الى بعض الرسائل المسماة بالرسائل المجمعية التي لم تكن تتضمن شيئاً آخر سوى اعتراف الايمان المستقيم الرأي. ولم يزل هذا الامر مرعي الاجراءِ الى الآن في الكنائس الشرقية. فليس من العجيب اذاً قبول المجمع شرح ايمان خاريسيوس بعباراته الشخصية. ولكن العكس بالعكس اعني ان كل دستور يستعمل بدلاً من دستور مجمع نيقيه اما للموعوظين او للمعتمدين او في الفروض الكنائسية اجمالاً يقع تحت حكم المجمع وان كان مستقيم الرأي. لان المجمع بعد ان حكم على دستور نسطوريوس اراد ان يحصن دستور الايمان العام بحرز حريز ليحفظه من كل فسادٍ فمنع منعاً صريحاً تأليف دستورات غيرهُ وادخالها الى الكنيسة مهما كان الفرق بينهما وبينه طفيفاً. ثم قال مرقس: انني لست انا القاضي بذلك بل القديس كيرللس نفسهُ الذي شرح تحديد المجمع في رسائله الى اكاكيوس اسقف ميليتيني والى يوحنا بطريرك انطاكية كما تشرحهُ الكنيسة الشرقية.

فاعترض يوليانوس على هذا التفسير قائلاً: ان مجمع افسس لم يعمل تمييزاً بين استعمالٍ عامٍّ واستعمالٍ خاصٍّ لكنه منع كل مسيحيٍّ عموماً عن ان يعترف اعترافاً آخر. ثم رجع واستنتج ثانيةً ما استنتجه قبلاً عن الدستورات الوخيمة الاراء. فأجابه مرقس: انه من اقوال القس خاريسيوس ومن التوقيعات التي كانت على دستور نسطوريوس يتضح ان هذا الدستور لم يكن مستعملاً بصفة اعترافٍ خصوصيٍّ بل كان يُعرَض على هراطفة آخرين ايضاً ليمضوا عليه بمثابة اعترافٍ عمومي. لأجل هذا منع المجمع تأليف دستوراتٍ أُخرى للاستعمال الكنائسي العام ولم يرفض دستور خاريسيوس لانه كان اعترافاً خصوصياً لان عدم مطابقتهِ تماماً في الكلمات لم يكن مضراً في جوهره اصلاً.

وقد ختم مرقس اقواله هكذا «ان هذا الدستور نطلبه منكم ايها الآباء الأحباء بمثابة وديعةٍ صالحة من آبائنا الذين اجتمعوا في عاصمة مملكتنا. فارجعوه اذاً كما تسلمتموه منا. فلو سلمكم احد امانةً افما كنتم تردونها كما تسلمتموها؟ فردوا اذاً دستور الآباء كما تسلمتموه. فانه لا يقبل زيادةً ولا نقصاً لانه قفل منهم وخُتم عليه. فهم يرذلون الذين يتجاسرون ان يبتدعوا فيه شيئاً حديثاً والذين يؤلفون دستوراً غيرهُ ويلقونهم تحت المسؤولية. اترون انتم ان زيادة الكلمة التي زدتموها امر صغير ولا تسبب مقالات طويلة؟ فاذاً لا نخطئ نحن ايضاً اذا اطلنا فيها الكلام. او لعلها أُضيفت لسياسةٍ ما؟ فاذاً لتخذف لسياسة اعظم اعني لتضمنوا اخوةً ممزقين وفي محبتكم متفانين. فنزجوكم اذاً ايها الآباءُ والاخوة والاسياد الكرام كما رجوناكم قبلاً اكراماً لعواطف ربنا يسوع المسيح الذي احبنا ونحن اشرار وخطأة ويائسين ووضع نفسهُ عنا تعالوا لنرجع الى الموافقة الصالحة موافقتنا لانفسنا وللآباءِ القديسين الموافقة التي كنا متوافقين عليها حين كنا جميعاً نقول قولاً واحداً ولم يكن بيننا شقاقات. ولنعرف بعضنا بعضاً معرفة اخويةً: لنحترم آباءنا العموميين. لنكرم تحديداتهم. لنخف تهديداتهم. لنحفظ تقليداتهم. لكي باتفاق العزم نمجد بفم واحد وقلب واحد الاسم الكلي الاكرام والعظيم الجلال اسم الآب والابن والروح

القدس الآن وعلى مدى الدهر آمين»(١).

غير ان اللاتين كانوا يكررون الكلام عينهُ دفاعاً عن الزيادة وخصوصاً يوليانوس الذي لُقب بصياد الكلام نظراً لكثرة كلامه وتطويله حتى كان السامعون يملون منه لانه لم يكن ينتهي. واذ كان يظن نفسهُ انه لا يُغلب كان يقول بانه مستعد ان يقابل فصول مرقس العشرة بعشرة آلاف فصل. وانه على تمام الاستعداد لان يدافع عن آرائهِ. لا يوماً فقط بل شهوراً كاملة. غير انه لما لحظ ان الشرقيين ايضاً مستعدون لان لا يتركوا له حجةً الا قابلوها بالانتقاد والنقض اخذ يقنعهم ان يفتحوا مسألة اخرى ويبحثوا في اقوال الآباء وفي العقيدة نفسها حتى اذا ظهرت غير مستقيمة تُحذف من الدستور والاَّ فتقبل وتبقى فيه(٢).

انتقال المجمع الى فلورانسا والجدال في قضية الانبثاق

فواضحٌ مما تقدم ان كل المجادلات التي جرت بين الفريقين في مدة شهرين لم تأت بفائدة لان كلا منهما كان مصرًّا على رأيهِ. لأجل ذلك يئس الشرقيون من النجاح وافتكروا ان يرجعوا الى بلادهم. لكنّ اللاتين اصروا على طلبهم في ان تُفحص العقيدة نفسها واخذوا يترددون على البطريرك من برهة الى أُخرى ليقنعوه وهو مريض طريح الفراش. وكذلك القيصر ترك الدير والصيد وأخذ يسعى في ان يضع حداً للمذاكرات المجمعية ليرجع الى عاصمته بأسرع ما يمكن. وعليه عزم ان يقنع الشرقيين بقبول طلب اللاتين. ولكن لما أخبرهم بأنه هو ايضاً يرغب تغيير الجدال اجابوه بقولهم «ان اللاتين لما رأوا هذا الموضوع قوياً لنا وانه لا مجال لهم فيه قصدوا ان

(١) ذورو ٢٤٢ ـ ٢٩٧ واعمال المجمع صفحة ٩٤

(٢) ذورو ٢٨٧ ـ ٢٨٩ سيرو ٦: ٢٢

يتملصوا منه ولكن علينا نحن ايضاً ان نتمسك بمصلحتنا ولا نترك قوّتنا». هذا كان جوابهم كلهم ما عدا الاب الروحي غريغوريوس فانه وافق القيصر وبعد قليل انتدب بروطوسينجلساً[1].

وكان البطريرك ايضاً لا يريد تغيير البحث. فاجتمع عنده الاساقفة مرتين وكان يقول لهم ان اللاتين نظراً لاتصافهم بالمماحكة وحب المجد الفارغ والاصرار على العناد لا يمكن ان تأتي المخابرات معهم بفائدة وان انتقلوا الى البحث في العقيدة. وبعد المداولة ارتأوا ان يخبروا البابا بان الزيادة التي زادوها في دستور الايمان ضدًّا لتحديدات المجامع واقوال الآباء يجب حذفها. وبأنهم تحت هذا الشرط وحده يقبلون طلب اللاتين ولاّ فيقطعون الاشتراك معهم. حينئذٍ كرر بيصاريون عبارتهُ السابقة ضدًّا لرأي الآخرين وقال «يجب ان نقبل المداولات ف العقيدة نفسها لاننا قادرون ان نتكلم كلاماً كثيراً وجيداً» غير ان هذه العبارة لم تكن تعجب الآخرين[2].

ثم ان مجمع الاساقفة اخبر القيصر قرارهُ وقال له «اذا كان اولئك (اي اللاتين) في موضوع الزيادة الذي لنا فيه قوة عظيمة لا تُقاوَم يلفقون معارضات ويحسبون انهم يحسنون الاقوال ثم يدعون بان التحديدات لا تضادهم. فاذا انتقلنا الى البحث في العقيدة التي كما نسمع يفتخرون بان لهم فيها ما يساعدهم من اقوال بعض القديسين اللاتينيين (ولا نعلم بعد ما هي) فانهم سيتكلمون كل ما يريدون. ثم من حيث انهم معتزون بسطوة البابا وقوتهِ يشيعون انهم برهنوا جلياً ان رأيهم صحيح. لانهم ما داموا الآن وهم لم يبرهنوا شيئاً لا يخجلون ان يقولوا هذا القول اكثر من اللازم كم بالحري سينادون به في المستقبل؟».

غير ان القيصر لم يكن يفتكر الا في نوال المساعدة من البابا ولذا اصر على اجابة اللاتين وعضدهُ ذوروثاوس مطران مدلّه[3] وبيصاريون

(١) سيرو ٦: ٣٣ (٢) ٧: ٣ و ٦ (٣) سيرو ٧: ٦ و ٧

وايسيدوروس وغيرهم ضدًّا لرأي البطريرك. حينئذٍ قال مرقس «ما دام القوم يقولون بان الانتقال الى المداولات في العقيدة حسنٌ اقول انا ايضاً انه اذا رؤي حسناً فليكن» وبعد التصويت تقرر براي الاكثرية ان ينتقلوا الى البحث في عقيدة الانبثاق[1].

لكنهُ بقي مانع آخر لاعادة الاجتماعات. فان البابا كان قد انكر على الشرقيين اداء المعاش في فرّارا لان آماله بالمساعدة المالية من هذه المدينة خابت ولم يكن يأمل شيئاً غيرها. فطلب سراً من القيصر ان ينقل المجمع الى فلورانسا حذراً من رجوع الوباء ولأن سكانها الاغنياء ورئيس جمهوريتها قزما وعدوهُ بقرض اربعين الف ذهب اذا نقل المجمع اليها[2]. ثم انه وعد الشرقيين أيضاً ان يقدم لهم ١٢ الف ذهب وسفينتين للدفاع عن القسطنطينية عدا المساعدة الاعتيادية. وكان يؤمل بان ينتهي العمل بعد ثلاثة أو اربعة أشهر. أما الدفعات التي نقدهم اياها الى هذا الوقت فكانت اربعاً: الاولى في ٢ نيسان وقد وزع عليهم ٦٩١ ذهباً عن شهر واحد ونصف شهر[3] والثانية في ١٢ ايار وقد دفع لهم ٦٨٩ ذهباً[4] والثالثة في ٣٠ حزيران ٦٨٩ ذهباً[5] وبعد ان قطع عنهم الرواتب نحو اربعة اشهر نقدهم الدفعة الرابعة في ٢١ تشرين الاول وكانت ١٢١٨ ذهباً عن شهرين فقط وأخر البواقي الى وقت آخر كما سيجيء[6]. فلما اوضح القيصر للشرقيين عزم البابا انقبضوا انقباضاً عظيماً وقالوا: لماذا نذهب الى هناك؟ ألعلنا نقول هناك شيئاً لم نقله هنا؟ ماذا يستطيع اللاتين في فلورانسا ولا يستطيعونه هنا؟ ألعله يؤمل ان يحذفوا الزيادة من الدستور؟ او يريدون ان يقنعونا لنقلبها في دستورنا؟ هذه امور غير ممكنة في المكانين فلا ينبغي ان نذهب[7]. غير ان القيصر اعتذر لهم عن البابا بالعسر المالي وأفادهم ان

(١) ذورو: ٣٠٦ ـ ٤٠٧ وسيرو ٧: ٢ ـ ١١
(٢) سيرو ٧: ١ (٣) ٧: ١١ (٤) سيرو ٤: ٢٨ (٥) ٥: ٩
(٦) ٥: ١٨ (٧) ٦: ٢٠ (٨) اعمال صفحة ٩٤

أهالي فلورانسا عازمون ان يساعدوه ووعدهم باداء المعش الذي لهم عن الخمسة الاشهر. ولكن الشرقيين رجعوا ورفضوا السفر حذراً من ان البابا يستبد فيهم في فلورانسا استبداداً اشد. فقال له مطران هرقلية «ما دام الفلورنسيون قوماً صالحين ويريدون مساعدة البابا فليعطوهُ المصاريف وليتم العمل هنا». فأجابه القيصر قائلاً «غير ان الفلورنسيين لا يقرضون البابا الا على شرط الانتقال الى فلورانسا وعقد المجمع هناك. والا فلا يعطونه شيئاً قطعياً ... اما هو (اي البابا) فوعد بانه اذا قبلنا ووافقناه على الانتقال الى فلورانسا يعطينا هنا معاش الخمسة الاشهر والمصاريف اللازمة للسفر. وهناك يعمل الاجراءات اللازمة ليأخذ كلٌّ منا معاشه من البنك عندما يريد بدون ان يطلب شيئاً منه». ثم قال ما ملخصه انه لا يليق بنا ولا يوافق الوطن ان نترك العمل من نصفه ونرجع بخفي حنين. حتى ولو قمنا لنرجع فنحن في افتقار الى المصاريف. ولكي لا يدع سبيلاً لهم يمكنهم من الرجوع الى بلادهم اصدر امراً بان كل سفينة يونانية تُضبط مسافرة الى البندقية تدفع الى النار* فالافتقار التام الى لوازم الرجوع الى القسطنطينية والوعيد بخسران معاش الخمسة الاشهر اجبر الشرقيين على قبول الانتقال. ولكنهم طلبوا ان يقوم البابا بايفاء الدراهم المتأخرة على الاقل. فوعدهم القيصر وكانت آخر مذاكرة في ٢ كانون الثاني سنة ١٤٣٩[١].

فأمر البطريرك الاساقفة ان يستعدوا للرحيل وقال لبعضهم ان يرسلوا الى البندقية ما يزيد من الامتعة ولا يأخذوا الى فلورانسا غير الضرورية منها لان الاتحاد سيتم في اسرع وقت. فبغت الشرقيون كثيراً من هذا النبأ لأنهم كانوا متشائمين من السفر الى فلورانسا قياساً على الحوادث الماضية. غير ان القيصر هدَّأ روعهم فقال لهم «انني لا اعلم ما اذا كان يتم الاتحاد او لا يتم. فاما كوني اقبلهُ متى تم على وجهٍ حسن فهذا امرٌ اقرُّ به وجميعكم يجب ان تكونوا على هذا العزم. ولكني الى الآن لا اعلم ما اذا كان يتم. ولا اقدر

(١) سيرو ٧: ١٢ وذورو ٣٠٨ ـ ٣١٩

ان افهم كيف قال البطريرك هذا الخبر وهو لم يسمعه لا من يوناني ولا من لاتيني. لانه لا اولئك ولا نحن نعلم ما اذا كان يتم. فلا أعلم اذا كان عرفه هو من اعلانٍ الهي.اما انتم فلا يجب ان تضطربوا من قول البطريرك لانه غير معلوم». وبعد ذلك طلب مطران افسس ان يقدم كل واحد رأيه في العقيدة وقال لهم «اذا كان الجميع موافقين لي ويسلموني آراءهم فاني أنزل على هذه الصفة الى ميدان الجهاد. وان لم يكن معي رأي الجميع فاني اجلس عل بسيط الحال مثل الباقين» غير ان هذه الاقوال البسيطة التي قالها مرقس عن حرارة شديدة في سبيل الارثوذكسية أغضبت الذين لم تكن لهم نوايا صالحة حتى ان واحداً منهم وهو البروطوسينجلس غريغوريوس التفت الى القيصر وقال بحدّة «يا سيدي القديس هل اقمت هذا رئيساً على المجمع؟ فان كنت اقمته فمرنا به لنعلم اننا كلنا تحت ارادته». ومثل هذه الاقوال قال بيصاريون ايضاً الى ان اضطر القيصر ان يزجر ذلك الشيخ البريء[١]. غير ان اول جلسة في فلورانسا برهنت ان القيصر كان واعداً البابا بايجاد طرق خفية للاتحاد غير المجادلات العمومية ومن ثم اتضحت حقيقة نبوة البطريرك الشيخ وغضب القيصر من مرقس.

وفي ١٠ كانون الثاني سنة ١٤٣٩ قُرئَ في كنيسة فرَّارا الكاثذرائية امر البابا بانتقال المجمع الى فلورانسا. وكان يقول ان سبب نقلهِ الوباء. غير ان الوباء كان قد انقطع منذ شهرين[٢]. وفي ١٢ منه وُزعت على الشرقيين الدراهم المتأخرة وعلاوةً عليها أُعطي ذهبان لكل منهم مصروف السفر. فكان مجمل ما دفعه لهم ٢٤١٢ ذهباً عن اربعة شاهر بعد ان كان قطع عنهم الدفع نحو ثلاثة اشهر ايضاً مثل المرة السابقة[٣].

ثم أُرسلت مساعدات الى القسطنطينية تسعة عشر الف ذهب. وبعد ذلك خرج البابا من المدينة باحتفال عظيم ووجهته فلورانسا. غير انه خاف ان يصيبه شرٌّ على الطريق من اعدائه فاخذ معه عدداً قليلاً من الرجال وتزيى

(١) سيرو ٣: ١٤

(٢) ذورو: ٣١٦ وسيرو ٧: ١٤ (٣) سيرو ٧: ١٤

بزي راهب بسيط. اما لقيصر فرتب السفر على وجهٍ لا يمكن احداً من الاساقفة ان يهرب الى القسطنطينية. فوصل البطريرك والاساقفة الى فلورانسا في سابع شباط واما القيصر ففي الخامس عشر منه[1] وبعد راحةٍ قليلة استأنفوا عقد الجلسات. فعقدت الجلسة الاولى في فلورانسا او السابعة عشرة للمجمع في ٢٦ شباط يوم الخميس من الاسبوع الثاني من الصوم الكبير. وفي هذه الجلسة ذكر الكردينال يوليانوس القيصر يوحنا بطلبه السابق ان يجتمع قبل المداولات العمومية العلنية عدد قليل من كلٍّ من الفريقين لايجاد وسائط للاتحاد وسأله عما اذا كان وجد وسيلةً لذلك. فالقيصر تكدّر من هذا السؤال واجابه بانه لا شيء يجعل اليونان في حاجة الى ان يفتكروا لوحدهم في ما تقرر ان يبحثوا فيه مع اللاتين ثم ذكره بان البحث في موضوع الزيادة على الدستور لم ينتهِ بعد وبان براهين اللاتين لم تقنع الشرقيين وهؤلاء لم يتركوا حقهم في استئناف البحث متى وجدوا الفرصة المناسبة. هذا ما قاله للكردينال الآن ولكنه انما قال في الظاهر ارضاءً للشرقيين لانه سعى فيما بعد في وسائط اقناعهم على الاتحاد. فمن بعد ختم الجلسة جمع كل المطارنة الى حجرة البطريرك وطلب منهم ان يتذاكروا في الاوجه الكافلة سرعة اتفاق الكنائس. فلم يجيبوه على ذلك بل قرروا ان يُنتخب ثمانية منهم ليتذاكروا في ذلك مع اللاتين على حدةٍ. غير ان هذا القرار لم يُعمل به لان البابا كان آملاً بان يكون الشرقيون اكثر خضوعاً له فطلب المجادلات العمومية[2].

ففي الجلسة التابعة (٢ آذار) طرح للبحث تعليم اللاتين في انبثاق الروح القدس من الابن ايضاً. وفوض القيصر اللاتين ان يفتحوا المسائل. وكان مدار الجدال كله تقريباً عل مرقص وحدهُ. وكان خصم مرقص يوحنا الدومينيكاني الشهير عندهم بالبراعة في علم الجدال.

(١) ذورو: ٣١٥ ـ ٣٢٠ وسيرو ٧: ١٥

(٢) ذورو ٣٢٢ ـ ٣٤٠ وسيرو ٨: ١

فقبل كل شيء قال يوحنا انه عازمٌ ان يسند اقواله الى الكتاب المقدس والآباء. ولكنه لما تكلم لم يبدأ بشيء من الكتاب المقدس بل بعباراتٍ من الآباءِ مبهمةٍ ومفسودةٍ اخذها عن ترجماتٍ مغلوطةٍ.

وقد بدأ يوحنا جداله بقوله: ان القول بالكون من احد أو بالاخذ من احد يساوي القول بالانبثاق منه. ثم جاء بعبارتين من مؤلفات ابيفانيوس المترجمة من امبروسيوس ترابرساري المشهور بعدم التدقيق في ترجماته[1] فقرأ العبارة الاولى هكذا: انني اعني الابن ذلك الكائن منه واما الروح القدس فالذي هو وحدهُ كائن من كليهما»[2] واما العبارة الثانية فهي «كما انه لم يرَ الآب الاّ الابن ولا الابن الاّ الآب هكذا تجاسر ان اقول انه ما من احد يعرف الروح القدس الاّ الآب والابن الذي منه يأخذ وينبثق ولا (احدٌ يعرف) الآب والابن الا الروح القدس الممجد في الحقيقة والمعلم كل شيء وهو كائنٌ من الآب والابن[3]. فمن قوله في العبارة الاولى «هو كائن من كليهما» ومن قوله في العبارة الثانية «وهو كائن من الآب والابن»

(١) أونيس جزء ٣ صفحة ٢٤ و ٣٤.

(٢) وفي طبعة بيتابيوس تقرأ هذه العبارة هكذا «انه يدعو الابن الذي هو منه. واما الروح القدس فالذي من كليهما. وهي امور فهمها القديسون بالايمان فقط» فقوله من كليهما يفسره القديس ابيفانيوس نفسه في محل آخر هكذا «ان الروح القدس ينبثق من الآب ويأخذ من الابن» (مجموع مؤلفات ابيفانيوس جزء ٢ صفحة ٧٥).

(٣) وفي طبعة بيتابيوس تقرأ هذه العبارة كالمة بالنص الآتي «فاذاً اذا كان ينبثق من الآب فقد قال الرب انه يأخذ مما لي ايضاً. فكما انه لم يعرف الآب الا الابن ولا الابن الا الآب هكذا اتجاسر ان اقول انه (لم يعرف) الروح القدس الا الآب والابن الذي منه ينبثق والذي منه يأخذ ولا (عرف) الابن من الآب الا الروح القدس الممجد في الحقيقة والمعلم كل شيء. الشاهد للابن. الذي من الآب ومن الابن» فكل يفهم ان املاء العبارة في قوله «الذي من الآب ومن الابن» يفعل الكون هو في غير محله ومن سياق الكلام يفهم معنى العبارة الحقيقي. فان القديس ابيفانيوس يستعمل هنا الآيات الكتابية. ولذا بعد ان قال في بدء كلامه: من الآب ينبثق» اعاد القول ذاته في آخره بقوله «الذي من الآب» (على تقدير فعل ينبثق) كذلك بعد ان قال «يأخذ مما لي» اعاد العبارة في الآخر بقوله «من الابن» (على تقدير فعل يأخذ) فهذا واضح من استعماله الاصل اليوناني حرفي جر

استنتج يوحنا ان القديس ابيفانيوس يعلم بان الروح القدس ينبثق من الابن أيضاً. أما مرقس فمن قبل ان يراجع هذه العبارات في أصلها اليوناني دحض آراء يوحنا قائلاً «ان العبارت المذكورة لا يمكن ان يُستنتج منها انبثاق الروح القدس من الابن ايضاً ولو اعتبرناها بحسب وضعها الحالي. لان الكون من أحد لا يقتضي ضرورة الانبثاق منه بل يقال على انحاء ومعانٍ كثيرة. على ان القديس ابيفانيوس: لم يقل انه يأخذ الكون بل قال «يأخذ» على بسيط الحال وفقاً لقول المخلص «يأخذ مما لي ويخبركم» (يو ١٦: ١٤). والا لقال ابيفانيوس لا احد يعرف الآب والابن الا الروح القدس الذي منهما ينبثق ومنهما يأخذ . فيكون جعل معنى الانبثاق ومعنى الاخذ معنىً واحداً. اما الآن فبفرقه احد الكلمتين عن الاخرى باسم الموصول وبحرف العطف بقوله «الذي منه ينبثق والذي منه يأخذ» يدل على انه يعني بالانبثاق غير معنى الاخذ. فالانبثاق يعني وجود الروح القدس من الآب. وأما الاخذ فيشير الى موافقة الروح القدس بانه نظراً الى مساواته للابن في الجوهر يعلم تعليماً مطابقاً لتعليم المسيح. وقد اثبت مرقس تفسير اقوال المخلص هذه على هذا الوجه من شرح يوحنا الذهبي الفم (مقالة ٨٨ على يوحنا) وكيرللس الاسكندري (الكنوز فصل ١٤). وبعد ذلك قرأوا اقوال ابيفانيوس فلاحظ مرقس ان نسخة اللاتين أُفسدت وان العبارة الاولى هكذا «انه يُفهم من كليهما» بدل قوله «كائن من كليهما» وان فعل الكون ليس موجوداً في الاصل وهو الذي كان يُعتمد عليه يوحنا بنوعٍ خصوصيٍّ ليؤيد رأيه. حتر ان يوحنا نفسهُ اضطر ان يعترف بان خطأهُ نشأ عن سقامة الترجمة ولكنه رجع وادعى بان فعل الكون مقدَّر وعليه كان يستخرج النتائج عينها.

متفاوتين في قوله «من الآب ومن الابن» ففي قوله «من الآب» قال (باراتوباتروس) وفي قوله من الابن قال (اك توايو) فواضح اذاً انه اخذ هذه الحروف من الآيات الانجيلية التي منها يجب ان يطلب المعنى المستقيم في عبارة ابيفانيوس . والا فلو لم يقصد بها معنى متفاوت لما قال «من الآب ومن الابن» (باراتو باتروس كه اك توايو) بحرفي جرّ متفاوتين بل لقال «من الآب والابن» (اك توباتروس كه توابو) واكتفى.

غير ان مرقس قال له اننا وان سلمنا جدلاً بتقدير هذا الفعل فلا ينتج ايضاً ان ابيفانيوس كان يعلم انبثاق الروح القدس «ومن الابن» لان كلماته يمكن ان تفسر بمعنى المساواة في الجوهر كما ان بغضاً من المعلمين يقولون «ان الروح هو (كائن) من الآب والابن ومن جوهرهما من حيث انه مساوٍ للآب والابن في الجوهر(١).

وقد اردف مرقس ملاحظاته هذه بعبارة من القديس باسيليوس الكبير ورد فيها ان الروح القدس ينبثق من الآب لا من غيره. وهذه هي العبارة من كتابه الخامس ضد افنوميوس «الله يلد لا كانسانٍ لكنه يلد حقيقةً من ذاته. ويُبثق روحاً بفمٍ لا على وجهٍ بشريٍّ لانه لا فم جسديٌّ لله. فمنه الروح أيضاً لا من غيره» وبعد ان وافق يوحنا مرقس على انه كما ان ولادة الابن تتعلق باقنوم الآب لا بجوهره هكذا انبثاق الروح القدس يتعلق باقنوم الآب فقط واليه ينسب لا الى جوهره لان الجوهر عامٌّ للاقانيم الثلاثة اعتبر مرقس هذا الكلام مقدمات واستنتج منها ما يأتي فقال: اذا كان الروح القدس من اقنوم الآب فيكون اذاً القديس باسيليوس بقوله «لا من غيره» صرَّح علناً ان الروح القدس هو من اقنوم الآب وحده ولا من اقنوم آخر. غير ان الاضداد انحرفوا في شرح هذه العبارة وأخذوا يخلقون دقائق كلام لا نهاية لها في العلاقة بين الاقنوم والجوهر في اللاهوت والعلاقة بين الابن والروح القدس وبين اقنوم الآب وجوهره. فلم يأت كل ذلك بفائدة لحل المسألة الاصلية بل كان يجدد اسبابا النزاع. اما مرقس فبقي ثابتاً على اقوال اللاهوتيين الشرقيين وتحديداتهم(٢).

(١) ولكي نفهم ملاحظات مرقس كما ينبغي يجب ان نعلم ان حرف الجر اليوناني «اك» الذي ترجمته «من» لا يدل دائماً في الكتاب المقدس على الوجود بل كثيراً ما يدل على الاختصاص والمشابهة الطبيعية كما يتضح من قول المخلص «انتم من هذا العالم انا لست من هذا العالم». (يو ٨: ٢٣). اي من اهل او اخصاء هذا العالم الخ لا من الذين علة وجودهم هذا العالم كما لا يخفى.

(٢) لمرقس مؤلف عنوانه «فصول قياسية في انبثاق الروح القدس» طبعه افجانيوس يونانياً في ترجمة زيرنيكابيوس (جزء ٢) وعدد هذه الفصول سبع وخمسون بها يهدم مرقس ببراعة ودقة جدلية كل براعة العلماء الغربيين ويوحنا أحياناً من دون ان يذكر اسمه اتباعاً لقاعدة اللطف الذي فطر عليه الشرقيون.

وفي الجلسة الثالثة (٥ آذار) اضاعوا الوقت في الابحاث الفلسفية ايضاً بلا ثمرة. ولم يأتوا بعبارة لا من الآباءِ ولا من الكتاب المقدس.

وفي الجلسات الثلاث التابعة (في ٧ و ١٠ و ١٤ آذار) كان مدار الكلام بنوعٍ خصوصي على عبارة القديس باسيليوس الواردة في كتابه الثالث ضد افنوميوس الذي كان يوحنا يشير اليه من وقت الى آخر. وهذه العبارة وردت في نسخة يوحنا هكذا «لانه اذا كان الروح القدس ثالثاً في الوظيفة والرتبة فاي ضرورةٍ لان يكون ثالثاً في الطبيعة؟ لانه في الوظيفة ثاني الابن بما ان له الوجود منه وهو يأخذ منه ويخبرنا. وكلام الايمان الحسن يعلمنا انه متعلقٌ كلياً بهذه العلة» فعلى هذه العبارة لاحظ مرقس فقال: ان هذا الكتاب عندنا منه نسخٌ محرَّفة ومفسودة وفيها العبارة كما ذكرتموها. ففي القسطنطينية اربعة او خمسة كتب تشبه هذا الكتاب ولكن الكتب التي فيها هذه العبارة صحيحة سالمة في لفظها وفي معناها هي نحو الف نسخة(١).

ثم برز مرقص بنسخة قديمة جدًّا وكانت العبارة فيها هكذا «لانه اذا كان الروح القدس ثالثاً في الوظيفة والرتبة فاي ضرورة لان يكون ثالثاً في الطبيعة؟ لانه ربما سلم كلام الايمان الحسن انه في الوظيفة ثاني الابن. ولكن كونه ذا طبيعة ثالثة لم نتعلمه من الكتب المقدسة ولا يمكنا ان نستنتجه بالقياس من الكلام الذي تقدم(٢) وقد برهن مرقس بكل صراحةٍ من

(١) ذورو: ٤١٤ (٢) هذه هي صحة العبارة في كتب القديس باسيليوس المطبوعة في اوقات متعددة مثلاً في باريز ١٦١٨ وفي البندقية سنة ١٥٣٥ وباسيليا سنة ١٥٥١ و ١٥٦٥ وباريز سنة ١٥٦٦ و١٧٣٠ و ١٨٣٩ وقد قال بنيدكتس صاحب هذه الطبعة الاخيرة انه لم يجد الزيادة التي قرأها يوحنا في فلورانسا الا في نسخة واحدة من النسخ السبع التي كانت عنده. وفي مكتبة مجمع روسيا التي في موسكو نسخة مكتوبة في القرن الحادي عشر تحت عدد ٢٣ (فهرسة متى) فيها العبارة كما قرأها مرقس تماماً. واول ما وجدت حرفة في مؤلف اوغوس ايتيريانوس اللاتيني ضد الروم وهو في منتصف القرن الثاني عشر. غير ان نيكيتاس اسقف سلانيك الذي دحض ايتريانوس في هذا القرن عينه والذي في بابا الاعتقاد بالروح القدس لم يكن مستقيم الرأي اورد العبارة في موولفه صحيحة كما يشهد نيلس كاباسيلا في خطابه في الروح القدس ضد اللاتين وهذه الشهادة عنيها ذكرها عند جناديوس بطريرك القسطنطينية.

سياق كلام باسيليوس ان نسخة اللاتين كانت محرفةً. لان هذا القديس في كلامه السابق يقول صريحاً ضد افنوميوس مانصه «ثم يزعم (افنوميوس) انه تعلم من القديسين ان الروح القدس ثالثٌ في الرتبة والوظيفة. ومن نفسه يصدق ويؤمن انه ثالثٌ في الطبيعة ايضاً. فمن هم هؤلاء القديسون؟ وفي اي اقوالٍ علَّموا هذا التعليم؟ انه لا يقدر ان يقول ذلك. أَفَوُجد يا ترى انسانٌ جسور الى هذا الحد محدث البدَع في العقائد الالهية؟» ثم قال مرقس ان القديس باسيليوس يوضح بهذه الاقوال على اصرح وجه انه قط لم يكن يسلم بان الروح القدس ثالث في الرتبة والوظيفة ولا يُصدِّق ان هذا التعليم تعليم المعلمين القديسين. فما دام لم يقبل ان الروح القدس ثالث في الرتبة والوظيفة ولا يصدق ان هذا تعليم القديسين وانما سلم به جدلاً من بابا الافتراض كيف يمكنه ان يجعل الافتراض حقيقة ويعللها بالتعليل الوارد في نسخة اللاتين ويقول على زعمهم ان الروح لاجل هذا هو ثاني الابن لانه منه يأخذ ومنه له الوجود؟

ولكن يوحنا بما انه كان يعترف مثل افنوميوس بان الروح القدس ثاني الابن في الوظيفة كان يزعم ان القديس باسيليوس أيضاً كان يعتقد هذا الاعتقاد. وكان يسند صحة قراءته الى البراهين الآتية اولاً: ان مجمع خلكيدون يسمي تعليم القديس باسيليوس كاملاً مع انه بلفظة «ربما» يدل على الريب. ثانياً ان القديس باسيليوس لكي يبرهن ان فرق الوظائف لا يقتضي فرق الطبيعة ضرورةً استشهد من الكتب المقدسة بمثل الملائكة. ثم قال فاذا كانت المقولات في الملائكة لم يَقُلها باسيليوس بريبٍ فيكون قد قال ما قاله في الروح القدس أيضاً بدون ريب. فأجابه مرقس على ذلك ان من افترَض شيئاً ثم نقضهُ لا يكن مرتاباً. ولكي يبرهن ان زيادة اللاتين لفظة «والابن» بعيدة عن اقوال باسيليوس اتى باقواله من رسالته الى غريغوريوس النيسي حيث قال «ان كل ما يصل الينا من الخير بقوة الهيَّة نقول انهُ فعل النعمة الفاعلة كل شيء في الكل كما يقول الرسول ان هذه كلها يفعلها الروح الواحد نفسه اذ يقسم لكل واحد لوحده كما يشاء (١ كو ١٢: ١١) وان طلبنا ان نعلم ما اذا كانت منحة الخيرات تأخذ مبدأها من الروح

القدس وحده ثم تصل الى مستحقيها فاننا نُرشَدُ من الكتاب المقدس أيضاً الى الايمان بان منحة الخيرات التي تأتينا بالروح القدس مبدأها وعلتها انما هو الاله الوحيد. لاننا تعلمنا من الكتاب المقدس ان كل شيء بهِ كان وبه يقوم (يو ١: ٣. كو ١: ١٧) ... فبما ان الروح القدس الذي منه تنبع كل منحة الخيرات للخليقة متعلق بالابن الذي معه يُفهم بلا ريب. وبما ان وجودهُ متعلقٌ بالعلة الآب الذي منه ينبثق أيضاً. كانت هذه العلامة هي التي تعرف بها خاصته الاقنومية وهي «انه معروفٌ بعد الابن ومعه موجودٌ من الآب» ومع ان انبثاق الروح القدس من الآب وحده مذكور بكل صراحة في عبارة القديس باسيليوس هذه وان تغلق الروح القدس بالابن انما يقال في موضوع منحة الخيرات تعلق يوحنا بلفظة القديس في قوله «متعلق بالابن» واعتبر ان معنى التعلق هنا مساوٍ لمعنى الوجود ثم رتب مقدماته واستخرج القياس الآتي وهو ان الابن مبدأ بما انه الهٌ من الهٍ وكما ان الابن متعلق بالآب هكذا الروح القدس متعلقٌ بالابن فعليه يُدعى الابن ثانياً في الرتبة والوظيفة ويُدعى الروح القدس ثالثاً. غير ان هذا القياس ليس له أساس في كلام القديس باسيليوس الكلام الذي هو صريحٌ وثابت ولا يقبل ردًّا. وقد ردّ مرقس على يوحنا فقال: ان معنى كلمة «متعلق» معين في الكلمات التي تتبعها حيث اوضح القديس وجه التعلق وهي قوله «الذي معه يُفهم بلا ريب» واما كون الروح القدس ثالثاً في الرتبة والوظيفة فلم يقبله باسيليوس الكبير بل هو قول افنوميوس الذي كتب باسيليوس ضده. ثم قال ايضاً «غير انه من الضرورة ان يُعرَف ترتيب للأقانيم الالهية. فان الابن الذي اشرق وحده وحيداً من النور الذي لم يولد يجب ان يُعدّ بعده. وعلى هذا الوجه يجب ان يُعدّ الروح القدس ثالثاً لكي لا يُظن انه هو ايضاً ابنٌ بتقدُّمهِ على الابن (في الذكر) ونسبتهِ رأساً الى الآب. هذا هو رأي القديس باسيليوس. لانه لو عرف ان الرتبة التي بين الابن والروح القدس هي عينها بين الآب والابن وقال ان الروح ثاني الابن لما وبّخَ افنوميوس ودعاه مبتدعاً في تعليم القديسين وهو يقول ان الروح القدس ثالثٌ في الرتبة والوظيفة. فواضح انه قط لم يقبل ان الروح القدس ثاني الابن في الوظيفة بل انما قال هذا الكلام على وجه الافتراض».

ثم اخذ يوحنا يجتهد ويبرهن ان العقيدة لم تكن بدعة وانه لا يجب ان يُعتبر باسيليوس رافضاً اياها. فجاء بعبارتين من اثناسيوس الكبير احداهما من مخاطبته آريوس في المجمع النيقاوي والاخرى من رسالتهِ الى سيرابيون. فاما العبارة الاولى فهي: فاذاً اذا لم يكن الروح القدس من جوهر الآب والابن فلماذا سماه الابن عندما سلم التقديس (اي المعمودية) حيث يقول اذهبوا وتلمذوا كل الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس؟»(١) وفي العبارة الثانية يقول «ان الروح يأخذ من الابن بحسب قول الرب «انه يأخذ مما لي ويخبركم» وعن الابن يقول «انا اتيت باسم الآب» (يو ٥: ٤٣) وعن المعزي يقول «الروح القدس الذي يرسله الآب باسمي» (١٤: ٢٦). فاذا كانت رتبة الروح وطبيعته بالنسبة الى الابن مثلهما للابن بالنسبة الى الآب فكيف الذي يقول بان هذه خلقة لا يرتأي ضرورةَ هذا الرأي في الابن ايضاً؟» فجاوبه مرقس على العبارة الاولى قائلاً: اننا نحن ايضاً نعترف بان الروح القدس في الثالوث الالهي ثالث في الرتبة (او الترتيب). واما كونهُ ثالثاً في الوظيفة ايضاً فاننا نتعجب كيف تعتبرون كلاماً لم يُقل اصلاً كأنه قيل. واما عن العبارة الثانية فقال: انه من الواضح ان القديس اثناسوس كتب هذه الاقوال يحارب بها الذين كانوا يحاربون الروح القدس. فكانوا يعتبرون الآب والابن متساويين في المقام والرتبة ويعترفون بانهما واحدٌ في المجد والطبيعة. واما الروح القدس فكانوا يحطون مقامه عنهما ولا يحصونه معهما بل يعتبرونه ذا طبيعة غريبة ومخلوقة. فهذا القديس يوجه خطابه الى هؤلاء القوم ويبين لهم انّ الروح القدس واحد مع الآب والابن في الطبيعة والكرامة ويبرهن ذلك من احصائه معهما ووحدة الارادة والفعل له ولهما. لان المعلمين كانوا دائماً يبرهنون بذلك وحدة الطبيعة ايضاً ... هذا وانه لم يقل بان الابن له الوجود من الآب

(١) جزء ٣ صفحة ٢٠٦ و ٢٣٠. واما العبارة فهي هكذا «اذا لم يكن جوهره جوهر الآب والابن» اي مساو لهما في الجوهر. ثم ان هذا المؤلف يعتبر مزوراً لا من مؤلفات اثناسيوس الحقيقة.

والروح من الابن ولا قال ان الآب يلد الابن والابن يبثق الروح. فلو كان يرتأي مثل رأيكم لقال هذه الاقوال». أخيراً جاء مرقس بعبارة أُخرى من القديس اثناسيوس فيها يدعى صريحاً الآب وحده ينبوع اللاهوت(١).

لكن يوحنا التجأ الى شهادة أخرى في مقالة باسيليوس الكبير في الروح القدس (وعلى رأي آخرين في المعمودية). وهي هذه «ان التسليم الالهي يعلمنا ان نعترف وجوباً بآبٍ واحد وبابن واحد وبروح واحد أيضاً لا بابوين ولا بابنين ولذا فالروح ليس ابناً ولا يسمى ابناً لأننا لا نأخذ احداً من الروح مثلما (نأخذ) الروح من الابن». فهذه العبارة كان يوحنا يشرحها شرحاً وخيماً(٢). وأخيراً انتقل الى مسألة اخرى وهي: هل المواهب الروحية مخلوقة او غير مخلوقة.

لكن هذا السؤال فضلاً عن عدم علاقته بالموضوع أو باكلام السابق المنسوب الى باسيليوس كان مقصوداً به فتح سلسلة مشاحنات جديدة. اما مرقس فكان عالماً بان هذا الموضوع اقلق كنيسة القسطنطينية في القرن الرابع عشر حين قام النزاع في مخلوقية او عدم مخلوقية طبيعة الله واعماله وكان القيصر قد امر ان لا يتكلم أحد فيه(٣). ولذا سئل مرقس ثلاث مرات

(١) خطاب ضد باسيليوس في ازلية وجود الابن والروح القدس.

(٢) اما هذه المقالة فتعتبر مزورة لا من تأليف باسيليوس ولكن كيفما كانت الحال فهي ليست كما شرحها وفسرها يوحنا قائلاً هكذا: لأننا لا نأخذ احداً من الروح مثلما يأخذ الروح الوجود من الابن. فهذا الشرح سقيم لان الكلام هنا موضوعه عدم وجود ابنين ما دام الروح القدس ليس ابناً ولا يسمى ابناً. لأننا لا نأخذ منه روحاً آخر غير روح الابن. فلو كان الروح ابناً لكان روح الابن آخر وروحه آخر وهذا غير صحيح. بناء عليه يجب بعد قوله «لأننا لا نأخذ اخداً من الروح» ان تقدر فعل نأخذ في العبارة اللاحقة ونقول «مثلما نأخذ الروح من الابن لا كما اراد وقال يوحنا «مثلما يأخذ الروح الوجود» وهو تقدير لا يقبله عقل ولا تساعد عليه قاعدة.

(٣) سيرو ٥: ١٨

فيه ولم يجب ومع علمه بان اخصامه سينسبون سكوته الى غير حقيقته كان يفضل السكوت لكي لا يفتح ابواباً تزيد المشاحنات. على ان القيصر نفسه لما رأى سكوت مرقس وعلم انه قدَّم به ضحية ثمينة في سبيل السلام بمنعه اياهُ عن الكلام اجاب هو نفسهُ مرتين سائِل السؤال بقوله: ان هذا السؤال لا علاقة لهُ بالموضوع الحاضر كلياً وان الشرقيين لم يحضروا ليجيبوا عن جميع المسائل.

ثم جرت مشاحنات على عبارات أخرى من الآباء ولكن هذه الجلسة اعني السادسة كانت في فلورانسا خاتمة الجلسات التي صارت فيها مشاحنات بين الفيئتين لان القيصر ملّ وسئِم من كثرة الابطاء وفي الجلسة التالية كلف مرقس ان يكتب رسالة تشتمل على اخص الفصول التي تستند عليها العقيدة الارثوذكسية(١).

وعليه ففي الجلسة التابعة (١٧ آذار) اتى مرقس بآيات الانجيل والرسل وتحديدات المجامع وشهادات الآباء الى المجمع المسكوني الثالث وبرهن بكل ما جاء به ان الكنيسة الشرقية المستقيمة الرأي حافظت على العقيدة طاهرة وأما الكنيسة الرومانية فابتدعت فيها. واليك ملخص ما قاله.

«اولاً. ان الإله الكلمة ذاته اول متكلم في اللاهوت ومعلم اللاهوتيين عندما سلم رسله وتلاميذه اسرار التكلم باللاهوت في خطابه الاخير قال «عندما يأتي المعزي الذي انا ارسله اليكم من الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق هو سيشهد لي». فلما كانت اقانيم العنصر الالهي ثلاثة استعمل المخلص في هذه العبارة ثلاث كلمات كلٌّ منها تنسب الى واحدٍ من الاقانيم كما يليق به. فعن الروح القدس قال «عندما يأتي» وعن ذاته والآب قال «الذي انا ارسله اليكم من الآب» ثم عن الآب وحده قال «الذي من الآب ينبثق» فانظر الى الدقة في هذا الكلام اللاهوتي. لانهُ بقوله «عندما يأتي» ابان

(١) سيرو ٨: ١

حرية الروح القدس وسيادته. وبقوله «الذي انا ارسله اليكم من الآب» ابان مسرته ومسرة الآب بحضور الروح القدس وظهوره. وبقوله «الذي من الآب ينبثق» ابان علة الروح ومن اين له الوجود ... ولماذا المخلص مع انه ذكر ذاته قبل قليل لم يخص ارسال الروح بذاته فقط بل عممهُ لهُ وللآب ولم يفعل هكذا في كلامه عن انبثاقه ولا قال: الذي منا ينبثق. بل خص الانبثاق بالآب؟ لانه لو كانت الخاصة الانبثاقية له أيضاً لقال ذلك. اما كون خاصة الروح القدس الانبثاق من الآب ولا حاجة الى تقدير «ومن الابن» فيشهد به القديس غريغوريوس المتكلم بالالهيات في تعليمه عن خواص الاقانيم الالهية حيث يقول: لاجل هذا نقف عند حدودنا ونعترف بالغير المولود وبالمولود وبالمنبثق من الآب[1]. فاذا كانت خاصة الروح القدس هي الانبثاق من الآب لا الانبثاق مطلقاً وشرط الخاصة ضرورة ان تعكس من كل الوجوه وتساوي ما هي حاصة له وان لا تزيد عليه ولا تنقص عنه فمن الضرورة اذاً ان نفهم ونقول ان كل ما كان روح قدس هو المنبثق من الآب وكل ما كان مبثقاً من الآب هو الروح القدس.

«واما تلميذ المسيح مؤتمن اسراره فقد كتب في رسالته الى كورنثوس الاولى (٢: ١٢) «وأما نحن فلم نأخذ روح العالم بل الروح الذي من الله». ولكي لا يقول أحد انه ربما يقوله «من الله» عنى الآب والابن شرح هو نفسه هذا الكلام اللاهوتي في ما كشف به سر التكلم في اللاهوت للقديس غريغوريوس العجائبي الكبير عندما توسطت له والدة الاله الدائمة البتولية مريم وقال «روحُ قدوسٌ واحدٌ حاوٍ الوجود من الله ظاهر للبشر بالابن» فمن هنا يتضح انه بقوله حاوٍ الوجود من الله لا يمكن ان يعنى الابن مع الآب. والاّ فلما قال بعد ذلك انه ظهر للبشر بالابن ...»

«ومن بعد الرسول الالهي بولس فليأتِ تلميذهُ ديونيسيوس المغبوط...»

فهذا الآب في تسليمه لنا تمييز الاقانيم الالهية قال «ان الآب وحده هو

(١) خطاب ٦ في اللاهوت.

الينبوع الوحيد للاهوت[1] فاذا كان الآب وحده ينبوع اللاهوت الفائق الجوهر وبذلك يمتاز عن الابن وعن الروح فينتج ضرورةً ان الابن لا يشارك الآب في الينبوعية ولا الروح أيضاً (يشاركه) ...

«وهذا الكلام عينه يقوله القديس اثناسيوس الكبير في خطاب موضوعهُ ازلية وجود الابن والروح القدس حيث قال «اننا نفرق عن المتيوهدين وعن مفسدي الدين المسيحي الذين ينكرون الاله من الاله ويقولون باله واحدٍ مثل اليهود اعني لا من حيث ان الآب وحده غير مولود ووحده ينبوع اللاهوت قالوا انه وحدهُ الهٌ بل من حيث انه على زعمهم عقيم من الابن وغير مثمر كلمةً حيَّةً.»

«على اننا نقدم لكم أيضاً قرارات المجامع المسكونية التي تشهد معنا في كل ذلك: فالمجمع الاول المسكوني المقدس قال بفم لاونديوس اسقف قيصرية للفيلسوف المختار «اقبل الوهية واحدة للآب الذي ولد الابن بوجه لا يقبل تغييراً. وللابن المولود منه. وللروح القدس المنبثق من الآب ذاته هو خاص بالابن» كما يقول الرسول الالهي «ان من ليس فيه روح المسيح فليس له» (رو ٨: ٩)[1] فبقول الآباء «وهو خاصٌّ بالابن» يقولون انه وان يكن لا ينبثق من الابن لكنه ليس غريباً عن الابن بل هو خاص بجوهره مساوٍ له في الجوهر ... ووفقاً لهذا الكلام قال القديس باسيليوس في الرأس الثامن عشر الى امفيلوشيوس «انه يُسمَّى روح المسيح بما انه خاص به في الطبيعة أي مساوٍ في الجوهر». فلو كان باسيليوس يعتقد ان الروح أخذ الوجود من الابن كما ورد في الكتاب المفسود (الذي استشهد بهِ اللاتين) لما قال «بما انه خاص به في الطبيعة» بل لصرَّح وقال: بما انه منبثق منه وآخذ منه الوجود.

وفيما كان مرقس يقدم براهينه كان يوحنا يقاطعه في الكلام. فقال له

(١) تاريخ المجمع المسكوني الاول لمحملسيوس مطران

مرقس «ان حضرتك الكريمة تعلم انكم قدمتم شهادتين او ثلاثة ومع ذلك صُرفت عليها كل الجلسات السابقة. فلكي لا يدوم هذا الحال راينا ان نقدم كل شهاداتنا واستناداتنا دفعةً واحدةً لا من كتب خفية وغير معروفة عند الاكثرين ولا من كتب مرتاب بها ومجرفة بل من الكتب المقدسة نفسها ومن نصوص القوانين والمجامع والآباء المسلَّم بها من الجميع». ثم قال القيصر أيضاً للاتين «ان غرضكم كان ان تقولوا انتم دائماً وان لا نجد نحن وقتاً لنقول شيئاً». فلما سمع مرقس كلمات القيصر هذه تشجع اكثر فاكثر واخذ يتم براهينهُ فقال «ان المجمع المسكوني الثاني أيضاً لما اراد أن يشرح عبارة المجمع الأول وهي «بالروح القدس» وان يبين رتبة الروح القدس مع الآب والابن على وجه اكثر وضوحاً ويخزي محاربي الروح القدس قال في دستوره هكذا «اننا نؤمن أيضاً بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب المسجود لهُ والممجَّد مع الآب والابن»[1].

فهنا يجب ان تعتبر ان مقصد هؤلاء القديسين في هذه الاقوال كان شرح تلك الاقوال اللاهوتية وان ذلك المجمع اراد ان يبين بصراحة وجه اتحاد الروح القدس بالآب والابن. وانتم تنظرون ان المجمع يصف اختصاص الروح القدس بالآب والابن على وجه متفاوت. فكأنه يقول ان الروح القدس هو في رتبة واحدة مع الآب والابن ولكنه من الآب ينبثق ويُسجد له ويُمجَّد مع الآب والابن. يعني انه مساوٍ لهما في الكرامة.

(١) تنبيه. ان ترجمة هذا الفصل في دستور الايمان كما هي عندنا الآن ركيكة وكثيرون لا يفهمون معناها المقصود وهذه صورتها «وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجد الناطق بالانبياء» فمن هذا التعبير يظهر ان قوله «مع الآب والابن» متعلق بخبر محذوف مشتق من فعل الكون او لوجود كانه يقول والذي هو كائن او موجود مع الآب والابن. والحال ان المعنى غير ذلك أعني ان قوله «مع الآب والابن» متعلق بما بعده وهو قوله «مسجود له وممجد» وصحة التعبير هي هكذا «وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب المسجود له والممجد مع الآب والابن والناطق بالانبياء» فالذي يقول «المنبثق من الآب والابن». لا يجوز له ان يكرر الالفاظ ويقول «الذي هو الآب والابن

والجوهر. فلو كان المجمع يؤمن بانه منبثق منهما كليهما لماذا عندما ذكرهما كليهما لم يقُل أولاً «المنبثق من الآب والابن» وبعده: المسجود له والممجد معهما؟ لعمري انه لو كان هذا رأي المجمع لكان هذا السياق سياق كلامه. فمن حيث ان الآباء تركوا لفظة الابن في العبارة الاولى التي بها ارادوا ان يعبروا عن علة الروح وذكروها في العبارة الثانية التي بها قصدوا ان يوضحوا المساواة في الكرامة والجوهر ينتج انهم لم يعرفوا الروح القدس منبثقاً من الابن. والاَّ لما كانوا تركوها ما ذام قصدهم شرح العقيدة. اما كون هذا الشرح شرحٌ كامل تماماً لا نقص فيه ولا سكوت عن واحدة من العلتين كما ادعيتم فواضح من انه لم يشرح مجمع من كل المجامع التي بعد هذا المجمع شرحاً غيرهُ ولا اضاف اليهِ انبثاقاً من الابن. بل بالعكس كلها حجبت ومنعت بتحديداتها كل زيادة كأنها عرفت بروح النبوة ما ازمع ان يصير عندكم. وكان رئيس هذا المجمع ومقدامه غريغوريوس الكبير الذي الف هذا الدستور كما يقولون. وربما لقبوه بلقب اللاهوتي نظراً الى ما في الدستور من الكلام المدقق عن اللاهوت. وهذا الآب نفسه قال في خطابه الذي عنوانه «في السفر الذي من مصر» هكذا «كلما هو للآب هو للابن ما عدا العلة» وهذا القول مطابق تماماً لتعليمه وتعليم سائر آباء المجمع.

«وقد علَّم المجمع الثالث ايضاً وعمل ما يوافق هذه لتعاليم تماماً. فانه لما سمع دستور نسطوريوس الذي قدمه قسٌّ اسمه خاريسيوس وفيه ورد «ان الروح القدس ليس ابناً ولا بالابن له الوجود» قبل هذا الكلام الوارد فيه عن اللاهوت ومدحه كانهُ تعليم الآباء ومطابق للكتاب المقدس ولم يرَ فيه تعليماً مغايراً بل شهد بصحة هذا الدستور في هذا الباب أي في باب اللاهوت[1] لا كما قال في موضوع تأنس الكلمة الوارد فيه. فانه في هذا الباب قال في تحديده ما نصه «اذا ضُبط بعض انهم يعتقدون او يعلمون

(١) تعليم اللاهوت هو التعليم في الله والخواص الالهية ويقابله التعليم في تأنس ابن الله وهو المتعلق بسر التجسد الخلاصي.

التعليم الذي في التقرير المقدم من خاريسيوس في تأنس ابن الله الوحيد نعني عقائد نسطوريوس الممقوتة والملتوية فانهم يقعون تحت حكم المجمع المسكوني المقدس» فتنظرون ايها الآباء ما هو تعليم نسطوريوس الذي سماه المجمع ممقوتاً وملتوياً وهو تعليمه في تأنس ابن الله الوحيد. فمن هنا يتضح ان التعليم الوارد منه في اللاهوت كان صحيحاً او مستقيماً لا يستخق الرفض. ولذا لم يرفضه المجمع ولا حكم عليه. فكانت هذه العقيدة مما صدق عليه المجمع المسكوني الثالث أيضاً. ولكن لما كان كيرللس المغبوط في كتاباته ضد نسطوريوس كتب ما يؤخذ عليه في انبثاق الروح القدس اذ ظهر انه يعتقد بالانبثاق من الابن ايضاً راجعهُ ثاوذوريطوس بالنيابة عن الشرقيين وقال «ان الروح القدس خاصٌّ بالابن. فاذا كان (كيرللس) يقول فيه ذلك من حيث هو مساوٍ له في الطبيعة ومنبثق من الآب نوافقه نحن ايضاً ونقبل كلامهُ لانه ايمان حسَن. واما اذا كان يقول انه من الابن او له الوجود بالابن فنرفضه لانه تجديف وايمان رديء ــ لاننا انما نصدق الرب القائل: روح الحق الذي من الآب ينبثق». اما القديس كيرللس فقد دافع عن نفسه ضد هذال اطعن وقال: ان ثاوذوريطوس اتهمهُ وعاملهُ بالعدوان وعامل نسطوريوس بالصداقة ... ثم كتب في دفاعهِ ما نصه «روح الاله الآب الذي منه ينبثق وليس غريباً عن الابن بحسب الجوهر». أفتنظرون هنا ايضاً على اي قسم من اقسام الكلام ثاوذوريطوس يوافق كيرللس؟ وبعد ذلك لما تم الصلح مع الشرقيين كتب كيرللس المغبوط الى يوحنا بطريرك انطاكية في هذا الموضوع عيهِ وتكلم في انبثاق الروح القدس وفي وجوب حفظ الدستور بلا تغيير وهاك ما كتبه «اننا قطعياً لا نطيق ولا برجه من الوجوه ان يزعزع من احد ايمان الآباء اعني دستور الايمان ... ولا نسمح لا لأنفسنا ولا لغيرنا ان نغير كلمة من الكلمات المسطرة فيه او ان نخالف تهجئة واحدة منه متذكرين من قال «لا تنقل تخوماً ابدية وضعها آباؤك» (امثال ٢٢ : ٢٨) لأنهم لم يكونوا هم المتكلمين بل روح الاله الآب الذي منه ينبثق وليس غريباً عن الابن بحسب الجوهر».

فلما اخذ ثاوذوريطوس المغبوط هذه الرسالة ووجد ما فيها من الكلام

في اللاهوت مطابقاً له وللكتاب المقدس كتب في رسالته الى يوحنا بطريرك انطاكية يقول «ان ما حُرِّر الآن من كيرللس مزيَّن بشرف الاصل الانجيلي. لان ربنا يسوع المسيح يُدعى فيه الهاً تاماً وانساناً تاماً. ويقال ان الروح القدس ايضاً ليس له الوجود من الابن ولا بالابن بل من الآب ينبثق ويسمى خاصاً بالابن. فلما رأينا هذه الاستقامة في المحررات قدمنا تسبيحاً لمن طبب الالسن اللكناء الذي يحول الصوت الشاذ الى نغم اصوليٍّ لذيذ» ثم قال مرقس اننا من كل هذه الاقوال نوضح انفسنا اننا موافقون في الرأي للكتب المقدسة ولآبائنا ومعلمينا الالهيين ولم نغير ولم نحرّف شيئاً من العقائد الالهية المسلمة الينا منذ القديم واننا لم نزد شيئاً ولم ننقص شيئاً ولم نبتدع في شيء منها كلها على الاطلاق».

ولما اتم مرقس هذا الكلام وأوضح شرح دستور الايمان وسرد شهادات كثيرة من الآباء والمجامع وأيد بها كلها الاعتقاد الارثوذكسي قام الكردينال يوليانوس وبدلاً من ان يعترف بصحة اقوال مرقس او يبرهن خطأها قال له «ما دمت قلت ما انت في حاجةٍ اليه من العدل ان تجيب الآن عن اقوال يوحنا الاخيرة» وقد قصد بذلك ان يجدد المنازعات في احدى شهادات يوحنا التي قال مرقس انها استغرقت كل الجلسات التي سبقت.

وفي آخر هذه الجلسة قام يوحنا وأعلن على مسمع من العموم قوله «اننا نحن اتباع السدة الرسولية نعترف بان الآب وحدهُ علةٌ واحدةٌ للابن والروح ــ ولذا الكنيسة الرومانية لا تعتقد بمبدأين ولا بعلتين بل بمبدإٍ واحد وعلةٍ واحدة. واما الذين يعتقدون بمبدأين او بعلتين فنحرمهم»[1] غير انه لم يشرح هذا القول شرحاً واضحاً اذ انه لم يكن في واقع الامر ينكر قوله بان الابن علة الروح بل كان يقول ان الآب علة الروح مبدئياً وعلى بسيط الحال. واما الابن فيأخذ من الآب وجوده واصدراه الروح فلا يكون ذلك من نفسه بل من الآب. على ان كلامه هذا وانكارهُ العلتين اثّر بعض

(١) ذورو ٥١١ ــ ٥٥٠

التأثير لان كثيرين من الشرقيين فرحوا باعترافهِ وقرروا ان يتم الاتحاد على أساس هذا الاعتراف.

أما القيصر فجمع المطارنة في غرفة البطريرك وأخذ يقول لهم ان يتركوا المجادلات والمباحثات ويشرعوا في ما يوصلهم الى مقصودهم وقال لهم ان يوحنا اعترف علناً بان اللاتين يقولون بعلة واحدة للابن والروح وهو الآب. ثم ابرز اعترافاً مكتوباً بيد يوحنا. قال المؤرخ: فخرجنا نحن الارثوذكسيين من المجمع وكنا فرحين فرحاً عظيماً بان اللاتين لا يعرفون الا علةً واحدةً للابن والروح القدس وهي الآب ولا يقولون بعلتين. وبعد ذلك اجتمع مطارنتنا في قلاية البطريرك وكان القيصر حاضراً. فخطب القيصر في المطارنة وتفضل بما يأتي فقال «ايها الآباء القديسون تعلمون اننا على كل الاحوال جئنا بلاد الافرنج. فاذكروا إذن بيتنا كيف تحدق به الاخطار من الغير المؤمنين. وان حدث شيء فويلٌ لنا كم يكون الامر شديداً. ولذا علينا ان نترك المباحثات والمنازعات ونجد وسيلة ونسعى اليها. اما الوسيلة فبينكم وانما اقول لكم قولاً واحداً وهو ان الفرير يوحنا الذي يخاطبكم اعترف علناً في المجمع ان اللاهوتيين يعترفون بان الآب علة واحدة للابن والروح ويحرمون الذين يقولون بمبدأين أو بعلتين في الثالوث المتساوي الجوهر. وعليه طلبتُ منه ان يعطيني هذا الاعتراف كتابةً فأرسله اليّ مكتوباً وها هو فاقرأوه وافتكروا فكراً في الاتحاد».

واذا كان اللاتين قد اعترفوا بمبدإٍ وعلةٍ واحدة في اللاهوت على الوجه السالف الذكر ظهر الامر سهلاً فاتفقوا مع الشرقيين وكتبوا كتاب اتحادٍ اوله هكذا «الله الآب هو العلة الوحيدة واما الروح القدس فعلته الآب» وقد عينوا ان يجتمعوا في الغد ليوقعوا عليه. غير ان الشيطان اثار الغيرة الشريرة في قلب حاكم (مايسترو) جزيرة رودس الغني وكان قد حضر الى هناك بالفي جندي فانه لما سمع بعزم البابا اوجانيوس على موافقة الروم جاء ليلاً وسأله «لأي سبب سلمت لذاك الشعب اليوناني المتكبر والعنيد منذ القديم؟» فأجابه اوجانيوس: انه لم يسلم للشعب بل للاستنادات المأخوذة من النصوص وغايته السلام والراحة العامة. فذكره الحاكم بالباباوات اسلافه

الذين قطعوا قطعاً تاماً «كل علاقة مع شعب سوريا واليونان المتكبرين». ثم وبخ البابا على دوسهِ الاوامر الموجودة واطفائه مجد الشعوب الغربية. وقد دعا الحاكم كثيرين من الكرادلة والاساقفة فساعدوه على نصح البابا ولا يبعد ان يكون بعضهم ارسله اليه واتفقوا معه على ذلك. ولكن من حيث ان اوجانيوس لم يقبل ان يرجع في القول الذي اعطاه تهدده الحاكم باستعمال القوة ضد القيصر باليولوغس نفسهِ. اما الكرادلة فأوقفوه عن عزمه وقالوا له انهم قادرون ان يستميلوا القيصر بواسطة الاوعاد ويقنعوا البطريرك بالمال لان «اليوناني رضي بقلع عينه لأجل الذهب» وان الاتفاق لا يصعب الا مع مرقس الافسسي. ولكنهم يفتكرون بوسائط سرية تجبره على القبول. وعليه اضطر البابا ان يعطي رخصة بحسب الظاهر لحاكم رودس وللكرادلة ان يبطلوا الاجتماع في فلورانسا. وفي تلك الليلة عينها أرسلوا الى سائر الكرادلة والاساقفة الغربيين «ان لا يأتوا الى الكنيسة بل الى بلاط البابا ليتمموا الاتحاد. ولما كان الصباح اسرع الشرقيون بفرحٍ الى الكنيسة الكاثدرائية حسب الوعد ولم يعلموا شيئاً عن المشاورة الليلية التي جرت. وقد أقاموا هناك في الانتظار الى المساء. واخيراً علموا بمقاصد الرومانيين ولكنهم لم يريدوا ان يصدقوها. فارسلوا يسألون عنها الخطيب يوحنا ومن جوابه فهموا انهم مخدوعون. فقاموا حالاً وجاؤوا الى القيصر فرأوا عنده الكردينال يوليانوس واسقفين وقد أُرسلوا من البابا بهدايا واوعادٍ. حينئذٍ يئسوا من مساعدته هو ايضاً فتفرقوا نادبين سوء حظهم.

هذه رواية وردت في نسخة خطية محفوظة في الفاتيكان وقد نقلتها جريدة الوزارة الروسية ونشرتها في سنة ١٨٤١. وهي وان لم ترد بالحرف في تواريخ المجمع لكنها توافق الواقع وتفسر لنا سبب عدول الغربيين عن الاتحاد بعد انهم اعترفوا اعترافاً قبله الشرقيون. واذ كانوا ارسلوا الى الشرقيين بعض شهادات من الآباء الغربين يؤيدون بها رأيهم طلب القيصر ان يقف على رأي الاساقفة الشرقيين في تلك الشهادات» حينئذٍ قال له مرقس انا لا اعلم ما اذا كانت الشهادات التي جاؤوا بها هي من القديسين لمعروفين عندهم. فان كنت انا ادافع فاقول انها مزورة» فأجابه بعضهم

حالاً: انك اذا قلت انها مزورة فتهين القديسين وتسبب خصامًا وشقاقاً بين القديسين الشرقيين والغربيين ويحصل شر عظيم. فأجابهم مرقس قائلاً «اني لا أهين القديسين. ولكن من حيث ليس عندنا الاقوال التي فيها كل الشهادات ولا هي معلومة عندنا لأننا لم نسمع بها الى الآن اما الشهادات فارفضها لاني مرتاب فيها ولا أعرفها واما القديسون فاقدم لهم الاحترام الواجب. وانا استطيع ان اقدم الاسباب التي بها اشرح وابرهن ان هذه الشهادات لا تنطبق على العقيدة التي كانت تعتقدها كل كنيسة المسيح حين كانت متحدةً مع وجود الشهادات التي سمعناها الآن ان كانت وقتئذ موجودةً. اخيراً اتفق مرقس وسائر الحاضرين ان يعرضوا على اللاتين رسالة البار مكسيموس المعترف احد رجال القرن السابع ليجعلوها اساساً وقاعدة للاتحاد وكان الرومانيون قد ذكروها في اثناء الجدال في الزيادة. اما العبارة المقصودة من هذه الرسالة فهذا نصها «فانهم (اي الرومانيون) ابرزوا عبارات موافقة استعملها آباءُ رومانيون وجاؤوا ايضاً بعبارة لكيرللس الاسكندري وردت في كتابه الشريف الذي الَّفه على انجيل القديس يوحنا الانجيلي. وقد برهنوا منها انهم (اي الآباء) لم يجعلوا الابن علة للروح. لانهم يعرفون علة واحدة للابن والروح القدس وهي الآب الذي هو علة الابن بحسب الولادة وعلة الروح بحسب الانبثاق. لكنهم لكي يوضحوا انه (اي الروح) صادرٌ به (اي بالابن) ويصوروا على هذا الوجه اتحاد الجوهر وعدم تفاوته (قالوا من الابن)»(١). ثم قال الشرقيون «اذا كان اللاتين يقنعون بهذه الرسالة فنحن نتحد معهم من دون ان نطلب منهم امراً آخر».

غير ان الرومانيين لم يوافقوهم على هذا الرأي ولكنهم لكي يستروا انكسارهم طلبوا جلسات جديدة. أما القيصر فلما كان لا يلتفت الاّ الى الوسائط التي توصله الى السلام ليقلع عن هذه البلاد ويرجع الى عاصمته وقد جاءته الاخبار منها على غير ما يرام اجاب طلبهم ولكنهُ منع انطونيوس مطران هرقلية ومرقس مطران افسس عن حضور الاجتماع منعاً للجدال»(٢).

(١) سيرو ٨: ٩ وذرو: ٥٦٣ (٢) ذورو ٥٥٠ ـ ٥٥٤

ففي الجلستين الاخيرتين العموميتين (٢١ و ٢٤ آذار) لحظ الفرير يوحنا ان مرقس غائب فاخذ يتشامخ ويطلب حضوره ليشاهد انكساره. لكن القيصر قال له «نحن الآن لا نريد ان نقول شيئاً. ولأجل هذا لم يحضر مطران افسس. ولا حضرنا اليوم للجدال بل اجابة لارادتكم مراعاة للاتفاق الذي بيننا على ان لا نهمل الاجتماعات. فنحن جئنا. وما تريدون ان تقولوه قولوه. اما نحن فمصممون على ان لا نقدم لكم ادنى دفاع.»

وهكذا كان يوحنا في الجلسات الاخيرة يخطب وحده ويقدم شهادات آباء غربيين كما كان يلوح له ويحرّف ما قاله مرقس سابقاً. اما الشرقيون فلم يجبهُ احد منهم بشيء. ولكن ايسيدوروس مطران روسيا قال لهُ «ان الذي يركض وحده في الميدان ويجاهد وحده بلا مقاوم لا عجب اذا ظن نفسهُ غالباً. والذي يقول وحده ولا يجيبه احد يظن كلامه لا يُرد».

هكذا انتهت هذه الجلسات العمومية. اما البابا فاخبر البطريرك بانه ما دام اليونان لا يريدون الجدال يرى من الضرورة اما ان يتفقوا مع الكنيسة الرومانية على الفصح القادم في ٥ نيسان او ان يسافروا الى ديارهم.

وسائط سرية لاجبار اليونان على موافقة اللاتين في تعليم انبثاق الروح القدس من الابن

ومن بعد ان اعلن البابا للشرقيين ما تقدم بدأ جهادٌ طويل وعنيف بين ذمة القيصر ومطلب اللاتين من جهة وبين مصلحة مملكته وخوفه من ان يُفرَز عن الارثوذكسية من جهة أخرى. ولكن لم يكن له ولا ادنى أمل في الاتفاق القانوني بين الكنائس سوى تضحية الارثوذكسية بالتسليم للاتين واذ كان الامر صعباً عليه اخذ يفتكر في وجه يقلل المسؤولية عنه امام الكنيسة والشعب. هذا كان هم القيصر واجتهادهُ. فكان في الجلسات الخصوصية يقول «اما انا فاني مدافع عن الكنيسة وأما عمل المدافع فيمكن في امور أخرى ان يقسم الى اقسام كثيرة ولكنه الآن يقسم على ما اظن الى قسمين. احدهما المحافظة على عقائد الكنيسة والدفاع عنها واعطاء الحرية لمن

يريد ان يتكلم فيها ليسكت ويدحض كل المقاومين له بخصام وعداوة. والآخر ضبط جميع رجالنا والمحافظة عليهم في الاتفاق الى ان يتحدوا جميعاً على شور واحد ورأي واحد متوافق[1]. ومرة قال لهم «ان الامر كنائسي ويحتاج الى فكر ومشورة كنائسية عظيمة»[2]. ولما حرضه البابا والكرادلة على سرعة المسالمة جاوبهم «انني لست رب المجمع ولا اريد اتحاداً اجبارياً»[3].

هذا ما كان يقوله القيصر ويفعله بحسب الظاهر حتى انه لم يكن يتكلم شيئاً بلا استشارة كل الاساقفة. ولكنه في الخفاء كان يستعمل وسائط متنوعة ليقسم المجمع ويحصل على مقصده. فقرب منه بيصارين مطران نيقية وايسيدوروس متروبوليت روسيا والبروطوسيجلس غريغوريوس الذين كانوا يميلون الى الاتحاد طمعاً في كرامات البلاط البابوي[4]. ومنع مطراني افسس وهرقلية عن حضور الجلسات كما سبق. فكان اولئك الثلاثة اعداء لمرقس واخاصماً حتى ان احدهم غريغوريوس ارسل اليه خدام القيصر وجنوده يطلبون منه رواتبهم التي كان البابا حاجزهم عنهم بسببه[5]. على ان كثيرين من الشرقيين تضايقوا جداً من هذا الانقلاب فطلبوا رخصة ليتوجهوا الى بلادهم. ولكن القيصر لم يسمح لهم بل لامهم وتهددهم وكان يطنب في الخير الذي يحصل من المسالمة.

اما اوعاد البابا السابقة براحة الشرقيين في فلورانسا فلم يتم منها شيء بل بالعكس فانه بعد خمسة اشهر بالجهد دفع لهم في ٢٢ ايار راتباً عن شهرين قدرهُ ١٢٠٨ ذهبات[6] واما الباقي فلم يوزع الا بعد التوقيع على صك الاتحاد[7]. ومما هو حريٌّ بالذكر ان خريسطوفورس موزع هذه الحسنات اوصى بانه لا يُعطى منها شيء الى مرقس لانهُ لا يستحق ان يأكل خبز البابا وهو يقاومهُ[8].

(١) سيرو ٨: ٥ (٢) ٨: ٧ (٣) ذورو ٥٩٠ ـ ٥٩٥.
(٤) سيرو ٨: ٥ (٥) ٨: ٤ ـ ٦ و ٨ (٦) ٨: ٦ و ٩: ٢
(٧) ١٠: ٣ و ١٧ (٨) ٩: ٢

وكان الميعاد الذي ضربه به البابا للاتحاد قصيراً لا يزيد عن اثني عشر يوماً اعني تاريخ آخر جلسة في ٢٤ آذار الى الفصح ٥ نيسان. ففي يوم الاثنين العظيم الواقع في ٣٠ آذار عين القيصر جلسة في حجرة البطريرك الذي كان مريضاً كما تقدم فاجتمعوا. وأخذوا يفحصون الكتب التي كان اللاتين يستشهدون بها[1] ولكن لم تبدأ المذاكرات الا وقدّم ايسيدوروس متروبوليت روسيا رأيهُ فقال انه يوافقنا ان نتحد نفساً وجسماً اكثر من ان نسافر بلا نتيجة. لان القول بالسفر سهل واما كيف نسافر والى اين او متى فلا اعلم» وكان يعضد رأيه بيصاريون. ولكن ذوسيثاوس مطران مونمباسيا ونائب البطريرك الاورشليمي قاومهما بحماسة وقال لهما «ماذا تريدون؟ هل تريدون ان نخون عقيدتنا لكي نتوجه الى الوطن على مصروف البابا؟ اني أفضل ان اموت ولا اتليتن» اما ايسيدوروس فكان يجيبهُ ويدَّعي بانه ليس الآباء الغربيون فقط بل والشرقيون ايضاً يقرون بانبثاق الروح القدس من الابن. حينئذٍ اجابه انطونيوس مطران هرقلية ونائب البطريرك الاسكندري قائلاً: ان المجامع وجميع الآباء الشرقيين يعلمون بانبثاق الروح القدس من الابن وحده. فايد مرقس رأيه وقال «ان اللاتين ليسوا منشقين فقط بل هم هراطقة ايضاً وهذا الامر سكتت عنه كنيستنا نظراً الى كون هذا الجنس اكثر وأقوى منا. فنحن لم نتركهم الا لأنهم هرطقوا وصاروا مبتعدين فلا يجب ان نتحد معهم الا بعد ان يحذفوا الزيادة في دستورالايمان ويعترفوا به مثلنا»[2].

فهكذا عند اول مذاكرة في الاتحاد ظهر الانقسام. وكان نواب

(١) ذورو ٥٦٢
(٢) ان قول مرقس ينطبق على ما كتبه ميخائيل بطريرك القسطنطينية في القرن الثاني عشر حيث قال «بعدل كان اللاتين يستوجبون الحرم ويحصون مع الهراطقة ولكن رووساء الارثوذكسيين الحكما رأفوا بهم في القصاص رأفة عظيمة لأنهم قطعوهم فقط وشقوهم وكلنهم لا يسمونهم هراطقة على الوجه العام ولا سلموهم الى عذابات أولئك ذاتها.

البطاركة الثلاثة الشرقيين يحامون عن الارثوذكسية بثبات عزم. ثم انضم اليهم بقية الاساقفة الا قليلون وهم الذين كانوا من حزب القيصر. ثم عقدت ثلاث جلسات في الاسبوع العظيم ويوم الفصح وكان مدار بحثها الموضوع نفسهُ فكانت تنتهي على لا شيء. على ان بعضهم انضاف الى بيصاريون وايسيدوروس اخصهم ذوروثاوس مطران مدلّة الذي صار من الآن محامياً عن الاتحاد وهو مؤلف تاريخ مجمع فلورانسا الذي نستشهد هنا لصالح به لصالح اللاتين(١). لكن انصار الارثوذكسية كانوا اقوياء بعد ولذا ارسل القيصر الى البابا افادةً في يوم الجمعة من اسبوع التجديدات عاشر شهر نيسان يقول له: ان الشرقيين لا يريدون المجادلات ولم يجدوا وجهاً للصلح فمن الضرورة ان يجد البابا وجهاً له(٢).

فطلب البابا من الشرقيين ان يقدموا اعتراضاتهم على اللاتين ويسمعوا حلها. او اذا كانوا يحبون ان يقدم كل واحدٍ منهم رأيه باخلاص نية تحت القسَم اما على الانجيل او على جسد المسيح ودمه بان يقبل رأي الاكثرين. فعلى اقتراح البابا هذا الغريب في تاريخ المجامع ارسل القيصر والبطريرك الجواب الآتي «اننا فهمنا ما تفضلت به وهو وان يكن اربعة فصول لكنه في الحقيقة فصلٌ واحد والقصد منه واحدٌ وهو المخاطبات ... فاذاً من حيث ان الفصول الاربعة تنضم الى واحد وهو الجدال (بالمخاطبات) والحكم (بالقسَم) نجيب باننا لا نرغب قطعياً ان نحاكِم ولا ان نحاكم لأننا لا نربح شيئاً من هذا الحكم. لان الدستور المقدس عندنا من المجامع المقدسة المسكونية السبعة فلا نزيد فيه ولا نحذف منه بل نكتفي بحكم آبائنا الذين قبلنا. واما انتم فاوضحتم ان ما زدتموه في الدستور الشريف قال به رجال

(١) ان ذوروثاوس هذا يدافع في تاريخه عن اللاتين كما قلنا سابقاً. ومن جملة ما ذكره قوله: ان الشرقيين جميعهم وافقوا في هذه الجلسة الاخيرة على الاتحاد اجابة لطلب البطريرك. غير ان هذه الافادة ليست صحيحة لانه هو نفسه يقول بعد ذلك ان القيصر طلب من البابا طرقاً جديدة لاقناع الشرقيين. فلو كانوا وافقوا الآن فما الحاجة الى هذه الطرق بعد الموافقة؟ راجع ذوروثاوس صفحة ٥٦٩.

قديسون وما زلتم تتمسكون به بلا تقلقل. فاذاً لا نحن مستعدون ان نقبل الزيادة على بسيط الحال ولا انتم مستعدون ان تحذفوها من الدستور. فلماذا الجدال والمخاطبات والاجتماعات والاقسام والشهادات؟ فلتفتكر غبطتكم فان كان لديكم وجهٌ آخر للاتحاد نتحد. والا فنذهب الى بلادنا ونبقى اصدقاء(١). غير ان البابا لم يجب جواباً قطعياً عن هذه الاقوال بل وعد ان يرسل الكرادلة للمذاكرة. وفي اثناء ذلك قدم بيصاريون وجاورجيوس سخولاريوس الى مجمع الشرقيين آراءهما في المسألة والاحوال الحاضرة فبنى بيصاريون كلامه في خطاب طويل على ان الآباء الشرقيين والغربيين بما انهم كانوا يلهمون من روح الحق الواحد لا يمكن ان يضاد بعضهم بعضاً. ثم استخرج النتيجة الآتية. وهي انه من الضرورة اذاً ان تشرح العبارات الغامضة بالعبارات الواضحة. وقال ان عند الآباء الغربيين عباراتٍ كثيرةً تعلم صريحاً بانبثاق الروح القدس من الابن ايضاً. وبما ان الآباء الشرقيين قالوا في محلات كثيرةٍ ان الروح القدس بالابن يظهر وينبع ويتدفق وانه روح الآب والابن ومن الابن فالضرورة تقضي بان نوفق هذه العبارات والاقوال على تعليم آباء الكنيسة الغربية ومعلميها. هذا ما قاله بيصاريون ولكنه لم يأتِ بكتاب للآباء الغربيين بل اكتفى بما ذكر في المجمع فقط. اما براهين مرقس وبياناته فانه كان يمسها مساً رفيعاً ولكنه لم ينقض شيئاً منها. على ان مرقس كان يكرر قولاً واحداً وهو «ان العبارات التي يوردها اللاتين مزورة لا صحيحة» وكان يشرح حقيقة معاني اقوال الآباء ويقول: انه امرٌ مقرر لا ريب فيه ان الآباء الشرقيين كانوا معلمين للآباء الغربيين. وهم بالنظر الى الاقدمية يسمون عليهم سموًّا عظيماً في تعليم الايمان والحكمة والاعمال ايضاً. فالواجب اذاً ان نوفق اقوال الآباء الغربيين على اقوال الآباء الشرقيين لا الشرقيين على الغربيين(٢). اما اقوال جاورجيوس سخولاريوس فلم تحفظ سالمة ولكن المشهور عنه انه كان

(١) ذورو ٥٦٩ ـ ٥٧٤ وسيرو ٨: ٨

(٢) ذورو جزء ٢ صفحة ١٨٧ ـ ٢٧٤

يحث على السلام لا لغرض ذاتي بل بالنظر الى المصلحة العامة التي كان الجميع ينتظرونها من هذا السلام. فكان يجتهد في رفع الصعوبات ويبين بعض اوجه تسهل اجراءه(١).

وفي خامس عشر شهر نيسان حضر من قِبل البابا ثلاثة كرادلة مع بعض اساقفة ورؤساء اساقفة ورؤساء اديرة. فاخذ يوليانوس يقنع القيصر مدة ساعتين على ضرورة الرجوع على الجدال. لكن القيصر لم يقتنع بل من بعد مشاحنات طويلة اقروا على ان ينتخب من كل فئة عشرة رجال ليؤلفوا تحديداً للاعتقاد في الروح القدس مقبولاً من الفيئتين في ثماني جلسات متوالية ويكون الاجتماع في قصر البابا.

وبعد ان استحسن البابا هذا الرأي انتخب القيصر الاعضاء الآتين وهم انطونيوس مطران هرقلية ومرقس وايسيدوروس وذوسيثاوس مطران مونمباسيا وبيصاريون وآخرين وكان القيصر نفسه معهم. ولكن لما كانت العقائد مختلفة كان من المستحيل اتفاقهم على وجه يرضي الجهتين. فبيصاريون استحسن عبارات القديس مكسيموس التي شرح بها رأي الكنيسة الغربية في رسالة الى مارينوس لتكون تحديداً للاعتقاد. غير ان اللاتين كانوا يفسرون تلك العبارات على معنىً مضاد لتفسير الكنيسة الشرقية* وآخرون استحسنوا رسالة القديس طاراسيوس بطريرك القسطنطينية وفيها يذكر ان الروح القدس ينبثق من الآب بالابن. ولكن اللاتين رفضوا هذا التعبير لعلمهم ان الشرقيين يميزون بين معنى من ومعنى الباء* واما مرقس فكان محافظاً بكل دقة يطلب حذف الزيادة من الدستور. غير ان اللاتين لم يريدوا اولاً ان يسمعوا امراً كهذا. فلم يكن الاجتماع الا خصاماً في خصام حتى ملّ الشرقيون ورفضوا الاجتماع بعد الجلسة الثانية. ثم أُجبروا واجتمعوا بعدها ثلاث مرات ولم يُفد اجتماعهم شيئاً(٢). حينئذ ارسل اللاتين الى الشرقيين صورة الاعتراف الذي يريدون ان يوقع عليه من

(١) ذورو جزء ٢ ص ٢٨ ـ ١٨٦ حيث تجد ثلاثة خطب باسمه.

(٢) ذورو ٥٨٠ ـ ٥٨٣ وسيرو ٨: ١١ و ١٢

الفيئتين وهي هذه «اننا نحن الروم نعترف ان ما نقوله في ان الروح القدس ينبثق من الآب لا نعني به اننا نخرج الابن الذي لا ننكر ان الروح القدس ينبثق منه ازلياً ويأخذ جوهره منه كما يأخذه من الآب. ولكن بما اننا ظننا ان اللاتين يقر لهم ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن يعتقدون بمبدأين ومصدرين احتفظنا من هذا الوجه في التعبير اعني القول بان الروح القدس ينبثق من الآب والابن. واما نحن اللاتين فنعترف اننا بقولنا ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن لا نعني اننا نخرج الآب عن كونه ينبوعاً ومبدأ لكل اللاهوت اي للابن والروح القدس او اننا بقولنا ان الروح القدس ينبثق من الابن لا يكون الابن آخذاً من الآب أو اننا نعترف بمبدأين او بمصدرين للروح القدس لكننا نعترف بمبدإٍ واحد ومصدرٍ واحد فقط». وبعد يومين ارسلوا لهم شرحاً ايضاً لهذا الاعتراف.

فلما قرئت هذه اللائحة في مجمع الاساقفة الشرقيين رفضوها جميعهم ما عدا المشتهرين بالخيانة وهم ايسيدوروس وبيصاريون وذوروثاوس والاب الروحي غريغوريوس. واما الباقون فكانوا يقولون «كيف نقبل هذه اللائحة التي تتضمن خلاف ما تعتقده كنيستنا؟» اما بيصاريون فأخذ يشرح على هواه ويقول لهم: ان قول الآباء الشرقيين «بالابن» هو مثل قول الغربيين «من الابن» اي ان الابن هو علة انبثاق الروح القدس مثل الآب. غير ان مرقس دحض كلام بيصاريون من اقوال القديس يوحنا الدمشقي حيث قال: ان الروح القدس يسمى «روح الآب لأنه منبثق من الآب وروح الابن ايضاً لا لأنه منه بل لأنه به ينبثق من الآب لان الآب هو وحده العلة(١)» وقد عقدت جلسات كثيرة صُرفت كلها على الجدال في الفرق بين «من الابن» و «بالابن» اخيراً ذكرهم القيصر ان الوقت حان ليقدموا الجواب الى اللاتين. فقدم ايسيدوروس رأياً بان يصلحوا لائحة اللاتين بعبارات مأخوذة من نصوص الآباء. وتحت هذه الغاية قرأ عبارات للآباء مبتورةً

(١) كتاب ١ فصل ١٢

ومحرفةً وردت في مؤلّف البطريرك القسطنطيني يوحنا بيكُّس. ولا يخفى ان هذا البطريرك كان من ذوي الآراء اللاتينية وقد حكم عليه مراراً من الكنيسة الارثوذكسية والعبارات التي كان يوردها في مؤلفاته كان يوردها على هواه. فمن هذه العبارات اختاروا اثنتين احداهما مأخوذة عن اعمال المجمع المسكوني الاول المقتطفة من جيلاسيوس مطران كيزكوس والاخرى عن القديس كيرللس الاسكندري. اما الاولى فكانت على هذه الصورة «ان الروح ينبثق من الآب وهو خاصٌّ بالابن ونابع منه» ولكن هذه العبارة مفسودة وصحتها هكذا «ان الروح القدس منبثقٌ من الآب وخاص بالابن. واما كونه نابعاً منه لنا فقد علمه الرب نفسه باصرح عبارة في الاناجيل الشريفة ...» فبقوله «نابعاً» لا يعنى انبثاق الروح القدس ازلياً من الابن بل انما يعني ارسالهُ الينا في زمان لأنه قال «نابعاً منه لنا» اي اتياً الينا وحالاً فينا ومرشداً ايانا. على ان الانبثاق خاصة جوهرية للروح القدس والفرق لا يخفى على المدقق. واما العبارة الثانية المأخوذة عن كيرللس فهي «انه روحٌ من كليهما جوهرياً اعني انه من الآب منبثق بالابن» فقوله «منبثق» لا يعني به الانبثاق بل نعم الروح على الكنيسة والمؤمنين. ولما كانت هاتان العبارتان مستقيمتين في المعنى اذا شرحنا شرحاً مدققاً بمعنى الارسال الزمني لا الانبثاق الازلي وافق اكثر الاساقفة عليهما. غير ان المدققين منهم لم يكتفوا بهما وحدهما فتبع القيصر رأي الاكثرين وأمر بتأليف الإعتراف على هذه الصورة فتم له بقلم جاروجيوس سخولاريوس. فالعبارات التي تتعلق باللاتين تركت على حالها واما عبارات الشرقيين فصارت على هذه الصورة «نحن الروم نعترف ونؤمن بان الروح القدس ينبثق من الآب وهو خاصٌّ بالابن ومنه ينبع ونزعم انه من الاثنين جوهرياً اعني من الآب متدفّقٌ بالابن» فكأن كل نميئة بقيت على اعترافها ولم ترفض اعتراف خصمها. ولذا لما طلب القيصر ثانية الرأي فيها رفضها نواب البطاركة وغيرهم وقام النزاع والخصام والانقسام بين الشرقيين على اثرها. حينئذٍ ذكر انطونيوس مطران هرقلية القيصر بوعده قبلاً في حفظ حقوق الشرقيين واخلافه الآن بالخضوع الاعمى للغربيين. وكذلك دوسيثاوس مطران مونمباسيا قال له «اني أرجوك يا سيدي القديس ان تنتبه ولا تعمل

الآن ما عمله الملك السيد ميخائيل (باليولوغوس) المتليتن» اخيراً قال الملك «قدموا آراءكم» فاخذوا حينئذٍ ينادون بعضهم «انا اقبل» وبعضهم «انا لا اقبل». ولكن لكي تزيد اصوات القابلين اقترح مثوذيوس مطران المورة على القيصر ضدًّا لكل القوانين ان يقبل آراء الكتاب العالميين وعلى هذه الصورة ثم التصديق على اللائحة باربعة وعشرين صوتاً بما فيها اصوات الكتاب ضد ١٢ صوتاً. ورُفع هذا القرار الى الكرادلة في ٢ ايار.

على ان اللاتين لم يرضوا بهذا الاعتراف لما فيه من العبارات القابلة التأويل. بل ارسلوا اثني عشر اعتراضاً عليه. وقد كتبوا ان الكلمات «تدفق ونبع» تحتمل معنيين ربما كان احدهما المقصود وهو ارسال الروح القدس من الابن زمنياً وطلبوا اما التصديق على لائحتهم السابقة او اصلاح العبارات الغامضة في اللائحة الثانية. فالقيصر خاف ان يبين هذه الاعتراضات فكتم امرها وانما اخبر الاساقفة ان اللاتين يطلبون تفسيراً على بعض عبارات من اعتراف الشرقيين[1].

فمضت مدة طويلة اتضح فيها ان كل اجتهاد في اتحاد الشرقيين غير نافع لأن الاساقفة الذين صدقوا على لائحة اللاتين هم انفسهم كانوا يسخطون علناً على اللاتين ويقولون ماذا يطلب اللاتين منا بعد؟ فقد كتبنا لائحتنا بعبارات من الآباء وأرسلناها اليهم وليس في وسعنا ان نعمل اكثر من ذلك. وبما انهم ملوا الابطاء وضجروا من شدة الافتقار الى الاحتياجات الضرورية طلبوا من القيصر الرجوع الى بلادهم. ولكنه منعهم. اما اجتماعاتهم الخصوصية فكانت مقصورة على اعادة الماضي في الفرق بين معنى من ومعنى الباء وفي مقدار صدق شهادات اللاتين وعدمه. وكانت تنتهي على الغالب بالخصام وأحيانًا بالشتائم من المتليتنين على انطونيوس وعلى مرقص. فبيصاريون دعا مرقص مرة مجنوناً وفيه شيطان. وذروثاوس ومثوذيوس تهددوه بالوشاية الى البابا لانه سماه هرطوقياً.

---

(١) سيرو ٨: ١٣ وذورو ٥٨٣ ـ ٥٨٨

اما اللاتين فكانوا ينتظرون جواباً. لكن القيصر ابى ان يجاوبهم. ولما اجتمع بالبابا قال له اذا كان اللاتين يقبلون اللائحة يشرع الشرقيون في الاتحاد والا فلا يبقى لهم سوى ان يتوجهوا الى القسطنطينية. وفي اجتماع آخر اخذ البابا يلوم القيصر لانه سمح للشرقيين بان لا يشرحوا اقوال الآباء مطولاً في العقيدة فأجابه القيصر «انني لست برب المجمع ولا اريد ان نتحد غصباً. ولا اشاءُ ان اجعل مجمعي ان يقول شيئاً ضد ارادته وذمته. فاذاً لا اقدر ان اساعد قداستك على الاقوال التي قلتها. نعم نحن ملزومون ان نشرح لكم اعترافنا. غير ان اكثر الاساقفة يمنعون بعضهم عن جهل وبعضهم لا يريدون ان يبتعدوا حالاً عن تسليم الآباء القديسين». أخيراً اقنعهُ البابا ان يرسل الاساقفة الشرقيين الى القصر البابوي للمذاكرة.

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ايار حضر الاساقفة. فقبلهم البابا في جمعية حضرها تسعة كرادلة وذكرهم بمشقاته الشخصية وغيرته على الاتحاد وانعاماتهِ وبابطائهم في اتمام رغائبهِ في فرَّارا وفلورانسا. ثم تهددهم بعدم المساعدة للمملكة اذا كانوا لا يتحدون. ووعدهم بمساعدة من كل أُمراءِ الغرب وباوعادٍ اخرى ايضاً اذا اتحدوا. فلما رجع الاساقفة من عند البابا أخذ مطارنة روسيا ونيفيه والموره ومدلّه يلحون على القيصر ليقبل الاتحاد وقالوا له «انك اذا لم ترد انت الاتحاد فنحن نتحد بدونك» فهذه الاقوال شددت عزائم القيصر فامر باجتماع الاساقفة(١).

وفي ٢٨ ايار عقدت الجلسة فخطب القيصر فيها وبين ضرورة اتحاد الكنائس مع وجوب انتباه الاساقفة في هذا الموضوع وبعد اتمام خطابه نطق الاساقفة بالحرم ضد كل من لا يريد اتحاد الكنائس. ثم طلب البطريرك فقرئت عبارات الآباء ابيفانيوس وكيرللس بطريرك الاسكندرية التي عليها كان المتليتنون يبنون تعليمهم. وقد جاؤوا بها من تأليف يوحنا بيكُّوس كما قلنا وكان بيصاريون يؤيدها. ثم قرأ ذوروثاوس شهادات من آباء لاتينيين. اما مرقس فنقض شهادات بيكُّوس ودحضها وايد معتقد الكنيسة

(١) ذورو ٥٨٩ ـ ٦٠١ وسيرو ٨: ١٣ و ١٥ و ١٦ و ٩: ١ ـ ٦

الارثوذكسية.

وفي اليوم التالي قرأوا عبارات أُخرى من الآباء الشرقيين مثل اثناسيوس وكيرللس الاسكندري وغريغوريوس النيسي وابيفانيوس وانسطاسيوس السينائي ويوحنا الدمشقي وارادوا ان يستنتجوا ان هؤلاء الآباء يعلمون انبثاق الروح القدس من الابن ايضاً. ولكن الذي يعلم ان يوحنا الدمشقي يقول بصريح العبارة «ان الروح القدس لا نقول بانه منبثق من الابن ولكنا نسميهِ روح الابن» يفهم ضعف الاستنادات التي ارادوا ان يستندوا عليها من اقوالهِ واقوال سائر الآباء الشرقيين(١). ثم طلب بيصاريون ان يقرروا آراءهم بالتصويت وكان يموّه عليهم بان البطاركة الشرقيين ايضاً يعلمون مثل اللاتين في الانبثاق.

وفي اليوم الثلاثين من ايار اجتمعوا للتصويت فقدم الاساقفة رجاءً الى البطريرك ان يبدي رأيه اولاً. لكن البطريرك أبى ذلك وحاولهم مدةً طويلةً. ولكنه بعد ان غصبوا عليه كثيراً قدم رأياً غامضاً ومحتملاً اوجهاً متعددة. حتى ان كثيرين فهموا كلامهُ مضاداً لتعليم اللاتين. ثم أُخذت آراءُ الاساقفة ورؤَساءِ الاديرة. فمن سبعة وعشرين صوتاً لم يوافق على الاتحاد الا عشرة اصوات فقط لان اكثر الاساقفة لم يقنعوا بقراءات بيصاريون الطويلة. واما الباقون وهم حافظ الاوراق ورئيس الطقس الكنائسي وأمثالهم ممن كانوا معروفين بالغيرة على الارثوذكسية فلم يسمحوا لهم ان يبدوا رأياً لأنهم كانوا على دعواهم أصغر درجةً من رؤساء الاديرة. وكان القيصر يريد ان يسمع رأي العلمانيين ايضاً ولكن البطريرك لم يسمح لهم بذلك(٢).

فلما رأى المتليتنون ان حزبهم ضعيف اخترعوا حيلاً أُخرى. فجاء ايسيدوروس الى البطريرك واخذ يتملقهُ ويقول له: انك اذا انت انضفت الى حزبنا فالجميع يوافقوننا. اما البطريرك الضعيف فأجابه جواباً معمى ايضاً

(١) من اراد التوسع في فحص كل عبارة من عبارات الآباء تتعلق بقضية الانبثاق فليراجع كتاب زيزنيكابيوس المخصص لهذه القضية وحدها في جزئين ضخمين.

(٢) سيرو ٩: ٨

وقال له: انه هو ايضاً متكدرٌ من انقسام الشرقيين القلائل هذا الانقسام الرديء. ثم دعا اليه مطارنة الفلاخ والبغدان وطورنوبو واماسيا ولامهم على عدم موافقتهم على الاتحاد ثم اوصاهم ان يتبعوا رأيه الذي كان عازماً ان يصرّح به في الجلسة التالية. وكذلك دعا مرقس وكان يتضرع اليه ان يوافق على الاتحاد اكراماً له وللاساقفة. غير ان مرقس اجابه بانه في أُمور الايمان لا دخل للخواطر وهكذا لبث ثابتاً على مبداه الى النهاية(١).

وفي الوقت عينه توفق القيصر ان يسحب الى غرضه اساقفةً آخرين وسفراءَ طرابزون والفلاخ والبغدان وان يزعزع مطران كيزيكوس ايضاً بان وهبه البلد التي كان قبلاً يطلبها منه. وكذلك ايسيدوروس فانه اضاف عنده مطارنة ميلانيكوس ودريسترة ودراما وسحبهم الى غرض القيصر.

على ان القيصر معما كان يبذله من الجهد في سبيل الاتحاد كان يريد ان يعرف المساعدة الممكن حصولهُ عليها من البابا بعد الاتحاد وكان الوسيط في ذلك ايسيدوروس. فقدم اليه ثلاثة كرادلة اكدوا له: أولاً ان البابا مستعد ان يقوم بمصاريف رجوع الشرقيين. ثانياً ان يرسل ثلاثمائة جندي وسفينتين على نفقتهِ للمحافظة على القسطنطينية. ثالثاً ان يجعل زوار الاراضي المقدسة ان يسافروا عن طريق القسطنطينية. رابعاً ان يرسل عند الاقتضاء عشرين سفينة مدة ستة أشهر او عشر سفن لسنة كاملة. وخامساً انه اذا دعت الحاجة يقنع امراءَ الغرب ليرسلوا جنودهم الى الدفاع عن المملكة.

ومن بعد هذه الاستعدادات عين البابا جلسة ثانية في ٢ حزيران لاتمام الاتحاد وقبول العقيدة اللاتينية وكان البطريرك اول من تكلم في هذه الجلسة فقال: «ان عقيدتنا التي تسلمناها من آبائنا انا لا ابدلها ولا اغيرها قطعياً بل ابقى فيها الى آخر نسمة من حياتي. وبما ان اللاتين يفسرون لا من انفسهم بل من الكتب المقدسة ان انبثاق الروح القدس هو بالابن ايضاً اقبلهم واقدم

(١) سيرو ٩: ٦

رأياً ان الباء هنا تجعل الابن علة للروح القدس فاتحد معهم وأشاركهم». ثم انه دوّن رأيه كتابة فقال «بما اننا سمعنا عبارات الآباء القديسين الشرقيين والغربيين بعضها يقول ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن وبعضها من الآب بالابن فوان كان قولهم بالابن مساوياً لقولهم من الابن وقولهم من الابن مساوياً لقولهم بالابن لكن نحن نترك القول «من الابن» ونقول ان الروح القدس ينبثق «من الآب بالابن» ازلياً وجوهرياً كمن مبدإٍ. واحد وعلة واحدة لأن الباءَ هنا تدل على علة في موضوع انبثاق الروح القدس»(١). وقد شرط على اللاتين ان لا يطلبوا من الشرقيين اضافة العقيدة اللاتينية الى دستور الايمان اليوناني. ومن بعد البطريرك قدم مطران هرقلية رأيهُ بصفتهِ نائباً عن الكرسي الاسكندري فلم يقبل العقيدة الجديدة «من الابن». وأما النائب الثاني غريغوريوس فقبلها وصدق على الاتحاد مع اللاتين. وقد تعجب الجميع من سلوكهِ هذا لأنه من ثلاثة أيام هو نفسهُ تكلم كلاماً طويلاً ضد اللاتين وبرهن انهم غير معمدين لأنهم لا يعتمدون اي لا يغطسون بالماء كما يقتضي معنى العماد وهو الصبغ وكما رسم الآباء القديسون كيفية التغطيس. وأما ذوسيثاوس مطران طرابزون فلم يحضر المجمع لانحراف صحته وقد ارسل اليه وسئل مراراً كثيرةً ولكنه لم يجاوب شيئاً. وقد حذا حذوه نواب البطاركة أيضاً مرقس الافسسي نائب البطريرك ودوسيثاوس نائب الاورشليمي ومطران انشاليوس فلم يبدوا رأياً. وكذلك الدسبوت ديمتريوس اخو القيصر اعتذر بالجهل ولم يبدِ رأياً رعماً عن تحريضات القيصر اياه على القبول.وبعد عشرة ايام اعني بعد وفاة البطريرك حالاً سافر الى البندقية وأخذ معه الفيلسوفين جيمستوس وسخولاريوس. ثم ان القيصر منع الاكليريين من حاشية البطريرك ورؤساء الاديرة عن تقديم الرأي لعلمه بثباته وسمح بهِ للموظفين العلمانيين في معيته فوافقوا على الاتحاد ومثلهم سفراء الغلاخ والبغدان وطرابزون وبلاد الموره: اما ابراميوس اسقف سوداليا الروسي رفيق ايسيدوروس فهرب خفية هو وقسسه الى روسيا. واما اسقف

(١) سيرو ٩: ٩

بلاد الكرج فكان يستلفت الاساقفة الى رسائل البطريرك الانطاكي التي فيها يوصيهم ان يثبتوا في الدفاع عن العقائد الارثوذكسية. ولكن عبثاً فعل ذلك. أخيراً تظاهر باختلال الشعور ورحل خفية الى البندقية هو والسفراء وسائر موظفي بلاد الكرج* ومما يُذكر في هذا المقام ان سفير الكرج لم يجزع من ان يوبخ البابا وجهاً لوجه على البدَع الجديدة التي سمحت بها لنفسها الكنيسة الرومانية والتي بسببها قطعتها الكنيسة الشرقية من شركتها. ثم نصح لهُ ان يصلح اغلاط اسلافه. واذا كان يسمح احياناً الخطيب اللاتيني يوحنا يورد تكراراً ذكر ارستوطاليس في بياناته قال له «الاوفق ان تكلمنا من اقوال القديس بطرس والقديس بولس والقديس باسيليوس والقديس غريغوريوس اللاهوتي والقديس الذهبي الفم لا من ارستوطاليس». اخيراً قدم القيصر رأيه فاعترف بان هذا المجمع مسكوني وانه ملزوم ان يخضع لعقائده ويحامي عن تحديداته وهكذا وضع اول حجر في اساس الاتحاد(١).

وفي نهاية الجلسة اعلن القيصر انه لما كان هذا المجمع قابلاً تعليم الكنيسة اللاتينية والاتحاد معها يمنع منعاً صارماً كل مضادة لقوانينه وكل جدال فيها. ويقاص كل من يرجع عن رأيه. وعليه امر الضباط حالاً ان ينتبهوا الى ملاحظة المتحدين انتباهاً صارماً(٢) ثم كتبت آراءُ الاساقفة ومنها الف قرار هذا ملخصه «اننا نؤمن ان الروح القدس ازلياً وجوهرياً هو من الآب والابن وانه ازلياً وجوهرياً ينبثق من الآب بالابن». وكتب هذا الاعتراف في ثلاث نسخ واحدة اخذها القيصر وواحدة البطريرك وواحدة رفعت الى البابا. غير ان اعتراف الشرقيين هذا أيضاً لم يعجب اللاتين لان الكرادلة كانوا مصرين على ان تحذف لفظة «بالابن» فقاومهم الشرقيون ولكن بلا فائدة لأنهم أخيراً أجبروا ان يغيروا هذا الاعتراف باعتراف جديد بابوي محض. وفي ٨ حزيران قرئ امام البابا يونانياً ولاتينياً فاعجبهُ ودلالة على الاتحاد قبل اللاتينيون اليونانيين.

(١) سيرو ٩: ٩ ـ ١٢ وذورو ٦٠١ ـ ٦٢٠ (٢) سيرو ٩: ١٣

مشاحنات في تعاليم أخرى للاتين. موت البطريرك.

اعلان اتحاد الكنائس

غير ان هذه القبلة لم تكن قبلة اخلاص لان البابا بعد ان اجبر الشرقيين على قبول تعليمهِ في الانبثاق أخذ يطلب منهم قبول البدع اللاتينية الاخرى فقال لايسيدوروس وبيصاريون ودوسيثاوس وذوروثاوس وقد ارسلوا اليه من قبل القيصر «اننا بنعمة الله اتحدنا وصرنا متفقين في العقيدة المطلوبة وليس لنا شيء نزيده فيها. فتعالوا الآن لنبحث في نار المطهر ورئاسة الكرسي الاول والخمير والفطير والقربان الالهي لكي لا يبقى بيننا ممسك في شيء. وليكن الاتحاد سريعاً لأن الوقت يمضي».

فالاساقفة جاوبوهُ حالاً: ففي قضية خبر الشكر كانوا مصرين على ان يعترف البابا بان السر صحيحٌ سواءٌ كان متمماً بخمير او بفطير. وفي موضوع نار المطهر. قالوا اننا نعترف بان نفوس الصديقين تنال مكافأة تامة ونفوس الخطأة قصاصاً تاماً وأما النفوس التي في حالة متوسطة فانها تعذب في حبس. لكنا لا نعين ما اذا كانت ما تعذب به ناراً او ظلاماً أو شيئاً آخر. وأما في رئاسة البابا فقالوا انه يحق لرئيس كهنة رومية القديمة الحقوق التي كانت له قبل انقسام الكنائس. وأما في تقديس القرابين في سر الشكر فقالوا قولاً يضاد التعليم القديم المستقيم اعني قالوا بانه حالما يعلن كلام المخلص «خذوا كلوا الخ» حالاً يستحيل الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه وبان افاشين استدعاء الروح القدس التي في خدمة القداس الشرقية تتعلق على نوع خصوصي بالمشتركين. وقد علل هؤلاء الخائنون هذا القول بقولهم: إنا بهذا الاستدعاء نطلب ان ينحدر الروح القدس على المشتركين ويحول فيهم الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه لتصير لهم القرابين المقدسة سبباً لتقديس النفس ولغفران الخطايا لا لمحاكمة ولا لدينونة* ثم ان اللاتين طلبوا من الشرقيين ان يشرحوا لهم التعليم في جوهر الله ولعله وهو الموضوع الذي لم يرد مرقس ان يبحث فيه في المجمع. غير ان

الاساقفة رفضوا الآن أيضاً هذا الطلب[1].

ولم يكتفِ البابا بهذا كله بل حاول الحصول على اجوبة خطية من الشرقيين. ففي اليوم التالي (١٠ حزيران) سطر عبارات أوضح بها مطاليبه وهي أربع قضايا اولها ان يعترف الشرقيون «بان الكرسي الرسولي والحبر الاعظم القائم مقام ربنا يسوع المسيح يعني البابا الجزيل الغبطة محفوظة امتيازاتهُ. وان ما زادهُ في الدستور الشريف مسموح له ان يزيده وهو حقه بصفته رئيس الكهنة الاعظم». ثم ان يقبلوا تعليم اللاتين اجمالاً في نار المطهر وفي حالة النفوس المنتقلة بلا أدنى تغيير. وان يفحصوا التعليم في جوهر الله وافعالهِ. ووافقهم في واحدة فقط وهو انه يقبل سر الشكر المتمم بخبز مخمر. أما الاساقفة فلم يقبلوا لائحة البابا الكتابية بل قالوا له «اننا لسنا بمأذونين من ملكنا ان نجيب عن كل ما يطرح علينا. ولكنا بصفة اصدقاء ندافع ونقول: ان القضية الاولى هي غاية في الظلم وبخس الحقوق. فاننا كيف نستطيع نقول بان كنيسة رومية لها السلطان ان تزيد وان تنقص بلا رأي اخوتها البطاركة؟ ولذا فان ما زدتموه وان كان حسناً في باب الايمان فالذي يتجاسر عليه بلا فحص مجمعي لا يبرأ. فان اردتم قولوا انكم فعلتم ذلك ظلماً وانكم بعد الآن لا تعملونه فتنالوا صفحاً».

وقد اجتهد البابا كثيراً في اقناعهم على نقل هذه القضية الى القيصر كتابةً فكانوا يجيبونه بانهم ليسوا مفوضين في ذلك. ولكنهم أخبروا القيصر والبطريرك شفاهاً قبل الغذاء بوقت قليل. وكان الوقت نحو نصف النهار في عاشر يوم من حزيران. وفي عشية هذا اليوم بعينه شاع ان البطريرك القسطنطيني يوسف توفي وأكدت الاشاعة.

على انها وردت في تاريخ ذوروثاوس رواية لا يمكن ان تنطبق على الواقع وهذه خلاصتها: انه لما اجتمع الاساقفة في قلاية البطريرك على اثر وفاته فهموا من خدامه انه لما ذهب بعد العشاء الى غرفة نومهِ كعادتهِ اخذ

(١) ذورو ٦٢٠ ـ ٦٢٦

يكتب. لكنه بغتة اشعر باضطراب وقضي عليه. فأخذ الشرقيون ما كتبهُ قبل موتهِ وقرأوهُ فاذا هو ما يأتي «يوسف برحمة الله رئيس اساقفة القسطنطينية رومية الجديدة والبطريرك المسكوني. بما اني دنوت من نهاية حياتي وصرت الآن عازماً ان اتمم الواجب العمومي فبنعمة الله اكتب رأيي صريحاً الى هيئة اولادي واوقع عليهِ. فكل ما تراه وكل ما تعتقدهُ كنيسة رومية القديمة الجامعة الرسولية كنيسة ربنا يسوع المسيح انا نفسي ايضاً اراهُ واكرس ذاتي للاقتناع فيهِ معها. وايضاً اعترف باب الآباء الجزيل الطوبى ورئيس الكهنة العظيم ونائب ربنا يسوع المسيح بابا رومية القديمة انه معصومٌ في كل الامور. وايضاً اعترف بمطهر النفوس. ولأجل التأكيد على ذلك أُمضي عليه في تاسع حزيران سنة ١٤٣٩ ثاني الانديقتي»[1].

هذه الرواية المستغربة وردت في تاريخ ذوروثاوس. ولكن الاسباب التي تقنعنا في عدم صحتها كثيرة فانه يستخرج من تاريخ ذوروثاوس عينهِ ان البطريرك توفي في ١٠ حزيران. وذلك ان ذوروثاوس يذكر تاريخ الحوادث في الاسبوع الاخير يوماً يوماً ويقول: اولاً. ان البابا اخذ لائحة الشرقيين في انبثاق الروح القدس يوم الاثنين ثامن حزيران. ثانياً ان ذوروثاوس نفسهُ حضر مع المطارنة الثلاثة الآخرين الى عند البابا يوم الثلاثا تاسع حزيران. ثالثاً انه يوم الاربعاء قابل البابا مرة ثانية مع رفقائه الثلاثة وسمع بقية مطاليبه وبلغها للقيصر وللبطريرك كما يشهد هو نفسه بقولهِ «وقد قلنا له (اي للقيصر) كل ذلك ومثله للبطريرك» وبعد ذلك يقول «وفي مساء يوم الاربعاء عينهِ جاءنا بغتةً خبرٌ يقول ان البطريرك مات». فواضحٌ اذاً ان البطريرك قضي عليه يوم الاربعاء عاشر حزيران. وهذه الافادة عينها يؤكدها سيروبولوس وغيرهُ من المؤرخين. فكيف يمكن ان يكون تاريخ كتابة البطريرك التي كان يكتبها في ساعة موته تاسع حزيران وهو في ١٠ منه كان حياً وقابل ذوروثاوس ووقف منه على مطاليب البابا؟ او كيف يمكن ان نفسر

(١) صفحة ٦٣٧ ـ ٦٣٠

عبارة تاريخه الواردة في حوداث ١١ حزيران حيث قال «فاذاً البطريرك مات في فلورانسا في تاسع شهر حزيران من الانديقني الثاني»؟ أليس هو الذي قال قبل قليل انه رأى البطريرك في عاشر حزيران؟ فكيف مات في ٩ حزيران وخاطبه ذورثاوس في ١٠ حزيران اعني بعد موته بيوم؟ لا شك في ان ما ورد في تاريخ ذوروثاوس عن الصك السابق لوفاة البطريرك وعن موته في ٩ حزيران تزوير محض أضيف اليه من يد لاتينية. والذي يؤكد لنا هذا التزوير هو ان اعمال المجمع عند اللاتين تقول بان البطريرك مات في تاسع حزيران* على ان عند الشرقيين براهين كثيرة تؤكد حقيقة تزوير الصك: فانه لا احد من الذين حضروا المجمع عرفه او سمع به. حتى ان المؤرخ سيروبولس كتب ما نصهُ «وكان يقول (البطريرك) انه ينتظر اياماً قليلة ليوقّع على القرار المزمع ان يتم ويخرج من فلورانسا عاجلاً. ولكنه لم يستحق ولا واحداً من الامرين. لانه قبل ان يوقّع مات وقبر هناك»(١). وكذلك جيمستوس وامبروتسي اللذان حضرا المجمع كتبا هذا الكلام عينه. فالاول يقول «اما المجمع الذي صار في فلورانسا فلا يستطيع احد ان يسميهُ مسكونياً. لأنه لم يوقع عليه ولا البطريرك البيظندي اذ سبق ومات موتاً قبل اوانه» والثاني يقول «انني اقول بان ذاك المجمع ليس مسكونياً لانه كيف كان مسكونياً والبطريرك البيظندي أُصيب قبل التوقيع عليه بموت فجائيٍّ وقُضي عليه؟» فلو كان سيروبولس يعرف ذلك لما سكت عنهُ لأنه قال اقوالاً كثيرة غير هذه في حق البطريرك. وكذلك جيمستوس واميروتسي ما كانا قالا اقوالاً كهذه لو ان البطريرك كان كاتباً هذا الصك الذي يحتوي لا على مآل التحديد الذي صار بعد موته بل على اكثر منه. هذا فضلاً عن انه ليس من داعٍ ساق البطريرك الى مثل هذه الاقوال التي لم يطلبها منه احد الا البابا ولا القيصر. وفي اثناء المناقشات التي دارت بعد المجمع لم يذكر احدٌ هذا الصك ويستند عليه ولا ورد له ذكرٌ في تحديد المجمع حيث كان يجب ان يشار اليه. فالتاريخ الحقيقي اذاً لمجمع

(١) ٩: ١٦

فلورانسا لا يعترف البتة بصدق اعتراف كتابيٍّ كهذا للبطريرك القسطنطيني بل يضعه في جملة الاختلافات والتزويرات. ثم انه معلوم ان البطريرك يوسف حضر المجمع مسوقاً من مطامع عظيمة في موضوع الرئاسة. ومعلوم ما عمله في ميناء فرّارا حين سمع ان البابا يطلب منه خضوعاً. ومعلوم كم كان يتجنب كل موقف يجبره ان يظهر في مظهر احط مقاماً من البابا. ثم معلوم ايضاً ان الاساقفة الاربعة الذين أُرسلوا الى البابا اعترضوه اعتراضاً عظيماً في موضوع الرئاسة ولم يسلموا له بها ولا قبلوا ان يأخذوا كلامهُ فيها كتابة بل نقلوه شفاهاً الى القيصر والبطريرك وهم مع ذلك أخص انصار الاتحاد وأصدقاء اللاتين. فكيف يعقل ان البطريرك الذي كان في مقابلاته الرسمية يفتش ويحافظ على اصغر امتيازاتهِ واقلها فضلاً عن اعظمها يقول ما ورد في الصك «انه يعترف باب الآباء الجزيل الطوبى ورئيس الكهنة العظيم ونائب ربنا يسوع المسيح بابا رومية القديمة انه معصوم في كل الامور؟» ولكن من لنا ليفسر هذا الموضوع تفسيراً جلياً؟ اليك البيان:

في خبايا الفاتيكان وجد كتابٌ خطيٌّ وهو الذي اوردنا منه قبلاً ما يتعلق بحاكم رودس. فهذا الكتاب يكشف سرًّا لم يكشفه غيرهُ فيقول «ان البطريرك يوسف لما رأى جواب البابا وجورهُ عليه ندم على سلوكه (بقبول الاتحاد) وعليه انفصل عن الاتحاد وما كان يمضي عليه. فزوّروا امضاءهُ وخنقه ثلاثة رهبان وقالوا بان هذا الامضاء وجد في يده وهو ميت» هذه رواية النسخة الخطية الفاتيكانية فان كانت صادقة كان الصك مزوّراً من ساعة موت البطريرك وان كانت غير صحيحة كان الصك مزوّراً بعد وفاة البطريرك بزمان طويل.

وفي اليوم التالي دُفن البطريرك بحضور الكرادلة والاساقفة اللاتينيين ووضع جسدهُ في كنيسة السيدة التي في دير الدومينيكان حيث كان البابا وقتئذٍ ساكناً.

فيظهر ان وفاة البطريرك جعلت القيصر ان لا يخضع للبابا بسهولة لان البطريرك يوسف اول اسقف في الكنيسة الشرقية طالما كان حياً كان حاملاً على عاتقهِ معظم المسؤولية الدينية وملزوماً ان يقدم حساباً عما يجري

في المجمع. اما الآن فبموت البطريرك صار الحمل كلهُ على عاتق القيصر.

فعلى الرواية اللاتينية طلب القيصر من البابا في يوم جناز البطريرك انجاز العمل بكل سرعة. فدعا البابا بيصاريون وايسيدوروس وذوروثاوس وكرر مطاليبهُ عينها اعني بعد ان يقرروا استحسانهم الزيادة في الدستور ان يتفقوا على بقية القضايا. اما هم فأجابوه ان قضيتي الفطير والمطهر ليستا مهمتين كثيراً ولذا يمكننا ان نذاكركم فيهما كما وفي الحقوق التي تخص البابا بعد الاتحاد «وأما قضية الزيادة في الدستور فلا نقبلها قطعياً. بل نسمح لكم ان تستعملوها في كنائسكم لا في الكنائس الشرقية كما اننا نحفظ ايضاً قضية تقديس القرابين الالهية باستدعاء الروح القدس وان اعترفنا انها تقدس بالاقوال الربانية» هذه هي رواية اللاتين[1].

اما رواية الشرقيين فهي هذه: من بعد وفاة البطريرك اخذ الرومانيون يضاعفون اجتهادهم ليقرروا كتاب الاتحاد في اسرع ما يمكن من الوقت: فكان الكرادلة لا يفترون عن التنقل من قصر البابا الى بلاط القيصر ومن بلاط القيصر الى قصر البابا للمخابرة. ومن بعد مقاوماتٍ ومنازعات طويلة مع القيصر اقنعوه ان يتفق معهم بلا علم المجمع الشرقي على اربع قضايا اولها: ان الزيادة مستصوبة وغير محرمة. والثانية ان تبقى كل كنيسة محافظة على عادتها في استعمال الخمير او الفطير. والثالثة في المطهر. والرابعة في رئاسة البابا. هذا وان القيصر اصرّاصراراً شديداً على ان يحافظ الشرقيون على دستورهم بلا تغيير وعلى تقديس القرابين الالهية باستدعاء الروح القدس الذي يستدعيه الكاهن بحسب ترتيب خدم القداس القديمة كما سلمها القديسان باسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم. وقد تكدر القيصر في هذه المخابرات من شدة مطاليب اللاتين وعنادهم كدراً عظيماً حتى انه اضطر مرةً ان يصرخ من شدة تأثره ويقول «اني اراهم (اي اللاتين) قوماً عتاة يماحكون دوماً ليؤيدوا ارادتهم ويجتهدوا اجتهاداً عظيماً في ان ينقضوا

(١) اعمال المجامع مع جزء ٣٢ صفحة ٥٠٨

كل ما يقوله لهم الغير حتى انهم اذا قال لهم احدٌ منا ان المسيح هو الهنا الحقيقي لا يلبثون ان يجادلونا يوماً كاملاً او يومين ويجتهدوا بكل وجه لينقضوا قولنا ويقولوا بان المسيح ليس الهنا الحقيقي. فلو لم يكن اللاتين ملقنين من رجالنا (يعني هنا ايسيدوروس وبيصاريون الخائنين) لما قالوا ولما طلبوا هذه المطاليب. ولكني اعلم مَن هم ايضاً محركوهم»[1]

على ان ذوروثاوس مطران مدلّه اعظم مساعد لهذين الخائنين نصح للبابا سرًّا ان يغتنم فرصة عوَز الشرقيين ويعطيهم شيئاً من المال ليسهل اقناعهم. فقبل البابا نصيحتهُ وارسل ما ارسلهُ اليهم بواسطتهِ. وقد كان العوز شديداً وقتئذٍ حتى ان مطران نيقوميديه اضطر ان يطلب بفمه فضة من البابا لكي لا يخسر ثيابه المرهونة. فلما رأى مرقس كيف كانت كفة الميزان مائلة وسط الدسبوت ديمتريوس (قبل رحيله) ان يسترحم من القيصر اعفاءَه من كل اجتماع وجلسة في المستقبل فاعفاه ووعده بارجاعهِ سالماً الى بلادهِ وان لم يوافق على الاتحاد. اما انصار الاتحاد ايسيدوروس وبيصاريون فطلبا ان يختم كتاب الاتحاد بحرمٍ ولعنة ضد الذين لا يقبلونه والذين يقاومونه. ولكن مطران طرابزون رفض رأيهما وعلى اثر ذلك قام نزاعٌ عظيمٌ بين انصار الاتحاد انفسهم.

اخيراً دعا البابا القيصر اليه مع بعض المطارنة واخذ يقنعهم في ان كتاب الاتحاد الذي سيؤلف يجب ان يشتمل بحكم الضرورة على كل القضايا. واجبرهم ان يسمعوا كلاماً طويلاً في المسائل التي لم تذكر في المجمع كلياً. فيوحنا تكلم كثيراً في رئاسة البابا وامبروسيوس ترابرسارس في الفطير. ثم قال البابا انه لم يبقَ علينا الا وضع اللائحة اللازمة. فسلم الى القيصر لائحة متضمنة كل ما كان يريد ان يشتمل عليه كتاب الاتحاد وطلب جوابها. فالقيصر لم يرد ان يأخذ تلك اللائحة بل كان يكرر جواباً واحداً للبابا وهو: انه قد قيل للكرادلة كل ما هو ضروريٌّ ان يقال. اخيراً سئم

(١) سيرو ١٠: ١ و ٣

القيصر من كلام البابا واغتاظ البابا من كلام القيصر وترك الجلسة فاضطر القيصر ان يقبل اللائحة.

اما اخص عمال الاتحاد من الشرقيين مثل ايسيدوروس وبيصاريون ففحصوا مطاليب البابا وقالوا للقيصر انها مصيبة[1]. لكن القيصر لما رآهم يميلون الى رضى البابا ميلاً دنيئاً لم يعد يصغي اليهم مثل ذي قبل ومرةً قال لهم «نحن تنازلنا وعملنا اكثر مما يلزم فمن الواجب اذاً ان يجري اولئك ايضاً الى الاتحاد بنشاط وبلا تفتيش. غير انهم لا يزالون يفرضون علينا ما يقولونه. فيحقُّ اذاً هذا الاتحاد ليس موافقاً لرضى الله فهو اذاً ممنوع ... واذا كان البابا لا يكتفي فانا اراجع اهالي فلورانسا فيدبروننا ونتوجه الى بلادنا».

اما القضية التي احتملت وقتاً طويلاً ولم يمكن ان تحل فكانت قضية رئاسة البابا. وقد دعا البابا اليه الاساقفة الشرقيين مرة ثانية وكان يبرهن لهم الحقوق المسكونية التي يدعيها ولم تعترف بها الكنيسة الشرقية مطلقاً بل كانت بلاد الغرب عينها تنكرها وتحاربها في ذلك الوقت كمجمع قسطنديا ومجمع باسيليا وغيرهما. اما الاساقفة الشرقيون فكانوا يظهرون امامهُ انهم مقتنعون ولكنهم عندما كانوا يقابلون ما سمعوه منه بقوانين الكنيسة على حدةٍ كانوا يعدلون ويحتارون. ومن بعد منازعات طويلة سمحوا للكرسي الرومَاني بكل الحقوق ما عدا الحق في جمع المجامع المسكونية بلا ارادة القيصر والحق استدعاء البطاركة اليه ليحاكمهم فلم يسمحوا بهما. بل طلبوا «اولا ان لا يجمع البابا مجمعاً مسكونياً بدون القيصر والبطاركة اذا كانوا يحضرون. واما اذا أُعلنوا ولم يحضروا فحينئذٍ لا يتوقف المجمع لهذا السبب. وثانياً اذ رأى احدٌ نفسهُ مظلوماً من احدٍ البطاركة واستأنف دعواهُ الى البابا على الكنيسة فلا يجوز ان يأتي البطاركة تحت التحقيق والمحاكمة بل يجب ان يرسل البابا مفتشين الى الجهة التي فيها القضية

(١) ذورو: ٦٣١ ـ ٦٣٨

وهناك تُفحص في محلها ويُعطى كل ذي حق حقهُ» ـ غير ان البابا بعد مشاورة الكرادلة اجاب بانه «يريد كل امتيازات كنيستهِ ويكون لهُ الحق في الاستئناف اليهِ وفي ان يدير كل كنيسة المسيح ويرعاها مثل راعي الخراف. وان يكون له السلطان والقوة في ان يعقد مجمعاً مسكونياً كلما اقتضت الظروفي ويكون كل البطاركة طوع ارادته». فلما اخبر الكرادلة القيصر هذا الجواب لم يعد يجبهم بشيء بل قال لهم «جهزوا لنا لوازم رحيلنا».

وكان هذا الكلام في ٢٣ حزيران. وفي ٢٤ منه كانت فلورانسا تحتفل عيد يوحنا السابق احتفالاً عظيماً. وفي ٢٥ منه تقدم مطارنة روسيا ونيقيه ومدلَّه الى القيصر وتوسطوا بينه وبين البابا ليجتمع اربعة من الشرقيين واربعة من الغربيين ويفصلوا الخلاف. فرضوا واجتمعوا ولم يتفقوا. اخيراً قبل الشرقيون ان يعترفوا بالبابا انه حبرٌ اعظم ووكيل ليسوع المسيح وقائم مقامهُ ونائبٌ عنه وراعي جميع المسيحيين ومعلمهم ومدير كنيسة الله ومدبرها مع المحافظة على كل امتيازات بطاركة الشرق وحقوقهم. وفي الوقت عينه قرروا ان لا يسلموا له بعد هذا في شيء لا قولاً ولا كتابة بل ان يطلبوا الاتحاد والسفر في اسرع ما يمكن. فرضي البابا وعين الفريقان رجالاً يؤلفون صك الاتحاد وكان ذلك في ٢٧ حزيران[1].

ولكنهم ما باشروا ذلك الا وقام النزاع بينهم. لان اللاتين كانوا يطلبون ان يفتتحوهُ باسم البابا وحده. اما القيصر فكان يريد ان يوضع اسمه ايضاً. وبعد نزاع طويل وُضع اسم القيصر والبطاركة هكذا «وبموافقة الملك الجزيل الجلالة والبطريرك القسطنطيني وسائر البطاركة». ثم لم يتقدموا فيه خطوة الا وعادوا الى النزاع. لان اللاتين كانوا يريدون ان يكتبوا «ان البابا ينبغي ان يحافظ على حقوقه بحسب تعليم الكتاب المقدس والآباء القديسين» ولكن القيصر اعترض بقوله: اذا كان احد من الآباء في رسائله الى البابا وصفهُ ببعض اوصاف اكرامية أفيجوز ان تعتبر تلك

(١) ذورو ٦٤١ ـ ٦٤٥

الاوصاف التبجيلية امتيازات وحقوقاً للكرسي الروماني؟[1] ومن بعد منازعات كثيرة اتفقوا ان يجعلوا تلك العبارة هكذا «بحسب قوانين المجامع المسكونية والآباء القديسين». ثم ان اللاتين اعترضوا على عبارة الشرقيين القائلة «مع المحافظة على كل حقوق البطاركة وامتيازاتهم». وطلبوا أن تحذف كلمة «كل». ولكن الشرقيين لم يوافقوهم. فبقيت. ومن بعد ان اتفقوا على سائر مواضيع الكتاب كتبه ترابرسارس باللاتينية وترجمه بيصاريون الى اليونانية. ثم عينوا يوماً لامضائه. اما بيصاريون فاقترح على البابا ان يسترضي بالمال الذين لا يوافقون عليه فوعده[2].

وفي اليوم الخامس من شهر تموز اجتمع كل الشرقيين في قصر القيصر وكان القيصر اول من امضى على كتاب الاتحاد. اما الاساقفة فاكثرهم أُجبروا. فانطونيوس مطران هرقلية تمارض. ولكن القيصر اجبرهُ ان يمضي وهو على السرير. ولكنه لم يزعج مرقس بشيء ولا كلفه للامضاء مع انه كان نائباً عن بطريركين الانطاكي والاورشليمي وكان عدم امضائه يزعزع أركان المجمع. واما بيصاريون وايسيدوروس والاب الروحي غريغوريوس فامضوا بكل رغبة وقد كانوا اول المدافعين عن الاتحاد. ولذا

(١) هذا القول يذكرنا الموضوع الذي قامت المناظرة عليه مدة طويلة بيننا وبين اصحاب جريدة البشير الغراء في بيروت حين أوضحنا لهم بالبراهين الدامغة في جريدة الهدية كما يذكرون ان الالقاب الاكرامية نوع والحقوق نوع آخر. فلو قال زيد لعمرو «يا سيدي» يكن زيد اكرم عمراً بتلقيبه اياه بالسيادة عليه. ولكن لا يصح ان يبنى على هذا اللقب حقيقة سيادة عمرو على زيد. وان بني شيء من ذلك فتكون تلك السيادة وهمية لا حقيقة مثل سيادة البابا التي لا تتجاوز حد الوهم. وحقاً اننا نستغرب كيف اخوتنا اللاتين لم يفهموا الى الآن هذه القضية البسيطة التي صرفت الكنيسة أجيالاً وهي تعلمهم أياها ولم يفهموها. فان قلنا انهم يفهمونها ولكن لا يوافقهم ان يقبلوها أفلا يصح هذا القول على سائر القضايا التي يخالفون بها الكنيسة؟

(٢) سيرو ١٠: ٤

نالوا مكافأة بان الاثنين الاولين صارا كرادلة وغريغوريوس سمي فيما بعد بطريركاً على القسطنطينية. واما مطرانا مونمباسيا وطرابزون فأُجبرا أيضاً على الامضاء. ثم أمضى الباقون وبعدهم ١١ من الاكليرُس واكثرهم لم يقرأوه اجابةً لطلب القيصر[1]. حتى ان الذين احرموهم قبلاً حق التصويت في المجمع اجبرهم الآن ان يوقعوا على هذا الصك* ومما يذكر في هذا الصدد هو انه من صورة اعمال المجمع اللاتينة عينها المدرجة في الجزء ٣٢ من كتاب اعمال المجامع يتضح ان كثيرين غير مرقس لم يوقعوا على هذا الصك. لانه لم يرد في اول امضاوات الاساقفة سوى اسماء مطارنة هرقلية وروسيا ومونمباسيا وكيزيكوس وطرابزون ونيقيه ونيقوليدية وطرنوبو ومدلّه والفلاخ واماسيا ورودس. واما الباقون فمنهم من هرب وهم ابرابيوس اسقف سوداليا (الروسي) واشعيا مطران سطاوروبولي ومتروبوليت الكرج[2]. ومنهم من عاند وقاوم وهم مطارنة دريسترا وغانوا وميلانيكوس ودراما وانشيالو وخصوصاً الاخير فيهم فانه حذا حذو مرقس. ولهذا نرى امضاواتهم في آخر الصك بعد امضاوات الرومانيين انفسهم اذا سلمنا ان تلك الامضاوات غير مزوَّرة. وكذلك مطران المورة لا امضاء له في الصك اصلاً. على ان بعض النسخ اليونانية المحفوظة في مكتبة المجمع القدس في موسكو ليس فيها امضاوات مطراني طرابزون وكيزيكوس. غير ان في فلورانسا نسخةً واحدة وجد فيها امضاء ابراميوس الروسي. وقد قيل في تاريخ رحلة ايسيدوروس انهُ اجبرهُ على التوقيع بعد ان حبسه اسبوعاً كاملاً. ولكن هذه الغرائب كلها ليست شيئاً في جانب الامر الاشد غرابةً منها وهو ان النسخ الاصلية التي أُمضيت وقتئذٍ كانت خمساً واما النسخ التي في الغرب الآن وتدعى أصلية فهي عشر على ما روى المؤرخ الالماني كيزلر فتأمل.

ومن بعد اتمام الامضاوات ارسل القيصر عشرة اساقفة ليحضروا توقيع البابا اوجانيوس. فلما اخذ البابا النسخ الممضاة لاحظ كل

(١) سيرو ١٠: ١٩ (٢) سيرو ٩: ١٢ و ١٠: ٨

الامضاوات بدقة. وفيما كان يمضي هو سألهم أأمضى مرقس؟ فأجابوه لا. فلما سمع هذا الجواب صرخ امامهم «فاذن لم نعمل شيئاً»(١). ومن بعد البابا امضى ثمانية كرادلة وستون اسقفاً وكثيرون من رؤساء الاديرة(٢).

في ما جرى بعد المجمع في الغرب والشرق

وقد عين البابا اليوم السادس من تموز يوم احتفال باعلان الاتحاد على العموم. فاجتمع في الكنيسة الكاثدرائية رجال المجمع وجمهور عظيم من الشعب وكان القيصر والبابا حاضرين. وبعد ترتيل مجدلة كبيرة (ذوكصولوجيا) قُرئَ كتاب الاتحاد بصوت عالٍ عن المنبر. فقرأه يوليانوس باللاتينة وبيصاريون باليونانية. ولأجل وقوف القارئ على نص هذا الكتاب ندرج ترجمته بالحرف الواحد.

تحديد المجمع المسكوني المقدس الذي عقد في فلورانسا.

اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله تذكاراً ابدياً للعمل مع الموافقة للموقعين من ولدنا الجزيلة محبته يوحنا باليولوغوس ملك الروم الجليل و(موافقة) نواب اخوتنا البطاركة الوقورين وسائر المشخصين الكنيسة الشرقية.

لتفرح السماوات ولتبتهج الارض. لان الحاجز الفاصل بين الكنيسة الغربية والشرقية قد رفع. ورجع السلام واتفاق المسيح حجر الزاوية الذي صنع الاثنين واحداً اذ ربط كلا من الحائطين برباط المحبة والسلام الاقوى وشدهما وضبطهما بحنان اتحاد ابدي. ومن بعد ذلك الضباب الطويل ضباب الكآبة وتلك الغيمة السوداء الكريهة الناشئة من الابتعاد المزمن سطع الشعاع اللطيف شعاع الاتحاد المشتهى. لتفرح ايضاً الكنيسة الام اذ تشاهد اولادها الذين كانوا الى هذا العهد قائمين بعضهم ضد بعض راجعين الآن الى الاتحاد والسلام. والتي كانت قبلاً تبكي امر البكاء من

(١) هذه شهادة من فم البابا نفسه تنفي الدعوى بالعصمة (٢) سيرو ١٠: ٨ ــ ٩

انفصالهم لتحمد الله القدير على كل شيء بفرح لا يوصف على اتفاقهم العجيب الآن. وليفرح معاً جميع المؤمنين في كل المسكونة والمدعوون باسم المسيح ليبتهجوا مع الام الكنيسة الجامعة. لانه ها هم الآباء الغربيون والشرقيون بعد زمان الخلاف والابتعاد قد تكبدوا كل خطر في البر والبحر وداسوا كل مشقة وحضروا بكل فرح ورغبة الى هذا المجمع المقدس المسكوني يدفعهم اليه حب الاتحاد المقدس والعود الى المحبة القديمة ولم يخيبوا في ما قصدوا. لأنهم بعد بحث كثير ومتعب حصلوا اخيراً برافة الروح الكلي قدسه على هذا الاتحاد المرغوب المقدس. فمن يستطيع ان يشكر احسانات الله حق الشكر؟ من لا ينذهل امام غنى الرأفات الالهية؟ من لا يلين قلبه وان كان صلباً كالحديد؟ بالحقيقة ان هذه الاعمال الهية وليست اختراعات ضعف بشري. ولذا يجب قبولها بورع فائق وتقديمها بنشائد الهية. فلك التسبيح. لك المجد. لك ينبغي الشكر ايها المسيح ينبوع الرأفات. لانك منحت عروسك الكنيسة الجامعة كل هذا الخير وأريت في جيلنا عجائب اشفاقك. لكي يحدث الجميع بمعجزاتك. فان الله قد منحنا بالحقيقة منحة عظيمة والهية حتى نظرنا باعيننا ما اشتهى كثيرون قبلاً ان ينظروا ولم يقدروا. وهو انه قد اجتمع في هذا المجمع الشريف المسكوني المقدس لاتينيون واغريقيون (اروام) وناظروا بعضهم بعضاً بجهد عظيم في جملة مواضيع وخصوصاً ليفحصوا باجتهاد كثير وبحث متواصل في الفصل الذي موضوعه الانبثاق الالهي انبثاق الروح القدس. ومن بعد ان قدمت شهادات من الكتاب الالهي ومن استعمال كثيرين من المعلمين القديسين الشرقيين والغربيين بعضها تقول ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن وبعضها من الآب بالابن وكلهم ينظرون الى معنى واحد بكلمات متنوعة قال الاروام انهم بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الآب لا يعنون انهم يخرجون الابن. لكن من حيث انه ظهر لهم (على قولهم) ان اللاتين يؤكدون ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن كأنه من مبدأين ونفختين (علتين). لهذا السبب احتفظوا من القول بان الروح القدس ينبثق من الآب والابن. اما اللاتين فأكدوا انهم بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن لا يعنون انهم يخرجون الآب عن ان يكون ينبوعاً ومبدأ للاهوت كله اعني للإبن والروح القدس. ولا انه بانبثاق الروح القدس من الابن لا يكون مبدأ الابن من الآب. ولا انهم يضعون مبدأين ونفختين. بل لكي يوضحوا ان المبدأ واحد فقط وان اصدار الروح القدس واحد كما قالوا الى الآن. وبما انه من كل ذلك ينتج معنى واحد للحقيقة اتفقوا اخيراً بفكر واحد وعقل واحد ووافقوا براي واحد على الاتحاد المقدس المرضي لله الذي امضوه* فباسم الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس نرسم ان يؤمن كل المسيحيين ويقبلوا حقيقة الايمان هذه ايمان

هذا المجمع المقدس المسكوني المقرر في فلورانسا ويعترفوا جميعهم هكذا: ان الروح القدس هو من الآب والابن ازلياً وانه اخذ جوهره ووجوده من الآب والابن معاً وانه ينبثق منهما ازلياً كمن مبداء واحد وصدور مفرد. وبعبارة اوضح: ان ما يقوله المعلمون والآباء القديسون بان الروح القدس ينبثق من الآب بالابن يؤدي الى هذا المعنى بحيث انه يعنى بذلك ان الابن ايضاً علة لوجود الروح القدس كما يقول الاروام أو مبدأ له كما يقول اللاتين مثل الآب. ومن حيث ان كل ما للآب اعطاه الآب نفسه بالولادة لابنه الوحيد ما عدا كونه اباً يكون الابن نفسه على وجه أزلي آخذاً من الآب الذي منه ولد أزلياً هذا الامر عينه اعني ان الروح القدس ينبثق من الابن ايضاً نحدد ان تفسير تلك الكلمات «ومن الابن» قد اضيف في الدستور اضافة جائزة وعادلة لايضاح الحقيقة كما دعت الضرورة وقتئذ* وايضاً (نرسم) ان يتمم جسد المسيح اما بفطير او بخبز خمير من قمح اتماماً حقيقياً وان يكون الكهنة ملزومين ان يتمموا جسد الرب ذاته باحد الشكلين كل واحد على حسب عادة كنيسته غربية كانت او شرقية* وايضاً (نحدد) ان الذين ندموا ندامة حقيقية اذ ماتوا في محبة الله قبل ان يقدموا ترضية باثمار لائقة بالتوبة عن خطاياهم ونقائصهم فنفوسهم تطهر بعد الموت بقصاصات المطهر. ولكي تخفف عنها هذه القصاصات تنفعها مساعدات المؤمنين الاحياء نعني الضحايا المقدسة والصلوات وافعال الرحمة وسائر اعمال التقوى التي جرت العادة ان تقدم من المؤمين عن غيرهم من المؤمنين بحسب رسوم الكنيسة. اما نفوس الذين لم يلطخوا بعد المعمودية ولا بشائبة من شوائب الخطيئة مطلقاً والذين بعد التلطيخ بشائبة الخطيئة تطهروا منها اما وهم لابسو اجسادهم او بعد خلعهم الاجساد كما تقدم فتؤخذ حالاً الى السماء وتشاهد الله الواحد المثلث الاقانيم مشاهدة صافية كما هو بعضها على وجه اكمل من بعض بحسب استحقاق اعمال حياتهم. واما نفوس الذين ماتوا بخطيئة مميتة مفعولة منهم او بالخطيئة الجدية فحالاً تهبط الى الجحيم ولكنها تقاصص بقصاصات غير متساوية* ايضاً نحدد ان السدة الرسولية المقدسة ورئيس كهنة روميه لهما الاولية على كل المسكونة. وان رئيس كهنة رومية نفسه هو خليفة بطرس المغبوط هامة الرسل وقائم حقيقي مقام المسيح ورأس لكل الكنيسة واب ومعلم لكل المسيحيين وان السلطة في رعاية الكنيسة الجامعة وتدبيرها وادارتها قد سلمت به من ربنا يسوع المسيح كاملة بشخص بطرس المغبوط كما يوجد ذلك مدوناً في اعمال المجامع المسكونية وفي القوانين الشريفة* ثم اننا نحدد ايضاً الترتيب المسلم في القوانين ترتيب سائر البطاركة الموقرين. فيكون بطريرك القسطنطينية ثانياً بعد بابا رومية الاقدس والاسكندري ثالثاً والانطاكي رابعاً

والاورشليمي خامساً. نعني أن تكون امتيازاتهم كلها وحقوقهم محفوظة»(١).

ومن بعد قراءة هذا الكتاب سأل يوليانوس اللاتين: هل انتم موافقون عليه؟ فصرخ اللاتين مرتين: نحن موافقون. ثم سأل بيصاريون الشرقيين: هل انتم موافقون عليه؟ فالقسم الاكثر اجاب: نحن موافقون. واما الباقون فسكتوا: حينئذٍ قبَّل يوليانوس وبيصاريون احدهما الآخر. وختم هذا الاحتفال بقداسٍ لاتيني طلب البابا ان يشترك الشرقيون في خدمته ولكن لم يرضَ احدٌ منهم ان يخدم فيه ولا ان يشترك بالفطير(٢).

هكذا تم السلام ولكنه لم يكن في الحقيقة سلاماً بل رياءً وشقاقاً. فان كلا الفريقين اعترافاً قولاً وكتابةً بان سرّ الشكر سواء تم بخبز خمير او بفطير لا فرق في قوة جوهره ومع ذلك لم يرضَ الشرقيون ان يشتركوا في قداس اللاتين. وعند القبلة الاحوية قبلوا بعضهم بعضاً فقط ولم يتبادلوا قبلةً مع اللاتين. وكذلك اللاتين لم يرضوا ولا ان يحضروا قداس الشرقيين كما سنرى بل كانوا يعاملونهم بالعجرفة والاحتقار.

هذا كان في ٦ تموز. ومنه يتضح ان الشركة والاتحاد بين الفريقين كانا اسماً بلا مسمًّى. حتى ان متروبوليت انشيالو لم يرد ولا ان يحضر ذاك الاحتفال مع باقي الاساقفة. وفي اليوم التالي ارسل القيصر مطراني روسيا ونيقيه الى البابا يطلبان منه ان يسمح للاساقفة الشرقيين باقامة قداس احتفالي أمامه وامام جمهور اللاتين في الكنيسة عينها ليرى هو ايضاً وشعبهُ بهجة الطقس الشرقي وعظمتهُ. غير ان البابا انكر وقال لهما: بما انه يجهل الطقس ولا يعلم اذا كان يجوز ان يسمح باقامته احتفالياً يرخص لهم اولاً باقامته في كنيسة صغيرة خفيةً امام اثنين او ثلاثة كرادلة. وبعد ذلك ينظر المقتضي. فهذا الجواب الفظ كدر القيصر كدراً شديداً حتى قال «انا كنا عازمين ان

(١) ان نسخة من هذا الصك لم تزل الى الآن معلقة في احدى قاعات المكتبة اللاورندية في فلورانسا فيها امضاوات الذين امضوا بيدهم* وكذلك صورة البطريرك يوسف ولم تزل فوق ضريحه لابساً ملابسه الكهنوتية الشرقية.

(٢) سيرو ١٠: ١٠ وذورو ٦٥٤ ـ ٦٧٠

نصلح غلطات كثيرة للاتين. ولكني ارى الآن او اولئك المبتدعين والمخطئين في امور كثيرة يريدون ان يصلحونا نحن الذين لم نغير شيئاً» وبعد هذا الحادث لم يعد يطلب طلباً يتعلق بالقداس(١).

وبعد مدة قصيرة عرض البابا على الشرقيين احد عشر سؤالاً تتعلق بطريقة اقامة سر الشكر والميرون وبالطلاق وبانتخاب البطريرك. فأجابه ذوروثاوس اجوبة وافية عن كل سؤالاته كما قال هو نفسه في تاريخهِ الآ عن موضوع الطلاق وانتخاب البطريرك. وعليهِ رجع البابا وسأل القيصر عنهما فقال له: لماذا يسمح الشرقيون بالطلاق خلافاً لكلام الرب الذي نص عن منعهِ؟ ثم طلب منه حتماً ان ينتخب الاساقفة الشرقيون بطريركاً من اساقفة المجمع قبل سفرهم. وكان يقول للقيصر «نحن عندنا هنا بطريركنا القسطنطيني وهو رجل صالحٌ ونافعٌ وشريف الاصل وشيخٌ وغنيٌّ فان انتم اخذتموه بطريركاً تعلموا لمصلحة كنيستكم. لأنه شيخ وحياته لا تطول فبعد مدة قصيرة يموت وتربح كنيستكم غناه(٢). ولا اعلم ما اذا كان يمنعكم عن قبوله انه غريب اللسان. فان اضطركم هذا المانع الى ان توجهوا فكركم الى غيره فاقيموه هنا واحداً من رجالكم». وكان اسم البطريك الغربي الذي اعرضه البابا «الكردينال فرانسوا كوندلوميرا» ابن اخيه الذي ارسله اميرالاً الى القسطنطينية. ثم انه حتم ايضاً ان يسلم مرقس الى المجمع ليحاكم لانه كان مقاوماً تحديدهُ.

فأجاب القيصر البابا بواسطة الاساقفة ان الكنيسة الشرقية لا تسمح بالطلاق بلا اسباب قوية. ثم انه رفض انتخاب البطريرك في فلورانسا لان العادة تقتضي ان ينتخب البطريرك من كل رعيتهِ ويشرطن في القسطنطينية. واما عن طلبه مرقس فأجابه ان الاساقفة الشرقيين وحدهم لهم الحق ان يحاكموا مطراناً شرقياً(٣).

(١) سيرو ١٠: ١١ (٢) قال احد المؤرخين ما الطف هذا الكلام حين صدر من فم البابا نفسه!!!

(٣) ذورو: ٦٧٠ ــ ٦٧٥ وسيرو ١٠: ٩٢ فكيف اذاً البابا يحاكم البطاركة؟

ولكن البابا اصرّ على انتخاب البطريرك في فلورانسا وعلى طلب مرقس لينصحهُ على الاقل وتهددهُ بانه ان لم يوافقه يفعل ما يشاء. واذ خاف غريغوريوس من ان يقع الانتخاب على ايسيدوروس قصد ممانعة الانتخاب فنصح للقيصر ان يرسل كبار المطارنة الى البندقية ففعل. ثم اخبر البابا انه لعدم وجود اساقفة كثيرين يتعذر انتخاب البطريرك.

اما مرقس فارسله اليه لعملهِ انه يخزي كل معاند. فلما وقف امام البابا ورأى الكرادلة جالسين جلس هو ايضاً معتذراً بمرض كلوتيهِ ورجليه من اتعاب المجمع. اما البابا فسأله سؤالات كثيرة فأجاب عنها كلها جوابات مفحمة. اخيراً تهدده البابا بقصاصات المجامع المسكونية ضد العصاة ان لم يمتثل. لكن مرقس لم يرعهُ تهديدُ ولا وعيد بل اجاب البابا بكل سكون وطلاقة فقال «ان المجامع انما حكمت على الذين لم يخضعوا للكنيسة وكانوا يخالفونها في رأيٍ ينادون به ويجاهدون في سبيله. ولذا كانت (المجامع) تسميهم هراطقةً (مبتدعين) وكانت اولاً تحكم على بدعتهم ثم تحكم على الذين يقبلونها. اما انا فلا انادي برأيٍ خصوصي ولا احدثت تعليماً جديداً ولا دافعت عن عقيدة غريبة رديئة ولكنني انما انا محافظ على نفسي في التعليم النقي الذي استلمته الكنيسة من المسيح مخلصنا ولم تزل الى الآن متمسكة به وكانت الكنيسة الرومانية المقدسة تتمسك به مع كنيستنا الشرقية قبل الانشقاق. وهذا التعليم القديم نفسهُ كنتم قبلاً تمدحونه دائماً وقد مدحتموه مراراً في المجمع الحاضر. وليس من يستطيع ان يطعن فيه او يعيبهُ بشيء. فاذا كنت انا متمسكاً به ولا اريد ان ازيغ عنه فكيف يمكن ان يحكم عليّ بالحكم الذي يحكم به على الهراطقة؟ او من من الذين يعلمون تعليماً صحيحاً وتقوياً ويرضى ان يعمل عملاً مثل هذا ضدي؟ لانه يجب اولاً ان يحكم على الاعتقاد الذي اعتقدهُ. فان كان هذا الاعتقاد حسناً ومستقيماً كما يعترف الجميع فكيف اكون مستحقاً الحكم؟» وقد قال مرقس اقوالاً كثيرة مثل هذه للبابا ومجمعه. اما البابا فلما سمع اقواله اطلقهُ لانه علم انه لا يستطيع البتة ان يزعزعه(١).

(١) سيرو ١: ١٥ ــ ١٦ قال المؤرخ دوكا وهو من أصحاب اللاتين: ان مرقس في هذا الموقف يدعى بحق «قانوناً وميزاناً لا يبارى» فصل ٣١.

ولكن كما ان البابا كان يلطم رياحاً هكذا القيصر كان يدق ماءً. فانه ارسل الى البابا يقول: ان السلام قد استتب الآن فضرورياً اذاً ان تحدد ابرشيات كلٍّ من الكنيستين وترجع كما كانت قبل الانفصال. ولو تم هذا الامر لوجب على البابا ان يرجّع البطريرك القسطنطيني الكنائس التي استولى عليها اللاتين على طريق التعدي في كركيرا وكريت وغيرهما وبعض ابرشيات المطارنة* ثم طلب القيصر ايضاً بناءً على طلب مطارنة مونمباسيا ورودس ومدلّه وغيرهم ان يرحل الاساقفة اللاتين عن هذه الابرشيات. وكان المطارنة المرسلون الى البابا يقولون له «ان الكنيسة الرومانية المقدسة يجب عليها ان تحافظ على القوانين الالهية الشريفة وتعمل بمقتضى نصوصها. فالقوانين تمنع اقامة اسقفين على اسقفيته واحدة وتمنع ايضاًان يعمل الاسقف شرطونية في ابرشيةٍ غير خاضعة له». اما البابا فلم يجب القيصر بشيء عن ارجاع الابرشيات. واما عن سحب الاساقفة اللاتين فاجاب بما يأتي «ان الكنيسة صارت الآن بنعمة الله واحدة. فلا انتم تعتقدون غير ما نعتقد نحن ولا الاساقفة الذين قلتم عنهم يعتقدون او يرون خلاف ما تعتقدون انتم وتعلّمون. ولذا ليس امراً ضرورياً ولا سهلاً ان نخرجكم من الكنائس التي في حوزتكم او نخرج رجالنا منها. لكنا نقول ان تلبثوا في مثل هذه الاسقفيات مع اساقفتنا الذين فيها. فان توفي الاسقف اللاتيني اولا فلتبق للرومي وحده اسقفيته كل مدة حياتهِ وبعد وفاتهِ ترجع الكينسة الشرقية وتشرطن غيره وهلّم جرًّا على هذا الوجه. وان توفي الاسقف الرومي اولاً فلتبقَ الاسقفية للاتيني وحده على الوجه السابق ويعمل البابا اسقفاً غيره وهلّم جرًّا»[1]. غير ان هذا القرار لم يكن غير كافئ لمطالب الشرقيين فقط بل القى في قلوبهم الخوف والحذر. ومع كل ذلك لم يتجاوز حد الكلام اسوةً بغيره.

ولكن الاحوال في مجمع باسيليا ازدادت حراجة. فقد ذكرنا قبلاً ان هذا المجمع كان ربط البابا عن كل خدمة دينية الى ان يصدر قراراً آخر بحقه وانه كان هو والبابا يفرزان ويلعنان احدهما الآخر. ولما كانت المدة التي عينها ميعاداً لانتصاح البابا قد مضت ومضى غيرها ايضاً عقد جلسةً في

٢٥ حزيران سنة ١٤٣٩ (وهو يوم آخر المخابرات في فلورانسا قبل الاتحاد) وايد فيها القرار السابق بان المجمع المسكوني اسمى من البابا وقرر عزل البابا اوجانيوس وقطعهُ. غير ان ملوك اوربا وخصوصاً امراء جرمانيا لم يوافقوه على ذلك بل رأوا في ذلك جسارةً زائدة. فكتب المجمع رسائل الى الملوك والامراء اظهر بها مقاصد البابا الغير الحميدة وكان في جملة ما قال قوله «ألعلكم لا ترون ما يعمله الاسقف اوجانيوس كل يوم ليهدم الاعمال التي نحن بدأناها لأعادة السلام واصلاح الكنائس هدماً اساسياً؟ او لعلكم تجهلون انه اذا حُلَّ حسب ارادته هذا المجمع الذي بدأ بداءةً شرعية لا يُعقد فيما بعد مجمعٌ غيرهُ وان البابا انما يطلب هذا الغرض بواسطتكم ليخرب في لحظة واحدة كل ما كان يُبنى في سبيل خلاص العالم كلهِ؟ فيا ابناءنا الحكماء لا تطلبوا منا ما لا يتعلق بنا. لأنه لا انتم يحق لكم ان تطلبوا ذلك ولا نحن يليق بنا ان نتسامح فيه. فنحن مديونون الملاحظة لكي لا تحتقر سلطة الكنيسة المسكونية بل بالعكس لكي تحفظ بكل كمالها لأنها ممنوحة لها من الله. اما الاسقف اوجانيوس فقد تعدَّى على هذه السلطة اذ افتكر ان يحل المجمع على غرة. أفيمكنُنا اذاً ان نلبث غير مكترثين لمشروع مضر للكنيسة كل هذا الضرر اذا كنا لا نريد ان نشترك نحن ايضاً فيه؟ فاذا ترك البابا الآن بلا قصاص من يستطيع ان يقاومه بعد الآن ولو كان من اجل الاعيان؟ او هل يكون الجميع مديونين ان يخضعوا الواحد ويستسلموا الى ارادتهِ؟» هذا ما جاوب المجمع بهِ امراء اوربا. اما البابا فعقد جلسة في ٤ ايلول مؤلفة من ٧٠ اسقفاً ونيف قرر فيها ان كل الآباء المجتمعين في باسيليا محرومون من الكنيسة واصدر منشوراً تهدد به كل اهالي مدينة باسيليا بالحرم ان لم يقوموا على ذلك المجمع ويطردوه منها. حينئذٍ عقد مجمع باسيليا جلسته الرابعة والثلاثين في ١٧ ايلول قطع فيها البابا قطعاً تاماً وعزله وانتخب بدلاً منه اماذيوس الاول دوق سابوئيا (سابوي) قبلاً وكان وقتئذٍ متوحداً عائشاً مع بعض الاشراف في البرية في محل اسمه ريبالّز على بحيرة ليمان[1] وسامه بابا وسماه عند الشرطونية فيلكس

(١) موسهيم ٣: ١٥: ٢: ٢ و ١٢

الخامس. قيل ان هذا البابا سئل قبل شرطنته: هل يمكن ان يشرطن بابا شخص عاش قبلاً مع امرأة؟ فاجاب انه يمكن ان يشرطن بابا شخص كان ولم يزل عائشاً مع امرأة. اما شرطنته هذا البابا فقسمت الكنيسة الغربية الى قسمين ببابوين ومجمعين كلٌّ منهما يدَّعي انه مسكونيٌّ ويلعن الآخر ويحرمه. قال احد المؤرخين الغربيين: ولكن ما دامت هذه تصرفات البابا ونواياه نحو شعبه واهل بيته واساقفة كرسيه كيف نصدق انها كانت افضل منها نحو الشرق واساقفته؟(١).

هكذا كانت الاحوال لما ترك الشرقيون البابا واخذوا يرجعون الى بلادهم. وقد تخلف عنهم ايسيدوروس وبعض الاساقفة فحضروا المجمع الذي فيه حرم البابا مجمع باسيليا.

وفي ١٨ من شهر كانون الاول اراد البابا ان يكافئ بيصاريون وايسيدوروس فانتدبهما كردينالين وعين ايسيدوروس قاصداً رسولياً في جهات بولونيا وليثوانا وليبونا وروسيا اما اساقفة الشرق الآخرون فكانوا قد بدأوا في الرحيل من شهر تموز وكان الراحلون مجبورين ان ينتظروا القيصر في البندقية (فينيسيا). ففي ٢٦ آب سافر القيصر ايضاً ومعه مرقس. وكان القيصر يحترم هذا الاسقف بسبب ثباته ويحتفظ عليه من تعديات اللاتين لان نواياهم له وللدسبوت ديمتريوس أخي القيصر كانت شريرة وموجهة الى الفتك بهما لمقاومتهما غاياتهم(١). وقد زوَّد البابا القيصر بالبركات ووعده بان يرسل عمارةً وجنوداً الى القسطنطينية وأرسل معه للوداع ثلاثة كرادلة وعدداً وافراً من الاشراف الى حدود تسكانيا. وبعد ١٢ يوماً وصل القيصر الى البندقية في ٦ ايلول.

وقبل وصول القيصر اليها كان متروفانس مطران كيزيكوس احتفل قداساً في احد اديرتها ذكر فيه البابا. غير ان المطارنة الآخرين والدسبوت ديمتريوس لاموه ووبخوه على ذلك. ثم ان دوق البندقية اقترح على القيصر

(١) فلوري ١٠٢: ٨٧ ــ ٩٢.

(٢) سيرو سيرو ١: ٢

احتفال قداس شرقيٌّ ليحضره ويراه. فطلب القيصر من مطران هرقلية ان يحتفل قداساً وبالجهد العظيم اقنعه ان يجيب طلبه. فخدم في كنيسة القديس مرقس. ولكنهُ لم يخدم الاَّ على انديمنسيّ شرقيٍّ وبآنيةٍ كنائسية شرقية ولم يذكر البابا في القداس. وأما دستور الايمان فتلي من دون الزيادة(١).

ثم ان القيصر واخوه والاساقفة وسائر الشرقيين سافروا الى القسطنطينية في ١٩ تشرين الاول سنة ١٤٣٩ ولكن لا على عمارة البابا كما جاؤوا الى بلاده بل على سفن تجارية دنيئة (مراكب شحن) ومن بعد سفر مائة وخمسة ايام بمشقات وعذابات في البحر وغياب سنتين عن الاوطان وصلوها في اول شباط سنة ١٤٤٠ وكان اول خبر سمعوه فيها وفاة زوجة القيصر وزوجة اخيه ديمتريوس في غيابهما(٢).

(١) سيرو ١١: ١ ــ ٤ هذا المبدأ اعني المحافظة على عقائد الكنيسة وعدم خرق حرمة الدستور المقدس جرى عليه اخوتنا الروم الكاثوليك مدة طويلة بعد تركهم الكنيسة الارثوذكسية وانضمامهم الى كنيسة رومية. فانهم حافظوا على كل العقائد والعادات ولم يقبلوا من كنيسة رومية سوى الاعتراف برئاسة البابا فقط احتماء به بعد نبذهم الطاعة لرؤساء ذلك العصر لاسباب لا محل لها هنا. وقد أطلعنا على نسخة قديمة من سواعي الصلاة محفوظة عند عائلة المرحوم جرجس زاخر في الاسكندرية ومكتوبة بخط المرحوم مرقس باسم قسيس ابن درغان من قرسة كغيرهم القاطن في حلب سنة ٧١٧٠ للخليفة (سنة ١٦٦٢ ميلادية) وهي النسخة التي كان يستعملها على ما قيل لنا المغفور له الشماس عبد الله زاخر احد زعماء الكتلكة في سوريا واعظم اركانها وفيها دستور الايمان بدون الزيادة. فما افضل هذا المبدأ لو ثبت عليه الى الآن اخوتنا الكاثوليك وكم كان ينفع لرجوع اتحاد الطائفة في سوريا كما كانت قبل الانفصال؟ ومع ذلك قد عثرنا على بعض نسخ مطبوعة من كتب الصلاة لهم ولم نجد فيها دستور الايمان الا بالاشارة هكذا «وتقول نؤمن باله الخ» مع اننا متأكدون انهم الآن يقولونه مع الزيادة مثل اللاتين. فكيف نفسر هذا الامر حتى لا نقول ان كاثوليك هذه الايام غير كاثوليك ايام المرحوم عبد الله زاخر؟ والا فلا يبعد ان يكون كاثوليك الغد غير كاثوليك هذه الايام وهذا ما يسعى اليه باباوات الغرب كما لا يخفى على كل شرقي بلا استثناء. نسأله تعالى ان يزيل حاجز الشقاق وينعم بالاتحاد والوفاق انه لسميع الكريم.

(٢) سيرو ١١: ٥ ــ ١٠

وكان الشعب الارثوذكسي القاطن مدينة القسطنطينية ينتظر بفروغ صبر قدوم القيصر والاساقفة ليقفوا على نتيجة سفرهم. ولذا ما وصلت السفن الى المدينة الا وبادر الجمهور الى الاساقفة يسألونهم «كيف اموركم؟ كيف حالة المجمع؟ ألعلنا ظفرنا برغائبنا؟» فالذين منهم وافقوا على الاتحاد غصباً او لاسباب اخرى لم يخفوا حقيقة الواقع لان ضميرهم كان يبكتهم. واذ وجدوا الآن احراراً في ارضهم ووطنهم وبين الارثوذكسيين كانوا يجيبونهم بقلب كسير «اننا بعنا ايماننا وابدلنا الايمان الحسن بالردي لأننا خُنا الذبيحة الطاهرة وصرنا من ذوي الفطير. هذه اليمين امضت (الصلك) فلتقطع. هذا اللسان اعترف (به) فليقلع»[1]. وكان في مقدمة هؤلاء الاساقفة انطونيوس مطران هرقلية اكبرهم سناً* فلما سمع الارثوذكسيون هذه الاقوال اضطربوا واي اضطراب واخذوا يتجنبون كل علاقة مع اعضاء المجمع ومع الذين بخالطونهم. اما الاكليرُس فلم يرضَ ان يخدم معهم ولا مع الذين ندموا منهم واعترفوا بانهم أُجبروا وغصبوا على الاتحاد. وكثيرون منهم ابوا ذكر القيصر ايضاً في الخدم[2].

اما القيصر فلانه كان قد رجع مشمئزاً من معاملة البابا له ولرجاله وبسبب موت زوجته زادت عليه الاحزان. فلما رأى ايضاً هياج الشعب ضده زاد قلقهُ واضطرابه وترك الامور الكنائسية مدة ثلاثة اشهر. اخيراً اصدر امراً بانتخاب بطريرك لان احوال الاكليرُس كانت من يوم الى يوم تزداد اختباطاً. ولكن انتخاب البطريرك لم يكن من الامور السهلة. لان المنتخب اما ان يكون من مريدي الاتحاد فلا يرضي الشعب او من الارثوذكسيين فلا يرضي حزب الاتحاد ولا القيصر الذي وان كان يمقت الاتحاد قلبياً الاّ انه لم يرَ موافقاً ان يتظاهر بمقاومته. ففي اول الامر اعرضوا المراكز على مرقس الافسسي فلم يقبل حتى لا يُجبر على قبول الصلك. ومن ثم رشحوا ثلاثة من الذين امضوا صلك الاتحاد وهم انطونيوس مطران هرقلية وذوروثاوس مطران

(١) تاريخ دوكا صفحة ٢١٥ (٢) سيرو ١٢: ١ و ٢

طرابزون ومتروفانس مطران كيزيكوس. ولكن الاثنين الاولين ابيا القبول لانهما رفضا الاتحاد البابوي. حتى ان انطونيوس الشيخ قام في المجمع وقال للاساقفة «اني لم أحضر الى هنا للانتخاب بل لكي اقول للمجمع ما اريد. فالآن اقول اني فعلت انا ايضاً فعلاً اثيماً لاني امضيت (على الصلك) ولكني أُجبرت. فيجب ان تقطع هذه اليد الذي امضت. على اني في حوادث فلورانسا لم اوافقكم برأيي انتم الذين رغبتم الاتحاد كما تعلمون ولا رغبت الحادث من حيث انه صحيح ولا قبلته باختياري. ولكن وان كنت لا اريده فلا اعلم كيف امضيت عليه. وعلى كل الاحوال أعتقد ان ما فيه مخالف لتسليم ربنا يسوع المسيح وغريب عن كنيستنا. ومن ذلك الوقت انا حزين من مناخس سهام ضميري ومتثقل كأن حملاً عظيماً يضغط عليَّ وكنت افتش على وسيلةٍ ازيحهُ بها عني. اما الآن فاني احمد الله على انه اهلني ان اراكم مجتمعين واقول ما كنت اريد والقي عني الاثقال في الحال. ومن ثم اقول اني ارفض الاتحاد والتحديد (الصلك) ولا ارغبه او بالحري لم ارغبه. واكره ما فيه من التعاليم لأنها لا توافق ولا تنطبق على التسليم القديم تسليم كنيستنا الجامعة المقدسة. واقدم نفسي للكنيسة بصفة مسؤول لأني امضيت حيث لم يكن مسموحاً (ان امضي)»[1]. حينئذ امر القيصر فوجهوا انظارهم الى متروفانس مطران كيزيكوس. فسالوه اولاً: هل انت راضٍ بالاتحاد؟ فأجاب « من حيث اننا نحن عملنا الاتحاد يلزمنا نحن قبل كل واحد ان نكون راضين به واقول اني راضٍ به». فمدحه اصحاب الاتحاد وبناءً على طلب القيصر كتب على نفسه صكاً بانه يبقى عاضداً الاتحاد. ثم انتخبوه بطريركاً بحضور الاسقف اللاتيني. وكان انتخابه بحسب الظاهر بالقرعة وفي الحقيقة بالحيلة لانهم وضعوا ورقتين ففي الواحدة كتبوا «متروفانِس» وفي الثانية «مطران كيزيكوس» فكان اسمهُ في الاثنتين. وكان ذلك في اسبوع الاعمى (بعد الفصح). وقد شرطن في ٤ ايار سنة ١٤٤٠.

(١) سيرو ١٢: ٣

غير ان مطراني هرقلية وطرابزون لم يريدا ان يحضرا الجلسة التي انتخب فيها بطريركاً[1] وكذلك الشعب استاء من انتخابه استياءً عظيماً وخصوصاً لما رأوا الاسقف اللاتيني ملازماً له بعد الانتخاب عند رجوعه من البلاط الى دار البطريركية حتى انهم لما كان يبارك في تلك الحفلة بعضهم كانوا يقبلون بركتهُ بكل اشمئزاز وبعضهم كانوا يديرون له ظهورهم. ومن جملة النوادر التي حصلت وقتئذٍ كانت النادرة الآتية نوردها نقلاً عن تاريخ سيروبولوس وهي «اراد احد الكهنة ان يرى كيف يصير ترشيح البطريرك وكان اسمه ثاوفيلا كتوس. فاستعار فرساً (لانه لم يكن عنده فرس) وجاء الى البلاط وبعد ان حضر الترشيح رجع معنا الى دار البطريركية. ثم رجع الى بيته. وعند ميعاد صلاة المساء قرع الناقوس. وكانت ليلة عيد الصعود. فلم يأتِ احد الى كنيستهِ. وكذلك حصل في الصباح فلم يحضر احد. فانتظر الى وقت القداس ليأتيهُ احد بقربانة فلم يأتِ. ولذا لم يخدم القداس بل اغتاظ وذهب الى الذين لهم عادة ان يصلُّوا في كنيستهِ وسألهم: لماذا لم يحضروا الى الكنيسة واليوم يوم عيد؟ اما هم فقالوا له: لأنك انت ايضاً تبعت البطريرك وتليتنت. فقال لهم الكاهن: وكيف تليتنت؟ انا انما ذهبت على بسيط الحال لأرى النظام فقط لأني لم أرَهُ قبل الآن. فلم ألبس ولم ارتل ولا عملت عملاً كنائسياً البتة. فكيف تليتنت؟ فقالوا له: لكنك اختلطت مع المتليتنين ومشيت معهم امام البطريرك المتليتن ووصلت اليك بركته. حينئذٍ اخذ يسترضيهم ويعدهم بالاقسام انه لن يذهب الى البطريرك ولا الى الذين يقتربون منه وبالجهد امكنه ان يقنعهم ليرجعوا ويصلُّوا في الكنيسة». قال المؤرخ نفسه«انَّا وان نكن أضفنا هذا الحادث الى التاريخ كأنه للفكاهة لكن من اراد يستطيع ان يستدل منه اي ميل كان للشعب المسيحي هنا الى عقائد الكنيسة الصحيحة وكيف انه يبغض التعاليم الفاسدة الغريبة ويمقتها».

(١) وقد ذكر جدعون انه وضع معه في الانتخاب اثنان آخران ذوروثاوس مطران طرابزون وجناديوس رئيس فاطوبيدي في الجبل المقدس ولكن متروفانس فضل لقبوله الاتحاد (صفحة ٤٦٥).

على ان المطارنة ايضاً لم يريدوا ان يشتركوا معه في الخدمة يوم خميس الصعود بل اكثرهم امتنعوا عن الخدمة معه. ومما ذكروه في نوادره انه فيما كان يشرطن مطراناً عل شيرسون (وهي اول شرطونية عملها) اعطى الانجيل المقدس للمشرطن. فلما فتحه وجدت امامه بطريق الصدفة هذه الآية «فاذا كان اعمى يقود أعمى أفلا يسقط الاثنان في حفرةٍ؟» فهذا الحادث كان من جملة ما صار موضوع حديث القوم وقتئذٍ عنه. على ان القيصر عزم ان يجبر مطراني افسس وهرقلية على الخدمة معه يوم العنصرة في ١٥ ايار. فلما علما بمقصدهِ اركنا الى الفرار خفية. وكثيرون غيرهم من رجال الاكليرُس والوظائف استعفوا من مراكزهم وخدمهم في البطريركية منهم الخارطوفيلاكس ميخائيل بلصامون والاكليسيارشيس سيلبستروس سيروبولوس رغماً عن تحريضات القيصر لهما. حينئذٍ اخذ القيصر ان ينتبه في سلوكه اكثر من ذي قبل. وخصوصاً لأن أخاه ديمتريوس الذي كما رأينا كان مقاوماً للاتحاد اغتنم الآن فرصة اشمئزاز الشعب منه وقام صده علانية. ولكن هذا الانتباه الذي كانت نتيجته التقصير في مساعدة انصار الاتحاد كان سبباً لكدر البابا والبطريرك من القيصر حتى ان البطريرك تهددهُ بالاستعفاء اذا كان لا يساعده على اصلاحِ الكنيسة يعني على تأييد البدع اللاتينية. فاضطر القيصر حينئذٍ ان يجيب طلبهُ ومن ثم اخذ البطريرك يستعمل كل واسطة لتأييد تلك البدع. فكان في كل ابرشية خالية يشرطن اسقفاً من الموافقين له. وأخيراً لما تصالح القيصر وأخوه اصر على طلب الاتحاد الكامل وعزم ان يعقد مجمعاً لتقريرهِ. ولكن بينما كان الاساقفة يأتون الى العاصمة لعقد ذلك المجمع توفي في ١ آب سنة ١٤٤٣. وقد كان موت هذا البطريرك عبرة لأنه حدث على اثر الحكم المخيف الذي اصدره ضده البطاركة الثلاثة الشرقيون واليك البيان:

فان البطاركة الشرقيين الثلاثة فيلوثاوس الاسكندري وذوروثاوس الانطاكي ويواكيم الاورشليمي كانوا قد علموا من رسالة البطريرك يوسف دسائس البابويين ضد الكنيسة. ثم اخذوا رسائل من البابا بها يعلنهم اتمام

عمل الاتحاد ويدعوهم الى الانضمام اليه ولكنه لم يرسل اليهم نسختهُ. اما هم فقد وقفوا عليها من الذين رجعوا من فلورانسا. ومن ثم اجابوا البابا بانهم يرضون بالاتحاد اذا كان هو ايضاً يرضى بتقاليد المجامع المسكونية وقوانينها والاّ فلا يقبلون المجمع ولا يذكرون البابا بل يقاصون الذين وافقوا عليه فيقطعون الاكليريين ويحرمون العلمانيين منهم. ثم انهم كتبوا الى القيصر ما يأتي «اذا كانت (ملوكانيتك) بالنظر الى ضعف امتنا ضعفاً تاماً والى اضطرارك لهذا السبب اضطراراً شديداً لجأت (الى البابا) لتحصل على مساعدة وافتكرت بتدبير آخر يساوي ذلك ... ثم انك ترفض الآن شعوذات اولئك (البابويين) واقوالهم الكفرية وتعترف بالتسليم الصحيح الذي في الدستور الالهي وبكل الكتب الالهية وترضى وتقتنع به بلا ارتياب كما كان كل الملوك القياصرة المؤمنون الذين سبقوك فحينئذٍ نحن ايضاً مستعدون ان لا نكتفي باقامة ذكر ملكك المحبوب بل مستعدون ايضاً ان نقدم الى الله ابتهالاً دائماً لا ينقطع من اجل دولتك وعلى الخصوص من اجل نفسك ... واما اذا كنت تبقى على تعاليم الغرباء وتطيقها فلا نكتفي بان نقطع ذكر دولتك بل نضيف الى ذلك ثقل القصاص لكي لا يدخل في كنيسة المسيح فساد العقيدة الغربية المضرة. فنحن دُعينا رعاة للايمان الحسن. فلا نطيق اذاً ان نرعى كنيسة الايمان الحسن. بمثابة أُجراء ولا نسفق على النفس والدم اكثر مما عليها بل نحن مستعدون ان نبذل من اجل المسيح والانجيل النفس والجسد والدم وكل شيء نملكه على الارض[1].

ثم ان البطاركة الشرقيين الثلاثة عقدوا مجمعاً في اورشليم. واذ علموا من ارسينيوس مطران قيصرية ان البطريرك القسطنطيني متروفانِس شرطن اساقفة من مذهبهِ حكموا عليهم بانهم عارون من الكهنوت الى ان يفحص اعرافهم فحصاً مجمعياً. وكتبوا رسالة مجمعية قالوا فيها

(١) الآتيوس في المجامع صفحة ٩٤٢ ـ ٩٤٥ وتاريخ هذه الرسالة كان شهر

«ان متروبوليت قيصرية الكبادوك اوضح كل الامور المكدرة التي جرت في القسطنطينية من اجل المجمع النجس الذي اجتمع في فلورانسا الايطالية والذي وافق البابا اوجانيوس على تعاليم اللاتين الغير الجائزة ... وكيف ان متروفونوس[1] مطران كيزيكوس خطف كرسي القسطنطينية خطف لصٍّ ويوزع على شركائه في الرأي لا كراسي الكنيسة العظيمة المقدسة. كنيسة القسطنطينية فقط بل كراسي الشرق ايضاً. وعليه نحدد نحن مجمعياً كلنا معاً باسم الثالوث القدوس المتساوي الجوهر عنصر الحياة الغير المنقسم ان يكون جميع المطارنة والاساقفة والباقين الموظفين من متروفانِس مربوطين وعارين من الكهنوت في كل خدمة دينية وحالة كنائسية الى ان يفحص حسن الايمان فحصاً عمومياً ومسكونياً. وان قاوموا وخالفوا مخالفة لصوص وخرقوا الشريعة فليكونوا محرومين وغرباء عن الثالوث القدوس الفائق والمتساوي الجوهر بسبب عصيانهم ومخالفتهم»[2]. وقد كلفوا ارسينيوس نفسه ان يعمل بقرارهم هذا وينشره في كل الشرق ويعلن الحقيقة للجميع ويوبخ ويصلح كل الذين لا يعتقدون اعتقاداً مستقيماً.

وقد ذكر ذوسيثاوس بطريرك اورشليم في تاريخهِ ان عاهل السرب لم يرسل نواباً الى مجمع فلورانسا ولم يقبل تحديداته. ان امير الفلاخ والبغدان رفضها ايضاً بعد رجوع سفرائه ومثلهُ عمل ملك طرابزون وملك بلاد الكرج وجميع رعاياهم المسيحيين.

اما كنيسة روسيا فقد برهنت باستقامة سلوكها انها ابنة حقيقية للكنيسة الشرقية تفتخر الارثوذكسية كلها بها. فان مطرانها ايسيدوروس الذي كان من اعظم انصار الاتحاد بعد ان حصل بالاحتيال وبواسطة البابا على مركز رئاسة البلاد الروسية روحياً لما رقاه البابا الى رتبة كردينال

(١) كلمة متروفانِس معناها: الظاهر من امه. ومتروفونوس معناها: قاتل امه. وهذا الاسم حرف اليه شعب القسطنطينية اسم البطريرك «متروفانِس» ايضاحاً لقيامه ضد امه الكنيسة الارثوذكسية (٢) ملاتيوس ١٥: ٩: ١ وتاريخ هذه

كما تقدم رجع الى روسيا بلقب القاصد الرسولي في كل البلاد الشمالية آملاً بانه يسحب مسيحيي تلك البلاد الى غرضه. فلما وصل الى اودينو عاصمة بلاد المجر ارسل رسائل الى الابرشيات الخاضعة له في بلاد ليثوانيا وروسيا وليبونيا بشر بها البابويين والارثوذكسيين باتحاد الكنائس الذي تم في ايطاليا. وقد كتب اليهم في ما كتب يقول « اما انتم ايها المسيحيون الصالحون التابعون كنيسة القسطنطينية فاقبلوا بفرح واكرام روحيٍّ. هذا الاتحاد المقدس. وارجوكم ان لا تنقسموا في شيء عن المسيحيين الرومانيين. واما انتم ايها اللاتين فلا تجتنبوا الاروام الذي عرفتهم رومية مسيحيين حقيقيين. بل صلُّوا في كنائسهم وهم في كنائسكم واعترفوا بخطاياكم امام كهنتهم وكهنتكم بلا فرق. تناولوا جسد المسيح من الجهتين لأنه مقدس سواء كان بفطير او بخبز خمير وهكذا قرر المجمع الذي عقد في فلورانسا». ــ وقد كان ايسيدوروس آملاً ان يلقى نداؤه صدًى في ليثوانيا اكثر من كل جهة غيرها غير ان كازمير اميرها العظيم كان صديقاً لمجمع باسيليا وللبابا فيلكس عدو البابا اوجانيوس[1] ــ وفي مدينة كيّف طردهُ الامير الكسندروس طرداً ــ . ثم جاء الى موسكو سنة ١٤٤١ مصحوباً برسالة رقيقة من البابا الى الامير الكبير. فاجتمع الاكليرُس والشعب في كنيسة السيدة ينتظرون وصوله. وبعد برهة وصل ودخل الكنيسة وحوله عدد عديد من الموظفين وامامه صليب لاتينيٌّ. واذ كان عالماً ببساطة الشعب الروسي باشر عمل الاتحاد بجسارة اكثر من جسارة اصحابه في القسطنطينية. ففي خدمة القداس ذكر البابا اوجانيوس. وبعد القداس صعد الارشيديا كون الذي معه الى المنبر وتلا صك الاتحاد. فالحاضرون اندهشوا جميعهم حينما سمعوا ما فيه من التعاليم الحديثة ولم يدروا ما يقولون. ولكن الامير العظيم باسيليوس باسيلو فيتش الملقب تيمنوي (اي

(١) صفحة ٢٠٩

المظلم لانه كان فاقد البصر كان رجلاً ذا غيرةٍ متقدة على تعليم الكنيسة النقي فلم يسعه الا ان يوبخ ايسيدوروس في الكنيسة توبيخاً علنياً لخروجه عن الرأي القويم. وقد سماهُ بصريح العبارة راعياً كاذباً مبيداً للنفوس هرطوقياً ومن ثم امر ان ينزلوه عن الكرسي لأنه لا يستحق منصب المطرانية وان يحجز عليه في دير تشودوف. ثم دعا الاساقفة واشهر رجال الاكليرُس ليعقدوا مجمعاً ويفحصوا تحديد مجمع فلورانسا. ففحصوه وحكموا بأنه مخالف لتعليم الكنيسة القديم ووقفوا من ابراميوس تابع ايسيدوروس على تفصيل ما جرى في فلورانسا حينئذٍ امر الامير الكبير ان ينصحوهُ ليندم على ما فعل. ولكنه لم ينتصح بل اقام كل مدة الصيف في الدير. وفي الخريف فر من موسكو الى تويري آملاً في الحصول على استقبال افضل من هذا. غير ان اميرها ايضاً القاهُ في سجن. ثم فرَّ من هناك الى نوبوغوردون في ليثوانيا ومنها رجع الى رومية ليخبر البابا عن فشله وفشل مجمع فلورانسا في روسيا ــ ومن بعد عزل ايسيدوروس دعا مجمع روسيا باتفاق الاصوات المتربوليت يونان الى رئاسة كنيستها فرعى تلك الكنيسة بكل صلاح وتقوى الى ان توفي. ولم يزل جسدهُ محفوظاً بلا فسادٍ في كنيسة موسكو الكاثذرائية تمجدهُ العجائب الكثيرة التي تفيض منه للمؤمنين وتوطدهم في الايمان المستقيم كما تسلموه من الكنيسة الشرقية.

على ان مرقس ايضاً وان كان قد استولى عليه الضعف الشديد بسبب امراضه وشيخوخته واتعابه كانت روحهُ نشيطةً. ولذا لم يفتر مدافعاً عن الارثوذكسية. فكان ينشر رسائل الى المسيحيين في كل جهة يحرضهم بها على نبذ مجمع فلورانسا ويصور لهم شناعة امتزاج القديم بالجديد والارثوذكسية بالهرطقة التي يدخلها المتليتنون من الشرقيين ويشرح لهم اعتراف ايمانهِ مستنداً ومبنياً على تعليم الكنيسة النقي والخالي من كل شائبة. وكانت قوة اقواله تؤثر تأثيراً قوياً لا على البسطاء والعامة فقط بل على العلماء والخاصة ايضاً حتى ان بعضهم صاروا يساعدونه في عملهِ هذا نخص منهم بالذكر العلامة جاورجيوس سخولاريوس الذي كان في بادئ

الامر ميّالاً الى الاتحاد وقد حرّض عليه بثلاثة خطب القاها في فلورانسا. ولكن مرقس وبخه برسالةٍ على جبانتهِ هذه واقنعه بتغيير خطتهِ وثبته في الحقيقة الارثوذكسية ولم تزل الرسالة محفوظة الى الآن. ومن ثم لم يكتف بانهُ سافر من فلورانسا قبل امضاء صك الاتحاد كما تقدم. بل صار من اعظم المدافعين عن الكنيسة ومن اعظم المساعدين لمرقس في القسطنطينية. وقد ترك ٢٧ مؤلفاً ضد تعاليم اللاتين الدخيلة. وقد شهد ميخائيل بلصامون في عريضتهِ الى القيصر(١) انه لم يكن احد من الارثوذكسيين يرضى ان يدخل في جدالٍ مع المتليتيين بدون مرقس احتراماً له واعترافاً بفضله. ثم ان كثيرين ايضاً غير مرقس وسخولاريوس قاوموا الاتحاد قولاً وكتابة. منهم يوحنا اوجينيكوس اخو مرقس فانه كتب ردًّا مطولاً «على صك الاتحاد الكاذب المجدف». وسلبستروس سيروبولوس. (او سغوروبولوس) الذي كتب تاريخ المجمع من غير ان يستر له عيباً. والفيلسوف اميروتسي الذي كتب الاسباب التي اجبرت الشرقيين على الاتحاد. والفيلسوف جاورجيوس جيمستوس (بليثون) الذي دافع في المجمع عن الارثوذكسية كما رأينا فأنه كتب دفاعاً عن الاعتقاد المستقيم في انبثاق الروح القدس. وثاوذوروس اغاليانوس ياروميمون (مدير التسجيل) كتب ثلاث رسالات ردًّا على عقائد اللاتين.

هكذا ارتفعت من كل جهة اصوات الارثوذكسيين ضد هذا الاتحاد الفاسد. فلما بلغ هذا الحال مسامع البابا ارسل الى القسطنطينية علماء غربيين ليباحثوا علماء الشرقيين في مواضيع الخلاف ويقنعوهم في الانضمام اليه ولكنهم لم يستفيدوا شيئاً من ذلك لأنهم وجدوا من مرقس وغيره تسديداً وافياً لكل موضوع بحثوا فيه.

على ان القيصر وأنصار الاتحاد كانوا مقيمين على عهد البابا. ولكنه

(١) آلاتيوس في المجامع صفحة ٩٢٤

كان دائماً يحاذر جارهِ السلطان مراد الثاني حتى انه لم يرَ بدًّا من تطمينه بان سفره الى الغرب لم يكن لامور سياسية بل لحل مسائل دينية(١) وطلبهِ البقاء على الصداقة والاخلاص وحفظ السلام بين المملكتين. فأجاب السلطان طلبه* وكانت الحروب في هذه المدة منتشبة بين السلطان مراد وامير الصرب جورج برانكوفيتش. ففي شهر نيسان سنة ١٤٣٩ طلب جورج من آلبيرت النمساوي ملك المجر مساعدتهُ على السلطان. وكان آلبيرت نسيباً لسيجمند قيصر جرمانيا زوج ابنتهِ اليصابات وكان عندهُ قائد يعتمد عليه اسمهُ يوحنا هونياد (وهو المعروف باسم يانكو عند الاتراك) وكان ابناً غير شرعي لسيجسمند نفسه. ولا سباب داخلية لم يستطع آلبيرت ان يجر لمساعدته اكثر من ٢٤ الف جندي بعد ان كان السلطان فتح قلعة سيمندريا (اي القديس اندريا) وشرع في حصار بلغراد. ثم مات آلبيرت ولم يترك سوى جنيناً في بطن امه فصار لادسلاس الثالث ملك بولونيا ملكاً على المجر في ٢١ شباط ١٤٤٠. وفي ٢٢ منه ولدت اليصابات غلاماً فدعته لادسلاس ايضاً. فارسل لادسلاس ملك المجر القائد هونياد ضد السلطان مراد فاضطره الى رفع الحصار فعينه لادسلاس حاكماً على ترانسلفانيا وعلى كل بلاد جنوبي المملكة وجعل مركز اقامتهِ مدينة بلغراد. وفي سنة ١٤٤١ شرع السلطان في محاربة بلاد المجر وترانسلفانيا. فحاربه هونياد في موقعتين بقرب سمندريا وهرمنستاد كان الظفر فيهما له. فلما بلغ السلطان ذلك ارسل قوة عظيمة ضده فهزمها ايضاً هونياد سنة ١٤٤٢(٢).

وفي هذه الاثناء اعني في ١ كانون الثاني سنة ١٤٤٢ دعا البابا اوجانيوس امراء البلاد الغربية وخصوصاً ملك المجر الى الحرب ضد الاتراك والدفاع عن القسطنطينية وقبرص ورودس التي سمّاها متاريس الدين المسيحي وطلب منهم تكراراً جمع الاموال قياماً بمصاريف تلك الحرب

(١) باباريغو ٥: ٣٣٨

(٢) تاريخ محمد فريد صفحة ٥٦ وباباريغو ٢: ٣٠٩ ـ ٣١٠

ومنح غفران الخطايا لكل الذين يشتركون فيها. فتألفت حملة قوية من جيوش مجرية وبولونية وصربية وفلاخية وجرمانية واجناس غيرها من المتطوعين تحت قيادة لادسلاس وهونياد وبرنكوفيتش وهي المسمّاة «الحملة الطويلة» وباشرت الحرب في ٢٠ تموز ففتح بها هونياد بلاد الصرب والبلغار والبلقان في مسافة خمسة أشهر بعد ان فتك فتكاً ذريعاً بجيش الاتراك. حينئذٍ رأى السلطان من الحكمة ان يسترضي اميري الصرب والفلاخ ثم طلب من ملك المجر صلحاً. فلما بلغ القيصر يوحنا والبابا امر الصلح بذلا كل جهدهما في ان لا يقبل لادسلاس الصلح وارسل البابا مندوباً تحت هذه الغاية الكردينال يوليانوس قيصريني (او سيزار يني) ابن اخيه ليمنعه عنه. ولكن الصلح كان قد تم حين وصل الكردينال وكان الملكان قد امضيا على معاهدة تقضي بحفظ السلم مدة عشر سنوات واقسما الايامين على ذلك في ١٢ تموز سنة ١٤٤٤. فلما بلغ الكردينال امر المعاهدة افتاه بان خرق العهد والقسَم مع الغربيين عن الايمان لا يعد حنثًا ولا نقصاً وخصوصاً لانه بدون رضى الكرسي الرسولي وبقية حلفائه لم يكن له حق في عقد الهدنة والصلح وهكذا اقنعه بان يعود الى العداء ضد السلطان. فقام في شهر ايلول ومعه ١٤ الف مقاتل وهونياد وقيصريني وقصد القسطنطينية. فجاؤوا الى وارنه واحتلوها. فلما بلغ السلطان ذلك قام لملاقاتهم باربعين الف جندي وعبر بوغاز القسطنطينية من اسيا الى اوربا على سفن الجنويين والبندقيين الذين كانوا وعدوا المجر بالمساعدة وعسكر عند وارنه. فلما رآه ملك المجر على غير انتظار بغت ومن ثم اشتبك القتال في ١٠ تشرين الثاني وجرت موقعة هائلة دموية كان الظفر فيها للسلطان وجنوده في ١٢ منه. وقد وقع من جملة القتلى الملك لادسلاس والكردينال قيصر يني مسبب هذه الحرب وهكذا خابت الآمال المبنية على محالفة لم يباركها الله صالةً. وكان البابا قد ارسل سفناً الى القسطنطينية لتنقل الجنود من وارنه اليها ولكنها لم تعد تفيد فائدة بعد الموقعة الفاصلة التي قضي فيها على انصاره(١).

(١) تاريخ فريد ٥٧ وباباريغو ٥: ٣٤٠ وتاريخه العام ٢: ٣١٧ ـ ٣١٢.

فمما تقدم يتضح ان قيصر الروم لم ينتفع شيئاً من مساعدات البابا وامراء الغرب. ولكنه لم يقطع علاقاته معه. فبعد وفاة البطريرك متروفانس انتخب خلفاً له الاب غريغوريوس صديق البابا الحميم الملقب ماموس او ماميس (اي ابن الداية) او ميلينوس استراتيغوبولوس وهو كريتي الاصل(١). وقد اظهر في مدة بطريركيته غيرة شديدة على الاتحاد فكتب دفاعاً عن العقائد اللاتينية الى ملك طرابزون. وكلف بيصاريون ان يكتب ضد مرقس وطلب ان تصير مجادلات في القسطنطينية بين الارثوذكس واللاتين وقد جرت بين برثولاماوس الكوروني اللاتيني وبين مرقس وسخولاريوس سنة ١٤٤٥ كانت نتيجتها ان سخولاريوس كتب مؤلفين مطولين في الانبثاق الى ملك طرابزون. ونظراً الى ما بذله غريغوريوس من الغيرة على العقائد اللاتينية عينهُ البابا بطريركاً على اللاتين ايضاً المقيمين في القسطنطينية. ومع كل هذه المساعي لم يفلح ولم يظفر بمرغوب لان الاشمئزاز من اللاتين لم يكن الا في ازدياد من يوم الى يوم. وقد عقدت تكراراً مجامع صغيرة في القسطنطينية كانت تحرم مجمع فلورانسا والذين يتبعونه. فسأل القيصر المطارنة ورؤساء الاديرة: لماذا لا يقبلون تحديد مجمع فلورانسا؟ فعقد مجمعاً وقدموا له الجواب مطولاً وخلاصته. اولاً. ان بين اللاتين والارثوذكس حاجزاً منيعاً وهو احكام المجامع المسكونية من الثالث الى السابع المانعة اضافة شيء الى الدستور. ثانياً. فرق العقيدة في الروح القدس التي يستند التعليم الارثوذكسي فيها على قول الرب إمام اللاهوتيين واقوال الرسل والمجامع والآباء ديونيسيوس واثناسيوس وباسيليوس وغريغوريوس الثاولوغوس ويوحنا الذهبي الفم وغريغوريوس العجائبي وغريغوريوس النيسي وكيرللس ومكسيموس ويوحنا الدمشقي الخ. ثم انهم قالوا انهم لا يريدون ان يدخلوا في بحثٍ في هذه المواضيع. اولاً. لأنهم ليسوا مرتابين في عقائدهم او محتاجين الى مرشد. ثانياً لأن كثيرين من رؤساء الكهنة ورؤساء الاديرة غائبون «وخصوصاً مرقس الذي كان مقدام

(١) ملا ١٥: ٧: ٤ وجدعون ٣٦٦

المدافعين عن رأينا الصحيح في ايطاليا وفماً لنا. كان مجاهداً عن مثل هذه الامور». وثالثاً لأنه ليس من قاضٍ يحكم بين الفريقين الخ. ثم انهم طلبوا الى القيصر ان يجمع اساقفة المملكة الى مجمع عموميٍّ ينظر في هذه القضية وفي حالة الكنيسة الحاضرة. ويقرر ما يؤول لمصلحتها وراحتها.

وبعد ذلك بحثوا في شهادات الآباء الغربيين وختموا القول بهذه العبارة «او كيف (يوحنا الدمشقي) المتأخر عنهم كلهم (اي عن الآباء) والذي قال انه ينقل تعاليم اللاهوتيين الذين سبقوه قد جهل كل هذا الجهل العظيم حتى قال: ولا نقول ان الروح من الابن؟ فاذا كان ذاك جهل هذا الامر او عرفه ولم يقبله فلا عجب اذا كنا نعمل نحن ايضاً مثلهُ ولا نقبل ذلك. فهذا ايها الملك القديس ما افتكرنا ان نقوله في شهادات الآباء القديسين اللاتينيين ايضاً وهو ان كان لا يسكت مخاصمات اللاتين (لأنه اي قول يمكن ان يكون اقوى من تشبثهم) نظنه كافئاً لاقناع الذين يحبون الحقيقة».(١)

وبعد ذلك قدموا الى القيصر عريضة ثانية عنوانها «في مجمع فلورانسا الرديء» وفحواها قريب من فحوى الاولى(٢) وقد قام الاكليرُس والشعب معاً يطلبون عقد مجمع مسكوني يحسم تلك المشاكل. اخيراً رضي القيصر ان يجمع المجمع اجابة لطلبهم. ولكن الاحزان والشدائد كانت قد انهكت قواه وجعلت حياتهُ في حالة يرثى لها. فمن جهة كان مجبوراً ان يسعى في استرضاء السلطان مراد بحسن السياسة. ومن جهة كان مجبوراً ان يساعده ويتفق سراً مع مساعديه على الاعداء ... ومن جهة كان مجبوراً ان يسترضي بابا رومية ويبذل كل جهده لاتمام الاتحاد المتفق عليه ومن جهة كان مجبوراً ان يمنع الشقاق والنزاع بين شعوبه بسبب ذلك الاتحاد ومن جهة كان يرى الكسرة وراء الكسرة والفشل وراء الفشل كلما كان يباشر حرباً او يدفع اعتداءً. فاستولى عليه القنوط وقبل اتمام امنية شعبهِ

(١) طوموس كانالاجيس صفحة ٤٢٢ ـ ٤٣١ (٢) تجدها في الكتاب

بعقد المجمع توفي في ٣١ تشرين الاول سنة ١٤٤٨ ودفن في دير الضابط الكل دفناً ملوكياً بعد انه انكر العقائد اللاتينية قبل وفاته كما ورد في اعمال مجمع القسطنطينية وفي شهادة جاورجيوس سخولاريوس حيث قال «فعن يوحنا هذا نعلم علم اليقين ماذا كان يعتقد في ما جرى منه في فلورانسا وكيف كان يسر باجوبتنا وكيف انه لم يكن يغصبنا بل كان يريد ان نحفظ عقيدتنا الابوية وكان يمدح الذين يعملون هذا الامر ويبغض الذين يميلون الى خلافهِ. ونحن كلنا شهود على هذه الامور التي عرفناها من صوتهِ ولسانهِ. ولكنه اذ كان خائفاً على سلطتهِ خوفاً لا خوف منه لم يكن يطيق ان يعالج النفس علاجاً ظاهراً»(١). وقد شهد مانوئيل الخطيب ان الذي جعل القيصر ان يرجع الى استقامة الرأي كان مرقس الافسسي(٢).

واذ كان القيصر يوحنا عقيماً من الاولاد قام اخوه ديمتريوس يطالب بالخلافة ولكن امه واخوه توما والاكليرُس ومجلس المملكة والجيش والشعب والسلطان مراد نفسه اشاروا بتفضيل اخيه الاكبر قسطنطين وكان غائباً في مقاطعتهِ بلاد المورة. ومن ثم توج قيصراً في مدينة سبارتي في ٦ كانون الثاني وفي ١٢ آذار سنة ١٤٤٩ جاء القسطنطينية(٣). وقد استقبله الجميع بكل فرح وتهليل وهو قسطنطين الثاني عشر الملقب بدراكون (اي التنين) نظراً الى شجاعتهِ وبسالته وشدة بأسه في حروبه السالفة. ولكن لا يخفى على البصير ان كرسي المملكة في تلك الاوقات الصعبة كان اكليلاً من شوك لذلك القيصر الباسل لان الأخطار كانت تحفهُ من كل ناحية حتى هوى ولم يعد امل بعد الآن بثباتهِ. ولهذا السبب اعرض قسطنطين عن حفلة التتويج الرسمية في العاصمة وعن اتمام امر زواجهِ الذي كان باشره قبل جلوسهِ لانه كان ارمل من زوجتهِ الثانية من سنة ١٤٤٢ وربما اجّل ذلك الى ما بعد اصلاح احوال مملكته وتخليصها من الاخطار ان امكن. ولكن لم

(١) ذوروثاوس ١٠: ١٣: ٩ (٢) كتابة الخط في كتبة موسكو عدد ٣٩٣.
(٣) ملا ١٥: ١: ١ وبعضهم يقول انه لم يتوج رسمياً. باباريغوس ٥: ٣٩٢

يخدمهُ الحظ في شيء من امانيهِ اذ كانت نهاية حياته وحياة مملكة الروم قد دنت ساعتها كما سنرى(١).

فلما رقي هذا القيصر كرسي القسطنطينية همّ في جمع المجمع اجابة لرغائب الاكليرس والشعب. فاجتمع بطاركة الشرق فيلوثارس الاسكندري وذورثاوس الانطاكي وثاوفانس الاورشليمي وجملة مطارنة ورؤساء اديرة وموظفين كنائسيين في كنيسة القديسة صوفيا في ربيع سنة ١٤٥٠ واذ لم يحضر البطريرك القسطنطيني غريغوريوس دعوهُ الى الحضور ليدافع عن نفسهِ في ما عمله في فلورانسا فلم يمتثل بل اجاب بانه لا يحيد عن تعليم ذاك المجمع وارسل وكيلاً عنهُ الفرير ليونارد. ومن ثم عزلوه وانتخبوا بدلاً منه اثناسيوس الثاني الارثوذكسي رئيس احد اديرة جبل آثوس. ثم جرت مباحثة في الانبثاق بين ليونارد اللاتيني وثاوذورس خطيب الكرسي* وفي الجلسة الثانية كانت المذاكرة في ما جرى في فلورانسا. اما الذين امضوا صك الاتحاد فاعترفوا بخطاياهم وطلبوا الصفح قائلين بانهم أُجبروا على ما فعلوه. فصدر الحكم بفساد مجمع فلورانسا وأُلغي بصفتهِ جمعية كاذبة خداعة ومضلة وظالمة* وفي الجلسة الثانية جرى ايضاً تحقيق في ماجريات ذلك المجمع وشرح في قضية الانبثاق الى ان قال البطاركة «نحن نكتفي بما تقدم. اما اللاتين فيظنون ان الفردوس والجحيم حقول يملكونها فيعتقدون ان الامر في سلطانهم لا في سلطان الله ان يزجوا في الجحيم من يريدون ويرسلوا الى الفردوس من يشاؤون. ولهذا فالذي لا يؤمن

(١) لكي يتصور القارئ الحالة السيئة التي وصلت اليها القسطنطينة في هذا الوقت فليقابل حالها الآن بحالها قبلاً. فقد كانت قبلاً تعد اكثر من ٥٠٠٠٠٠ من السكان والآن لم يكن فيها ما يزيد عن ٨٠٠٠٠ وكان ايراد خزنتها من سكان العاصمة وحدهم عشرة ملايين ذهب والآن لم يكن يزيد عن ستين الف ذهب. حتى ان قسطنطين اضطر ان يستأنف ليقدم الهدايا الاعتيادية للجيش والحشم جبن جلوسه. وبعد ان كان اسطولها بعد مئات من السفن مشحونة بالذخيرة والميرة لم يكن فيها الآن سوى عشر سفن لا تنفع لشيء. هذا فضلاً عن فقرها من الرجال العظام الذين عادة تقوم بهم الممالك (باباريغو ٥: ٣٦٣).

بان الروح ينبثق من الآب والابن يزجونه في الجحيم». فأجابهم مرقس «انهم يزجون في الجحيم ايضاً كل من لا يؤمن بالبابا كأن البابا الهٌ يحب الايمان به». وفي الجلسة الرابعة فحصت بقية القضايا وسئل الذين حضروا مجمع فلورانسا عما اذا كانوا تكلموا هناك فيها. فأجابوا بأنه جرى بحث في مواضيع الرئاسة البابوية والعصمة والمطهر وسعادة القديسين ووقت الاستحالة. ثم ذكرت عدة بدع للباباوات كتصوير الايقونات على هيئات غير لائقة وترتيل الصلوات على الانغام الخارجية. واختلاط الرجال بالنساء في الكنائس. ومنع الاكليرس عن الزواج. وعدم اتجاههم الى الشرق في الصلاة. واستعمالهم الفطير في الذبيحة الالهية. ودعواهم بان كل ما يتعلق باللاهوت هو من جوهر الله ومن ثم انكارهم عدم مخلوقية النور الذي ظهر في ثابور. واخذهم اجرة من المحظيات والسراري. وصومهم ايام السبوت وحلهم الصوم في ايام الاربعاء. وتصويرهم الاله الآب. ورسمهم الصليب من الشمال الى اليمين. واعترافهم للبابا بالسلطة الزمنية. وحل البابا الاصوام لمن يريد باخذ المال منه. وحصرهم الميراث في الابن البكر وحده. وتقديمهم العبادة للصليب والايقونات. وترخيصهم للزناة من الكهنة بان يخدموا الاسرار الالهية وعدم مراعاتهم درجات القرابة في الزواج. وعدم مسحهم المعمدين بالميرون المقدس. وعدم صلاتهم وقوفاً ايام السبوت والآحاد واكلهم المخنوق. ومقاصتهم الخطأة بقصاصات مدنية. ووضع البابا الصليب على قدمه. وتناوله الاسرار الالهية وهو جالس. وغير ذلك. وكل واحدة من هذه البدع ذكروا وجه مخالفتها واشاروا الى الآيات والقوانين التي تضادها واحدة فواحدة مما يضيق المجال بتفصيله.(١) اخيراً قرر المجمع هذا القرار «اننا جميعنا نعترف ان الزيادة في الدستور لا لزوم لها.

(١) راجع اعمال هذا المجمع في طوموس كاتالاجيس لذوسيثاوس صفحة ٤١٥ ــ ٤١٧ ومما يجب الانتباه اليه في هذا المقام هو ان الكنيسة الارثوذكسية في هذا المجمع الكبير الذي ينوب عن كراسيها الاربعة البطريركية اقامت الحجة على عبادة الصليب والايقونات العبادة التي اخوتنا البروتستانت يتهمونها بها. فليتأمل المنصف وليعتبر العاقل.

لان دستور المجامع السبعة لا يحتاج الى اصلاح ولا هو ناقص في امر الخلاص. وان الروح ينبثق من الآب لا من الابن. وان الآب وحده علة وجود الابن والروح القدس. وان البابا اذا كان ارثوذكسياً يؤلف مع البطاركة الاربعة مجمعاً مسكونياً وربما يمتاز عن الآخرين في الرتبة. وان المجمع المسكوني وحدهُ يسن القوانين لا البابا بصفة رئيس مطلق. وان القديسين يرون الله ولكن لا على وجه الكمال قبل الدينونة كما انه ولا الخطأة يقاصصون القصاص الكامل قبل الدينونة. وان البقاء الذي عناه بولس الرسول بكلمة «سيخلص» يكون في الجحيم لا في نار مطهرة خارج الجحيم. وان استحالة السر الجوهرية تنم من الثالوث والاقوال الربانية بعد الافاشين التي يقدمها الكاهن ايضاً للتقديس ويكون بذلك بمثابة آلة».

اما غريغوريوس فمن بعد عزله هرب الى رومية في آب سنة ١٤٥١ وكان البابا اوجانيوس توفي سنة ١٤٤٧ وقام بعده البابا نيقولاوس الخامس الذي تنازل له البابا فيلكس طوعاً عن الوظيفة سنة ١٤٤٩ وقبله مجمع باسيليا وانحل حسماً للنزاع. وكان هذا البابا رجلاً محباً للعلوم والعلماء. فأمر بترجمة كتب كثيرة من اليونانية الى اللاتينية على يد علماء يونانيين[1]. غير ان التاريخ يلومه على السلوك الذي سلكه مع قسطنطين قيصر الروم. فان قسطنطين كان باذلاً جهدهُ في اصلاح شؤون مملكتهِ كما تقدم وتخليصها من الاخطار وخصوصاً العاصمة. فلما توفي السلطان مراد الثاني وتولى السلطان محمد الثاني المعروف بالفاتح في ٩ شباط سنة ١٤٥١ اخذ يستعد لفتح مدينة القسطنطينة ومن ثم حصن بوغازها بقلعة منيعة على الضفة الاوربية مقابل قلعة السلطان بايازيد ليمنع عنها كل مدد. وارسل قوة ضد أخوي القيصر في بلاد المورة ليشغلهما عن المجيء لمساعدتها واستحضر عاملاً مجريًّا يصب المدافع اسمه اوربان كان يقيم في القسطنطينية. وجهز اسطولاً عظيماً للحصار من جهة البحر. فلما اشعر

(١) ملا ١٥: ١٢: ٥ و ٦

قسطنطين بمقاصدهِ اعرض عليه دفع الجزية التي يقررها فرفض السلطان طلبهُ. وسعى في ايجاد سبب لفتح الحرب. ولم يلبث ان وجد هذا السبب بتعدي جنوده على بعض قرى الروم ودفاع هؤلاء عن انفسهم وقتل البعض من الفريقين[1]. فلم يبقَ لقسطنطين الا ان يطلب النجدة من البابا. فارسل اليه سفارة سنة ١٤٥٢ يرجوه ان يحرض فرسان اللاتين على مساعدة عاصمتهِ وتخليصها من الاخطار. واذ كان البابا ارسل اليه رسائل على اثر وصول البطريرك غريغوريوس يطلب منه اتمام الاتحاد وارجاع البطريرك والاَّ فلا يضمن قرب سقوط العاصمة واستعباد الروم طلب القيصر منه ان يرسل مندوبين من علماء الاكليرُس قادرين على عمل الاتحاد. ورجاه ان يسرع في اعمال المساعدة التي تقتضيها الظروف الضيقة. فارسل البابا الكردينال ايسيدوروس اليوناني (قبلاً مطران روسيا) على سفينة وخمسين جنديًّا معه. فلما وصل الكردينال الى جزيرة ساقس اخذ ١٥٠ جندياً من اللاتين ايضاً وفي جملتهم ليونارد رئيس اساقفة اللاتين فيها. فلما وصلوا القسطنطينية استقبلهم القيصر بكل ترحاب في تشرين الثاني سنة ١٤٥٢ وكان البطاركة الشرقيون قد رجعوا الى مراكزهم ومرقس مطران افسس انتقل الى الاخدار السماوية وقبل وفاتهِ اقام خليفة له في الدفاع عن الاثوذكسية صديقه جناديوس (قبلاً جاورجيوس) سخولاريوس. فمن بعد وصول ايسيدوروس واختلائهِ بالقيصر عقد المجمع في ١٢ كانون الاول في كنيسة القديسة صوفيا. فقرأ الكردينال ايسيدوروس كتاب الاتحاد (اول مرة) فامَّن الحاضرون عليه بعد ان اتفقوا انهم بعد استتاب الامن وخلاص العاصمة يعاد النظر فيه ويتم اصلاحهُ حيث يحتاج الى الاصلاح. ولأجل الدلالة على الاتحاد خدم ايسيدوروس القداس مع اكليرس مؤلف من اروام ولاتين ذكر فيه البابا نيقولاوس والبطريرك المعزول غريغوريوس. وكان القيصر ورجال الدولة حاضرين ونحو ٣٠٠ من رجال الاكليرُس. غير ان اكثر الحاضرين لم يرضوا ان يأخذوا البروتي في ذاك القداس. وكذلك اكثر الاكليرُس

(١) فريد بك صفحة ٥٩

وخصوصاً أصحاب الدرجات الواطئة والرهبان والراهبات والقسم الاعظم من الشعب لم يرضوا ولا ان يسمعوا كلمة الاتحاد ولا بوجه من الوجوه. فبينما كان القيصر وكبار الاكليرس يراعون ظروف الحال بالسياسة السابق ذكرها ذهب جمهور عظيم من الشعب الى الراهب جناديوس سخولاريوس في دير الضابط الكل واخذوا يسألونه بصراخ شديد «نحن ماذا نصنع؟» فجناديوس لم يخرج لمقابلتهم بل بقي محاصراً في قلايتهِ واخذ ورقته وكتب هذه العبارة «ايها الروم التعساء. لماذا ضللتم وابتعدتم عن الرجاء بالله واتكلتم على قوة الافرنج ومع المدينة المزمعة ان تخرب فقد تم حسن ايمانكم؟ فيا رب كن شفوقاً عليّ. فاني اشهد امامك اني بريء من هذا الخطاءِ. فاعلموا ايها السكان التعساء ما تعملون. وانكم مع اسركم الذي سيحصل فقدتم عقيدة آبائكم واعترفتم بالايمان الرديء. فويل لكم في الدينونة!». ثم لصق هذه الورقة على بابا قلايته. فلما قرأها الشعب صرخوا كلهم بالاناثيما ضد صك المجمع وضد جميع الذين رضوا ويرضون وسيرضون عنه. ثم خرجوا من الدير وطافوا في المدينة مستغيثين بالسيدة العذراء لتحمي المدينة وصارخين «اننا لا نحتاج الى المساعدة من اللاتين ولا الاتحاد معهم. فلتبعد عنا عبادة اصحاب الفطير». ثم ان الكهنة الارثوذكسيين كانوا يضعون قانوناً على كل ما كان يشترك مع الاتحاديين. ومن ذلك الوقت لم يعد احد منهم يدخل كنيسة اجيا صوفيا ولا للصلاة. على ان هذه الاميال لم تكن اميال الجمهور فقط بل كانت اميال كثيرين ايضاً من رجال السياسة. فمن هؤلاء كان بعض متمسكين بالاتحاد كل التمسك كجاورجيوس فرانزيس الذي نصح للقيصر ان يعين الكردينال ايسيدوروس بطريركاً في العاصمة فضلاً عن قبول الاتحاد. ومنهم من كان يساعد جناديوس ويرفض الاتحاد كالدوق الاكبر (اي رئيس الجيش) لوقا نوطارا الذي نقلت عن لسانه هذه العبارة الشهيرة (ان صحت الرواية) وهي «خير لنا ان نعرف ملكاً علينا في وسط المدينة عمامة الاتراك ولا شبقة اللاتين». فمن هنا يفهم القارئ مركز قسطنطين الصعب الذي يقول التاريخ انه لم يصل احد من حكام العالم في وقت من الاوقات الى مركز حرج مثله ويلقي معظم المسؤولية فيه على قداسة البابا الذي في مثل هذه الظروف الضيقة كان يقسم ذلك الشعب

الضعيف ليرسل اليه مساعدة مؤلفة من خمسين رجل (!!!)

ففي ٥ نيسان سنة ١٤٥٣ حاصر السلطان محمد الفاتح المدينة من جهة البر بجيش عظيم يبلغ المائتين وخمسين الف جندي ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من ١٨٠ سفينة واقام حولها اربع عشرة بطارية مدفعية (٨٤ مدفعاً) وضع بها مدافع جسيمة كانت تقذف كرات من الحجر وزن كل واحدة ١٢ قنطاراً (٤٣٢ اقة) الى مسافة ميل. هذا عدا الرجال المسيحيين الايطاليين والجرمانيين والبوهيميين والمجر والصرب وغيرهم الذين كانوا يدربونه في مدة هذه الحرب. اما قسطنطين فلم يكن لديه من القوة سوى ستة آلاف جندي من الروم واربعة آلاف من الغرباء وأخصهم الجنويون الذين لم يكونوا مخلصين له لأنهم كانوا نهاراً معه وليلاً عليه يساعدون خصمهُ. واذ كانت المدينة محصَّنة من جهة البر بسورين في كل واحد منهما ١١٢ برجاً وخندقين عرض الواحد منهما ٤٢ قدماً وعمقهُ ١٢ ــ ١٥ قدماً رأى السلطان أن يشغلها من جهة البحر ليسهل الهجوم عليها براً ولكن الميناء كان مقفولاً من الغلطَّة الى العاصمة بسلسلة من حديد تمنع السفن عن الدخول. فلكي يتغلب السلطان على هذه الصعوبة ايضاً نقل سفنهُ على البر عن طريق الغلطه (بمساعدة سكانها الجنويين وهم من رعية الاب الاقدس) فمدت الاخشاب من البحر الى البحر على مسافة ستة اميال وصب عليها الزيت والدهن لسهولة زلق المراكب وفي ليلة واحدة نقل ٧٢ سفينة حتى اذا اصبح النهار في ٢٠ نيسان ونظرها المحصورون ايقنوا انه لا مناص من نصر العثمانيين عليهم. ولكن مع ما كانوا عليه من الضعف لم تخمد عزائمهم بل ازدادوا اقداماً وصمموا على الدفاع عن اوطانهم حتى الممات. فاولاً حاولوا ان يحرقوا ذلك الاسطول ضمن الميناء. ولكن الجنويين خانوهم واوعزوا الى السلطان بما عزموا عليه فاستعد لهم الاتراك وعند الهجوم ليلة ٢٨ نيسان دارت الدائرة على الروم. اما الشجاعة التي اظهرها جنود الروم برًّا في مدة الحصار فكانت غريبة لأنهم قاموا مقاومة شديدة ومجيدة مدة سبعة أسابيع قتل في اثنائها عدد عديد من جيش محاصريهم. حتى ان السلطان نفسهُ ظن

ان عدد الجنود عندهم لا يقل عن خمسين الف نفس[1]. وكان القيصر في كل مدة الحصار يتعهد الاسوار والابراج بنفسهِ ليلاً ونهاراً راكباً حصانه بلا كلل ولا ملل ويشدد عزائم جنودهِ وقد عين قائداً عاماً للحامية يوحنا يوستينيانوس رجلاً لاتينياً ماهراً في حركات الحرب. وكان من جملة القواد الكردينال ايسيدوروس ومعه فرقتهُ المائتا جندياً الذين سبق الكلام عنهم. اخيراً ارسل السلطان الى القيصر في ٢٤ ايار نسيبه يطلب منه التسليم فقال له «اعلم ان كل شيء جاهز للهجوم العمومي الذي سنباشره الآن تاركين نتيجته لله. فماذا تقول: أتخرج من المدينة وتذهب الى حيث تشاء أنت وعظماؤك وموجوداتهم وتترك الشعب من دون ان يتكبد خسارةً منا ومنك او تصر على المقاومة التي بها انت والذين معك ستفقدون حياتكم وموجوداتكم معاً والباقون من السكان يكونون اسراء ويتفرقون في كل الارض؟» فجمع القيصر مجلسهُ واستشارهُ ثم اجابه قائلاً «ان كنت تريد ان تعيش معنا في سلام كما عاش آباؤك فتلك نعمة من الله. فاولئك كانوا يعتبرون آبائي آباء لهم ويكرمونهم ويعتبرون هذه المدينة في الاوقات الحرجة وطناً لهم ويلتجئون اليها ولا احد من الذين كانوا يقاومونا كان يعيش طويلاً. اما القلاع والاراضي التي سلبتها منا ظلماً فلتكن لك منا ملكاً حلالاً وأنت عين الجزية التي يجيب ان ندفعها لك سنوياً على نسبة وارداتنا واذهب بسلام. لأنه ما ادراك ان تأتيك الخسارة من حيث انت موقن بالربح؟ اما اعطائي المدينة لك فليس في سلطاني ولا في سلطان غيري من الساكنين هنا. لأننا كلنا باجماع الرأي وبطوع ارادتنا عازمون ان نموت ولا نشفق على حياتنا»[2]. فلما وقف السلطان على جواب القيصر امر جيوشه في ٢٦ ايار ان تستعد للهجوم في ٢٩ منه. ووعدهم بحرية السلب والنهب ثلاثة ايام وان يكون الاهالي واملاكهم غنيمة لهم ما عدا العقارات والابنية فانه يحفظها لنفسهِ. فأخذ الجند من ذلك اليوم يهللون ويكبرون ويضحون

(١) باباريغو ٥: ٤١٢
(٢) باباريغو ٥: ٤١١

مستبشرين بالنصر. اما القيصر فامر ان تقام الصلوات الى الله ليلاً ونهاراً من اجل سلامة المدينة فكان الزياح يتبع الزياح والطلبات متواصلة في كل المعابد. وفي ٢٨ منه جمع نخبة من رجاله من كل جنس وحرضهم على الثبات والطاعة لرؤسائهم قائلاً لهم: اني اسلمكم صولجاني لتدافعوا عنه وتخلصوه من الذل. ثم ذهب الى كنيسة اجيا صوفيا واعترف وتناول الاسرار الالهية. ثم ذهب الى قصرهِ وجمع كبار خدمهِ وحشمهِ واستسمح منهم والدموع ملء عينيه وودعهم وهم ينوحون ويبكون حتى قال احد المؤرخين انه لو كان الانسان في ذلك الموقف خشبة او حجراً لما استطاع ان لا ينوح ويندب[1]. ولما انتصف الليل ذهب كل واحد الى مركزه للدفاع. ونحو الساعة الثانية بعد نصف الليل قبل فجر يوم الثلاثاء الاول بعد العنصرة تاسع وعشرين شهر ايار هجم جيش السلطان هجوماً عمومياً على الاسوار فدفعته الحامية بكل ثبات وقتلت منه عدداً كثيراً واخذت اجراس الكنائس تقرع قرعة الحزن والخطر والشعب يتراكض من كل صوب الى الكنائس للصلاة والقادرون منهم بادروا الى الاسوار. ثم هجم ثانياً وثالثاً ورابعاً. وكانت تدحره بكل شجاعة وثبات وبعد ان صعد بعض منه الى اعلى السور في المرة الرابعة رموهم حتى ان القيصر صار يرى النصر في جانبهِ. ولكن القائد يوحنا يوستينيانوس الجنوي جرح في المرة الاخيرة فهمّ ان ينتقل الى غلطهّ لأنه يئس بعد الجرح. فالقيصر رجاه كثيراً ان يثبت في صفهِ الى نهاية الموقعة. ولكنه لم يسمع بل ذهب وتبعه بعض ضباطه. غير ان ذلك أيضاً لم يكن ليؤثر في موقف الحامية لولا ان باباً سرياً صغيراً من السور بقي مفتوحاً من الليلة السابقة عن غير قصد واكتشفهُ بعض رجال السلطان بطريق الصدفة. فدخل منه اولاً ٥٠ انكشارياً ثم تبعهم آخرون وسهلوا للباقين الدخول من جهة الاسوار وبقية الابواب. فلما علم السلطان بذلك هجم على موقف القيصر وجهاً لوجه وكان القيصر في اول الامر يظن انه قادر ان يرده كما رد الهجمات السابقة ولكنه لما رأى الاتراك بغتة ضمن المدينة يئس

(١) باباريغو ٥: ٤١٨

فهمز حصانه وهجم على اكبر قسم من جيشهم وكان يحارب مستقتلاً كأحد الجنود والدم يسيل من يديه ورجليه وكان حوله نخبة رجال المملكة والاعيان يحاربون مثله حتى سقط في وقت قليل ٨٠٠ قتيلاً منهم وبعدهم سقط القيصر نفسهُ على اثر ضربة جاءته من الوراء وهذا القيصر هو آخر قياصرة الروم على القسطنطينية. ومن بعد سقوطه صارت المدينة في حوزة الدولة العلية العثمانية فانزلت الاعلام القيصرية ورفع الهلال العثماني الظافر في كل جهاتها. اما الجنود فلما دخلوا المدينة اعملوا السيف في كل من وجدوهُ امامهم من اي جنس وسنٍّ كان ولكنهم بعد قليل استبدلوا القتل بالسبي والنهب. وكان الكردينال ايسيدوروس واحداً من الاسرى فباعوه الى الجنويين في غلطه بيع الرقيق ثم فرّ منها بعد مدة. ولم يسلم من قواد الروم غير لوقا نوطارا الذي كان من جملة الاسرى. اما الذين سلموا من القواد اللاتينيين ومن الاعيان فهربوا على السفن بلا معارضة من اسطول السلطان لأن رجاله كانوا قد تركوه ودخلوا المدينة للاشتراك في الغنيمة. ولكن القائد يوستينيانوس مات على اثر جراحه. على ان اكثر الشعب لما علم بدخول الترك المدينة اسرع الى كنيسة اجيا صوفيا لاعتقادهم على اثر نبوة احد القدماء ان هذا المكان يسلم من الفاتحين. وقد اجتمع فيها من الخلق ما لا يعد ولا يحصى حتى امتلأت هي ودارها وخارج الدار ايضاً. ولكنهم ما اشعروا الاّ والفاتحون امامهم فقتلوا من قتلوا منهم واسروا الباقين وسبوهم ضمن الكنيسة وسلبوا كل شيء من اوانيها حتى عروها عن آخرها. وعند الظهر دخل السلطان المدينة من باب ادرنه راكباً حصانه وحوله الوزراء والحرس الخاص ورجال بلاطهِ وذهب رأساً الى كنيسة اجيا صوفيا. ولما وصل اليها ترجل ودخلها وتعجب من منظرها وجمالها وامر حالاً ان يؤذن فيها بالصلاة اعلاناً بجعلها جامعاً وكان هو اول الذين صلوا فيها من الاسلام. وكان موقفه فوق المائدة المقدسة. ثم خرج وامر بالتفتيش على جثة القيصر فوجدوها وجاؤوا برأسها فأمر برفعه على عمود اوغستينوس الى المساء وبدفن الجثة بالاكرام وفي الغد دخل المدينة ثانية ودار فيها بنفسه وكان السلب مستمراً في البيوت. والشوارع خالية من الاهالي. وأمر باقامة وليمة بالقرب من البلاط ومن بعد ثلاثة ايام كف السبي والنهب ونودي

بالامان(١) ومن ذلك اليوم صارت القسطنطينية عاصمة لدولتنا العلية العثمانية القائم اليوم على عرشها العالي السلطان ابن السلطان السلطان الغازي عبد الحميد خان.

ومن بعد ثماني سنوات فتح السلطان محمد الفاتح مملكة طرابزون ايضاً في عهد ملكها داود كومنينوس وضمها الى مملكته الواسعة وبهذه الحوادث انقطعت كل العلاقات الرسمية بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية. فظلت الكنيسة الشرقية على تقاليدها وتعاليم آبائها وأجدادها الى يومنا هذا لا تسمح بتغيير ولا ابدال لا في عقائدها ولا في عاداتها فيما ان الكنيسة الغربية احدثت ولم تزل تحدث تعاليم متنوعة تعتقدها دليلاً على حياتها.

فآخر مجمع اجتمعت فيه الكنيستان الشرقية والغربية كان مجمع فلورانسا. ولكن هل يمكن ان يعتبر هذا المجمع مجمعاً حقيقياً؟ هذا سؤال يختلف في الجواب عليه الارثوذكس واللاتين. فاللاتين يعتبرونه مجمعاً حقيقياً مقدساً واما الارثوذكس فبالعكس اعني انهم يعتبرونه مجمعاً فاسداً محكوماً عليه كما صرَّح بذلك مجمع البطاركة الشرقيين في اورشليم وفي كنيسة اجيا صوفيا. فيقولون بانه لم يعقد باخلاص النية ولا بالهام الروح القدس ولا وضعت اساسات الاتحاد فيه من روح الحق ولا كانت ادوات روح التقوى وخوف الله الضرورية لثبات الاتحاد متوفرة فيه. ولذا هبطت آماله وحبطت اعماله لأنه لم يكن من الله بل من الناس. فان البابا والقيصر اتفقا على عقده لا عن اخلاص ومحبة للسلام الكنائسي بل لمقاصد خصوصية اما القيصر فليستعين بالبابا على اعداء مملكتهِ واما البابا فليخضع الشرق لسلطتهِ ويتخلص من مجمع باسيليا بدعواه ان مجمعه مسكوني لوجود الشرقيين فيه وانه لا يمكن ان يجتمع في آنٍ واحد مجمعان مسكونيان. وقد رأينا في ما تقدم اوجه الاحتيال الذي كان يجري عليه

(١) فريد بك ٥٩: ٦١

الاثنان.. فالبابا لكي يحصل على غايته كان يستحل سرقة قرار اقلية مجمع باسيليا لينتفع بها. ثم ان سفيرهُ يقنع الشرقيين بانه تصالح مع هذا المجمع خلافاً للحقيقة وعند السفر كان كل حزب من حزبي البابا والمجمع يجتهد في سحب الشرقيين اليه بالاوعاد والهدايا. واما القيصر فلكي يجعل المجمع مسكونياً يصطحب نواباً من بطاركة الشرق كان هو يوعز سراً بتعيينهم واحيانًا كان يغيرهم كما يتراءى له ـ ثم لما عقدت الجلسات نرى الشرقيين يبرهنون للاتين اغلاطهم في قضيتي المطهر والزيادة على الدستور «ويحجونهم بآيات صريحة من الكتاب المقدس واعمال المجامع وتعليم الآباء وينقصون استناداتهم ويبينون تزوير العبارات التي كانوا يأتون بها من الآباء على دعواهم. ولكن ما هي النتيجة؟ النتيجة هي ان اللاتين يعندون ويماحكون ويجبرون الارثوذكسيين اجباراً على قبول التعاليم التي تحرمها المجامع المسكونية. أفليس هذا العمل احتيالاً على الكنيسة الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية يقصد به القاؤها في مناقضة نفسها؟ ـ وبعد قفل الجلسات يوافق القيصر وبعض يساعدونه على الاتحاد الذي أساسه الرأي المنبوذ عينه. وفي هذا الفصل ايضاً يأخذ الاحتيال دوراً مهماً ليؤسس على الاساس الفاسد سلام كاذب. فالشرقيون يحرمون معائشهم التي كانوا موعودين بها. والقيصر ينال اوعاداً من البابا لم تكن له ارادة ولا قدرة على وفائها. وقرار المجمع تخترع له صور متنوعة يختلف عليها. وتستعمل عبارات محرفة من الآباء. ويُسمح لبعض ان يصوتوا احياناً في المجمع واحياناً لا يسمح لهم هم انفسهم. ويسعون في استرضاء رافضي الاتحاد تارةً بالاوعاد وتارةً بالحسنات وتارة بالتهكم. ولا يضنُّ اللاتين بالمال في هذا السبيل. وبواسطة ثلاثة عصاة من رجال الشرق يحصلون بكل الاوجه الغير الشرعية على ظفر ظاهريٍّ كما رأينا.

فمثل هذا المجمع هل يستحق ان يسمى مجمعاً ومجمعاً مسكونياً؟ او هل كانت الحقيقة تفحص في المجامع المسكونية وتحدد على هذا الوجه؟ او هل كان وهو على هذه الصفات ينطق بالروح القدس؟ وان قالوا بانه مسكوني لان نواب سائر البطاركة كانوا فيه فنذكرهم بان ثلاثة من نواب

البطاركة الشرقيين لما كان البطريرك يوسف حيًّا لم يوافقوا على الاتحاد. وبعد وفاته لم يقم نائب عنه ليعطي صوتهُ. ثم ان مرقس ايضاً الذي كان نائباً عن بطريركين لم يكن من الموافقين. نعم ان شركاءه في تلك النيابة وافقوا ولكن البطاركة الشرقيين ايدوا رأي مرقس وحرموا الآخرين فكان عمله الراجح. وعليه لا يمكن ان يعتبر هذا المجمع شرعياً ولا بحسب الظاهر. قد ادرك البابا نفسه هذا الامر حين اعترف بانه بلا امضاء مرقس لم يعمل شيئاً. والدليل الاعظم على ذلك هو ان المتحدين كانوا في وقت الاتحاد عينه يتجنبون بعضهم بعضاً ويتباعدون. وبعد رجوع الروم الى القسطنطينية لم يكتموا اشمئزازهم منه ورفضهم له. ثم ان القيصر نفسه لم ينادِ به رسمياً. وانما كان يؤيده ظاهرياً استرضاءً للبابا آملاً بمساعدته. والشعب لم يرد ولا ان يسمع به سمعاً. وبطاركة الشرق حرموه ونبذوه رسمياً في مجمعين. اما عمل المجمع الاخير فلم يكن كنائسياً بل من جملة ما عمله القيصر اضطراراً. ومع ذلك هو نفسهُ قرر ان صك الاتحاد الذي سنه مجمع فلورانسا يحتاج الى اصلاح يعنى انهُ مغلوط.

والنتيجة ان المجمع الذي عقد لغايات خصوصية ولم اعضاؤه احراراً في عملهم وقولهم بل قرر بالقوة اموراً تخالف الكتاب المقدس والتسليم الكنائسي ولم يمضِ عليه جميع الحاضرين ولا حكم على الذين منهم لم يقبلوه والذي كان يرأسه بابا محكوم عليه من مجمع آخر في باسيليا بانه سيمونيٌّ ومشاق ومهرطق ومعاب ولا يمكن ولن يمكن ان يعتبر مسكونياً ولا مجمعاً قانونياً على الاطلاق. هذه خلاصة اقوال الارثوذكسيين واعتقادهم في مجمع فلورانسا.

وبهذا المجمع نختم الجزء الثالث من تاريخ الانشقاق او بالحري نختم الانشقاق كله. لأنه كان كما قلنا خاتمة العلاقات الرسمية بين الكنيستين الشرقية والغربية. وعليه نرجع الى ما قلناه في مقدمة مؤلفنا هذا وهو ان مدار موضوعه الانشقاق العظيم بين الشرق والغرب الذي بدأ على ما هو معلوم في عصر البطريرك القسطنطيني فوتيوس (سنة ٨٦٣). وتمَّ في عصر البطريرك القسطنطيني ميخائيل كيرولاريوس (سنة ١٠٥٤) مع البحث

الوافي في أسباب هذا الانشقاق وكيفية التخرج فيه لا نهاية امره[1] وفي علاقات الكنيستين قبله وبعدهُ الى حين انقطاع العلاقات بينهما انقطاعاً تاماً[2]. ثم نذكر القارئ الكريم بما قلناه في آخر بحثنا في النظام الكنائسي وهو «ان أساقفة رومية لم يكتفوا بحقوقهم المقررة سابقاً بل طلبوا السلطان والسيادة على كل الكنيسةالجامعة وعلى سائر اخوتهم رؤساء الكهنة من بطاركة ومطارنة ورؤساء اساقفة واساقفة وزيادة على ذلك طلبوا ان يحصروا في انفسهم الكهنوت كله وادعوا انهم الينبوع الكهنوتية الوحيدة التي تفيض منها مواهب الكهنوت لسائر رؤساء الكهنة عل اختلاف رتبهم. وانهم رؤوس الكنيسة ذوو السلطان المطلق عليها كلها. وانهم ارفع منزلةً من المجامع المسكونية التي تؤلفها هيئة الكنيسة حتى ان الكنيسة كلها تغلط وهم لا يغلطون. والكنيسة تسقط وهم لا يسقطون. وهذه الدعوى لم يرعيها احبار رومية على هذه الصورة من الازمنة الاولى بل مع تمادي الزمان اتصلت الى هذا الحد ... وهذا هو السبب الأول الذي انتج انشقاق الكنيسة الى شطرين متباعدين»[3] وقد اسندوا هذه الدعوى الى مصادر متنوعة منها كتابية ومنها تقاليد. فاما الكتابية فاهمها بعض اقوال المخلص الخ ... واما التقليدية فهي الدعوى بان رؤساء كهنة رومية قد سادوا على الكنيسة كلها وعلى سائر رؤسائها وعلى المجامع المسكونية والمكانية في كل عصر من القرون المسيحية على مدى التاريخ. ومن ثم «بان طلبهم في ايام فوتيوس او قبل فوتيوس السلطة على الكنيسة لم يكن طلباً حديثاً» واننا في مؤلفنا هذا انما نبحث في الاستنادات التاريخية «لان الحقائق التاريخية بالنسبة الى انشقاق الكنيسة هي اقرب من البحث في منزلة بطرس بين الرسل وهي كافئة لتأييد الحق في مسألة النظام الكنائسي والعلاقات الرعائية بين الشرق والغرب كيفما كانت وأيّما كانت منزلة بطرس بين الرسل»[4] اعني اذا كان التاريخ يشهد بان البابا كان رئيساً عاماً مطلقاً على الكنيسة كما يدَّعي الآن يكون الحق له في دعواه وان يكن الكتاب لا يشهد بها لا لبطرس او لغيره.

(١) جزء ١ صفحة ١٢ (٢) صفحة ١٣ (٣) صفحة ٤١ ـ ٣١
(٤) جزء ١ صفحة ٤١ ـ ٤٤

واذا كان التاريخ يشهد بان هذه الدعوى كانت ولم تزل دعوى يحلم بها البابا وات حلماً ولكنهم لم ينالوها فعلاً يكن الحق عليهم وخطيئة انشقاق الكنيسة الناشئ عنها في عنقهم ويكونوا هم المطالبين امام الديان العادل بكل الخراب الذي كانت تلك الاميال الايوسفورية سبباً له* ولكن ماذا رأينا؟ رأينا امرين مهمين: اولاً ان دعوى باباوات رومية على الكنيسة ومطاليبهم منها لم تكن من البدء واحدة بل مع الزمان نمت وعظمت وكثرت. وثانياً ان الكنيسة لم تخضع ولا في عصر من الاعصر ولا في مجمع من المجامع ولا في ظرف من الظروف لارادة البابا المطلقة والا اعترفت به رأساً لها وحاكماً آمراً على الذين يتوهمونها.

فاما مبدأ دعوى الباباوات التي يظهر ان أساسها الاول كان المناخ الروماني عينه كما قلنا[1] فتاريخه من مجمع سرديكي المقدس الذي فيه استحسن بعض اساقفة الغرب ان تستأنف قضايا الاساقفة الغربيين الى يوليوس اسقف رومية[2] من ذاك الوقت بدأ الباباوات يدعون بامتياز لهم في الاستئناف بنوه في اول الإمر على قانون المجمع المسكوني الاول. وكانت دعواهم على هذه الصورة حتى المجمع المسكوني الرابع. ومن المجمع الرابع الى القرن التاسع اخذوا يبنون امتيازهم هذا على خلافتهم للقديس بطرس الرسول الذي ادعوا له امتيازاً جوهرياً على سائر اخوته الرسل. ومن القرن التاسع وما بعده اخذوا يتوسعون في هذه الدعوى الى ان جعلوها دعوى رئاسة وسلطة مطلقة على الكنيسة كلها بكل رؤسائها ومجامعها وأقسامها.

واما كيف الكنيسة كلها في كل اعصرها ومجامعها لم تعترف بهذه الدعوى بل كلما كانت تقوم كانت ترفضها وتنبذها فقد اتضح من سياق التاريخ كله. ففي القرن الاول حيث بحثنا في علاقات القديس اكليميس اسقف رومية بكنيسة كورنثوس وفي القوانين والاوامر الرسولية وجدنا ان

(١) صفحة ٤١ ـ ٤٢ (٢) صفحة ١٤٣ ـ ١٤٨

الكنيسة لم تعرف من تلك الدعوى شيئاً مطلقاً ولا تصورتها اصلاً. وكذلك في القرن الثاني حيث بحثنا في شهادتي القديس ايريناوس وترتيليانوس وفي الخلاف على تعييد الفصح. ومثله في القرن الثالث حيث بحثنا في الخلاف على تعميد الهراطقة وفي شهادات القديس كبريانوس وفي العلاقة بين ديونيسيوس البطريرك الاسكندري واكسيستوس بابا رومية وفي حادث بولس السميساطي. ومثله ايضاً في القرن الرابع حيث المجمع المسكوني الاول حدد لكل اسقف دائرته ومن جملتهم اسقف رومية وحيث بحثنا في علاقة القديس اثناسيوس الكبير باسقف رومية وفي شهادات القديس باسيليوس وايارونيموس وفي قوانين مجمع انطالكية ومجمع سرديكي الذي قام فيه الاسقف الاسباني أوسيوس القرطي يستحسن ان يكون استئناف قضايا اساقفة الغرب وجدهم الى شخص يوليوس اسقف رومية ويطلب موافقة المجمع على اقتراحه. وحيث بحثنا في حوادث المجمع المسكوني الثاني واقواله وهلّم جرًّا الى القرن التاسع الذي فيه قامت الدعوى على وجه ظاهر وقامت الكنيسة ضدها وكانت تارةً تقطع العلاقات بينها وبين الباباوات وتارة ترجع المخابرات حتى القرن الخامس عشر الذي فيه انقطعت تماماً كل علاقة بينها وبين كنيسة رومية بسبب هذه الدعوى وبسبب البدع التي قامت في تلك الكنيسة.

وما دام ذلك كذلك يكون التاريخ شاهداً عدلاً ضد رئاسة البابا فضلاً عن سلطته وبقية دعواه. لأنه يشهد بانه لم يكن ولا مرة رئيساً على كل الكنيسة بل ما زال الى اليوم يحلم بهذا الامر حلماً ولا يناله فعلاً. وانما هو رئيس على الكنائس الغربية فقط كما ان كل واحد من البطاركة رئيس على اقليمه ضمن دائرة كرسيه. وبما ان هذه الدعوى اعنى دعوى الرئاسة والسلطة هي كانت السبب الاصلي لانشقاق الكنيسة فالذي خلقها ووافق عليها هو المنشق عن الكنيسة لا الكنيسة منشقة عنهُ. لأن الانشقاق انما هو الابتعاد عن التعاليم الصحيحة والاستقلال بالتعاليم الخصوصية. فكل جماعة او هيئة تخترع بدعاً وتعاليم غريبة عن التعاليم المسلَّمة من الرب ورسله ومن الكنيسة بوجه الاجمال تنسلخ عن شجرة الكنيسة مثقلة ببدعها وتصير منشقة وباللفظ اليوناني «سشينوماتيك» ومبتدعة وباليونانية «هيريتيك او هرطوقية».

فالذين يلقبون الكنيسة الارثوذكسية بكلمة «سشيزماتيك» اي المنشقة فانما ينعتونها بما هم عليه فعلاً. لأن الكنيسة الارثوذكسية مشهود لها منهم انفسهم بانها لم تخرج عن التعاليم القديمة الصحيحة كما قال مرقس مطران افسس للبابا اوجيانيوس واسكته. فلا يمكن ان تكون مشقة. اما فرع الكنيسة الرومانية فلا يقدر ان يفتخر بفخرها البتة لانه لسوء الحظ نبتت فيه اشكال كثيرة من البدع كما رأينا فاثقلته وسلخته عن شجرة الايمان الصحيح واصولها ومن ثم انشق وصار منشقاً حقيقةً. والذي يقول خلاف هذا القول يضطر ان يسلم بان الكنيسة كلها جمعاء وفي جملتها كنيسة رومية كانت منشقة في ايام آريوس ونسطوريوس وسابيليوس واوطيخا وغيرهم لأنها لم توافقهم على بدعهم. وهذا وان كان غريباً في بابه فهو في الواقع نتيجة طبيعة لقول اصحاب الدعوى البابوية. وربما كانت المسؤولية على الباباوات فيه اكثر منها على رؤساء تلك البدع لأن الدافع الذي دفع اولئك المبتدعين الى الشقاق ربما كان في اوله ضعف فهمهم الذي تحول الى ضلال وعناد وربما كان ذاك الضلال في اوله صادراً عن غيرة على الحقيقة التي تصوروها في جانبهم. واما الدافع في الشقاق البابوي فليس الغيرة على الحقيقة ولا الضلال وعدم الروية بل الكبرياء وحب السلطة والاستبداد والاثرة والاستعباد مع التشبث والعناد الى درجة صاروا فيها يخاطرون بكل حظيرة المسيح ولا يخاطرون بشيء منه. فلا يجوز اذاً ان نسمي الارثوذكس مشاقين لأنهم لا يخضعون للكبرياء الروماني هذا ما يقوله الارثوذكس دحضاً لدعوى البابوين وتسميتهم اياهم مشاقين».

على ان الغربيين ارادوا ان يخلقوا للكنيسة الارثوذكسية اسماء أخرى يسمونها بها فسموها فوتيوسية او فوتيه نسبة الى فوتيوس[1]. وسموها ايضاً افسسية نسبة الى مرقس الافسسي[2] وهلّم جرًّا. ولكن الارثوذكس يجيبونهم

(١) جوزيف دي ميستر في البابا ٤: ٤ و ٥

(٢) محيط المحيط: كلمة «فسفس»

بان هذه الاسماء وأمثالها ليست في جانب الحقيقة الا مثل الهباء الذي تذريه الريح لأن الاشخاص الذين تسمى باسمائهم عادة الطوائف الخارجة عن الكنيسة يجب ان يكونوا اصحاب بدعة قاموا بها كآريوس ونسطوريوس اللذين منهما الآريوسيون والنسطوريون الخ. ففوتيوس ومرقس لم يقوما ببدعة جديدة في الكنيسة بل بالعكس انما دفعا عن مبادئها المقدسة القديمة وحفظاها من الذين قاموا فيها بالبدع كما فعل قبلهم كل الآباء كاثناثيوس وكيرلس وغيرهما فالذي يسمي الكنيسة الارثوذكسية فوتيوسية او افسسية لا يفرق عن الذي يسميها باسيلية وغريغورية وكيرلية واثناسية وبطرسية وبولسية وبالاجمال رسولية ويسوعية (بالمعنى الاصلي) ومسيحية حقيقية اي مستقيمة الرأي. وأما تسمية الكنيسة الغربية بالبابوية فهي ولا ريب في محلها لانحراف تلك الكنيسة عن المبادئ القديمة الحقة الى تمسكها بالمبادئ البابوية الجائرة وربطها بالإيمان بالبابا كل قاعدة من قواعدها وكل مبدإٍ من مبادئها وكل تعليم من تعاليمها حتى امر الخلاص والهلاك بقولها ان الذي لا يؤمن بالبابا لا يمكن ان يحصل على الخلاص وان آمن بكل قواعد الدين. والذي يؤمن بالبابا يخلص وان خرق قواعد الدين وخالف ايمان البابا نفسه.

هذا ما اردنا ايضاحهُ في مؤلفنا هذا الذي لا يخفى على الخبير ما تكبدناه في جمعه من العناء خدمةً للحقيقية والكنيسة المسيحية اجمالاً بكل اخلاص وصدق من دون ان نميز ادنى تمييز بين طائفة وطائفة وعلى كل حال نسأل القراء الكرام عذراً على ما فيه من السهو او الزلل معترفين بشدة ضعفنا وصعوبة العمل ونسأله تعالى ان يؤيدنا ويؤيدهم على صخرة الايمان الحقيقي ويحمينا من البدع والهرطقات ويرد الى حظيرة كنيستهِ كل الذين ضلوا عنها لتأتي ساعة نمجد فيها مراحمه برأيٍ واحد وقلبٍ واحد اذ نكون رعيةً واحدة لراعٍ واحد له المجد والقدرة والسجود دائماً ابداً آمين.

ملحق بتاريخ الانشقاق

من بعد ان أتمَّ السلطان محمد الثاني فتح القسطنطينية سمح للمسيحيين بحرية اقامة شعائرهم الدينية تحت حمايته ممتعين بالامان التام. واذ علم أن الكرسي القسطنطيني بلا بطريرك سألهم عن الشخص الذي يريدونه وسر سروراً عظيماً حين اجابوه انهم يريدون الراهب جناديوس سخولاريوس. لانه سمع بغيرته على كنيسته وبمقاومته كنيسة رومية وبمحبة الشعب له. فأصدر امرٌ بحضروه. ومن بعد البحث والتنقيب وجد اسيراً عند احد الاتراك في جهات ادرنه. فلما حضر دعاه الى حضرته وخاطبه في جملة مواضيع واثنى على علمه وواسع اطلاعه ومن ثم امر بانتخابه على الاصول المرعية في ايام ملوك الروم. وقد كان ذلك في اواخر سنة ١٤٥٣ او وائل سنة ١٤٥٤. فجرى الانتخاب في كنيسة الرسل القديسين وهناك شرطن ودعي جناديوس الثاني. وبعد الشرطونية دعاه السلطان الى غذاء على مائدته. فلما مثل بين يديه استقبله بكل ترحاب ومنحه امتيازات كثيرة وسلمه عصا الرعاية مزينة بحجارة ثمينة علامة للسلطة كما كان يفعل قياصرة الروم. ثم رافقه الى دار البلاط رغماً عن استرحام البطريرك ان يختصر السلطان هذا التنازل العظيم. وفي الدار كان رأس من الجياد السلطانية المطهمة عليه عدة ملوكية مزينة بافخر زينة فاركبه اياه وامر كل موظفي البلاط ان يرافقوه بكل نظام بعض امامه وبعض وراءه الى كنيسة الرسل واعطاه حرساً خاصاً من انكشارية جنوده وبالاختصار لم يترك عادة من عادات قياصرة الروم الا واجراها بل زاد عليها. ولكي يؤيد الامتيازات التي منحه اياها اعطاه البراءة السلطانية ومن مقتضاها ان البطريرك له السلطة العليا على ادارة كل الكنائس والاديرة. وانه له الحق ان يعزل المطارنة والاساقفة. وان الباب العالي بناء على تقريراته يصدر الفرمانات المقتضية. وانه هو الحاكم الاعلى في قضايا الاكليرُس وحكمه عليهم نافذ وانها اذا صدرت دعوى على اسقف امام الباب العالي لا يحق له أن يضبطه ويحاكمه بلا رضى البطريرك. وان الكنيسة المسيحية مسموح لها بكل الاملاك والمعابد المعينة منذ القديم لاقامة الشعائر الدينية ولكن لا يسمح ببناء غيرها. وانه لا يغضب احد من المسيحيين على التدين بدين الاسلام الا اذا اراد الشخص بحريته. ثم انه منحه ايضاً حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية المختصة بالاروام بكل انواعها اذا عرضت عليه منهم ومنحه حقاً مطلقاً ان يحكم في الزيجات وما يتعلق فيها وان يضرب ضرائب على الاكليرُس والعوام من ابناء امته للقيام باحتياجات الكنيسة وان يكون عنده قواسة ومحضرون. ومنح الكنيسة الحق ان تتصرف باملاكها واوقافها تصرفاً حراً. وان يكون البطريرك

وايمة الدين معفيين من الاموال الاميرية عن هذه الاملاك. وان يكون كل مسيحي مكلفاً أن يوقف في وصيته ثلث ثروته للكنيسة لتستولي عليها بعد مماته. وكل هذه المواد أمر بتنفيذها بالقوة عند الحاجة. وبالاجمال جعل البطريرك رئيس ملة الروم لا دينياً فقط بل مدنياً ايضاً. ومثل هذه الحقوق تقريباً منح المطارنة والاساقفة في كل جهات المملكة وامر بانه لا يجوز تقديم شكوى على واحد منهم الا امام الديوان في العاصمة برضى البطريرك كما ذكرنا(١).

وقد اقام البطريرك جناديوس على الكرسي خمس سنوات ونصف وفي ايامه عقد مجمع سنة ١٤٥٦ قرر اقامة عيد سنوي للقديس مرقس متروبوليت افسس في ١٩ كانون الثاني من كل سنة. وقد ذكر المدققون ان في ايامه بدأ استعمال البطارکة النسر ذا الرأسين في الخدم وحمل الشمعة امامهم مطوقة باكليلين على شمعدان خصوصي من فضة اسمه «ديفامفولون» يحملها اكليري خصوصي له وظيفة «بريميكيريوس» وهاتان العادتان ورث البطارکة استعمالهما عن ملوك الروم بعد انقراضهم. وكذلك بدأوا يستعملون لبس التاج من هذا العصر وعلى قول آخرين من ايام البطريرك كيرلس لوكاري الذي كان بطريركاً على الاسكندرية. فلما نقل الى القسطنطينية حافظ على عادة لبس التاج الذي كان البطارکة الاسكندريون وحدهم يلبسونه. وكذلك صار البطارکة يلبسون الصاكوس في كل خدمة بعد انهم كانوا يلبسونه ثلاث مرات فقط في السنة اعني في اعياد الميلاد والفصح والعنصرة(٢) وباذن السلطان محمد الفاتح جدد البطريرك الاكاديمية البطريركية ولكنه في سنة ١٤٥٩ استعفى وذهب الى دير وخلفه البطريرك ايسيدوروس الثاني وكان رجلاً فاضلاً مشهوداً له بالتقى وكان في هذا الوقت بطريركاً انطاكياً ذوروثاوس الصيدناوي مطران صيدنايا قبلاً.

وفي سنة ١٤٦٣ انتقل ايسيدوروس وخلفه صفرونيوس الاول وبعد سنة عزل عزلاً بدسائس اهل الفتن وخلفه البطريرك يواصف الاول وكان رجلاً هادئاً ومحباً للسلام ولكنه بسبب مخاصمات الاكليرُس ومسألة جاورجيوس اميروتسي الطرابزوني الذي كان من كبار الموظفين عند السلطان سئم الحياة فرمى نفسه في بئر. غير ان الحاضرين وقتئذ انتشلوه حياً. اما مسألة اميروتسي فهي ان هذا الرجل اراد ان يتزوج ابنة حاكم اثينا المشهورة بالجمال وزوجته حية بعد واذ لم يسمح له البطريرك عرض الامر الى السلطان فاجاب السلطان طلبه وامر البطريرك باعطاء الرخصة واذ لم يرضخ

(١) باباريغو ٥: ٤٧٧ ــ ٤٧٩ فريد بك: ٧١ ملا ١٥: ١٥: ٤
(٢) جدعون صفحة ٣٠ ــ ٣٩ وذورثاوس ١: ٢٢: ١ ــ ٢٠

للأمر قصت لحيته على المنبر الملوكي وقطع انف مانوئيل رئيس الطقس الكنائسي لأنه كان على رأي البطريرك وعزلا* ومن بعد عزل البطريرك انتخب خلفاً له مرقس الثاني وكان رجلاً صالحاً وعالماً غير انه بعد سنة عزل بدسائس رجال الاكليرس. فلما رأى اهالي طرابزون دوام النزاع بين الاكليرُس والبطارکة ارسلوا الف ذهب الى السراي واسترحموا ان يكون الشخص الذي يريدونه هم بطريركاً فصدر الامر بذلك وصار سمعان الطرابزوني سنة ١٤٧٢ بطريركاً وكان رجلاً فاضلاً ومحبوباً من الجميع غير ان مرقس كتب الى مطارنة الكرسي ليجتمعوا في القسطنطينية فاجتمعوا وانقسموا وكان بعضهم مع مرقس وبعضهم مع سمعان فلما رأت ذلك الست ماري (ماريا) ربية الملك قدمت الفي ذهب وطلبت عزل سمعان وتعيين ديونيسيوس الاول مطران فيليه تلميذ مرقس الافسسي فاجيب التماسها وكان رجلاً فاضلاً وصالحاً ومن ذلك الوقت جرت العادة ان يدفع كل بطريرك الى الخزينة ٢٠٠٠ ذهب سنوياً دفعاً الزامياً. وقد اقام ديونيسيوس على الكرسي نحو ٦ سنوات ولم ينج من دسائس الاكليرُس. فانهم اشاعوا عنه انه حين كان اسيراً انكر الايمان غصباً واختتن. اما هو فأنكر ذلك. فعقد مجمع للنظر في ذلك وبعد الفحص وجدت الدعوى مكذوبة غير ان البطريرك استعفى وذهب الى دير فرجع بعده البطريرك سمعان الى الكرسي سنة ١٤٧٨ وفي مدته هذه عقد مجمع كبير في القسطنطينية نفسه مسكونياً وقد فحص عمل مجمع فلورانسا وحرم معتقداته وسن فرضاً يشتمل على سؤالات وأجوبة وصلوات تقام على الراجعين من الكنيسة اللاتينية الى الارثوذكسية ومختصر هذا الفرض هو «تبارك الله وما يليها ــ والمزمور الخمسون ــ ثم يوقف الشخص أمام الباب الملوكي ويسأل عما اذا كان يرفض العقائد اللاتينية أعني الانبثاق والفطير الخ ــ فيجيب بالايجاب ــ ثم يسأل عما اذا كان يقبل التعاليم الارثوذكسية بلا زيادة كلمات المجامع الخ فيجيب بالايجاب وهكذا عما اذا كان يحرم المخالفين ويرفض مجمع فلورانسا ولا يشترك مع أصحاب الفطير. ويثبت في الايمان الارثوذكسي الخ ــ فيجيب بالايجاب. ثم يتلو دستور الايمان ومن ثم يمسح بالميرون فتدهن جهته وأذناه وذقنه ويداه وصدره وركبتاه ويتلى عليه الافشين ــ ثم المزمور «ارفعك يا الهي وملكي». ثم ذكصا. كانين. يامن هي أكرم الخ. الله يتراءف عليها الخ. والطلبة والختم». ويؤخذ علينا صك صورته مقررة(١).

(١) مجموع القوانين لرالي ويوتلي جزء ٥: ١٤٣ ــ ١٤٧

وبعد ثلاث سنوات جاء كاهن متوحد صربي الاصل رديء الاخلاق ومدمن للخمر اسمه رافائيل طلب ان يرتقي الكرسي البطريركي بوسائط وبعض من ذوي الحل والعقد في السراي ووعد بدفع مبلغ ٥٠٠ علاوة على الالفين فصدر الامر بعزل سمعان فعزل وصار بطريركاً وهو رافائيل الاول. ولكن مطران هرقلية لم يرض ان يسلمه العصا حين الشرطونية حسب العادة فسلمه اياها مطران انكيرا. اما رؤساء الكهنة فأجبروا على الاشتراك معه في الخدمة. ومما يذكر عن البطريرك رافائيل انه في خدمة الآلام وقع في الكنيسة من سكره وتقصف العصا الرعائية من يده قطعاً وكان الشعب يكرهه كرهاً شديداً لرداءة أطواره. واذ لم يستطع ان يقوم بدفع المال الذي وعد به ألقي في السجن مقيداً بالحديد الى ان مات فيه. وانتخب بعده البطريرك مكسيموس الثالث سنة ١٤٦٧ وهو مانوئيل رئيس الطقس الذي قطع انفه كما رأينا. وكان عالماً بالشرائع الكنائسية ومتضلعاً في اللغات اليونانية واللاتينية والعبرانية والعربية وكانت الكنيسة في مدة بطريركيته مرتاحة من القلاقل وقد رعاها بكل صلاح وتقى مواظباً على الوعظ والتعليم حتى وصلت شهرته الى مسامع السلطان فدعاه وأمره ان يترجم له دستور ايمان المسيحيين فترجمه. وقد توفي سنة ١٤٨٢ والكنيسة تعيد له في ١٧ تشرين الثاني[1] ومن بعد وفاته انتخب نيفون الثاني مطران ثسالونيك وكان رجلاً عالماً وفاضلاً اكثر من كل معاصريه وكان مداوماً على الوعظ والتعليم وموضوع اعجاب الجميع ببلاغة خطبه ولكنه بعد ثلاث سنين عزل بدسائس اميروتسي لأنه لم يقدم له هدايا. وكان وقتئذٍ على عرش آل عثمان السلطان بايازيد الثاني الذي خلف السلطان محمد الفاتح من سنة ١٤٧٣. وبعد عزل نيفون دعي الى الكرسي البطريركي ديونيسيوس الاول مرة ثانية وكان شيخاً طاعناً في السن ولكنه أظهر غيرة عظيمة على الكنيسة وعاش عيشة تقوية زاهداً كل المقتنيات ممارساً الصوم والصلاة متصفاً بالتواضع وفعل الخير حتى لم يكن يخرج الا ماشياً على الاقدام. وقد أقام سنتين ونصف على الكرسي ثم رجع الى الدير. وأقام باقي حياته. والكنيسة الارثوذكسية تعيد له بخدمة خصوصية طبعت سنة ١٨١٩ ولم يزل جمسه في دير كوسيتزا في ابرشية دراما. وبعد استعفاء ديونيسيوس انتخب البطريرك مكسيموس الرابع سنة ١٤٩١ ولكنه لم يكن ممدوح السرة فعزل في سنة ١٤٩٧ بسبب علاقات ذميمة مع راهب يدعى غبرئيل وقرر المجمع اعادة البطريرك نيفون الى الكرسي فاعيد. ولكنه بعد

(١) جدعون

سنة استعفى لأن مكسيموس وأصحابه كانوا يقاومونه حتى جعلوا الكنيسة في قلاقل متواصلة بدسائسهم ومن ثم انتخب البطريرك يواكيم مطران دراما وكان شاباً لا يزيد عن الثلاثين في العمر ولكنه كان عنوان الفضيلة والصلاح والتواضع محبوباً من الجميع. وقد سافر الى بلاد الكرج وحصلت له كرامات ومساعدات عظيمة من امرائها ومن بعد رجوعه عزل بدسائس مطران سيليزيا الذي وعد ان يزيد الفردة السنوية الى ثلاثة آلاف ذهب اذا صار بطريركاً[1].

وفي الغرب توفي البابا نيقولاوس سنة ١٤٥٥ فخلفه البابا كالستوس الثالث الاسباني وقد جمع مالاً طائلاً ليباشر حملة ضد الاتراك ولكنه توفي سنة ١٤٥٨ وترك ١٥٠ الف ذهب وخلفه اينياس سيلفيوس الايطالي وسمي البابا بيوس الثاني. وكان رجلاً عالماً ومشهوراً كتب ضد السلطة البابوية كتابات كثيرة مدافعاً عن مجمع باسيليا. ولكنه لما صار بابا انقلب انقلاباً تاماً الى عكس مبادئه وكان يؤيد الاستبداد البابوي تأييداً شديداً وتحت هذه الغاية عقد مجمعاً سنة ١٤٥٩ وطلب تأليف حملة ضد الاتراك ولكنها لم تتم. وفي ١٨ كانون الثاني سنة ١٤٦٠ انكر ان للمجمع سلطاناً على البابا وحكم على مجمعي قسصديا وباسيليا بالهرطقة بعد مقاومات شديدة ورشق بالحرم الشديد الكونت سيجسموند دوق اوستريا لأنه طلب ان يستأنف الى مجمع مسكوني. وكذلك عزل ديدريخ أمير موغونديناك سنة ١٤٦١ من وظيفته لهذا السبب عينه وسأل من لويس الحادي عشر ملك فرنسا ابطال الخط الشريف المعروف «بالنظام الفعلي» (صفحة ٨٠) الذي كان يتعلق بالمجامع وكان محباً للمال الى درجة مفرطة جداً حتى انه لم يرض ان يعترف بالكونت دي ايبانبوج رئيس اساقفة موغونديناك الا بعد ان اخذ منه مبالغ طائلة. ومع ذلك رجع وعزله وعين بدلاً منه ادولف دي ناصاب لأنه قدم له هدايا اوفر من هداياه. وفي ٢٦ نيسان سنة ١٤٦٤ نشر منشوراً بابوياً الى المدرسة الكلية في كولونيا به حكم على كل المؤلفات التي كتبها هو قبلاً ضد السلطة البابوية دفاعاً عن مجمع باسيليا وقال ان بيوس الثاني يجب ان يطاع واما اينياس سيلفيوس (اي هو نفسه) فيجب ان يلعن. وبعد هذا التصريح بمناقضة نفسه لنفسه مات في تموز في السنة عينها[1]. وخلفه البابا بولس الخامس ابن اخي اوجانيوس الرابع وكان رجلاً مفسوداً مبغضاً للعلماء وللأفاضل اجمالاً حتى كان يسميهم هراطقة ولا

(١) ملا ١٥: ١٢: ٧ و ٨ وموسهيم ٣: ١٥: ٢: ٢: ١٤

يقبلهم في بلاطه وكان يحرض سكان رومية ان لا يدخلوا اولادهم المدارس قائلاً بان القراءة البسيطة والكتابة تكفيانهم. وقد عزل جملة علماء من مناصبهم منهم المؤرخ بلاتينا كاتب الديوان البابوي. على انه كان محباً للمجد الى درجة الهوس هائماً بالاحتفاء به ايام الاحتفالات الرسمية مولعاً باللآلئ والحجارة الكريمة ومسرفاً ذميم الآداب. وفي سنة ١٤٧٤ توفي وخلفه سيكستوس الرابع وكان في الاصل ابن سماك تهذب بالعلوم والمعارف وكان محباً للعلماء غير انه كان ذاوساس كثيرة واطئ الآداب الى الغاية لا يستحي بالقبائح لا سراً ولا علناً وكان محباً للمال محبة مفرطة ايضاً حتى اقام بيوتاً عمومية للزواني ووضع عليها رسماً يتقاضاه من كل زانية. وقد عين اولاده امراء في جهات متنوعة وداس كل شريعة وعدل ليزيد غناه ويرفع رايته الى السماء . وقد كتب في احد العنوانات عن نفسه انه اله. وهو الذي عين رسمياً البدعة البابوية في الاعتقاد بالحبل بلا دنس وعين اعياداً غيرها كعيد القديس يوسف وحنه وفرانسوا وغيرها تحت غاية جمع المال. وفي سنة ١٤٨٥ توفي وخلفه البابا اينوشنسيوس الثامن وكان اكثر فساداً من الذين سبقوه وكان له ١٦ ولداً ثمانية بنين وثماني بنات يزورونه علناً ويعتني فيهم لذا كان اهل رومية يسمونه تهكماً ابا الوطن وقد نظموا له بهذا المعنى بيتين لاتينيين كما يأتي.

ان المؤذي(١) ولد ثمانية بنين و(ولد) وبنات بعددهم. فهذا تستطيع ان تسميه رومية بعدل اباً (لها) ــ وبالحقيقة ان الفساد في هذا العصر كان سائداً سيادة ما عليها من مزيد حتى انه في سنة ١٤٩٢ لما توفي البابا المذكور استطاع ان يرتقيه بمشترى اصوات الكرادلة بالمال رجل ما ذكر التاريخ اشد منه قباحة ورجاسة ألا وهو الكردينال رودريك برجيا الاسباني الذي سمي اسكندر السادس ويليق به ان يدعى نيرون الباباوات. لأن الشرور والمعاصي والرذائل التي ارتكبها تؤيد بكل تحقيق انه كان خالياً من الديانة لا يعرف حشمة ولا حياء ويكفي ان نقول انه لم يأنف من ان يرتكب المعاصي مع ابنته لوكريتيا نفسها. حتى ان المؤرخين يسمونه تنيناً ووحشاً لأنه دنس المعمور بترفعه وسمه يعنى كبرياءه المفرط وفساده الشديد وطمعه الغريب. فكان يبيع كل شيء مقدس ويهب ثمنه لابنه قيصر برجيا ويأخذ اموال الكرادلة والكهنة ويعطيها له والذي كان منهم يمتنع عن التسليم كان يدس له السم ويقتله حتى قتل

(١) كلمة مؤذي تفسير للكلمة اللاتينية «نوشنس» وهو اسم البابا اينوشنس اي الغير المؤذي بعد حذف اداة السلب اللاتينية «اين» المدغمة نونها بنون نوشنس.

كثيرين. وكان له اربعة بنين ولوكريتيا المذكورة. اما ابنه قيصر برجيا فقد قتل اخاه يوحنا برجيا ليأخذ منه مدينة ميلان ومع ذلك رقاه والده الى درجة كردينال. ومع ان الكرادلة كلهم كانوا يكرهونه لم يستطيعوا ان يمنعوا تعديه. ولكن العدل الالهي انتقم منه وكال له بالكيل الذي كان لغيره. فان ابنه قيصر كردينال برجيا اعد خمراً مسمومة ليسقيه للكردينال ادريانوس دي كورنيت الغني في وليمة دعي اليها كبار البلاط. ولكن ساقي الخمر سها عن ذلك وناول الخمر المسمومة للبابا وابنه فشربا منها وعلى اثر ذلك مات البابا واما قيصر فعاش هزيلاً كل باقي حياته(١).

القرن السادس عشر

تاريخ الشرق ــ بعد عزل البطريرك يواكيم في القسطنطينية دعي البطريرك نيفون الى الكرسي ولكنه رفض الدعوة واقام معتزلاً الى آخر حياته والكنيسة الارثوذكسية تعيد له في ١١ آب. ومن ثم انتخب البطريرك باخوميوس الاول ولكنه لم يمكث سوى بضعة اشهر لأن حزب يواكيم زاد الراتب السنوي الذي تدفعه البطريركية ٥٠٠ ذهب فصار ٣٥٠٠ ذهب واخذ امراً بعزل باخوميوس ورجوع يواكيم فرجع. ولكنه بعد سنة توفي. فارجع البطريرك باخوميوس الى الكرسي ورعى الكنيسة بكل حكمة وتقوى مدة ثماني سنوات. وقد عقد مجمعاً وحرم اسقفاً قام على مونمباسيا باذن البابا اسمه ارسينيوس وكان بابوياً. ثم ذهب الى بلاد المجر والفلاخ وجمع اعانة مهمة للكنيسة وفي عودته دس له السم احد خدمه الراهب ثاوذولوس في مدينة سيلبريا وتوفي. فنقلوه على عربة الى القسطنطينية ودفنوه فيها. وفي هذه المدة توفي ايضاً السلطان بايازيد الثاني وخلفه السلطان سليم. وبعد وفاة باخوميوس انتخب البطريرك ثاوليبتوس واقام على الكرسي ثماني سنوات أتهم في آخرها تهماً تجرح آدابه فتألف مجمع لفحص تلك التهم ولكن قبل عقده توفي البطريرك واستتب السلام الذي اوشك ان ينحل وفي مدته توفي السلطان سليم وخلفه السلطان سليمان ١٤١٩. فانتخب البطريرك ارميا مطران صوفيه وكان رجلاً وديعاً وعاقلاً مزيناً بفضائل كثيرة ومحبوباً ومن الجميع ولكنه كان امياً. وقد ذهب لزيارة الاماكن المقدسة فابطأ متجولاً من مكان الى آخر. فاجتمع الاساقفة وعزلوه ولأجل اقناع اولياء الامور بقبول عزله زادوا

(١) ملا ١٥: ١٢: ٩ ــ ١٢ وموسيهم ٣: ١٥: ٢: ٢: ١٤ و ١٥

الفردة السنوية ٥٠٠ ذهب فصارت ٤٠٠٠ ذهب وانتخبوا البطريرك يوانيكيوس . غير ان الاكثرين والشعب اعتبروه متعدياً ولم يرضوا ان يقبلوا يده. اما البطريرك ارميا فلما بلغه الخبر طلب من البطاركة الآخرين الاسكندري والانطاكي والأورشليمي (وكانوا وقتئذ في اورشليم وكان على الكرسي الانطاكي البطريرك ذوروثاوس ابن الصابوني الذي خلف البطريرك ميخائيل من اوائل القرن) ان يشاركوه في خدمة الاسرار ويحرموا يوانيكوس والذين ساعدوه على تعديه ففعلوا ثم عاد الى القسطنطينية فاستقبله الشعب بكل فرح وابتهاج وذهبوا الى السراي السلطانية يسترحمون اعادة ارميا الى كرسيه ووجدوا بدفع الفردة مع الزيادة فامر السلطان بالنظر في حقوقهم وعقد مجمع خلع يوانيكيوس واعاد ارميا. اما يوانيكيوس فذهب الى دير ومات فيه. وفي سنة ١٥٤٥ باشر ارميا سياحة الى جهات المجر والفلاخ ولكنه عندما كان راجعاً منها توفي على الطريق. وبعد وفاته عقد مجمع بحضور جرمانوس بطريرك اورشليم قرر ان لا ينتخب بطريرك الا بعد حضور مطارنة كرسيه اما كلهم او اكثرهم للانتخاب. لكن هذا القرار لم يراع لان وجوه الشعب وبعض المطارنة طلبوا حالاً انتخاب ديونيسيوس الثاني مطران نيقوميدية فاضطر المطارنة الموجودون ان ينتخبوه وكان في هذا الوقت بطريركاً على انطاكيه ميخائيل ابن الماوردي الذي خلفه البطريرك ذوروثاوس. وفي سنة ١٥٥٥ توفي ديونيسيوس فخلفه يواصف الثاني مطران ادرنه وكان رجلاً جليلاً ومقبولاً يعرف اللغات العربية والتركية والفارسية وقد سعى هذا البطريرك في تنزيل الفردة السنوية الى الفي ذهب فقط فأجيب وقد بنى بنايات كثيرة في الدار البطريركية وصرف عليها من جيبه الخاص وجمع للكنيسة اموالاً طائلة من روسيا وضع حساباتها تحت نظام ومراجعة سنوية وارسل شماساً يدعى ديمتريوس الثسالونيكي الى ويتمبرج ليقف على تعاليم البروتستانت التي ظهرت من عهد قريب. وكان محباً للعلوم والمعارف ومعتنياً بها وسنداً قوياً للعلماء. ومن حيث انه شدد على الاكليروس ليمنع كل سوء استعمال بينهم ابغضوه وحنقوا عليه. ومن ثم حين عقد مجمعاً للنظر في اصلاح شؤون الكنيسة مؤلفاً من ٥١ رئيس كهنة دارت الدائرة عليه لأن المجمع حكم عليه بالسيمونيا وخلعه سنة ١٥٦٥ وقرر ان كل بطريرك يقبل مالاً عند شرطنة الاساقفة يكون محروماً من ذاته(١). ثم انتخبوا متروفانس مطران قيصرية البلغاري الاصل. وفي سنة ١٥٦٦ توفي السلطان سليمان وخلفه السلطان سليم الثاني. وفي سنة ١٥٧٢ استعفى

(١) ملا ١٦: ٥: ١ ـ ٣ وجدعون ٤٩٥ ـ ٥١٥ وموسيهم ٤: ١٦: ٣: ١: ٢: ٧

متروفانس طوعاً وانتخب ارميا مطران لاريسا وكان جلاً جليلاً مزيناً بكل فضيلة مواظباً على مطالعة الكتب الالهية والوعظ في الكنيسة. وقد عقد مجمعاً اعاد الحرم ضد السيمونيا وشيد الدار البطريركية والكنيسة اكثر من كل الذين سبقوه وعمل أعمالاً مجيدة خلدت له ذكراً صالحاً. وقد ترك لنا ثلاث رسائل الى علماء البروتسانت في المانيا بها يشرح الاعتقادات الارثوذكسية ويجيبهم عن عدة سؤالات سألوه اياها. وفي هذه المدة توفي السلطان سليم الثاني وخلفه السلطان مراد الثالث سنة ١٥٧٥. وفي سنة ١٥٧٩ عزل البطريرك ارميا واعيد البطريرك متروفاين ولكنه بعد تسعة اشهر توفي فاعيد البطريرك ارميا. وفي ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٥٨٣ عقد مجمعاً بحضور البطريرك الاسكندري سيلبستروس قرر رفض الحساب الجديد الذي نشره البابا غريغوريوس الثالث عشر. وفي هذه السنة عينها جاءت فرقة من طغمة الجزويت التي نشأت سنة ١٥٤٠ واقامت في القسطنطينة. وفي سنة ١٥٨٤ ارسل البطريرك الى البابا غريغوريوس رسالة صرح فيها برفض تعليم البروتسانت وبعدم قبول اصلاح الحساب ومع الرسالة أرسل له هدية اصبع القديس يوحنا الذهبي الفم وبعض ذخائر غيرها. على انه عزل في هذه السنة عينها بدسائس باخوميوس مطران قيصرية الذي كان مدرساً للسلطان محمد الثالث في العلوم الرياضية والفلسفية وخلفه باخوميوس نفسه. وبعد سنة عزل من مجمع حضره البطاركة سيلبستروس الاسكندري ويواكيم ضد الانطاكي ابن القس اسحق من قرية صافيتا وانتخب بعده ثاوليبتوس الثاني وكان رجلاً وقوراً وميهيباً يعرف اللغة التركية جيداً ولكنه بعد سنة عزل ورجع البطريرك ارميا ايضاً وبقي على الكرسي الى نهاية حياته. وفي سنة ١٥٨٨ ذهب الى روسيا لجمع اعانة على عهد القيصر ثاودورس ايفانوفيتش وبطلب هذا القيصر عقد مجمعاً في روسيا قرر في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٥٨٩ ان يكون كرسي موسكو كرسياً بطريركياً واعترف بايوب مطرانها بطريركاً. وفي ١٢ شباط سنة ١٥٩٣ عقد مجمع في القسطنطينية حضره البطاركة ارميا القسطنطيني وملاتيوس الاسكندري ويواكيم الانطاكي وصفرونيوس الاورشليمي صدق على قرار مجمع موسكو وقرر رتبة بطريركها في الجلسة وذكره في الديبتيخا خامساً بعد الاربعة وقرر ايضاً ورفض الحساب الغريغوري الجديد. وفي سنة ١٥٩٥ توفي السلطان مراد الثالث وخلفه السلطان محمد الثالث. وفي هذه السنة ايضاً توفي البطريرك ارميا وخلفه ماتيوس الثاني (متى) مطران باننا. وبعد عشرين يوماً استعفى طوعاً. وخلفه غفرائيل مطران تشالونيك. وبعد خمسة اشهر توفي فاعترض المجمع المنصب على البطريرك الاسكندري ملاتيوس بيغاس فلم يقبله فانتخب ثاوفانس مطران اثينا وبعد سبعة اشهر توفي بغتة صباح السبت العظيم في ٢٦ آذار سنة

١٥٩٧. فانتخب ملاتيوس بطريرك الاسكندري وصدرت البراءة له اما هو فاحتراماً لذلك حضر ولكنه كان يمضي بامضاء المناظر على الكرسي» لا البطريرك . وبعد سنة ونصف استعفى فدعي البطريرك ماتيوس ثانية الى الكرسي وكان يرعاه في نهاية هذا القرن(١).

ثانياً. اما في الغرب فمن بعد وفاة البابا اسكندر السادس سنة ١٥٠٣ انتخب بيوس الثالث ابن اخت بيوس الثاني. وبعد ٢٥ يوماً لبابويته مات مسموماً فعقد مجمع وانتخب يوليوس الثاني بعد ان أقسم اليمين على ان ينفذ قرارات مجمع قسطنديا بعقد مجامع مسكونية. وكانت مدة هذا البابا عبارة عن سلسلة حروب متصلة توسيعاً لدائرة حكومته. حتى انه قيل انه رمى مفاتيح بطرس في نهر تيبر قائلاً بان سيف بولس أفيد له منها كثيراً. وفي أيام هذا البابا عقد مجمع اللاتيران سنة ١٥١٢ الذي يسمونه مسكونياً. ومما يذكر من الغرائب في هذا المجمع هو ان ماركلس كاتب الكرسي البابوي قام في الجلسة الرابعة وسمى البابا «الهاً ثانياً على الارض».وفي سنة ١٥١٣ توفي يوليوس وخلفه لاون العاشر ابن لافرنديوس الميديكي امير فلورانسا وهذا البابا صار كردينالاً قبل ان يبلغ السنة الرابعة عشرة من عمره اكراماً لاخته مادلين التي تزوجها فرنسوا كيفون الابن الغير الشرعي للبابا اينوشنسيوس الثامن. وكان هذا البابا رجلاً عالماً ولكنه كان حطيط الآداب لا يعرف قلبه شيئاً من الشعائر الدينية على الاطلاق ولا كانت تهمه معرفة الامور الكنائسية والعيشة المسيحية بتاتاً. وقد شهد اونوفريوس الغربي ان اهتمامه كله كان منصرفاً في الملذات والقبائح الرجسة من كل نوع وفي الصيد والمحرمات والولائم الغنية. ومع انه كان على هذه الصفات كان رجاله يسمونه في مجمع اللاتيران الهاً أعطي كل سلطان في السماء والارض كما أعطي مخلصنا الخ. وبما انه كان مسرفاً الى درجة عظيمة ومحتاجاً الى الاموال اصدر اوراق الغفرانات وكان يبيعها في كل مكان بالمال(٢). اخيراً مات مسموماً سنة ١٥٢١ وخلفه ادريانوس فيوران الذي سمي ادريانوس السادس وقد اعترف بان الكنيسة تحتاج الى اصلاح ووعد به. ولكن لأنه كان بسيطاً ومستقيماً اكثر من غيره كانوا يسمونه احمق وقليل الادارة وقبل ان يصير بابا كتب رسالة فحواها ان البابا يمكن ان يخطئ في تعليم الايمان ايضاً ولكنه ما نشرها الا بعد ان ارتقى الكرسي البابوي. اما

(١) ملا ١٦: ١١: ١ ـ ١٢ وجدعون ٥١٦ ـ ٤٥١

(٢) ملا ١٦: ١: ٣ ـ ٦

البابويون فيقولون ان هذه الرسالة كتبها لما كان اسمه المعلم ادريانوس فيوران لا ادريانوس البابا وهو قول ضعيف كما لا يخفى. وفي سنة ١٥٢٣ توفي ادريانوس فخلفه اكليميس السابع وهو ابن غير شرعي ليوليانوس المديكي. وفي سنة ١٥٣٤ توفي وخلفه بولس الثالث الذي ينعته التاريخ بكل نعت قبيح لأنه زاد في الفظائع والقبائح عى كل الذي سبقوه كما يشهد اللاتين انفسهم ولم يكن يهمه الشرف ولا مصلحة الكينسة بل كان يسعى كل جهده في ان يغنى اولاده الغير الشرعيين. وقد كتب عنه احد الايطاليين معاصريه يسميه «ضد المسيح» وينادیه بالعبارة الآتية «لقد وضعت في السجن ايها الهامة الكلي الاثم على ارتكابك فعلي قتل اعني قتل امك وقتل ابن اخيك اللذين قتلتهما بالسم ليبقى لك الميراث كله بعد خلاصك من السجن لم توجل من ان تطلب القلنسوة الحمراء (لباس الكرادلة) ولكن المجمع رفضك ثلاث مرات. غير ان اختك شقيقتك يوليا فرنيزيا تغلبت على الصعوبات. لأن (البابا) اسكندر السادس لخوفه من غيظها وغضبها حين تهددته بقطع علاقات الوداد والمحبة .... بينها وبينه ادخلك في صف الكرادلة. ثم انك قتلت اختك الثانية بالسم وهذه ايضاً كانت حشمتها قليلة. ولما كنت قاصداً في ابرشية انكون في رئاسة يوليوس الثاني خدعت بكل اثم بنتاً من عذارى تلك المدينة وبدعواك انك من اشراف اقرباء قاصد تلك المدينة سلبت حشمتها. هذا الاثم قد عاتبك عليه عمها الكردينال انكون باقوال مرة جداً امام اكليميس رئيس الكهنة الذي أسر حين فتحت المدينة. وقد ضبطك نيقولاوس كيركادس وانت ترتكب الاثم بزوجته لورا فرنيزيا ابنة اخيك ووسمك بطرف سيفه بجرح وعلامة الجرح لم تزل ظاهرة فيك. وماذا اقول في امر ابنتك قسطنديا التي انفسدت معها مراراً كثيرة؟ والتي لكي تستطيع ان تتمتع بها باكثر طمأنينة قتلت بالسم زوجها بوسيون الذي بسبب ارتكابك المعلوم عنده كان دائماً حزين القلب جداً ولم يكن يفرح ولا لحظة. وبلا ريب انت فقت في الفواحش على هيليوغابال. والبرهان على ذلك اولادك الكثيرو العدد والعدد الغير الشرعيين. فلوط افسد ببناته وهو سكران على غير علم منه. واما أنت ففي حالة الوعي افسدت لا بأبنة اخيك فقط بل باختك ايضاً وبابنتك عينها» هذا ما قاله المؤرخ الغربي ثيانوس تأنيباً للاب الاقدس ترجمناه بكل لطف مراعين ادب التعبير وهو شيء يسير من كثير ما اوردهُ المؤرخ عن هذا الاله الارضي (!!!)(١). وفي سنة ١٥٥٠ خلفه البابا يوليوس

(١) ملا ١٦: ٦: ٣ ـ ٥

الثالث الذي كان مكرساً حياته للملذات كاسلافه لا يفرق عنهم الا بلطف المعشر. وقد مات سنة ١٥٥٥ وخلفه مركلوس الثاني. قد ذكر المؤرخون ان هذا البابا كان يضرب يده على المائدة ويردد دائماً العبارة الآتية ويقول «اني لا اعلم كيف الذين يضبطون هذا المكان العالي مكان البابا يمكنهم ان يخلصوا» غير ان مدته لم تطل اكثر من ٢٢ يوماً فتوفي وخلفه لويس الرابع. وكان رجلاً صارماً وبارعاً في معرفة اللغات الشرقية والكتب المقدسة. وقد بذل جهده في اصلاح حالة الاكليرس ولكن رعاياه كانوا يبغضونه حتى انه لما سمعوا بموته سنة ١٥٥٩ اهانوا تمثاله(١). خلفه بيوس الرابع وقد كان رجلاً وديعاً ومحسناً وكريماً وسخياً ولكنه بعد تبوئه السدة الرومانية انقل الى عكس تلك الاطوار حتى بغضه الرومان لقساوته ومظالمه وان يكن ترك لهم آثارا حسنة* وفي سنة ١٥٦٦ توفي وخلفه بيوس الخامس المشهور بالقساوة كما تشهد اعماله في ديوان التفتش باحراق الهراطقة. ومن مآثره انه الغى بيع الغفرانات ورتب حالة الاكليرُس ترتيباً حسناً. وفي سنة ١٥٧٢ توفي وخلفه البابا غريغوريوس الثالث عشر وهو الذي امر بقبول الحساب الغربي. وكان رجلاً محباً للعلوم وانشأ لها اندية كثيرة يتعلم فيها أولاد الفقراء في كل أمة ولسان. وبعد وفاته خلفه البابا سيكستوس الخامس وكان ابن عائلة حقيرة يرعى في صغره خنازيره وقد تعلم وترقى في الدرجات الكنائسية حتى صار كردينالاً باسم مونتالتو كان صديقاً لغريغوريوس. فلما صار غريغوريوس بابا ترك كل عمل وعاش عيشة انفرادية مدعياً ثقل الامراض والشيخوخة عليه. وبعد وفاة البابا غريغوريوس انقسم الكرادلة الى خمسة احزاب اما مونتالتو فكان يتظاهر بعجز اكثر من عجزه الحقيقي فلا يمشي الا منحنياً متوكئاً على عصا كأنه لا يستطيع المشي. ولا يتكلم الا بصوت منخفض كأن موته قد دنا. فتقدم اليه بعضهم واعرض عليه منصب البابوية اما هو فاجاب بكل اتضاع انه لا يستحق هذا الشرف ولا في امكانه ادارة هذا المنصب وانه ربما لا يعيش زماناً اطول مما يقتضيه حل مجمع الكرادلة وان عاش وانتخب فلا يكون له من البابوية غير الاسم. فلما سمع الكرادلة هذه الاجوبة زادت رغبتهم في انتخابه حلاً للخلاف ومنعاً للاستبداد فانتخبوه في ٢٤ نيسان سنة ١٥٨٥. ولكن لما بلغوه بشرى الانتخاب (يا له من عجب) حالاً رمى العصا من يده وبدأ يرتل الترتيلة «ته ديوم» بصوت قوي ارعد الكنيسة التي كان فيها حتى أدهش الحاضرين. على انه كان رجلاً عادلاً وصارماً لا يعرف في الحق صديقاً

(١) دائرة المعارف جلد خامس صفحة ١٠٢

ولا قريباً. وقد جمع مالاً طائلاً بكل وسيلة سواء كان بضرب الضرائب أو ببيع الغفرانات حتى انه أحصى هنري الثالث ملك فرانسا مع القديسين ليأخذ مالاً. غير انه كان سخياً على اصلاح المدينة كسحب الماء واقامة الآثار وبناء القصور. وكان يحب العمال ورجال الفضل ويحب المطالعة ومع ذلك ترك عند وفاته اكثر من خمسة ملايين ذهب من النقود وتوفي خنقاً من أحد رهبان الفرنسيسكان سنة ١٥٩٠ وخلفه اربانوس السابع. وبعد ١٣ يوماً توفي وخلفه غريغوريوس ١٤ وبعد تسعة أشهر توفي. فخلفه اينوشنسيوس التاسع. وبعد شهرين توفي وخلفه اكليميس الثامن سنة ١٥٩٢. وقد حدد هذا البابا ان الامان الذي يعطى للهراطقة لا يمنع أمر من الامور المقدسة سهولة حله واخلافه لا العهود ولا الاتفاق ولا اليمين ولا شيء آخر البتة. وقد اجتهد في ان يرسخ هذا المبدأ في عقول كل اتباعه ايضاً(١).

القرن السابع عشر

في سنة ١٦٠٢ استعفى البطريرك القسطنطيني ماتيوس وفي أيامه تقرر ان يعيد للبابا فيلوثيا الاثينائية في ١٩ شباط. وهو الذي نقل مركز البطريركية الى الفنار وقد كان قبلاً ديراً للعذارى. وبعده رقي الكرسي ناوفيطوس مطران اثينا وقد اعتنى في تنظيم مالية البطريركية وتخليصها من الديون الباهظة. وفي سنة ١٦٠٣ توفي السلطان محمد الثالث وخلفه ابنه السلطان احمد. وفيها استعفى البطريرك نيوفيطوس وخلفه رافائيل الثاني. ولكنه بدسائس يواصف مطران سيرون عزل سنة ١٦٠٧ واستدعي البطريرك نيوفيطوس المعتزل. وبعد خمس سنوات عزل ونفي الى رودس بدعوى توزيعه أموال الكرسي على أولاد أخيه ومن ثم قام الاكليروس والشعب يطلبون كيرللس لوكاريس بطريرك الاسكندرية بطريركاً وأخذوا امراً ملوكياً بتسميته. وكان كيرللس ابن اخي البطريرك ملاتيوس بيغاس درس العلوم والفلسفة في اوربا وخلف عمه سنة ١٦٠٣ على الكرسي. فلما حضر الى القسطنطينية وجد بعضاً من المطارنة ضده فلم يمكث الا شهراً واحداً وقبل تسميته عاد الى مركزه الاول. فانتخب تيموثاوس الثاني وكان رجلاً وقوراً وتقياً وفي مدته عقد مجمع حضره البطاركة كيرللس الاسكندري وافتيموس(٢) الانطاكي وصفرونيوس الاورشليمي وفي سنة ١٦٢١ توفي مسموماً وخلفه

(١) ملا ١٦: ١٥: ٥ ـ ٩ (٢) هذا التاريخ فيه نظر البطريرك الانطاكي افتيموس بعد يواكيم

كيرللس لوكاريس[1]. وكان على سرير آل عثمان السلطان عثمان من سنة ١٦١٨. وفي سنة ١٦٢٢ توفي فخلفه السلطان مصطفى. وفي ايامه عزل البطريرك كيرللس بدسائس الجزويت الذين اخذوا من هذا العهد يحاربون الكنيسة الارثوذكسية بكل قواهم حرباً عواناً وقد ساعدهم على عزله غريغوريوس مطران اماسيا الذي كان على رأيهم. وفي مدة البطريرك كيرللس هذه تقرر التعييد رسمياً للقديس جراسيموس الجديد الذي من كيفالينيا في ٢١ تشرين الاول وصدق على هذا القرار البطاركة يواكيم الانطاكي المعروف بابن زيادة من قرية السيسانية في بلاد الحصن وثاوفانيس الاورشليمي وبعد عزل كيرللس خطف الكرسي خطفاً غريغوريوس المذكور بمساعدة الجزويت وكان القوم يلقبونه بالاعور لأنه فقد احدى عينيه وبعد ثلاثة اشهر عزل ونفي الى رودس وخلفه انثيموس الثاني مطران ادرنه. وبعد ٥٠ يوماً استعفى طوعاً وارجع كيرلس اللوكاري في ايلول سنة ١٦٢٣. وكان على عرش آل عثمان السلطان مراد الرابع واذ كان البطريرك كيرلس مكروهاً من الجزويت لأنه كان يقاوم تعاليمهم ومبادئهم كانوا دائماً يضطهدونه قال المؤرخ ملاتيوس «وكأن الجزويت لم يكتفوا بدسائسهم التي بها اقلقوا ملوك الغرب وامراءه وكنائسه وازعجوهم بل ارادوا بسوء طويتهم وسوء تصرفهم ان يخبطوا الكنيسة الشرقية. فتقدموا الى باب الدولة العثمانية الملوكاني وطعنوا في البطريرك كيرلس طعناً مراً ووشوا به وشايات كادت ترميه عن الكرسي البطريركي. ولكن لما افتضحت اخيراً حيلة لجزويت وغشهم بقي كيرلس على الكرسي واما هم فطردوا من القسطنطينية طرداً قبيحاً. واذا لم يستطيعوا ان يؤذوه بشيء اختلقوا ضده وشاية اذ نادوا به انه على رأي كالوينوس (البروتستاني). فلما سمع الروسيون هذا الخبر أرسلوا سنة ١٦٣٠ الى البطريرك الاورشليمي ثاوفانس الذي كان وقتئذٍ في ياش يسألونه عن مقدار صحة كلام الجزويت. فكتب اليهم ثاوفاني ١٦ فصلاً اوضح بها ان كيرلس الحكيم لا تصدق عليه بشيء هذه الوشاية ومثله الكنيسة الشرقية كلها.» ثم انهم لكي يلقوا العداوة بينه وبين الحكومات البروتستانتية التي كانت تساعده ضد اللاتين طبعوا كتاباً في مدينة جنوا مملوءاً من الآراء البروتستانتية فيه ١٨ فصلاً واربع اسئلة ومعنوناً باسم كيرلس لوكاري بصفة اعتراف ايمان مؤلف منه. فكيرلس لم ير من الحكمة ان يدحض ذاك الكتاب خفظاً للعلاقات السلامية مع المراكز البروتستانتية. وفي سنة ١٦٦٢ عزل بدسائس كيرلس الثاني مطران فيريا الذي خلفه وكان هذا الرجل عالماً ولكن عدواً للوكاريس وقد درس في مدرسة الجزويت في الغلطه. وبعد خمسة

(١) جدعون ٥٤١ ـ ٥٥٠ وملا ١٧: ١: ٣ ـ ٦

ايام لارتقائه الكرسي عزل ورجع البطريرك لوكاريس وبعد ستة اشهر عمل على عزله اثناسيوس مطران ثسالونيك بواسطة بعض اصدقائه من اللاتين وصار بطريركاً وكان رجلاً بعرف اليونانية واللاتينية جيداً وواعظاً وفيلسوفاً وشاعراً ولغوياً ولكنه بعد اربعين يوماً عزل ورجع البطريرك لوكاريس سنة ١٦٣٣ وقد ساعد البطريرك الاورشليمي مساعدة تذكر ضد اللاتين الذين نصبوا اشراكهم لرعيته. واسس مطبعة في العاصمة طبعت بها كتب كثيرة تدحض الآراء البابوية. ولكن البابويين لما رأوا سعوا بكل قواهم حتى استصدروا امراً برميها في البحر فرميت وفي سنة ١٦٣٥ نفي كيرلس الى رودس ورجع اثناسيوس وبعد سنة عزل بسبب آرائه البابوية ورجع كيرلس الثاني. وبعد ١٦ شهراً نفي هذا ايضاً الى رودس وخلفه نيوفيطوس الثاني مطران هرقلية سابقاً في حزيران سنة ١٦٣٦ وكان رجلاً بارا وصالحاً وقد ارجع كيرلس لوكاريس من منفاه وعقد مجمعاً حرم الكتاب الذي ظهر باسم كيرلس لوكاريس ومؤلفه ايضاً ايا كان. ومن بعد عشرة اشهر استعفى طوع ارادته ورجع لوكاريس مرة خامسة وبعد سنة ونيف عزل ورجع كيرلس الثاني مرة ثالثة فعقد مجمعاً ثبت حرم الكتاب السابق ذكره وحرم كيرلس ايضاً ودفع ٢٠ كيساً الى الحاكم وقتئذٍ ليبدد ذكره فخنقه ورماه في البحر. ولا ريب في أن هذا الدرس تعلمه في مدرسة الجزويت. ولكن العدل الالهي انتقم منه لأنه بسعي اصدقاء لوكاريس نفي هو ايضاً الى قرطاجنه واميت خنقاً. واذ كان الجزويت في جهات روسيا وبولونيا يعيرون الارثوذكس بان بطريركهم تمذهب بالبروتستانية الف بطرس موجيلا متروبوليت كيف اعتراف الايمان الارثوذكسي المشهور باسمه. ثم ارتقى الكرسي البطريركي برثينيوس الاول مطران ادرنه في ٧ تموز سنة ١٦٤٠ وقد استحضر عظام البطريرك لوكاريس ودفنها باكرام. وفي هذه السنة توفي السلطان مراد وخلفه السلطان ابراهيم الاول. وبعد خمس سنوات ونيف نفي برثينيوس الشيخ وخلفه برثينيوس الثاني الملقب بالنزق لأنه كان يضجر من طول الفروض الكنائسية قطع ونفي بعد سنتين ونيف. وخلفه يوانيكيوس الثاني وقبل اتمام السنة هرب واختفى فرجع برثينيوس. وبعد سنتين ونصف وشي به الجزويت انه مجار للروس فعزل ونفي ولكنه في الطريق خنق ورمي في البحر[1]. وكان على عرش القسطنطينية السلطان محمد الرابع من سنة ١٦٤٨. وبعد برثينيوس رجع يوانيكيوس سنة ١٦٥٠. وبعد سنة هرب خوفاً من دسائس الارديا. وخلفه كيرلس الثالث

(١) ملا ١٧: ٦: ٥ ـ ١١ واثناسيوس كومنينوس. وتاريخ القسطنطينية جزء ٢: ٥٣٥

الاجرودي ٢٠ يوماً. ثم اثناسيوس الثالث مرة ثالثة ١٥ يوماً فقط لان المجمع لم يقبله. ومن ثم انتخب بابيسيوس. وبعد سنة ونيف هرب خوفاً من الظروف. فرجع يوانيكيوس الثاني ثالث مرة ولضيق ذات يده عن دفع المرتب سجن بعد سنة ١٥ يوماً. ثم اطلق واستعفى فرجع كيرلس الثالث وبعد ١٥ يوماً استعفى للسبب عينه. ورجع بابيسيوس ١١ شهراً وعزل. وانتخب بعده برثينيوس الثالث وبعد ثمانية اشهر وشى به الجزويت ان بينه وبين الروس مراسلات فصدر الامر بشنقه فشنق يوم سبت لعازر ٢٤ آذار سنة ١٦٥٧ وبعد ثلاثة ايام رمي في البحر والكنيسة تعيد له هذا اليوم سنوياً. ومن ذلك الوقت الغيت عادة مقابلة البطريرك للسلطان حين ارتقائه لأخذ الوسامات البطريركية وعوض عنها بمقابلة الوزير. ثم ارتقى الكرسي غبرئيل الثاني وكان رجلاً اميياً ولكن المطارنة لم يقبلوه فعزل بعد ١٢ يوماً. وانتخب برثينيوس الرابع وكانت مدته مدة سلام وراحة ٣ سنين و٧ اشهر. وفي سنة ١٦٦٠ استعفى طوع ارادته وخلفه ديونيسيوس الثالث. وبعد خمس سنوات ترك الكرسي فرجع اليه برثينيوس الرابع وبعد ثلاث سنوات نفي. ورقي الكرسي اكليميس مطران ايقونيه ٤ ايام ولكن المطارنة لم يقبلوه فعزل. وبعد اربعة اشهر تقريباً انتخب ميثوذيوس الثالث وبعد سنتين استعفى ورجع برثينيوس الرابع ثالث مرة. وفي هذه المرة حصل على فتوى بعدم جواز عقد الزواج بين المسيحيين والمسلمين. وبعد سنة عزل وخلفه ديونيسيوس الرابع سنة ١٦٧٢ وبعد سنة عزل. ورجع ديونيسيوس الرابع وبعد ثلاث سنوات عزل. وخلفه اثناسيوس الرابع الذي اضطر ان يهرب بعد ١٢ يوماً لان المطارنة لم يقبلوه. فصار يعقوب مطران لارسا وبعد ثلاث سنوات استعفى فرجع ديونيسيوس الرابع ثالث مرة سنة ١٦٨٢ وبعد سنتين هرب. ورجع برثينسيوس الرابع رابع مرة وبعد شهرين عزل. ورجع يعقوب ثالث مرة سنة ١٦٨٦ (ايام الزربا) وبعد ٤ سنين استعفى. فانتخب كالينيكوس الثاني وعزل بدسائس ناوفيطوس الرابع الذي خلفه. ولكن بعد ٣ اشهر عزله كالينيكوس ورجع وسنة ١٦٩٣ عزل. ورجع ديونيسيوس الرابع خامس مرة وبعد ٧ أشهر عزل. ورجع كالينيكوس الثاني ثالث مرة وبقي على الكرسي ثماني سنوات. وهو اسس في الفنار المدرسة الكبرى (مدرسة الامة) وساس الرعية سياسة حسنة بخوف الله وتوفي سنة ١٧٠٢.(١)

(١) ملاتيوس ١٧: ١٠ : ٣ ـ ١٢ تاريخ القسطنطينة ٢: ٥٣٦ ـ ٥٣٩ وكومينوس

وفي الغرب كان البابا اكليميس الثامن سنة سنة ١٥٩٢ كما ذكرنا وقد عيد اليوبيل سنة ١٦٠٠ ومن اعماله انه منع استعمال ترجمة الكتاب المقدس اللاتينية التي كان البابا سيكستوس الخامس صدق عليها واصدر ترجمة غيرها وأمر باستعمالها وكتب عليها اسم البابا سيكستوس. وفي ايامه عقد الجزويت في رومية جمعية قرروا فيها ان لا يكون بالقول بان البابا اكليميس خليفة حقيقي لبطرس الرسول عقيدة من عقائد الايمان. وفي ايامه توفي الفونس دي استا ذوق فيرارا بلا وريث وبحسب شريعة البلاد وجب ان تنتقل السلطة الى البابا. جاء البابا الى فيرارا بذاته ليستلمها واخذ معه ٢٧ كردينالاً وبعض الاساقفة. وعند دخوله امر ان تتقدمه الاسرار الالهية ضمن علبة ثمينة مغلقة ومحمولة بيد اصطناعية على حصان ملوكي وحولها جوق من الاساقفة حاملين في ايديهم شموعاً وانواراً مزينة. وفي سنة ١٦٠٥ خلفه البابا لاون الحادي عشر. وبعد شهر ونصف خلفه بولس الخامس وهو الذي صار كردينالاً في سن الثانية عشرة من عمره. وقد قام الخلاف بينه وبين حكام البندقية بسبب تطرف بعض رجاله عندهم في القبائح ومقاصتهم اياهم وتشديدهم في المراقبة عليهم. واذ لم يستطع البابا شيئاً ضد البندقيين حرمهم. اما هم فنبذوا حرمه وطردوا الجزويت الذين اوقدوا جذوة الشر وقام الفريقان لمحاربة بعضهم بعضاً ولكن ملك فرانسا تلافى الامر واصلح بينهما على شرط ان يخرج الكبوشيون من المدينة ولا يرجع الجزويت اليها(١). وقد اقام هذا البابا في رومية معلمين للغات العبرانية واليونانية واللاتينية والعربية. وكان رجاله يسمونه مساوياً لله وسيداً مطلقاً على الامة المسيحية لا يقاوم ومحافظاً شديداً على القدرة البابوية القادرة على كل شيء(٢). وكانوا يكتبون له الآية الواردة في نبوة اشعيا وهي اويكون الملوك لك مربين والملكات مرضعات وعلى وجوههم الى الارض يسجدون لك ويلحسون تراب قدميك(٣). اما هو فكان يرقي الذين كانوا يعظمونه بمثل هذه الآيات. وقد احرق برثولوماوس البرجي لأنه قال بان البابا ابن غير شرعي له واخيراً توفي سنة ١٦٢١ وخلفه غريغوريوس ال ٢٥ وهو الذي نظم في رومية مجمع انتشار الايمان المعروف بالبروغاندا وهو مؤلف من ١٣ كردينالاً وكاهنين وراهب وكاتب. ورتب له واردات متسعة. وفي سنة ١٦٢٣ خلفه اربانوس الثامن وهو الذي سجن الفيلسوف غاليلاوس خمس سنين لأنه قال سنة ١٦٣٢ بأن الارض تدور حول

(١) ملا ١٧: ٣ (٣) رسالة البابا لاون ١٣ الحالي صفحة ٢ طبعة الجزويت سنة ١٨٩٤. وتاريخ الانشقاق جزء ٢: ٤٩ (٤) ٤٩: ٢٣

الشمس ولم يطلقه الابعد ان انكر قوله. وكان الجزويت في هذه الايام اقنعوا اوسياوس ملك الحبش ان ينضم الى كنيسة البابا هو ومملكته. فبطلبه ارسل البابا البطريرك الفونس الاسباني سنة ١٦٢٦ فخلف الملك وبكره واخوته واكليرسه ورهبانه وكل عظمائه يمين الخضوع له ومنع شرطونية تصدر من البطريرك القبطي الاسكندري. ولكن المملكة قامت قيامتها على اثر هذا التغيير وأهرقت دماء كثيرة حتى اضطر الملك ان يباشر ارجاع «العقيدة الاسكندرية» كما يقولون. واذ توفي سنة ١٦٣٢ خلفه ابنه وطرد البطريرك والجزويت معاً من مملكته وألقى تحت العذاب كل الذين كانوا يقاومون الايمان القديم وشنقهم. وقد شنق ايضاً برنارد وكيل البطريرك الفونس ورجم اثنين من الكبوشيين وقطع رؤوس ثلاثة منهم بالبلطة لانهم لم يمتثلوا اوامره. فكانت كل المصاريف والدماء التي هدرت غير نافعة لأولئك المبشرين[1]. وبينما كانت هذه الدماء تهرق في بلاد الحبش على هذا الوجه كانت دماء الشعوب الغربية تجري أنهاراً على وجه الأرض من فظائع ديوان التفتيش وعماله ضد «الهراطقة» كالمدعوين مستنيرين ومصلحين وبرتستانت الخ[2]. قال احد المؤرخين انه في مدة ٣٠ سنة من القرن الماضي (١٥٥٠ ــ ١٥٨٠) قتل في اسبانيا وفرانسا وبلاد الانكليز وبلجيكا اكثر من تسعمائة الف شخص منهم ٩٠ أميراً و٤٨ كونتاً و ٢٢٥ باروناً و ١٤٧٥١٨ شريفاً. وفي هذا القرن كانت الاضطهادت اشد وأفظع من فرانسا وغيرها. ففي مقاطعة ليون هاج الاضطهاد بامر الحبر الروماني ضد الفالديين (او الوالد نسبين) سكان اودية بيدمونت حتى كادوا يتلاشون. فكانت العساكر البابوية تقطع نهود النساء وتشويها وتأكلها. وكانت تخرج الأجنة من بطون امهاتها وتضرب برؤوسها الصخرة وتستخرج النخاع وتشويه وتأكله. وكثيرون كانت تشكهم بالسيخ أحياء وتشويهم حتى ان صموئيل مورلاند السفير الانكليزي لما رأى هذه الفظائع قال لأمير تلك البلاد «بالحقيقة لو رأى القياصرة المردة القدماء هذه العذابات لخجلوا لأنهم لم يستطيعوا ان يختلقوا عذابات مثلها ضد المسيحيين». ومثل ذلك حصل في ايرلاندا أيضاً حيث اراد البابويون ان يمحوا أثر الهراطقة (البروتستانت) وعقدوا مؤامرة برئاسة معتمد البابا وفي يوم واحد ٢٣ تشرين الاول سنة ١٦٤١ سقط اربعون الف قتيل في دوبلين. قال المؤرخ لاراي الانكليزي في هذه المذبحة «وقد استمر القتل مدة شهرين بتوحش

(١) كومنينوس ١٤٧ ــ ١٤٨

(٢) المعناعن ديوان التفتيش وتعذيباته في الجزء ٢ صفحة ٢٥٧ ــ ٢٥٩

لا مثيل له. فالذين ذبحوا ماتوا بحد السيف كان عذابهم قليلاً. واما الباقون فبعض منهم قلعوا أعينهم ثم عذبوهم اياماً كثيرة واماتوهم موتاً اليماً ضمن العذابات. وبعضهم خنقوهم غرقاً. وبعضهم دفعوهم الى اللهيب وكانوا يحملونهم القش الذي يحرقونهم به. وبعضهم اماتوهم بالبرد والجوع والعطش. وبعضهم دفنوهم احياء. وقد علقوا الامهات على المشنقة وعلقوا البنات من رقاب امهاتهن ... ولم يشفقوا على الحبالى والا على ثمار بطونهن ... حتى ان واحدة ولدت تحت يد الجلاد فرموا الطفل الى كلب وخنزير ليأكلاه امامها ... ولم يكتفوا بذلك بل اجبروا الآباء والامهات ان يقتلوا اولادهم بايديهم واجبروا الاولاد ان يقتلوا آباءهم وامهاتهم والنساء رجالها والرجال نساءهم حتى ان مائتي الف نسمة قتلت في تلك المذابح في ايرلاندا». ومع ذلك ارسل البابا اربانوس رسالة غفران الى كل الذين اشتركوا في تلك المذابح الرجسة تاريخها ٢٥ آذار سنة ١٦٤٣. وكان قد ارسل اليهم غيرها في ٤ كانون الاول سنة ١٦٤٢ يعدهم بالغفران ويحرضهم على هذا الهيجان. وقد اغنى البابا اربانوس جمعية البروباغانده بمداخيل كثيرة حتى صار غناها يفوق حد التصور[1]. وفي سنة ١٦٤٥ خلفه البابا اينوشنسيوس العاشر وقد قرظه احدهم تقريظاً كفرياً فشبهه بابن الله ولم يكتف بل فصله عليه. وقد سر البابا من هذا التقريظ ومدح صاحبه. اما سيرته فكانت ذميمة على شهادة مؤلفي الغرب لأنه كان مفسوداً بامرأة اخيه اوليمبيا مالداكيني التي بواسطتها حصل على مركزه وكان مسلماً نفسه وكل أمور الجمهور السياسية والكنائسية الى ارادتها وسلطتها. قال المورخون عند الكلام عن البابا اربانوس السابق ذكره «ومع هذا نرى اربانوس حليماً صالحاً اذا قابلناه بخليفته اينوشنسيوس العاشر[2]. ثم قام البابا اسكندر السابع سنة ١٦٥٥ وكان من العلماء في الشريعة والديانة وقد أصدر أمراً بوجوب حفظ اوامر اسلافه بالاعتقاد بالحبل بلا دنس. ثم خلفه اكليميس التاسع سنة ١٦٦٧ وكان رجلاً عالماً. وفي سنة ١٦٧٠ خلفه اكليميس العاشر. وفي سنة ١٦٦٧ خلفه اينوشنسيوس الحادي عشر وكان ممدوح السيرة ولكنه كان ماهراً في قسمة الملوك والامراء بعضهم على بعض ليفعل ما يريد. وسنة ١٦٨٩ خلفه الاسكندر الثامن البندقي الاصل وكانت بينه وبين البندقيين حروب هائلة. وبعد ١٥ شهراً توفي فخلفه اينوشنسيوس الثاني عشر سنة ١٦٩١. وكان صالحاً

(١) ملا ١٧: ٩: ٣ ــ ١٠ وموسهيم ٤: ١٧: ٢: ٢: ٢: ٥

(٢) موسهيم ١٧: ٢: ١: ١: ١

ونبيلاً. وقد كتب رسالة الى ملك الجيش حرضه بها على اعتناق المذهب البابوي فلم يفلح. وكذلك ارسل الى الصين مبشرين فلم ينجح. وقد توفي سنة ١٧٠٠.

القرن الثامن عشر

في أوائل القرن الثامن عشر قام على كرسي البطريركية في القسطنطينية البطريرك غبرئيل الثالث سنة ١٧٠٢ بعد وفاة سلفه كالينيكوس الثاني. وكان رجلاً عاقلاً ووديعاً ومحباً للسلام وفي مدته تقرر رسمياً التعييد للقديس ديونيسيوس الجديد رئيس اساقفة ايجينا الذي لم تزل جثته في جزيرة زاكنثوس وطنه تفيض العجائب. وفي سنة ١٧٠٧ توفي وخلفه كبريانوس مطران قيصرية وكان رجلاً صارماً على الاكليرس فأبغضوه ووشوا به انه عديم الادارة والعلم مدمن للخمر وحب المال وعزلوه سنة ١٧١٠. فخلفه اثناسيوس الخامس وكان رجلاً حكيماً عالماً باللغات اللاتينية والعربية ومشهوراً بفن الموسيقى ولأنه كان صارماً أيضاً وشي به الى الوزير انه حب للمال ومحدث في أمور الايمان فعزله. وخلفه كيرللس الرابع وكان عالماً وتقياً وبعد سنة ونصف عزل فرجع كبريانوس فطلب منه زيادة الفردة السنوية واذ لم يرض عزل. وخلفه قزما الثالث. ثم خلفه ارميا الثالث سنة ١٧١٥ وكان رجلاً ماهراً في الادارة لطيف الاخلاق وأقام على الكرسي ١٢ سنة.

وفي الغرب قام البابا اكليميس الحادي عشر وكان رجلاً مهماً حكيماً عالماً وأباً للفقراء ومساعداً للرجال النافعين ولكنه كان ذا غيرة على سطوة الكرسي الروماني اكثر مما على السلام والراحة. وفي سنة ١٧٢١ توفي فخلفه البابا اينوشنسيوس الثالث عشر وكان من عائلة شريفة.

وكانت المصائب في هذه المدة تنتاب الكرسي البطريركي الانطاكي فانه من بعد البطريرك يواكيم ابن زياده قام ذوروثاوس ابن الاحمر الدمشقي. ومن بعد ٨ سنوات توفي في حاصبيا فخلفه اثناسيوس ابن الدباس مطران حوران وفي أيامه حصلت قلاقل كثيرة لا محل لذكرها الآن. فتكدر منه الدمشقيون الذين كان الخلاف قائماً بينه وبينهم وانتخبوا اغناتيوس عطيه مطران صيدا سنة ١٦١٤ وأرسلوه الى القسطنطينية ليشرطن. وفي هذه الاثناء توفي اثناسيوس في طرابلوس الشام في السنة الثامنة لبطريركيته ودفن في دير كفتين فشرطن بعده اخوه كيرللس مطران حوران في قرية اميون يوم احد السامرية وهو يوم شرطونية اغناتيوس في القسطنطينية من البطريرك

تيموثاوس. ثم قام الشقاق بين البطريركين مدة ٧ سنوات صنع كيرللس في خلالها قلاقل منكرة وثقل الكرسي بديون باهظة. اخيراً اجتمع المطارنة عند الامير فخر الدين ابن معن وعقدوا مجمعاً في قرية الرأس ببلاد بعلبك حكموا منه على كيرللس الدباس فنفاه الامير الى مغارة الراهب المشهورة بقرب قرية الهرمل من بلاد الرأس وفيها كان قبره. وثبت الكرسي لاغناتيوس(١). وفي السنة الخامسة عشرة لبطريركيته بينما كان راجعاً من صيدا الى بيروت قتل في الطريق عند نهر الدامور ودفن في قرية الشويفات فانتخب بعده بالاجماع البطريرك افتيموس كرمه الحموي مطران حلب الشهير بفضله وعلمه. وبعد عشرة اشهر توفي وخلفه افتيموس الرابع الساقزي تليمذه. قال بعضهم ان هذا البطريك استدعى الرهبان البابويين الى دمشق وفتح لهم مدرسة ولكن كومنينوس وملاتيوس يقولان ان الذي فعل ذلك كان البطريرك نيوفيطوس الساقزي الذي سيأتي ذكره(٢). وبعد ١٣ سنة توفي وخلفه البطريرك مكاريوس الحلبي ابن الخوري بولس بن الخوري عبد المسيح البروطوس المشهور ببيت الزعيمي وذلك سنة ١٦٤٨ في ١٢ تشرين الثاني. وكان هذا البطريرك كاهناً متزوجاً توفيت زوجته وتركت له ولداً اسمه بولس. ثم ترهب وصار مطراناً على حلب سنة ١٦٣٥ وفي نسة ١٦٤٢ يوم احد السامرية سام ابنه بولس اناغنسطاً في كنيسة دمشق اذ كان عائداً من زيارة الاماكن المقدسة. وفي سنة ١٦٤٤ يوم احد الابن الشاطر زوجه بتحريض البطريرك افتيموس وله من العمر ١٧ سنة. وفي ٢١ تشرين الثاني من سنة ارتقائه الكرسي البطريركي سامه شماساً فارشيديا كوناً. وهو الذي رافقه في سفره الى بلاد روسيا والكرج وكتب رحلته. وقد رعى البطريرك مكاريوس شعب الله بكل صلاح وتقوى ونشاط وانكار ذات مدة ٣٩ سنة(١) وتوفي. فانتخب بعده الشماس (او الخوري) قسطنطين ابن ابنة الخوري بولس ودعي كيرللس الثالث. وكان حديث السن ولكن لا بسن ١٦ او ٢٠ سنة فقط كما قال بعضهم بل ربما كان في سن التاسعة والعشرين كما قال آخرون ان لم يكن اكثر. وكان هذا البطريرك حدثاً في السن شيخاً في العقل وارثاً الفضل والفضيلة عن أبيه وجده. ولكن بعض محبي القلاقل من أهالي دمشق لم يرق لهم انتخابه فارسلوا ثاوفيطوس الساقزي مطران حماه(٣) الى القسطنطينية مصحوباً بكتابات منهم وبمقتضاها انتدب هناك بطريركاً. وبرجوعه اصطحب معه رهباناً بابويين من وطنه

(١) كتاب رحلة مكاريوس بطريك انطاكية (٢) ملا ١٨: ١٠: ١٥ كومينيوس صفحة ٣١٣

(٣) في موضوع المدة خلاف لا نطيلب في تفصيله (٤) كومنيوس صفحة وملاتيوس ١٨: ١٠: ١٥ وكلاهما يقولان انه كان مطران حمص

ساقز وعينهم معلمين في دمشق كما ذكرنا. وبعد منازعات كثيرة بين البطريركين اخذ نيوفيطوس ابرشية اللاذقية وبقي الكرسي لكيرلس بعد تعهده بايفاء كل ديونه. وبعد اربع سنوات توفي نيوفيطوس ودفن في اللاذقية في كنيسة القديس نيقولاوس امام هيكل مار موسى الحبشي ولكن السلام رجع وتعكر بقيام البطريرك اثناسيوس الذي كان في دير القديس ساباً. فهذا لكي يفوز على كيرلس في المنازعات ربط صداقة مع رهبان البابا مصدقاً أوعادهم بالمساعدة له في العاصمة بواسطة سفراء الدول فكان يتساهل معهم في كثير من الامور غير مبال بالاضرار التي تنجم عن تلك الصدق والتساهل. اخيراً اتفق البطريركان على ان يأخذ اثناسيوس ابرشية حلب ويبقى الكرسي لكيرلس ولكن يظهر ان البطريرك كيرلس ايضاً لم تكن مزاياه الفاضلة محرومة من شائبة الطمع ان صدق ما قاله المؤرخ كومنينوس. وملخصه: ان احد شمامسة كيرلس سرق من صندوقه صرة فيها الف ذهب. فحرم البطريرك السارق. فندم الشماس وراجع الصرة بواسطة كاهن كان في السر موافقاً لرهبان البابا. فاتفق الكاهن مع الرهبان ليقدموا المال الى البطريرك بصفة هدية منهم. فقدموا له اولاً ٢٥٠ ذهباً بصفة وقفية واحد من شعبهم فقبلها واعطاهم رخصة ان يعلموا الشعب في الكنيسة على صلوات المساء. فأخذوا يبذرون آراءهم في الكنيسة وفي البيوت وبعد بضعة اشهر قدموا له ٢٥٠ غيرها فأخذها بشكر وزاد في اكرامهم. وقد اخبره عنهم بعض المسيحيين انهم يعلمون تعاليم غير صحيحة فلم يصغ اليهم. ثم قدموا له ٥٠٠ ايضاً من قبل البابا (والبابا لا يعلم شيئاً) وطلبوا منه وصلاً وهدية له فأرسل اليه هدية من الفرفور الصيني قيمتها ٦٠٠ غرشاً مع مخصوص اسمه سيرافيم شاهيات وشاع في رومة ان بطريرك انطاكية صار بابوياً. وعند رجوع الرسول ارسل البابا أيضاً هدية الى البطريرك افلونية وعكازاً قيمتها ٢٥ غرشاً ومسابح فرنسيسكانية. وكان لسيرافيم المذكور ابن اخت اسمه افثيميوس الصيفي معروف عند حاكم صيدا. وبسطوته شرطن مطراناً على عكا فحرمه خريسنثوس بطريرك اورشليم لأنه صار بلا اذنه وارسل الحرم الى البطريرك كيرلس رئيسه. وكان حاكم صيدا قد نقل حاكماً الى دمشق. فكيرلس لم يرض ان يشهر الحرم اكراماً لسيرافيم. ولكن لما رجع سيرافيم من رومية بتلك الهدية الحقيرة قرا البطريرك حرم افتيميوس ومن ثم غضب افتيميوس واخذ يشهر الكتلكة ويحارب الارثوذكسية بمساعدة الغربيين. ومن هذه النقطة اخذت تمتد وتتقوى مبادئ الكلتلكة التي يبدأ تاريخها في هذا العصر اعني سنة ١٧٢٣.

هذا ما رواه كومنينوس وربما اصاب في بعضه واخطأ في الباقي. لأن افتيميوس

الصيفي المذكور معروف بانه كان مطراناً على صيدا لا على عكا وان البابا ارسل هدية وافرة ولكن افتيميوس اختلسها بالاتفاق مع سيرافيم فحرمه البطريرك ومن ثم اخذ افتيميوس ينشر الكتلكة في سوريا وقد كان مؤسساً عليها من صغره في مدراس الرهبان. وهذه الرواية اقرب الى التصديق وهي التي وصلت الينا من الذين كتبوا ونقلوا من السوريين . على انها كيفما كانت لا تشف سوى عن سبب ظاهري لقيام الكتلكة في سوريا. أما السبب الحقيقي فلم يكن الافلونية والا العكاز والا القيمة الحقيرة بل دخول رهبان البابا الى سوريا واختلاطهم بشعوبها البسيطة القلب وتعليمهم اياهم التعاليم الغربية واباحة ما لا تبيحه كنيستهم وخصوصاً سوء ادارة رؤساء الكرسي البطريركي الغرباء عن البلاد والعادت من جهة وتفنن الرهبان في مسايرة الشعب وخدمته من اخرى.

نسأله تعالى ان يجمع المتفرقات ويخزي باغض الخيرات انه على كل شيء قدير.